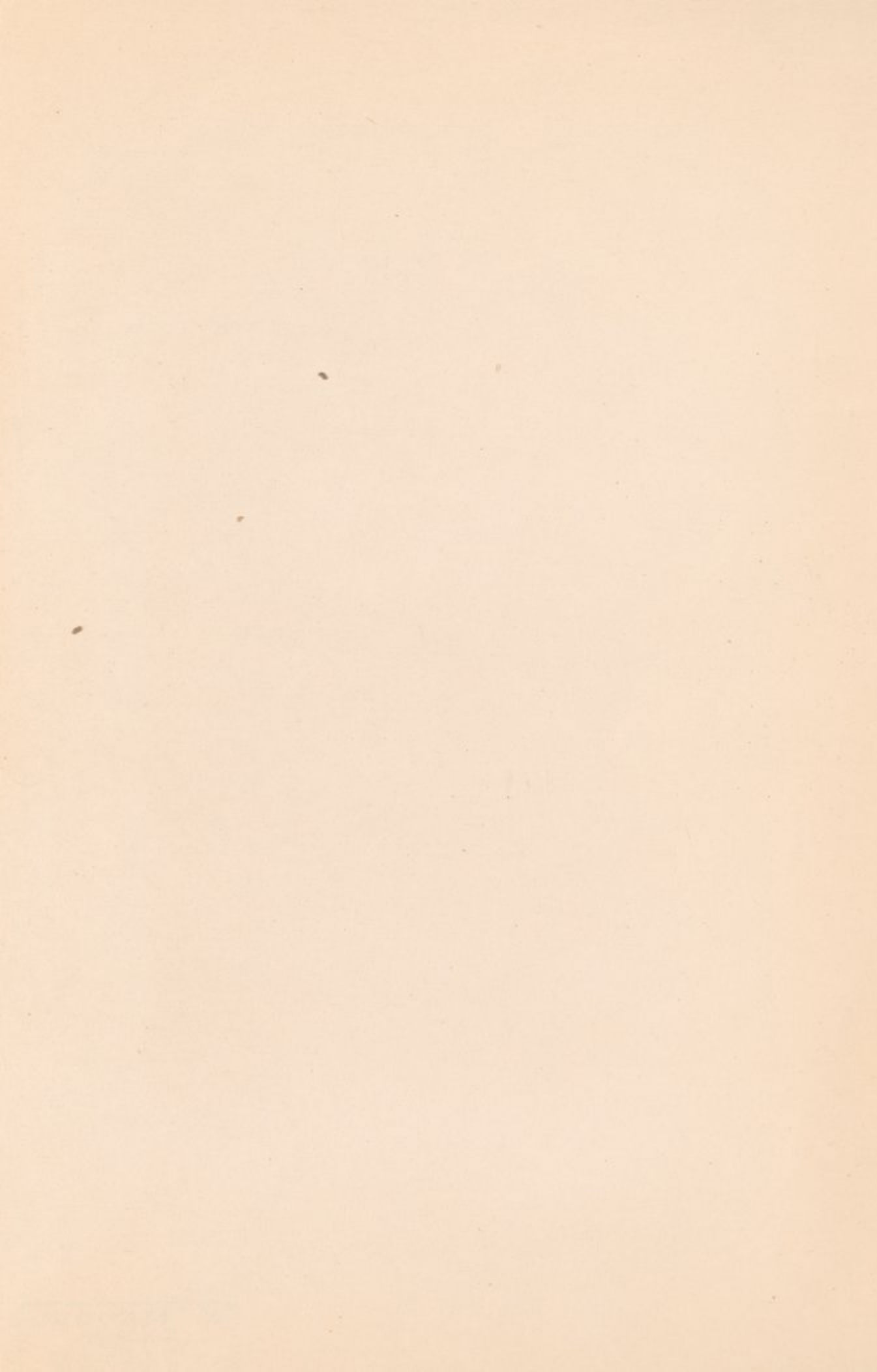


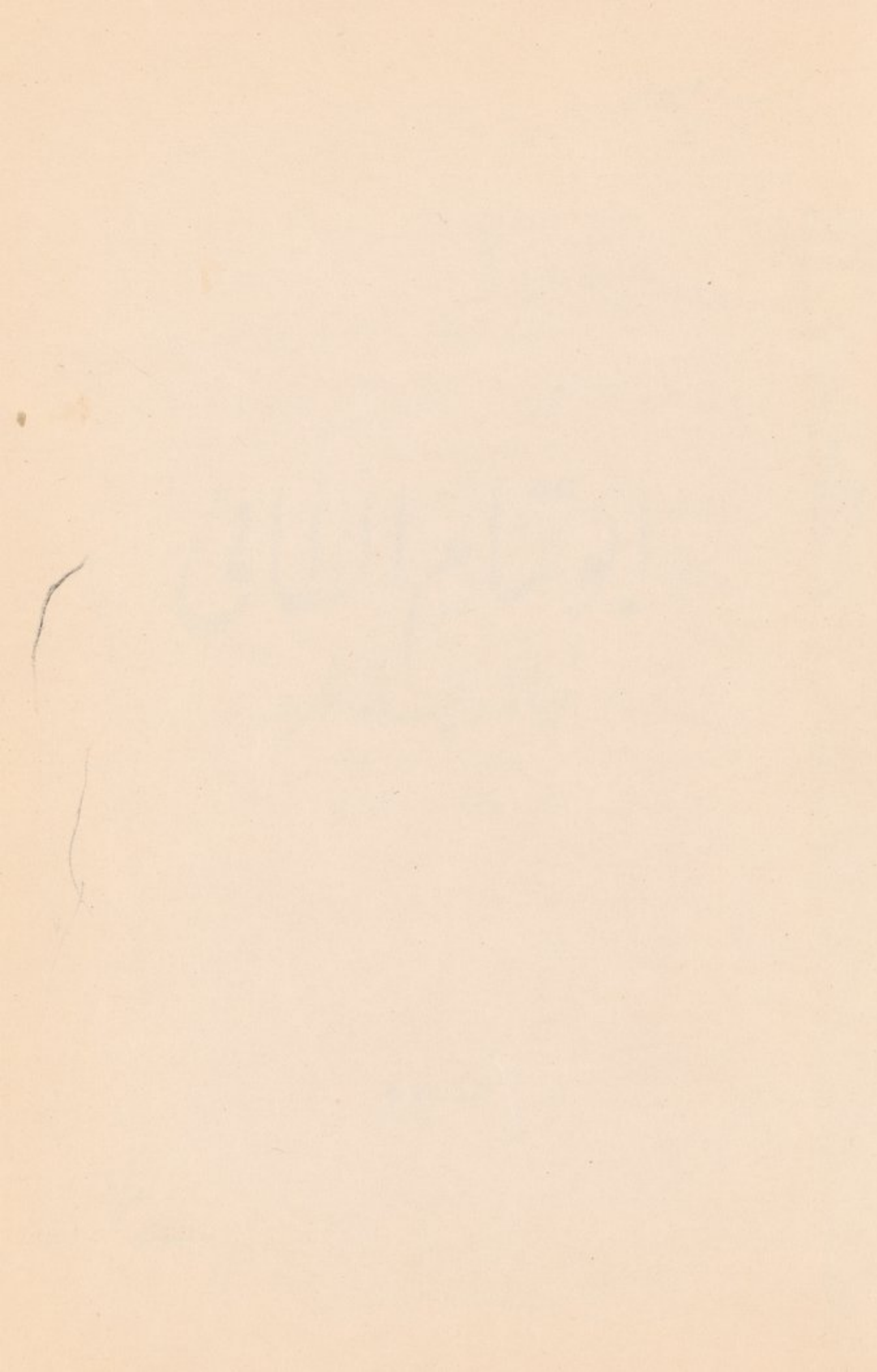
AMERICAN UNIVERSITY
LIBRARY
OF BEIRUT

N. MAKHOUL
BINDERY

16 SEP 1972

Tel. 260458





نجيب محمد البهبيتي

892.71
A158YhiA

أبو تمام الطائي

حياته وحياة شعره

68567

الطائفة
مطبعة دار الكتب المصرية

١٩٤٥

إلى اللذين ربّاني على الإيمان بالحق، والصراحة فيه، وعلّمني
أن السعادة ليست في جاه يُغْتَصَب، ولا مال يُنْتَهَب، ولا علم يُنْتَحَل؛
وإنما هي في طلب الحق، ونفس راضية، وضمير نقي، وقلب طهور:
إلى أمي وأبي،
نجيب محمد البهيتي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هذا بحث قد حبسته عن الناس - تسع سنوات - مؤامرة قبيحة ؛ وأنا غير آسف لهذا التأخير ، وإن لم يأت غنى اختياراً . فلو قد قدر له أن يظهر يومئذ لكان ذلك مصانعة من الزمان لصاحبه ، أن يأذن لكتاب له بالظهور في وقت لم يكن يظهر فيه كتاب لشاب ، إلا أن يدين بالتبعية المطلقة لصاحب حول أو طول . وهذا الكتاب غريب عن ذلك المعدن ، برىء من ذلك المركب ، لأنه ينفخ في غير هذا البوق ، ولا يتصم بالتبعية ، ولا يحترم إلا العقل ، ولا يلين في الحق .

وأنا سعيد أن يظهر هذا الكتاب في زمن هو أشبه بالحد الفاصل بين عهدين من عهود البحث العلمي ، ولونين من ألوان الاستقراء والنظر ؛ وفي هذه الأيام التي تعتبر ، دون ريب ، استهلال عهد من عهود الثورات في حياة الأمم ؛ ولست أقصد إلى الثورات الهدامة الدامية ، ولكننا أقصد إلى هذه الانقلابات التي تصيب حياة الناس بعد الحروب الرهيبة ، التي تدفع فيها الإنسانية جمعاء من دمها ومن نفسها ، وتحمل فيها من جسام الآلام ما يبعث بنفوس أبنائها إلى أمل خلاب في تحقيق مثل توفر لها من السعادة ما يعوض عليها بعض ما حملت من شر في الحروب ، وما لقيت من بلاء بها .

في مثل هذه الثورات المحتاجة ، التي تهز النفس إلى أعماق قراراتها ، وتمتد إلى أبعد أصولها ، لا تجدد النفوس صورتها في أقلام أصحاب المدرسة القديمة ، ولا في تفكيرهم ، ولا في نظرتهم إلى الأشياء ؛ ولكنها في حاجة إلى نفوس تتدفق شباباً وعزماً ، وعقول تفيض قوة ؛ وهي يومئذ أكثر طموحاً إلى غير ذلك اللون العاجز من الثروة الواهنة القبيحة التي لا تملأ فيها فراغاً ، ولا ترضى لها حساً . وهذا الكتاب ، وإن يكن قديم الموضوع ، إلا أنه أشبه بهذه الأيام الجبارة النائرة ، في طريقته ومنهجه ، وفي وسيلته العلمية وأداته ، وفي ترتيبه وتبويبه .

فلم أتبع فيه نهجا ولا طريقة اتبعها غيرى فى دراسة شاعر . وإنما أملى الطريقة فيه نوع الموضوع ، وأنشعابات البحث ، وما كان يحد بين لحظة وأخرى تبعا لنمو الدراسة وموجباتها . ولقد خرج ، لهذا الأمر ، بعيدا عن أن يكون محاكاة لعمل آخر من نوعه ، أو نقلا لمنهج شرقى أو غربى .

وقد كنت دائما صادق الاقتناع بأن تناول المسائل ، ودراستها على أساس طرائق متحجرة ، تطبق الطريقة منها على النوع الأدبى بأكمله ، خطأ وإسفاف معا . خطأ لأن أفراد النوع الواحد تتفارق فيما بينها تفارقا يقتضيه مجرد وجود هذه الأفراد ؛ فإن الفرد لا يتكرر وجوده بذاته وصفاته فى الطبيعة . وعلى ذلك فإن مجرد تعدد أفراد النوع الواحد داعية إلى اختلاف الطرائق والمنهج فى دراساتها . وإسفاف ، لأن فيه ما فيه من وقوف بدراسة النوع الواحد عند ظاهرة عقلية واحدة ، يأخذها اللاحق عن السابق ، كما يأخذ المثل الكامل . وهذا ما لم يقل به أحد ؛ فإنه إذا لم يكمل المتأخر المتقدم ، ويضيف إلى ما ترك جديدا ، ضاعت ثمرة وجود الأجيال وتعاقبها . وفى هذا آثمتهان للعقل البشرى ، ووقوف به عند منزلة بعينها لا يعدوها .

والكتاب أيضا ثورة فى الوسيلة العلمية إلى تحقيق ما جريت وراء تحقيقه . فلم آخذ بما قيل من قبل ، على أنه مسلمات عقلية ، أو حقائق علمية مؤكدة ؛ وإنما عرضت كل شئ على مقاييس البحث ، وأجريت عليه معايير التحقيق ، فقبلت منه ما صححه المنطق ، ونفيت منه ما لم يصححه ، وأضفت إلى ذلك كله ما أوقفنى عليه عمل ناصب ، وجهد أفرغته لكشف غوامض موضوعى ، وأسأل الله أن أكون وفقت .

وثورة فى الترتيب ، كما سيلاحظ القارىء فى تبويب الكتاب ، وترتيب موضوعاته وأبوابه . وكان من جراء هذه الثورات غضبة حاقدة مكبوتة من أحد أقطاب المدرسة القديمة ، فأخذ يحتال ما استطاع ليحول بين هذا الكتاب وبين الوصول إلى أيدي الناس . فطلب منى أصوله ، بحجة طبعها ، فسلمتها له ، فظل يحبسها عنده ثماني سنوات .

ويجزئنى أن أقول إن أبحاثى كانت فى هذه الفترة الطويلة ، نهبا مقسوما فذشر بعضها ممسوخا مشوها دون إشارة إلى مصدره .

ويقع ما كتب عن أبي تمام، قبل بحثي هذا وبعده، في قسمين : قسم كتبه القدماء ، وقسم كتبه المحدثون .

فأما ما كتبه القدماء : فأحكام مرگرة صادقة ، تقوم على علم صحيح ، وإلمام سليم بدقائق فن أبي تمام ومذهبه . وهم في ذلك لا يفلون ، ولا يفترطون . وليس فيما كتبوه شيء من التخليط الذي هو الطابع البين لبعض الكتابات الحديثة ، ولا آداء المعرفة في غير معرفة . وهم حذرون فطنون يهابون الأحكام القاطعة ، ويتوجسون الزلل . وهم مع ما اجتمع لهم من أطراف الموضوع ، لتقدمهم في الزمان ، وقربهم من عصر أبي تمام ، يعرفون للتاريخ حرمة ، ولحق رهبة ، فلا يرمون بالظنة ، ولا يقولون إلا ما هم به يؤمنون . وهم ذوو نظر نقاد ، وحكم مصيب ، وجمع لما نتحدث نحن به اليوم مفصلين ، في موجز العبارات ، وأستقصاء لنواحي البحث ، وعلم ثابت شامل وثيق .

غير أنهم كانوا يخالفوننا في الطريقة ، والسنة ، فما تركوه لا ينطبع بطابع الوحدة ، ولا يكاد يأخذ في رأينا الحديث مظهر الموضوع الواحد ، إذ أنهم لم يكونوا يرضون عما نرضاه اليوم من إذابة التفاصيل ، وصقلها ، وسبكها ، ثم تكلف صباها في قالب واحد . وإنما هي أحكام متفرقة لا يكاد يفلت من حبالها باحث .

وأما ما كتبه المحدثون فطائفتان : طائفة كتبها المستشرقون ، وهم قِوم علماء باحثون ، ولكن بعضهم لم يسلم من عصبية على الإسلام والشرق ، فهو يحاول أبدا تجريدتهما من مفاخرهما . ولما كان أبو تمام إحدى هذه المفاخر ، فقد تلمس بعضهم الأعذار لإخراجه عن هذه الدائرة ، وجعله من أصل نصراني ، بل والذهاب إلى أبعد من ذلك بتحديد جنسه وعنصره . فقام كاتب مادة أبي تمام في دائرة المعارف الإسلامية يذكر ما قيل : من أن أباه كان نصرانيا يدعى «تدوس» ثم عقب عليه بهذه الكلمة الإفرنجية على هذه الصورة : "Theodose?" . وهذا الاسم يوناني ، فكأنه رمى إلى القول بأن أبا تمام من أب يوناني . وكان هذا هو الحديد الغريب في كل ما كتبه . أما ما جاء غير ذلك في حديثه عن حياة أبي تمام وفنه فليس يساوي شيئا كثيرا ، فإن تذوق اللغة ، والوقوف على أسرار نصوصها ، وروحها ليس بالأمر اليسير على غير أهلها .

وطائفة كتبها جماعة من باحثينا ، الآخذين عن المستشرقين ، وأولى بنا أن نسهمهم المتعاجمين ، لا المستعجمين ، فإن للاستعجام شروطا ، أولها تمام الأداة ، واستيفاء شرائط البحث والتحقيق ،

على قياس ما عند الأعاجم من العلماء ، وقد حرم هذا الفريق الذي أشرت إليه من هذه جميعا ، وإنما تقوم ثروته على انتقال ما عند المستشرقين عن الأدب العربي آنحالا . وعملهم الشخصي فيه إنما هو بسط النظر ومطه ، وتطويل موجه ، وتشويه تناسبه ، والإفراط في تصويره . وهم أقرب إلى أن نصفهم بفئة النقلة بالفحوى . وقد نقل هؤلاء ما قيل عن يونانية أبي تمام ، وتبحروا في الصراخ بها . وكانت نكرة إنما قصد بها إلى الدعاوة للذات ، ولفت الأنظار ، ومفاجأة من هم في كل شعب من الشعوب على استعداد للمفاجأة بالجديد ، حتى يدعى لهم العلم بما لم يعلمه غيرهم .

وكان هذا النقل عن المستشرقين في ترجمة أبي تمام ممكنا ، أما ما لم يكن نقله عن المستشرقين فهو الدراسة الفنية لآثار أبي تمام وشعره . فقاموا هم بأنفسهم عليها ، على قصور في الوسائل ، معتمدين في ذلك على النقل المباشر عن القدماء أو على الحدس والتخمين . فكانت عند بعضهم نقلا لأقرب ما قاله القدماء ، ولأكثره شيوعا وجريانا بين الناس ، وهو أنه ما تركوا وأرخصه ، وكانت عن البعض الآخر تخليطا في إطلاق بعض مصطلحات الفنون البلاغية على غير مدلولاتها ، ومحاولة لتوليد مصطلحات جديدة لفنون وجد لها مصطلحها القديم .

ولقد جعلت كتابي هذا في ستة أبواب :

الباب الأول : دراسة مطولة لتاريخ طيء في الجاهلية والإسلام ، قصدت بها إلى أمور : أولها عقد الصلة بين ما أشتبه في نسب أبي تمام على بعض المستشرقين ونقله عنهم بعض من يدعو بدعوتهم ، وبين تاريخ طيء في الجاهلية والإسلام عقدا يمكن به إلقاء النور على كثير مما عُمي عليهم ، وأرتج في وجوههم بابه . ولم تكن السبيل إلى ذلك معبدة ، مفتوحة ، فليس أقص من تاريخ العرب في الجاهلية شيء ، ولا يكاد يقع في تاريخ أمة من الأمم أن ترتد فيه علل عظام الأمور إلى أنفسه الأحداث ، بقدر ما يقع ذلك في تاريخ العرب في جاهليتهم . فكان تخليص الأسباب الأصلية الحقيقية من بين آستجارات الحوادث المبعثرة هنا وهناك عملا شاقا مضنيا ، حاولته أملا في الاهتداء إلى بصيص يلقي بعض الضوء على تلك الظلمات الرهيبة المتكاثفة ، حتى أكشف بذلك الطريق إلى ذلك الماضي البديع ، وقد وجدت ما يساعدني على تشخيص سياسة الفرس والروم في شبه جزيرة العرب ، وموقف طيء من الصراع الذي كان يقوم بينهما ، وتأثرها به تأثرا كان يقسمها على نفسها حتى لتحترب الحرب بين الإخوة من بطونها : الغوث وجديلة ، وساعدني ذلك على إدراك الصلة الوثيقة التي كانت توجد بين طيء في الجاهلية وبين الروم ، وما كان من أنبثات النصرانية

بين أبنائها، فتبين لى بذلك شيئان الأول : أن النصرانية لا تتنافى مع الطائفة، والثانى : أن استعارة الطائيين من أسماء الروم النصارى بعضها وأستعملها، أمور لا تتنافى أيضا مع طائفتهم، فذلك ما يفعله حتى اليوم بعض أقباط الصعيد المصرى من استعارة الأسماء الأمريكية لأبنائهم فلا يخرجون بها عن مصريتهم . ذلك إن صحت الرواية القائلة : إن أبا أبى تمام كان نصرانيا يدعى تدوس ، وصح أن أصل الكلمة هو : Theodose

وثانيها : أنى حاولت تحليل العناصر التى يتكوّن منها تاريخ طيى وأدب طيى وأستخلص هذه كلها حتى تكون معايير أعرض عليها شعر أبى تمام ، فإن تجاوبا وتجاذبا وتشابها ثبتت بها عندى طائفته .

وثالثها : إنى جعلت هذا النحو من التحقيق لأستخلص التاريخ من الأخبار المتناقلة عن الجاهلية تجربة كنت أرجو أن أنجح فيها، فأتابعها بعد ذلك فى تحقيق وجوه أخرى من وجوه هذا التاريخ نفسه .

وختمت هذا الباب بأستقراء ما جاء فى نسب أبى تمام، فعرضته على مقاييس التحقيق عرضا مستفيضا وخلصت منه إلى اعتقاد جازم بطائفة أبى تمام .

وبالاب الثانى : جعلته تصورا لخلقة أبى تمام وصفاته، وللحديث على أسرته .

وبالاب الثالث : وهو نُقْلَةٌ إلى الدراسة الفنية لشعر أبى تمام . وفيه زاوجت بين حياة أبى تمام وحياة شعره ؛ وقد لاقيت فى ذلك عنتا ما بعده عنت . ذلك أن شعر أبى تمام لم يرو لنا مرتبا على حسب التاريخ، وإنما روى لنا مرتبا فى كل رواياته على حسب الحروف الهجائية ، فأضطرب لذلك من الناحية التاريخية اضطرابا رهيبا ، وأشتجر أشتجارا ملغزا . وكان عمادى فى ذلك كتب التاريخ والديوان : أخلص إلى الأحداث أقرأها ، وأجمع أطرافها ، وأتمثلها جميعا ، وإلى شعر أبى تمام أستجمع ما تفرقت من فنونه ، وما أنشعب من وجوهه ، وما أشتبته من أحداثه ، وأميز بينها جميعا ، إن يشبه هذا ذاك ، فأين الدليل ؟ ولا أزال أتحرى البرهان ، وأتلمس الوقائع ، وأسائل الشعر حتى تستجيب الصخرة . وإنى لأحمد الله أعمق الحمد على أن قد وفقت فى أن أستخلص من بين براثن الغموض التاريخى ما أستخلصت عن حياة أبى تمام وعن حياة شعره ، وبذلك أستحال شعره عن مسمياته التقليدية من المدح ، والهجاء ، والرثاء ، إلى صور من التعبير النفسى الغنائى .

ففى هذا الباب قصة نفس أبى تمام وحياة قلبه ، وما كان يتداول عليها من مشاعر وأنفعالات . ولقد كان هذا الباب خير مناسبة لتصوير ما كان يطرأ من تغيرات على شعر أبى تمام ، فأرخت فيه تطورات شعره ، ونهت على كل طور من هذه الأطوار ، ما كان يميزه فيه عما قبله ، وما أصاب قالب شعره بزيادة أو بنقص .

والباب الرابع : وفيه عالجت المذاهب التى تداولت على الشعر العربى قديمه وحديثه ، وانقسام شعرائه إلى قدماء ومحدثين ، وفرق ما بين أولئك وهؤلاء ، واستقرار التسمية حتى أصبحت اصطلاحاً ، وشرحت "عمود الشعر" عند العرب ، وكان حتى تصنيف كتابى هذا سنة ١٩٣٦ ، عبارة غامضة شيئاً ، فوقفت عليها وقد جلاها المرزوقى فى مقدمة شرحه للجماسة ، فنقلت تفسيره لعمود الشعر ، وما نشر قبل ذلك ولا عرفه أحد ، وقارنت بينه وبين ما قاله الآمدى فى ذلك ، وظهر لى شىء من التشابه بين ما قاله وبين ما قاله أرسطو فى كتاب "الخطابة" ، فنهت على ذلك ؛ وكانت هناك طائفة أبى تمام فتحدثت عنهم كذلك وعن أبى تمام فى هذا الباب ، وتأثر هؤلاء بأرسطو فى كتاب آخر هو "الشعر" .

والباب الخامس : وفيه وصلت بين فن أبى تمام الشعرى من حيث إنسانيته ، وما يشيع فيه من آندفاع إلى الحب ، أو آندفاع إلى الحقد ، أو بعبارة أخرى من بلوغ فى تذوق الحياة إلى الأطراف وبينت ما كان لعصره ، عصر العصبية العنصرية ، من أثر فى سهولة ذلك على النفس . وما أشبه ذلك العصر الدامى بما رأيناه فى عصر هذه الحرب الأخيرة . فالإنسان هو الإنسان فى كل زمان وفى كل مكان .

والباب السادس : وهو تكملة الدراسة الفنية لشعر أبى تمام ، بعد ما مر فى الأبواب الثلاثة السابقة من دراسة لفنه ، ففياً مضى تحدثت عن التطورات التى أصابت فنه جملة ، وعن الخصائص العامة التى تميزه كلاً ، وعن طريقته فى قصيدته ، وموجّهات فنه . وفى هذا الباب أتحدث عن جزئيات منه ، من الصورة ، واللفظ ، والجملة ، والحكمة ، وتعلق فن أبى تمام بالحقيقة وما شابه ذلك .

وسيتبين قارئ هذا الكتاب أن فن أبى تمام ليس بالفن الساذج ، ولا البسيط الذى يقف عن حد نوع من الطباق بعينه ، يخلطه أبو تمام بجناس أو يلفه على استعارة . فهذه نظرة مضحكة . ولو قد فهم نقاد العرب هذا فى أبى تمام لنبذوه وضحكوا منه ، ولما قصروا عن أن يقولوا فيه ما قاله

محدث ممن يعيشون في هذا العصر لما قرأ شيئاً بهذا المعنى : " كأن فن أبى تمام لا يزيد على لعبة الشطرنج ، حجارته معدودة ، ولكنها تنتقل إلى غير نهاية ، ولكن هذا إن أَرْضَانَا في الشطرنج فهو لا يَرْضِينَا في الشعر " .

هذا وصف مجمل لما عملته وعمله سواى فى دراسة فن أبى تمام وحياته . وليعذرني القارئ في أن سقته اليه في هذه الصراحة الجافية . فإن ما لقيته أنا ، ويلقاه كثير أمثالي أدواء طاغية ، تنخر في كيان اجتماعنا الشرقى اليوم ، يلقى منها شبابنا شراً ما بعده شر ، ويقضى في كفاحها شطراً من العمر كان أولى به أن يفرغه لما هو أجدر به ، وأكرم على الإنسانية والعلم . وهى بلايا ومحن تحشد في وجوه الشباب يوم يفتح عينيه على الحياة العاملة ، فتحول بينه وبين البناء الذى كان يجب أن يتجه إليه ، وتشغله بذاته عن العمل لخدمة وطنه وقومه ، وقد تقتل شخصية أو خلقه ، وقد تعصف بكيانه جملة .

إن الشباب ليس في حاجة إلى تعلم الكرامة ، ولكنه في حاجة إلى غير ذوى الأهواء لتوجيه قواه ، فإن الشباب يستمد من طبيعته الكبرياء ، ويجد في قوامه الحس بالكرامة .

والشباب لا يطلب المعونة على إيقاظ ضميره ، وتطهير نفسه وروحه ، لأنه مزاج خالص من هاتين الخليتين ، ولكنه يطلب المعونة على أن يجنب التلويث ، وإن يبرأ من مواطن الزلل ، في عهد من عهود العمر يكون فيه أقبل للثورات . إنه ليس شراً على شباب أمة من الأمم من أن يحكم فيه ذوو الهوى ، ومَرْضَى النفوس .

لقد كنا طائفة من الشباب ، متخالفة الحظوظ من الثقافة ، ومن القوى ، ومن صلابة العود ، ولكننا كانت تجمع بيننا رابطة المثل الواحد ، ثم تعرضنا للامتحان في جبهة موكب الحياة فافترقنا شعباً ، فوجدت فئة منا طريقها الى السجن والاعتقال ، ووجدت فئة منا طريقها الى الفقر والفاقة ، ووجدت فئة منا طريقها الى المرونة والكياسة ، وهو طريق أدى بها الى النجح المادى والرخاء ، ووجدت فئة منا من ظروف الحياة والعمل حماية وقتها بعض شرائح المحنة ، وشيئاً من بلية النضال .

وإني لتحضرني الآن صورهم وأشخاصهم ، وتحضرني تلك الاندفاعات العارمة التي كانت تأخذهم جميعاً ، وتمتلك قلوبهم الشابة جميعاً . وأرانا كأنما نحيا من جديد ، نضرب على الطريق اللاحب ، ونلتقي من اليسرومن العسر ما قسم حظاً لكل طالب مثل .

ففریق منا طلب مثله فى السياسة ، وفریق منا طلب مثله فى الحق العلمى ، وفریق منا طلب مثله فى الخير الاجتماعى . وضربت الأيام ضربتها ، وسار الكفاح سيرته ، وأحطنا بما يحاط به كل مصرى ناشئ ، فى بيئة نظلمها إن نحن أنحنينا باللوم عليها ، وقد انكشفت الغبرة ، وانجلي القتام ، فاذا بنا فریقان : فریق الجرحى ، واكنهم جرحى يشد أزهرهم إيمان بالمثل الذى طلبوه ، لم تعمهم الشدة عن يقينهم ، ولم يحطم من نفوسهم البلاء ، تلفهم الجراح ، ولكنهم لا يزالون أقوى ألف مرة من خصومهم ، وأقدر فيما اندرجوا فيه من حرارة دماء الشباب على سحق عدوهم الذى خيل اليه وقتاً ما أنه قد فاز بالنصر عليهم . وفریق وجد السلامة فى النزول عن مثله ، والانضواء تحت لواء من ظهرت فى صفوفهم الغلبة أول الأمر . ظن الهلاك وأن لا منجى ، فنزل عن مثله ، فهلك من حيث ظن النجاة ، وقضى فى حيث يخال السلامة .

لقد كنا بالأمس نسرى فى ظلمة خانقة ، وتحت سماء تنهار فوق رؤوسنا ، ولكن هاهى السماء تمسك عن الانهيار ، وهاهى أشعة الفجر الأولى تلوح ساحرة رطبية فى أفق بعيد ، ولكنه على المؤمنين قريب .

السبت أول سبتمبر سنة ١٩٤٥

نجيب محمد البرهيني

فهرس عام للموضوعات

الباب الأول : طي ونسب أبي تمام فيها

اشتقاق الأسم ١ — موطن طي ٤ — علاقة طي
بجاراتها : (١) الحيرة ١١ ؛ (ب) الفساسة ١٢ ؛ (ج)
الفرس والروم ١٢ ؛ (د) القبائل العربية ١٥ — منزلة طي
١٦ — عباداتها ١٦ — طي في الإسلام : (١) إسلامها
١٨ ؛ (ب) زمن الردة ١٩ ؛ (ج) طي في الفتح ٢٠ ؛
(د) في عهود الانقسام ٢٢ ؛ (هـ) طي والعباسيون ٢٦ ؛
(و) طي والحركة الفكرية ٢٦ — نسب أبي تمام في طي
وتحقيق ما دار حوله ٢٨ — أشهر مشاهير طي وبطونها
قبل الاسلام ٣٧

الباب الثاني : شخصية أبي تمام وأسرته

شخصية أبي تمام وصفته ٣٨ — أسرة أبي تمام ٤٣

الباب الثالث : حياة أبي تمام وحياة شعره

بلده ٤٨ — تحقيق مولده ٤٩ — نشأته : (١) مولده
بالشام ٦٢ ؛ (ب) رحلته الى مصر ٦٢ ؛ (ج) حياته بمصر
٦٥ ؛ (د) نواحي ثقافته : [أثر القرآن ٦٧ ، أثر التاريخ
٧٠ ، روايته بعض الأحاديث ٧٣ ، روايته في الأدب ٧٣ ،
اتصاله بالمذاهب الاعتقادية والسياسية ٧٣ ، النحو ٧٥]
(هـ) أول شعره في مصر وخصائصه : [مع عياش بن لمعة
الحضرمي ٧٨ ، مهاجته السراج الشاعر المصري ٨٥ ، مذهب
السراج في الشعر وتأثر أبي تمام به ٨٥ ، تنقلات أبي تمام
في مصر ٨٧ ، ارتحاله عن مصر ٨٩] — شعره في الشام
وخصائصه : (١) مدحه أبا المغيث موسى بن إبراهيم الرافقي
وهجائوه ٩١ ؛ (ب) مميزات فنه في هذا العهد ٩٥ —
أبو تمام على أطراف العراق : طابع شعره ٩٥ — فترة
غامضة : (١) التصنيف ٩٨ ؛ (ب) شعره في آل عبدالكريم
٩٩ — عود أبي تمام الى مصر ١٠٢ — في العراق :
(١) رثاء محمد بن حميد الطوسي وتفصيل مقتله ١٠٣ ؛

(ب) اتصال أبي تمام بأبي سعيد الثغري ١٠٥ ؛ (د) أثر

معارك بابك في شعر أبي تمام ١٠٧ — تنقله بين الثغور :

(١) اتصاله بخالد بن يزيد بن مزيد ١٠٨ ؛ (ب) مدحه

المأمون بعد عودة المأمون من مصر ١٠٨ ؛ (ج) مع إسحق

المصعبي في الجبال ١١٧ — أبو تمام في خراسان : (١) الرحلة

الى خراسان ١١٩ ؛ (ب) أولى قصائده في ابن طاهر ؛

(ج) مفاضلة عبد الله لأبي تمام ١٢١ ؛ (د) تحقيق السبب

في غضب ابن طاهر ١٢١ ؛ (هـ) محاولته إصلاح ما بينه

وبين ابن طاهر ١٢٤ ؛ (و) رضا عبد الله ١٢٥ —

في أذربيجان ثانية ١٢٦ ؛ — خصائص شعر أبي تمام

بعد رحلته الى خراسان ١٣٠ — نهاية أمر الخزمية :

(١) الاستيلاء على البند ١٣١ ؛ (ب) اتصال أبي تمام

بأبي دلف العجلي ١٣٣ ؛ (ج) اتصاله بجعفر بن دينار

القائد ١٣٥ ؛ (د) اتصاله بالأفشين ومدحه بإياه ١٣٦ ؛

(هـ) مدحه للمعتصم ١٣٧ — موقعة عمورية : (١) غزو

توفيل بن ميخائيل بلاد المسلمين وفنكه بأهل زبطره وملطية

وغيرهما من الثغور ١٣٩ ؛ (ب) ثورة الرأي العام

الاسلامي ١٣٩ ؛ (ج) خروج المعتصم بنفسه يقود الجيش

١٣٩ ؛ (د) فتح عمورية ١٤٠ ؛ (هـ) قصيدة أبي تمام

في الفتح ١٤١ ؛ (و) بين القصيدة والتاريخ ١٤١ ؛ (ز)

مدحه بعض قواد هذه المعركة ١٤٣ — عودة أبي تمام الى

سر من رأى : (١) قصيدة في مدح المعتصم بمناسبة ثورة

العباس بن المأمون ١٤٦ ؛ (ب) اتصاله بابن أبي دؤاد

وابن الزيات ١٤٨ ؛ (ج) قول أبي تمام في خالد بن يزيد

لما عزل عن أرمينية ١٤٩ ؛ (د) سفره الى أبي سعيد الثغري

١٥١ — اضطراب أبي تمام في البلدان (١) في الشام ١٥٢ ؛

(ب) في سر من رأى يذكر احراق الأفشين ١٥٢ ؛ (ج)

في كور الفرات يمدح مالك بن طوق ١٥٥ ؛ (د) في سامرا

١٥٦ ؛ (هـ) في الشام مع أبي المغيث بن موسى الرافقي

١٥٧ ؛ (و) عودته الى العراق وتأثره بالمنافسة بين ابن أبي دؤاد

الفرس والعرب في الدولة العباسية ٢٠٢ ؛ (د) محور هذا الصراع ووازه ٢٠٣ ؛ (هـ) عصر مصطبغ بالدم وشعر مثله : [أبو تمام ثمة هذا العصر بخيره وشره ٢٠٤ ، حريق عمورية ٢٠٤ ، عبادة النفس للحياة ٢٠٥ ، صلب الأفشين وإحراقه ٢٠٦] — شعر يقارب المادية : (أ) اقتران مظاهر الجمال الحسى بمظاهر القبح النفسى ٢٠٩ ؛ (ب) حس أبي تمام بجمال الطبيعة ٢١٠ — أثر العنصرية في ثقافة العصر ٢١٢ — أبو تمام مؤرخ عصره ومصوره ٢١٢

الباب السادس : الخصائص الفنية لشعر أبي تمام

تقديم — طابع عام لشعر أبي تمام : (أ) تزاوج حسه وعقله جميعا ومظهر ذلك ٢١٥ ؛ (ب) التسلسل الفكرى ووحدة القصيدة ٢١٨ ؛ (ج) كثرة المعاني المخترعة عنده ٢١٨ ؛ (د) مظهر من مظاهر التجديد ٢٢٠ ؛ (هـ) دقة شعوره بجمال الطبيعة ٢٢١ ؛ (د) ميل أبي تمام إلى تناول الناحية النفسية ٢٢٢ ؛ (ز) اعتماد فنه على الواقع والحقيقة ٢٢٣ ؛ (ح) نهج القصيدة ٢٢٥ ؛ (ط) أبو تمام شاعر البطولة الإسلامية ٢٢٥ ؛ (ي) القصص ٢٢٦ — الصورة عند أبي تمام : (أ) المقصود بالصورة ٢٢٧ ؛ (ب) الصورة في أطوار شعره الأولى وميلها إلى الفن الجاهل ٢٢٨ ؛ (ج) الصورة فيما يلي ذلك ٢٢٨ ؛ (د) منابع الصورة عند أبي تمام ٢٢٩ ؛ (هـ) جزئية الصورة ٢٣٠ — اللفظ عند أبي تمام : (أ) اللفظ عنده مظهر تركب نفسه ٢٣٣ ؛ (ب) تونخى الصنعة في اختيار اللفظ ٢٣٤ ؛ (ج) التكرار ٢٣٥ ؛ (د) توفيقه في اختيار الصفات ٢٣٦ ؛ (هـ) اللفظ وسيلة للسخرية ٢٣٦ ؛ (و) تركيب الجملة في شعر أبي تمام — حكمة أبي تمام : (أ) فرق ما بينها والفلسفة ٢٣٨ ؛ (ب) نماذج من شعره في الحكمة ٢٣٩ — نظرة أبي تمام إلى فنه : (أ) تنبهه إلى خصائص فنه وما قال عن ذلك في شعره ٢٤٠ ؛ (ب) أبو تمام من أوائل واضعى أصول النقد في العربية ٢٤٢ — منزلة أبي تمام في الأدب العربى ٢٤٣

وابن الزيات ١٦١ — اتصاله بالحسن بن وهب ١٦٦ — هل عمل أبو تمام على بريد الموصل ١٦٦ — رثاء أبي تمام خالد بن يزيد سنة ١٦٩ ٢٣٠ — موت الشاعر ١٧٠

الباب الرابع : القدماء والمحدثون

تعريف ١٧٢ — القدماء : (أ) نهج القصيدة ١٧٢ ؛ (ب) صناع الشعر ١٧٣ — الانتقال : (أ) عصر الفتح الأول والخلافة الشرعية ١٧٤ ؛ (ب) تحول الخلافة إلى ملك وأثره في الشعر ١٧٤ ؛ (ج) التجديد والخصومة فيه ١٧٥ — المحدثون : (أ) شعب جديد ونفوس جديدة ١٧٧ ؛ (ب) الشعر الأعمى والصنعة ١٧٨ ؛ (ج) نهاية الصراع بين شعر العرب وشعر الأعاجم ١٨٠ : [التجديد في المادة والصورة ١٨١ ، البديع العربى يتأثر ببيلاغات الأمم الطارئة على العربية ١٨٢ ، انتصار الحديد ١٨٣] ؛ (د) بين أصحاب اللفظ وأصحاب المعنى : [أصحاب المعنى والمرقات الشعرية ١٨٤ ، التحسين اللفظى ودواعيه ١٨٥ ، طابع الشعر الجديد ١٨٦ ، أصحاب اللفظ وهم أصحاب العلم بالشعر ١٨٦ : طريقة العرب ١٨٦ ، المرزوق وعمود الشعر ١٨٨ ، انتصار مذهب أصحاب المعنى ١٨٩] — أبو تمام من أصحاب المعنى ١٩٠ — الشعر عند أبي تمام وأصحابه ١٩٣ — أثر أرسطو ١٩٤ : (أ) الترجمة قبل حين ١٩٥ ؛ (ب) أثر أرسطو في "البيان والتبيين" للجاحظ ١٩٥ ؛ (ج) أثر أرسطو في "البديع" لابن المعتز ١٩٦ ؛ (د) أثر أرسطو في أصحاب اللفظ وأصحاب المعنى ١٩٨ ؛ (هـ) أثر أرسطو في أبي تمام ١٩٩

الباب الخامس : صلة فن أبي تمام بتاريخ عصره

العصر : (أ) ابتداء التفاعل بين الأجناس الفاتحة والمفتوحة في الامبراطورية الاسلامية في عهد الخلفاء الراشدين ٢٠١ ؛ (ب) ابتداء بقطة العصبية الجنسية في عهد الأمويين وأثر ذلك في سقوطهم ٢٠٢ ؛ (ج) الصراع بين

الباب الأول

طي ونب أبي تمام فيها

١ - اشتقاق الاسم

يقول ابن دريد في كتابه الجهرة في اللغة^(١)، في «طو» : «قال الخليل رحمه الله : اشتقاق طي من الطاء وواو وهمزة ، أو ياء وهمزة ، كأن إحدى الياءين في طي محوالة عنده عن الواو» . وفي نسخة منها أشار إليها الناشر في الهامش بحرف (هـ) مانصه : «قال الخليل : اشتقاق طي من طاء وهمزة وياء الخ . فقلبت الواو ياء ، وأدغمت في الياء الياء ، مثل طويت الثوب طيا» . وفي نسخة بانيبور من الجهرة في «ط ي ي» : «من لم يهمز طيئا قال هكذا : طي كما ترى» .

فالكلمة عند الخليل مشتقة من طوأ أو من طيا ، في النسخة الأولى ؛ ومن طأى أو من طاو ، في النسخة الثانية ؛ ومن ط ي ي في النسخة الثالثة .

وفي العبارة إجمال ، ولكن الذي يفهم من قوله «فقلبت الواو ياء... الخ» ، هو أن طي أصلها طيوى أو طوي ، اجتمعت الواو والياء وسبقت إحداهما بالسكون ، فقلبت الواو ياء ، وأدغمنا . وفي القاموس : الطاء كالطاعة : الإبعاد في المرعى ، ومنه طي أبو قبيلة ، أو من طاء يطوء إذا ذهب وجاء ، والنسبة طائي ، والقياس كطيبي ، حذفوا الياء الثانية ، فبقى طيبي ، فقلبوا الياء الساكنة ألفا . وطاء في الأرض يطاء : ذهب ، أو أبعد في ذهابه .

وهي عند ابن الكلي ، كما ينقلها عنه صاحب الجهرة ، وكما يرى صاحب الأغاني وياقوت ، مشتقة من طوى ، بمعنى بنى البئر بالحجارة ، فيقولون ، على اختلاف في العبارة ، واتفاق في الدلالة : إنه إنما سمي طيئا لطيه المناهل ؛ ولكن ابن دريد — على حدّ تعبيره — لا يعرف هذا الوجه من الاشتقاق .

والأفعال الثلاثة طاء يطاء ، وطاء يطوء ، وطوى يطوى ، تدور كلها حول معنى أصلي واحد ، هو الحركة .

(١) انظر كتاب الجهرة لابن دريد ، طبعة حيدرآباد بالهند سنة ١٣٤٤ — ١٣٤٥ هـ .

(١١) وفي دائرة المعارف الإسلامية أن « طَيَّاي » معناها العرب ، والمسلمون عامة . فأما الشطر الأخير من العبارة ، فخطأ شاع وظل إلى قريب ، فقد كان المسلمون يسمون العرب ، ومتى أطلق أحد الاسمين ، فهم منه المعنى المراد بالآخر ؛ فلا غرابة في أن يطلق السريانيون اسم العرب على المسلمين جميعا ، والذي يهمننا هنا هو إطلاق هذا اللفظ ، الذي يقرب من لفظة « طائي » على العرب جميعا .

فأما أن يكون ذلك أتى من ملاصقة طبي للسريان حيث كانوا يقيمون ؛ فقد كانت طبي تقيم على أطراف العراق ؛ وإن كان هذا يضعفه أن اللخمين والغسانيين كانوا ألصق بالسريان منذ زمن قديم . وإما أن يكون اسم طبي أطلق أولا على القبيلة ، ثم غلب على العرب عند السريان ، لشدة الصلة ، ولتبيين معنى العروبة فيهم .

وهناك شيء آخر تجب ملاحظته ، ذلك هو أن طاء يطوء ، وطاء يطاء ، وطوى يطوى ، تشترك جميعا في المعنى الأصلي مع عرب وعبر ، وهما أصل كلمة العرب .

ففي القاموس : أن العرب هو النشاط ، ويحرك ؛ وعرب كفرح : نشط ؛ وعرب النهر : غمر ؛ والعربة محركة : النهر الشديد الجرى .

فالمعاني قائمة كلها حول الحركة ، وهو ما يتبين تماما في حياة العرب ، وما يوجد في أصول كلمة طبي .

فلم تسم العرب عربا بالصدفة ، بل لأن حياتهم ونهجهم في العيش ، كان يدعوهم في لغتهم إلى تسمية أنفسهم بالعرب ، مشتقة من عرب بمعنى الحركة ، ويدعو غيرهم إلى تسميتهم كذلك . فطائي وعربي لهما مؤدّى واحد .

وليس معنى ذلك أن طيئا يجب ألا يعتبر نسبيا ما دام معنى عاما ؛ فإن الاشتراك في المعنى العام لا يخرج التسمية الخاصة عن مدلولها الضيق ، الذي تنويسي فيه الأصل ، كما هو ظاهر في كل أسماء الأعلام المنقولة . وسنرى فيما بعد أن حياة طبي كانت حركة دائمة ، ونشاطا لا ينقطع .

٢ - أصل طبي

لا خلاف بين النسابين في إرجاع طبي إلى اليمن ، فهي عندهم جميعا تنتهي إلى حطان ، ولكن سلسلة النسب تضطرب ، فتتقص حيناً وتزيد حيناً ؛ والغريب أن الزيادة ليست في الآباء البعيدين ، وإنما هي في القريبين شيئا .

والسلسلة الغالبة هي : طييء ، واسمه جُلْهُمة ، بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد ابن كهلان . وعند هذا يقف ياقوت^(١) ، ويتعداه ابن حزم^(٢) إلى آخره سباً ، ثم يحيى^(٣) المقرئ فيسير سيرة السابقين في سرد النسب ، إلا أنه يسقط زيدا فيما بين عريب وكهلان ، ويصل السلسلة بقحطان ، فيقول : كهلان بن سبأ بن يشجب بن قحطان . أما في سلسلتى الأغاني والعقد الفريد ، فاضطراب يقتضى حذف قبائل كاملة من عمود النسب الطائي .

فالرواية في الأغاني أن جُلْهُمة هو ابن أدد بن مذحج بن زيد بن يشجب بن عريب بن مالك ابن كهلان^(٤) . ففيها مالك بدل زيد وفيها أن مذحجا جد طييء . أما العقد فيرى أن طيا أخو مذحج وينقل عن ابن الكلبي أنه قال إنه هو مذحج أيضا ، ثم يسير في السلسلة حتى كهلان ، كما رأينا في ابن حزم .

أما ابن دريد في كتابه « الاشتقاق » فيجعل جُلْهُمة (وهو طييء) ومالك والأشعر إخوة ، ويجعلهم أبناء زيد بن كهلان^(٥) ، ولكنه يعود في الكلام على مذحج فيقول^(٦) : إن مذحجا ولد مالك ابن أدد ، ويظهر أنه أسقط في العبارة الأولى أدد .

وعندى أن عبارة الأغاني والعقد الفريد ليستا شيئا بجانب إجماع النسابين على جعل مذحج قبيلة قائما بذاته ، وقرب إجماعهم على جعل مذحج أحبا طييء . وإنما أردت بهذا التطويل أن أعرض صورة كاملة لنسب طييء في أمانة . وعندى أن هذا الاضطراب يرجع أحيانا إلى تسمى الواحد باسمين ، كما يذكر صاحب الاشتقاق أن سبأ كان يسمى عبد شمس أيضا . فقد يوضع سبأ في رواية ، وعبد شمس في أخرى ، ثم يحيى ثالث متأخر فيخلط بين الاثنين ، جاعلها أبوين ... ولا أرى أن شيئا هنا يقع علينا من هذا الاضطراب ، فإن طيئا عند الجميع ترجع إلى اليمن ، أى إلى ذلك القبيل من العرب الضارب في الأرض ، يقطعها من الجنوب إلى الشمال ، والمنتشر في أقطار جزيرة العرب انتشارا يدعو إلى الدهشة ، والحاكم على أهم أقطارها ، وأغنى بقاعها ، والذي امتاز بأن كان منه ملوكها في أيام مدينتها الأولى ، قبل الإسلام ، والمعدود أصيلا في عربيته .

(١) معجم البلدان مادة أجا . (٢) ابن حزم : جمهرة الأنساب ، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٩ ش .

(٣) المقرئ : كتاب البيان والإعراب ، عما بأرض مصر من الأعراب ، طبعة مطبعة المعارف سنة ١٩١٦ م .

(٤) ج ١٦ ص ٤٦ طبعة السامى . (٥) ابن دريد ، كتاب الاشتقاق ص ٢١٨ .

(٦) المصدر السابق ص ٢٣٧ .

٣ - موطن طبي

كانت طبي^(١) تنزل « الجوف » من أرض اليمن ، وهي اليوم محلة همدان ومراد ، وكان سيدهم يومئذ أسامة بن لؤى بن الغوث بن طبي ، وكان الوادى مسبعة ، وهم قليل عددهم . فجعل ينتابهم بعير في زمن الخريف ، يضرب في إبلهم ولا يدرون أين يذهب ، إلا أنهم لا يرونه إلى قابل . وكانت الأزد قد خرجت من اليمن أيام سيل العرم ، فاستوحشت طبي لذلك ، وقالوا : قد ظعن إخواننا ، وساروا إلى الأرياف . فلما هموا بالظعن قالوا لأسامة : إن هذا البعير الذى يأتينا إنما يأتينا من بلد ريف وخصب ، وإنا لنرى في بعره النوى ؛ فلو أننا نتعهدده عند انصرافه ، فشخصنا معه ، لعلنا نصيب مكانا خيرا من مكاننا . فلما انصرف تبعه أسامة بن لؤى بن الغوث ، وحيسة بن الحارث بن فطرة ابن طبي ، حتى أدخلهما باب أجأ ، فوقفا من الخصب والخير على ما أعجبهما ... وارتحلت طبي بجملتها إلى الجبلين ، وجعل أسامة بن لؤى يقول :

اجعل ظريبا كحيب يُنسى لكل قوم مُصْبَحٌ ومُسى

وظريب : اسم الموضع الذى كانوا يتزلون فيه قبل الجبلين . قال : فهجمت طبي على النخل بالشعاب على مواش كثيرة ، وإذا هم برجل في شعب من تلك الشعاب ، وهو الأسود بن غفار ، (وهو البقية الباقية من جديس ، بعد أن فتك بهم حسان تبع في الإمامة ، والحكاية مذكورة في الأغاني^(٢)) ، فهالهم ما رأوا من عظم خلقه وتخوفوه ، فنزلوا ناحية من الأرض فسبروها ، فلم يروا بها أحدا غيره . ثم ندب أسامة بن لؤى ابنه الغوث لقتل الأسود ، فتغفله الغوث ، ثم رماه بسهم فقتله ، وأقامت طبي بين الجبلين .

هذه رواية الأغاني مع زيادات قليلة لا تمس جوهر الموضوع .

وفي رواية أخرى لياقوت : أن طبيئا نفسه هو الذى انتقل عن موطنه ، فيما بين اليمن وتهمامة ، سائرا بعد سيل العرم مع أعمامه ، ف وقعت بينه وبينهم ملاحاة ، ففارقهم طبي ، وسار نحو الحجاز بأهله وماله ، يتتبع مواقع القطر ... وأوغل طبي بأرض الحجاز ، وكان له بعير يشرد في كل سنة عن إبله ، ويغيب ثلاثة أشهر ، ثم يعود إليه وقد عيل وسمن ، فقال لابنه عمرو : تفقد يا بنى هذا الجمل ... الخ ،

(١) ياقوت في مادة أجأ ، وفي الأغاني ج ١٠ ص ٤٧ ولكنه يسميها الجرف .

(٢) ج ١٠ ص ٤٦ وما بعدها .

حتى إذا نزلت طيئ الجبلين، وجدوا فيهما شيخا عظيما جسيما، مديد القامة على خالق العادين، ومعه امرأة على خلقته، يقال لها سلمى، وهى امرأته، فأقام طيئ بإبله وولده بالجبلين، فلم يلبث الشيخ والعجوز إلا قليلا حتى هلكا، وخلص المكان لطيئ، فولده به الى هذه الغاية. قالوا: وسألت العجوز طيئا ممن هو؟ فقال طيئ:

إِنَّا مِنْ الْقَوْمِ الْيَمَانِيَّةِ إِنْ كُنْتَ عَنْ ذَلِكَ تَسْأَلُنَا الخ

ويقولون: إنها أول شعر قيل في طيئ، ويقولون: إن لغة طيئ هى لغة هذا الشيخ الصحرأوى وامرأته.

وهناك رواية ثالثة تتفق مع هذه فى أن طيئا كان سيد أهله إلى هذه البقعة، ونازلها بهم. وتنتفق مع الأولى فى أنه وجد الأسود بن غنار فيها، فقامت بينه وبينهم مشادة، أدت بهم إلى تحديد موعد للاقتال؛ فلما جاء الموعد انتدب طيئ ابنه جندب بن خارجة بن فطرة بن طيئ، وأمه جديلة من حمير، لقتال الأسود، فامتنع. فقال طيئ لعمر بن الغوث بن طيئ: فعليك يا عمرو الرجل فقاتله، فامتنع وقال شعرا منه:

وَإِذَا تَكُونُ كَرِيهَةً أَدْعَى لَهَا وَإِذَا يُحَاسُ الْحَيْسُ يُدْعَى جَنْدَبُ^(٢)

فقال طيئ: يا بنى إنما أكرم دار فى العرب. فقال عمرو: لن أفعل إلا على شرط ألا يكون لبنى جديلة فى الجبلين نصيب. فقال طيئ: لك شرطك ... الخ.

وتفاصيل الرواية — ولم أذكرها هنا — تلقى اعتراضا ونقدا قاسيا ممن يدعى عبید الله الفقير إليه. وبظنى أن هذه الرواية الأخيرة إنما خلقت أخيرا، لتبرير طرد جديلة من الجبلين، حين طردت منهما فى حرب الفساد، كما سيحىء ذلك بعد.

أما ابن خلدون^(٣) — فكما عهدناه — لا يعبأ بهذه القصص التى تشبه الأساطير أكثر مما تشبه الحقائق، فهو يقول: «وأما بنو طيئ بن أدد فكانوا باليمن، وخرجوا منه على أثر الأزدي إلى الحجاز، ونزلوا فيد وسميراء فى جوار بنى أسد، ثم غلبوهم على أجأ وسميى، وهما جبلان من بلادهم، فاستقرؤا بهما، وافترقوا لأول الإسلام فى الفتوحات».

وهذا الأخير أشبه بالحق والتاريخ، وإن ضاع علينا فيه تحديد تاريخ نزول طيئ تحديدا تقريبيا بالجبلين. وقد عثر هذا على دى برسفال صاحب «تاريخ العرب قبل الإسلام»، وفى أثناء

(١) يلاحظ أن هنا بين جندب وطيئ ثلاثة آباء. (٢) ويقولون إنه أول شعر بعد شعر طيئ السابق فيهم.

زمن محمد» فأبى إلا أن يستعين بالروایتين معا . فاستخدم في تحديد زمن هجرة طي^١ إلى الجبلين ، الرواية التي تقول إنهم هاجروا وعلى رأسهم أسامة بن لؤي بن الغوث بن طي^٢ ، وصرف النظر عن الروایتين الأخرين وغيرهما .

فقال إن أسامة^(١) هذا ، حفيد الغوث ، يعادل في السن حفيدا آخر للغوث ، هو نبهان ، الجد الحادي عشر من أجداد زيد الخيل . وعلى ذلك يكون قد مر على طي^٣ في الجبلين أيام إسلام زيد الخيل أحد عشر جيلا ، فولد نبهان كان على حسابه (وأسامة معه) حول سنة ٢٠٧ م ، وكان أسامة رجلا إذ ذاك ، فيكون تاريخ نزولهم الجبلين فيما بين سنتي ٢٤٥ و ٢٥٠ م . فكأنه جعل للجبل الواحد أربعة وعشرين عاما ، وهو يتبع سلسلة أخرى تقوده إلى النتيجة عينها عن طريق حاتم الطائي . وهذا جائز لو أن هذه الرواية مقطوع بصحتها^(٢) . ولكن كما ترى لا نستطيع الجزم بصحة إحدى هذه الروايات . وإن ما حولها من الأساطير ليبعث على الشك في صحتها جميعا ، وخصوصا إذا جمعت هذه الروايات إلى رواية ابن خلدون السابقة .

و خلاصة المفهوم من هذه الروايات جميعا : أن طي^٤ا يمنية ، نزلت بالجبلين قبل الإسلام بزمن ليس بالطويل جدّا ، وغلبت عليهما أسدا أو غير أسد ، وأقامت فيهما واستقرت ، وحمتهما حماية تركت لها ملكيتهما حقا مقتررا ، دعا الناس جميعا في تلك الأزمنة السحيقة إلى تسميتها جبلي طي^٥ .

٤ - جبلا طي^٦

يقول ياقوت في مادة أجا : قال الزمخشري : أجا وسلمى : جبلان عن يسار سميراء ، وقد رأيتهما ، شاهقان ... وقال أبو عبيد السكوني : أجا أحد جبلي طي^٧ ، وهو غربي فيد ، وبينهما مسير ليلتين ، وفيه قرى كثيرة . قال : ومنازل طي^٨ في الجبلين عشر ليال ، من دون فيد إلى أقصى أجا إلى القريّات من ناحية الشام ، وبين المدينة والجبلين على غير الجادة ثلاث مراحل ... وبين الجبلين وفدك ليلة ، وبينهما وبين خير خمس ليال .

ويقول في مادة العوجاء : ... وهي هضبة تتأوح جبلي طي^٩ ، أي أجا وسلمى . وعند الرواة لهذين الجبلين وتلك الهضبة قصة أيضا ، فأجا وسلمى عاشقان ، كانت تجمع بينهما حاضنة سلمى :

(١) ج ١ ص ١٠٤ (٢) هناك رواية أخرى في مروج الذهب للسعودي فيها أن الأسود بن غفار هرب ونزل بدار طي^{١٠} ، فأجاروه من حسان تبع وغيره من غير أن يعرفوه ، فيذكر أن نسله اليوم في طي^{١١} مذكور (ج ١ ص ٢١٨ - ط عبد الرحمن) .

العُجاء ، فعلم إخوة سلمى ، فتبعوا العاشقين حتى قتلوهما ، كل في جبل سُمي بعد باسمه ، وقتلت الحاضنة فوق الهضبة ، فسميت باسمها كذلك .

وهذه الجبال حصينة ، منعت أهلها ، ومنعها أهلها ، فبقيت لهم على رغم ما توالى عليهم من فارات أعدائهم ، بلاد واسعة كثيرة المياه والنخل والريف ... وهما أرض ذات شأن ... والمكان واسع ، والشجر يانع ، والماء ظاهر ، والكلأ غامر ... والتمر قد غطى كرايف النخل ^(١) .

وفي سلمى يقول : هو جبل وعمر ، به وادٍ يقال له رَكَّ : به نخل وآبار مطوية بالصخر ، طيبة الماء ، والنخل عصب ، والأرض رمل ، بحافتيه جبلان أحمران ، يقال لهما حُمَيَّان والغداة . وبأعلاه برقة يقال لها السراء ...

وقال السكوني : سلمى جبل يقرب من فيد ، عن يمين القاصد مكة ، وهو لنهبان ، لن يدخله أحد عليها ، وليس به قرى ، إنما به مياه وآبار وقُلب عليها نخل وشجرتان .

وفي هذه الجبال يقول جابر بن رألان السنيسي ^(٢) ، من شعراء الحماسة :

ونحن غلبنا بالجبال وعزها ونحن ورثنا غيثاً وبديناً

وفي ذلك قول حسان بن حنظلة الطائي :

غَضِبْتُ عَلَى أَنْ اتَّصَلْتُ بِطِيٍّ وانا امرؤ من طيِّ الأَجْبَالِ

وفيها يقول الطَّرمَّاح بن عَدِيٍّ للحسين وهو سائر إلى العراق سنة ٦١ هـ ، محاولاً منعه عن السير إلى العراق : « ... فإن أردت أن تنزل بلداً يمنعك الله به ، حتى ترى رأيك ، ويستبين لك ما أنت صانع ، فسر حتى أتئك جبلنا أجاً ، فهو والله جبل امتنعنا به من ملوك غسان وحِمْير ، والنعمان ابن المنذر ، ومن الأحمر والأبيض ، والله ما إن دخل علينا ذل قط ^(٣) » . وعن لسان طيٍّ : إنها أكرم دار في العرب ^(٤) ، فهي مكان ممتنع خصب ، به الماء والخير .

٥ - نزول طيٍّ بالجبلين

ولما خلاص الجبلان لطيٍّ نزلها بنو الغوث ، ونزلت جديلة السهل ^(٥) ، وجديلة هم أبناء جندب ، المذكور في القصة السابقة ؛ فسمى أولئك الجبلين ، وهؤلاء السهلين .

ثم مضى زمن كثروا فيه ، واضطروا إلى الإغارة على جيرانهم من أسد ، حتى اضطروهم إلى نجد ، ثم أغاروا عليهم بعدها أيضاً ، فاضطروهم إلى أن يتقهقروا مسافة ، حتى يصلوا إلى حدود الحجاز ^(٦) .

(١) ياقوت معجم البلدان ج ١ ص ١١٩ (٢) ابن الأثير حوادث سنة ٦١ هـ (٣) معجم البلدان

ج ١ ص ١١٨ (٤) معجم البلدان ج ١ ص ١١٩ (٥) تاريخ العرب لدى برسيغال ج ١ ص ١٩٣

وفي وصف ذلك التوسع والكثرة يقول ابن خلدون نقلا عن ابن سعيد : ومنهم الآن (زمن ابن سعيد) في بلادهم أمم كثيرة ، مائوا السهل والجبل ، حجازا وشاما وعراقا^(١) .
ويقول فيما بعد ذلك : وكانت الرياسة على طيئ في الجاهلية لبني هني بن عمرو بن الغوث بن طيئ .
ويقول ياقوت في الكلام عن فيد : منزل بطريق مكة ... في نصف طريق مكة من الكوفة ، عامرة إلى الآن (زمنه) ، يودع فيها الحاج أزوادهم ، وما ينقل من أمتعتهم عند أهلها ، فإذا رجعوا أخذوا أزوادهم ، ووهبوا لمن أودعوها شيئا من ذلك . وهم مغوثة للحاج في مثل ذلك الموضع المنقطع .
ومعيشة أهلها من ادخار العلوقة طول العام إلى أن يقدم الحاج ، فيبيعونه عليهم ... قال الزجاجي : سميت فيد بفيد بن حام ، وهو أول من نزلها ... وقال السكوني : فيد نصف طريق الحاج من الكوفة إلى مكة ، وهي أثلاث ... وثلاث لبني نهران من طيئ .

فالبلدة قديمة كما يرى في المنقول عن الزجاجي ، وهي إلى الشرق من أجا ، على مسير ليلتين ، « وبينها وبين الكوفة مائة وتسعة فراسخ^(٢) » .

« ومنهم بنو لام بن ثعلبة ، منازلهم من المدينة إلى الجبلين ، ويزلون في أكثر أوقاتهم يثرب »^(٣) .
أي أن منازل هذا الحي من طيئ تقع على خط القوافل الآتي من المدينة ، والقاطع لجزيرة العرب ، متجها شمالا بشرق إلى الكوفة ، مخترقا جبل طيئ الجنوبي ، مازا خلال ذلك بخير وفيد .

ولا تخفى أهمية هذا الخط ، من حيث أنه طريق المتاجر اليمنية إلى العراق وعكس ذلك . وإلى الجنوب من هذا الخط الهام ، خط آخر يكاد يوازيه ، يخرج من مكة إلى الشمال الشرقي ، منحرفا إلى الشمال انحرافا خفيفا ، يبلغ غايته في نجد ، حتى يكون فيها أقربه إلى جيل طيئ ، ثم يميل خفيفا إلى الجنوب في اتجاهه إلى الشمال الشرقي ، حتى يصل إلى البصرة .

وقد علمنا ما كان بين أسد وطيئ في نجد ، واقتحام الثانية على الأولى نجدا ، واضطرارها إليها إلى حدود الحجاز . فكان هذا الطريق الهام أيضا كانت تهدده طيئ إن لم تكن سيده .

وهذان الطريقان هما الطريقان الوحيدان ، اللذان تتفرع عنهما الطرق الأخرى التجارية في الجزيرة العربية ، فعند المدينة يسير ، غير الطريق الأنف الذكر ، طريق آخر إلى الشمال ، لا يلبث أن يتفرع فرعين ، يتباعدان قليلا في اتجاه إلى الشمال الغربي : أحدهما يقف عند العقبة ، والآخر يسترسل إلى الشام . وليس من اليمن إلى العراق أو الشام طريق غير طريق مكة والمدينة هذا ،

(١) ابن خلدون ج ٢ ص ٢٥٤ (٢) تقويم البلدان لأبي الفداء ص ٩٧ (٣) ابن خلدون ج ٢ ص ٢٥٤ وما بعدها .

إلا أن تدور القافلة حول جزيرة العرب كلها، متجهة إلى الشرق، مختربة حضرموت ومهرة وعمان والبحرين، دائرة في اتجاه لا يمكن تجنبه حول صحراء الجزيرة الجنوبية الكبرى؛ وفي ذلك ما فيه من عسرو زمن وكلفة .

قد يلقي هذا في الذهن فكرة لا بأس بها عن أهمية موقع طبي ومنازلها في الجزيرة، ويرينا من وراء ذلك مقدار الاهتمام الذي يمكن أن يشعربه الفرس في العراق، والروم في الشام، بطبي، لما كانوا يرونه من غلبتها على هذه الطرق. ولا شك أن شيئا من الاطلاع على تاريخ الفرس والرومان، وارتباطهما بجزيرة العرب، ومحاولة كل منهما السيادة فيها بقدر الإمكان، وما كان بينهما من منافسة عليها، حتى أسست كل منهما دولة عربية تتأخما على حدودها. لا شك أن هذا لا يدع الإنسان يقف عند حدّ الظن، أن كل دولة إنما كانت تبغى حماية حدودها من غارات العرب وكفى، وإنما كانت تبغى فائدة أخرى، فتأجر الهند واليمن الغنيتين، لا يمكن أن تصل إلى الشام بسهولة مثل وصولها بجزيرة العرب .

فاهتمام الفرس والروم بجزيرة العرب، إنما يرجع في أساسه إلى هذه الظروف الاقتصادية، ومن يُعْن بهذا فلا بد أن يعنى بمركز طبي البالغ الأهمية السابقة. ولسنا أمام تاريخ وإف، يوضح لنا ما كان من اشتباك بين الفرس والرومان وطبي، وإنما نحن بآزاء أحداث متناثرة في شأيا الكتب، ترى اتصالهم بالرومان وبالفرس؛ وقد تكون أحداثا جساما، يأتى إليهم ليصلح ما بينهم فيها ملك من ملوك الغسانيين، فإذا أنت نظرت في أسبابها، وجدت السبب ناقة من النوق مثلا .

قد يكون هذا معقولا، ولكنه يخط بالعرب من الناحية الاجتماعية إلى درك لا يمكن أن يتفق مطلقا مع تلك الثقافة النفسية، التي تستبينها في نظام فتحهم أيام الإسلام، وفي اتباعهم التعاليم التي كان يملئها عليهم قائلهم ودينهم حرفا بحرف، وفي الوفاء بعهودهم، ذلك الوفاء الذي هو مضرب الأمثال، والدين يومئذ طارئ على أمة لو صح ما نتصوره عن حالها لما كفته قرون زجر ووعظ وممارسة، ليبلغ من نفوسهم ذلك المبلغ العجيب .

إن أمة كهذه لا يستطيع إنسان أن يقبل ما ينقل إليه من تاريخها في تلك الأيام، على صورته تلك، هذا القبول الساذج السهل. ونحن أمام هذا التناقض مخيرون بين اثنتين: نحو التاريخ القديم جملة، لأنه يتناقض مع المتأخر ولا يجاريه، وبينهما تفاوت لا يلائم طبائع الأشياء؛ أو فهمه على ضوء التاريخ المتأخر عنه، المروى الصحيح عن الإسلام وما كان فيه، مع ملاحظة دائمة واعية

لما يلوح لنا بين سطور المنقول عن القديم . ففي المنقول إلينا عن الجاهلية غالبا ، معالم واضحة الدلالة على الحقيقة التاريخية ، ولا سيما إذا هي جردت من تخفيف العلة المنقولة ، حين تلوح إلى جانبها العلة المعقولة .

٦ - علاقة طيء بجاراتها

كان سلطان طيء يمتد من الشرق ، حتى يخالط تغلب وبكرا في ديارها ، ويمتد من الجنوب في نجد امتدادا غير معروف الحدود تماما ، وإلى الغرب حتى حدود الحجاز ، ومن الجنوب الغربي إلى المدينة ، ومن الشمال إلى الفريات من ناحية الشام .

أما القبائل التي كانت تتأوحنها ، فمن الشرق بشمال قليلا : بكر ، وتغلب النصرانية ؛ ومن الشمال بغرب قليلا : كلب في بادية الشام ، وهم أحلاف الروم ، كما يقول دى برسيغال في تاريخه ؛ ومن الجنوب بغرب : أسد في نجد أولا ، ثم بانحراف إلى الغرب بعد ذلك .

وتاريخ طيء في الجاهلية يتصل بهؤلاء جميعا ، كما يتصل بالحيرة وفيها ملوك اللخميين ، وبالشام وفيها الغساسنة . ولم تكن القبائل المحيطة بها حوائل بينها وبين الشام ، أو بينها وبين الحيرة . فالطائيون كثيرو النشاط ، كثيرو الحركة منذ القدم . وفي تاريخ ابن خلدون^(١) : أن تبعا أبا كرب لما غزا العراق أيام أردشير بهمن ، كانت طريقه على جبل طيء ، ومنه إلى الأنبار ، وانتهى إلى موضع الحيرة ليلا ، فتحيروا ، وأقام ، فسمى المكان الحيرة ، ثم سار لوجهه ، وخلف هنالك قوما من الأزد ولحم وجذام وعاملة وقضاة ، ووطنوا ولحق بهم ناس من طيء و ... الخ .

وقال أبو عبيدة : « جاء الإسلام وليس أحد أعز دارا ، ولا أمتع جارا ، ولا أكثر حليفا من شيان ، كانت ... وكانت عكرمة من طيء ... في بني الحارث ... وبنو حبت من طيء في بني تميم ... كل هذه قبائل وبطون جاورت شيان ، فعزت بها وكثرت »^(٢) .

ولما هزمت جديلة في حرب الفساد - هزمتها أختها الغوث - خرجوا عن الجبال ، فلحقوا بـكلب ، وحالفوهم وأقاموا فيهم عشرين سنة^(٣) . ويزيدنا ابن حزم في جمهرته إيضا فيقول : إن جديلة وحبيش والأسعد رحلوا كلهم عن الجبلين في حرب الفساد ، فلحقوا بـكلب . ويقول دى برسيغال : إنهم نزلوا حول قنسرين - والبلدتان متقاربتان - وذلك بعد جفاء أنسوه من كلب^(٤) . ويقول ابن خلدون : إن كسرى لما قتل النعمان بن المنذر ، أداله بإياس بن قبيصة الطائي ، وأنزل طيئا بالحيرة مكان لحم^(٥) .

(١) الأغاني ج ١١ ص ١٢٧

(٢) ابن الأثير ج ١ ص ٢٧٩

(٣) ج ٢ ص ٢٣٧

(٤) ابن خلدون ج ٢ ص ٢٥٤ وما بعدها .

(٥) ج ٢ ص ٦٢٩

هذه طي في الجاهلية وقبيل الإسلام ، وما كانت تشغل من مكان . ومنها نرى أن قبيلة منهم كان متصلا اتصالا وثيقا بالغسانيين ، وقبيلة كان متصلا أيضا اتصالا وثيقا بالخميين في الحيرة . ولنبدأ بترسم اتصالهم بهما .

(١) علاقتها بالحيرة : أما اتصالهم بالحيرة فواضح جدًا ، فقد رأينا أن أناسا منهم كانوا يقيمون بها منذ غزوة تبع أبى كرب لها ، كما ذكرت .

وفى ابن الأثير أن عمرو بن المنذر غزا مرة ومعه زُرارة بن عُدس التميمي ، فأخفق ، فلما كان بجبال جبلى طي قال له زُرارة : أى ملك إذا غزا لم يرجع ولم يصب ، فإل على طي ، فإنك بجبالها . فقال إليهم ، وقتل وأسر وغنم ، فغرقها له طي ، حتى إذا كان يوم قتل فيه رجل من بنى عبد الله بن دارم التميمي أبنا لعمر بن المنذر ، كان يربى عند زُرارة ، أخذ في تحريض عمرو بن المنذر على زُرارة شاعر من طي ، اسمه عمرو بن مَلِقط الطائي في شعر منه :

فَأَقْتُلْ زُرَّارَةَ لَا أَرَى فِي الْقَوْمِ أَوْفَى مِنْ زُرَّارِهِ

ويزيد صاحب الأغاني على ذلك أشياء ، منها أن عمرا امتنع عن ذلك أولا ، وقال لزُرارة لما أشار عليه بغزو الحى من طي : ويلك ! إن لهم عَقْدًا ! أما العقد الذى يشير إليه فيقول : إنه كان عاقد هذا الحى من طي (وليس طيئا كلها) ، على ألا ينازعوا ولا يفاخروا ولا يغزوا . ويقول : إن غزوة عمرو هذه كانت لليامة .

وإن ملكا ينكت بالعقد بهذه السهولة ، لأن زُرارة حرصه لغير سبب سوى هذا السبب الساذج ، لأمر مستبعد . وأقرب احتمالا منه أن يكون اتصل به أنهم تقضوا عهده من زُرارة هذا . أما فى أيام النعمان بن المنذر فالعلاقة أمتن . فقد كان النعمان جعل لبني لام بن عمرو بن طريف ابن عمرو بن ثُمَامَة ... بن جُنْدَب بن خارجة (وهم من جديلة) ربع الطريق طعمة لهم . ويعلل ذلك بقوله : وذلك لأن بنت سعد بن حارثة بن لام ، كانت عند النعمان ، وكانوا أصهاره .

والأمر على ما أرى منمكس ، فهو إنما صاهرهم ليتألفهم ، وأن ذلك لم يكن إلا بعد محاولات وحروب ، وإنا لنجد رجلا اسمه أوس بن سعد يقول للنعمان : « أنا أدخلك بين جبلى طي حتى يدين لك أهلها » .

وقد رأينا قبل ذلك كيف أن الملك انتقل إلى إياس بن قبيصة الطائي بعد النعمان، وأن كسرى نقل طبيئا إلى الحيرة مكان لحم، وإياس بن قبيصة هذا من الغوث .

من هذا كله تتبين الصلة بين الفرس وطبي، واشتباكها الوطيد بهم، وإنما يرجع ذلك إلى أهمية موقع طبي بالنسبة لطرق القوافل، التي تخترق الجزيرة العربية .

(ب) علاقة طبي بالغسانيين : قلت فيما مضى إن المقترين من طبي إلى النعمان في ملكه، كانوا من بني جديلة من طبي، وإن الذي ملك على الحيرة بعد النعمان هو إياس بن قبيصة، وهو من بني الغوث من طبي . ولا بد لهذا التحول من أصل غير مجزء المصاهرة بين النعمان وجديلة . وقد يكون هذا راجعا إلى عدم قبول بني الغوث النعمان في جبلهم لما طارده كسرى .

وهناك شيء آخر، ذلك هو التجاء جديلة من طبي إلى بلاد كلب وحلب، وكتب حلفاء للرومان كما يقول ابن حزم، أو خاضعون لهم كما يقول دى برسيغال، فلم اختارت جديلة الشام خاصة ؟ وأمر ثالث : ذلك أن ابن الأثير يقول في حديثه عن يوم اليحامي (قارات حوق) ^(١) :

« وهو بين قبائل طبي بعضها في بعض، وكان سبب ذلك أن الحارث بن جبلة الغساني كان قد أصلح بين طبي، فلما هلك عادت إلى حربها » .

فهذا ملك من ملوك الغسانيين يتوسط في الصلح بين بعض طبي وبعض، والمعروف أن ما وقع بين طبي من حروب، هي المسماة بحرب الفساد . فما دخل الحارث بن جبلة في الأمر أولا ؟ وما علة اختيار الشام خاصة مهاجرا، بعد هذا اليوم الذي يكمل حربا توسط فيها هذا الملك الغساني ؟ وما قيام الغوث في الحيرة بالأمر بعد النعمان صهر جديلة، وخصوصا إذا عرفنا أن إياسا كان حكمه في الحيرة حول سنة ٦٠٢ م . وحرب الفساد وقعت حول سنة ٦١٠ م ؟ ^(٢)

يجيب عن هذه الأسئلة كلها ما يأتي من تفصيل العلاقة بين طبي والفرس وبينها وبين الروم .

(ج) علاقة طبي بالفرس والروم : كانت جزيرة العرب محل نزاع بين الدولتين العظيمتين اللتين تتناحرنهما، وكانت أداة من أدوات الصراع الهائل المشبوب بينهما أبدا، فكل منهما تحاول

(١) ج ١ ص ٢٩٣ (٢) مادة طبي في دائرة المعارف الإسلامية : « ومن اللاجئين إلى الروم في الإسلام أيضا حريث بن زيد الخليل، لقتله أبا سفيان الفهري، رجلا كان أرسله عمر بن الخطاب يستقرى أهل البادية القرآن، فاستقرأ أوس ابن خالد بن منب بن عبد رضا، فلم يدر شيئا، فضر به فقتله، فوثب حريث على أبي سفيان فقتله، ثم هرب، فلحق بأرض الروم، فمات هناك » . جمهرة ابن حزم .

أن تسود فيها، وكانت طبيعة موقع كل منهما، تدعوه إلى السيادة على جزء من أجزاء هذه الجزيرة، فسلطان الفرس يمتد في شرق الجزيرة العربية، مما يلاصق حدودهم في العراق وعلى خليج فارس؛ فكان المنذر بن النعمان ملكاً، ملكه كسرى على عمان والبحرين واليمامة، إلى الطائف وسائر الجحاز^(١).

وكانت الرومان تبسط نفوذها على الشام ومن فيه من العرب، وعلى ما يلاصق حدودهم من الجزء الشمالى في جزيرة العرب، وفيه كلب حليفهم؛ وكان على أعراب الشام خالد بن جبلة الغساني. وينسب ابن الأثير اجتياح كسرى الأول للشام وفتحها إياها إلى خصومة بين هذين الملكين العربيين^(٢).

وذلك في حكم كسرى أنوشروان على الفرس، وحكم جستنيان على الروم، وهما الملكان المتعاصران (٥٣١ - ٥٧٩ م)^(٣).

وكلاهما كانت تمثل فيه تلك الخصومة الكائنة أبداً بين الشرق والغرب، وكلا الأمرين العربيين كان يمثل سياسة صاحبه، ويجهد في التغلب على الآخر. ولم تكن جزيرة العرب بالأرض السهلة، التي يستطيع إخضاعها لسلطان واحد، وإجراء الأحكام عليها مجرى النفوذ الدائم، للتقطع الطبيعي البادى بين مقامات الناس فيها، فكانت خير الوسائل هى سياسة استمالة القبائل، تنجح إليها كل من الدولتين المتنافستين. وكانت طبيّ قسمين: الغوث وتقيم بالجلال، وجديلة وتقيم بالسهول، ولما اتسعت انبساطاً فيما حول الجبال من الأرض. ويظهر أن طبيّاً في جملتها كانت أميل إلى مخالفة الفرس. فكان الغسانيون يلحون عليهم بالغارة محاولة لإخضاعهم. وفي الاشتقاق: أن معتراً أحد فرسان الغوث، قتل ملكاً من غسان كان غزاهم^(٤)، فكان أكثر طبيّ تعرضاً لغاراتهم جديلة، كما أن مقام جديلة في السهل، واتصلهم بكلب حليفة الروم، كان يقرب بينهم وبين الروم، فكانت جديلة أكثر ميلاً إلى مخالفة الروم، لتأمن هذه الغارات المنظمة على أرضهم؛ أما الغوث فكانت تتمتع بجبالها، فلا يكاد الغسانيون ينالونهم بشيء، ولذلك بقيت على ولائها للفرس، فكانت القبيلة منقسمة إلى هذين الشطرين.

(١) ابن الأثير، ج ١ ص ١٩٤ (٢) ابن الأثير، ج ١ ص ١٩٤ : (يقول: "إن خالداً هاجم المنذر فقتل من قومه أناساً فأرسل كسرى إلى غسطانيوس (جستنيان) يذكره ما بينهما من العهد والصلح ويعلمه مالى المنذر ويسأله أن يأمر خالداً برّد ماغنم، ودفع دية من قتل، وإلا انتقض الصلح. فلم يرّد. فراجعهم فلم يحفل به. فاستعد وغزاه، وكان طريقه على الجزيرة، فأخذ مدن دارا والرها. وعبر إلى الشام، فلك منبج وحلب وأنطاكية... وحص وسدنا كثيرة متاخمة لهذه المدائن... وأما سائر مدن الشام فان غسطانيوس ابتاعها بأموال عظيمة") (٣) (Outline of history: Wells)

(٤) الاشتقاق ص ٢٢٨

وكانت فارس لا يفوتها أن تجتذب جديلة، فهي تسعى إلى ذلك . ومن هنا يأتي إصهار النعمان ابن المنذر ملك الحيرة إلى بنى لام من جديلة، وإعطائهم ربع الطريق طعمة لهم .
ولكن ذلك الحلف لا يدوم ، لعامل خفى لا نعرفه ، قد يكون نتيجة محاولة جديدة من الروم أن يضموا جديلة إليهم ، ويكون ذلك لنكبتهم في صهرهم النعمان عند كسرى ، وغضب كسرى بهم وحرمانهم ما كانوا يأخذونه من دخل ربع الطريق .

وعلى أثر ذلك تقوم حرب الفساد بين الغوث و جديلة ، حول سنة ٦١٠ في ولاية إياس بن قبيصة على العراق ، بعد النعمان بن المنذر . وإيس من الغريب أن تقوم هذه الحرب بين هذين الحيين من القبيلة الواحدة تفرق بينهما السياسة ، في زمن يقوم فيه أيضا ذلك الصراع العنيف بين دولتي الفرس والرومان . ففي ذلك الوقت نفسه كانت انتصارات كسرى الثاني (كسرى أبرويز = ٥٩٠ - ٦٢٨ م) تترى على الروم ، وجيوشه تكتسح أنطاكية ودمشق ، وتسقط في أيديهم مدينة بيت المقدس سنة ٦١٤ م ، ويأخذون منها الصليب المقدس كما يقولون ، حتى يقف سورة هذا الفتح هرقل من ابتداء سنة ٦٢٣ م ، ويضع له حدا في نينوى سنة ٦٢٧^(١) ، وليس من الغريب أن تلجأ جديلة إلى كلب حول هذا الزمن ، ثم تفارقهم ، فتزل حول حلب بعد انتصار الروم على الفرس واسترجاعهم الشام . أما الغوث فهي مع الفرس ، ينقذ أحدها ، وهو حسان فارس الصيب ، كسرى أبرويز على فرسه ، في حرب بينه وبين قائد يثور به من قومه ، هو بهرام شوبين^(٢) . وتشترك في الحرب مع الفرس في هجمة الروم على النهروان ، حتى يقول صاحب الاشتقاق عن إياس بن قبيصة الطائي من الغوث : إنه "هزم الروم لما نزلوا النهروان في أيام برويز"^(٣) .

فوقف طبي في الحرب بين فارس والروم لم يكن سائبا . ولم يقف عند حد الصراع بين بعضها بعض ، ولكنه تعداه الى الاشتراك العملي في الحرب القائمة حينئذ بين الدولتين .
والحرب بين طبي وبعضها وبعض لم تكن إلا جزءا من ذلك الكفاح بين الفرس والرومان ، ولا أغالى إذا قلت إن شيئا من الظن يلوح للناظر في هذا بأن جزيرة العرب كلها كانت قسما من ميدان الحرب القائمة بين هاتين الدولتين ، وأن نهضة العرب بعد ذلك لم تكن إلا نتيجة تلك الانفعالات القاسية التي تبته الأثم للعمل ، وتوقظها من السبات ، وتجمع بين أشتاتها ، وتكون مصدرا لإلهامها . آلا جساما ، بتحميلها آلاما جساما .

في هذا كله ما يدل على الاتصال السياسي بين طبي، بل هذا الحى من طبي خاصة، وهو جديلة، وبين الغسانيين . وفيه ما يثبت ما قلت من اشتراك طبي اشتراكا عمليا ببطنيها في سياسة هاتين الدولتين . وفيه أيضا تفسير واضح لتلك الأموال الغزيرة ، التي كانت تُتدفق على الطائيين ، لأنهم حماة جزء هام جدا من الطريق التجارى بين اليمن والحيرة ، وبين اليمن والعراق .

وفيه تفسير لذلك النزاع الهائل ، الذى كان يشب بين الأخوين ويفرق بينهما . وفيه تفسير تلك الحروب التي كانت تقوم بين طبي وجارتها .

وليس تفسير ذلك كله في قصة الجمل ، الذى أبى صاحبه أن يدفعه إلى آخر من طبي قبيلته ، فثارت بينهما الحرب المسماة بحرب الفساد ، فتدخل الحرث بن جبلة ليصلح بينهما . كما أن هناك ظاهرة غريبة . تلك هى لجوء الفارين من طبي إلى الشام ، وزول شعراء منهم بالغسانيين ، فأبوزبيد الطائي قصد فى الجاهلية الحارث بن أبي شمر الغساني^(١) . والبرج بن مسهر الجلاس الطائي اقتض أخته فى سكر له ، وكان نازلا بغطفان هو وجماعة من طبي ، فلما ظهر أمره ركب رأسه ، ونرج من بين أظهرهم ، ولحق ببلاد الروم ، فلم يعرف له خبر^(٢) .

والصلة واضحة بين طبي وبين الروم من كل ما سردته . فاذا آتيت طبي أسماء رومية ، فلا غرابة فى ذلك . هذا لو صح أن اسم والد أبي تمام هو تدوس .

صلة طبي بالقبائل العربية : أما صلة طبي بالقبائل العربية ، فقد كانت صلة تحالف أحيانا ، وصلة تحارب أحيانا . ففى برسيرال أنهم كانوا حلفاء أسد . وقد كان يشب ما يهبط هذا الحلف فيتحاربون .

وفى الأغاني نجد أنه كانت لهم مغاورات مع عبس ، ومنها تلك الموقعة التي تبنى فيها عنترة أبوه بعد إنكار^(٣) . وكان بينها وبين غنى موقعة ، أوقعت فيها غنى بطبي ، وكانت الموقعة بين القنان وشرق سلمى ، وفيها يقول طفيل الغنوى شعرا ، منه :

فدوقوا كما ذقنا غداة مُحجَّر من الغيظ فى أكبدا والتحوي^(٤)
فبالقتل قتل ، والسَّوام بمثله ، وبالشل شل العابط المتصوب

قال أبو عمرو الشيباني: وكان زيد الخيل ملحقاً على بني أسد بغاراته، ثم على بني الصيداء منهم^(١)، وكانت له غارات في جموع من طبيّ على بني عامر. وكان لبني عامر أيضاً غارات على طبيّ ثاراً لهذه، وقد وقع في يده في غارة من هذه الغارات الخطيئة الشاعر، فجز ناصيته وأطلقه. وله غارات على سليم وفزارة.

٧ - منزلة طبيّ

أما منزلة طبيّ فقد رأينا من قبل منعتها في مقاماتها وغناها. وتلك جميعاً أساس العظمة النفسية والسمو الخلق. وإن خير ما يؤدّي صورة عن طبيّ هو قول زيد الخيل فيها لعمر بن الخطاب، لما دخل زيد إلى النبي صلى الله عليه وسلم في بعث قومه عام الوفود، قال: "في كلّ يا عمر نجدة وبأس وسيادة... أما بنو حية فملوكنا وملوك غيرنا... وهم القادة، والحماة الذادة... الخ. فقال عمر: ما تركت لمن بقي من طبيّ شيئاً، فقال: بلى والله، أما بنو ثعل وبني نهران وجرم ففوارس الغدوة، وطلاعو نجوة... الخ وأما بنو جديلة فأسهلنا قراراً، وأعظمنا أخطاراً... الخ ثم عدّد رجالاً من رجالهم، وصف كلا منهم بصفة، ومضى في ذلك، فاعترض رجل من بني ثعل لما مدح زيد حاتمًا، وقال: ومنا زيد بن مهلهل النبهاني، سيد الشيب والشبان، وسمّ الفوارس... أسرع إلى الإيمان، وآمن بالفرقان، رئيس قومه في الجاهلية وفي الإسلام، رائدنا إلى رسول الله عليه السلام... ومنا الأسد الرهيص^(٢)".

ومنها حاتم بن عبيد الله الكريم المعروف، وحكاياته أشهر من أن يعترف بها أحد، ويقال في الوصف: لهم جرأة بني الحارث، وفتك مراد، وبأس زبيد، وكيد جعف، ومغار طبيّ. ويمتاز خلق الطائيين بحلاوة وسموّ، وسماحة بالغة ووفاء.

٨ - عبادات طبيّ قبل الإسلام

"كان لطبيّ صنم يقال له الفيلس، وكان أنفاً أحمر في وسط جبلهم الذي يقال له أجأ، أسود كأنه تمثال إنسان. وكانوا يعبدونه، ويهدون إليه، ويعترون عنده عتائرهم، ولا يأتيه خائف إلا آمن عنده، ولا يطرد أحد طريدة فيلجأ بها إليه، إلا تركت له، ولم تخفر حويته^(٣)، وكانت سدنته بني بولان، وبولان هو الذي بدأ بعبادته، فكان آخر من سدنه منهم رجلاً يقال له صيفي^(٤)، وقد أخفّره

(١) الأغاني ج ١٦ ص ٤٦ وما بعدها. (٢) النص في الأغاني ج ١٦ في ترجمة زيد الخيل.

(٣) الحوية كغنية: الدائرة، أي ولم يصن حقه. (٤) الأصنام لابن الكلبي ص ٥٩

رجل شجاع شريف الحكاية ذكرها الكلبي ، فلم يصبه شيء وعدى بن حاتم يومئذ عنده ، فترك عبادة الصنم . ” ولم يزل الفيلس يُعبد حتى ظهرت دعوة النبي عليه السلام ، فبعث إليه على بن أبي طالب ، فهدمه ، وأخذ سيفين كان الحارث بن أبي شمر الغساني ملك غسان قلده إياهما ، يقال لهما مخدّم ورُسُوب ، فقدم بهما على النبي ، فتقلد أحدهما ، ثم دفعه إلى علي بن أبي طالب ، فهو سيفه الذي كان يتقلده .^(١) أما ابن هشام في السيرة فيقول أن زيد الخيل هو الذي أهدى السيفين إلى النبي في مقدمته عليه . ” وذكر بعض الرواة أن رُضا كان بيتا لبني ربيعة بن كعب بن زيد مناة ، فهدمه المستوغر^(٢) . ”^(٣)

ومع ذلك فإنه يذكر كمعبود لطبي في مواضع أخرى كالآغاني ، وفي أجداد بعض الطائيين من يسمى رُضا ، يمد ويقصر .

هذه عبادة من عبادات طبي ، وهي الوثنية .^(٤) وكان في طبي أيضا النصرانية ، فإن عدى بن حاتم بعد الحادثة الماضية وإخفار الفيلس ، تنصر ، وهو يقول عن نفسه : ما من رجل من العرب كان أشد كراهية لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين سمع به منا ، أما أنا فكنت أمرا شريفا ، وكنت نصرانيا ، وكنت أسير في قومي بالمرباع^(٥) . فكنت في نفسي على دين ، وكنت ملكا في قومي ... فلما سمعت برسول الله صلى الله عليه وسلم كرهته . فقلت لغلام لي عربي ، وكان راعيا لإبلي ، أعدد لي مراحلي ، أجمالا ذُللا سمانا ، فاحتبسها قريبا مني ، فإذا سمعت بجيش لمحمد قد وطئ هذه البلاد ، فأذني ، ففعل ...^(٥)

ثم هرب إلى الشام تاركا أخا له ، أخذها الجيش المسلم إلى رسول الله ، فأطلقها إكراما لأبيها . ومن النصاري فيهم أبو زُبَيْد الطائي الشاعر المعروف ، وهو ممن أدرك الجاهلية والإسلام ... وكان من زوّار الملوك ، وكان عثمان يدين مجلسه برغم نصرانيته .^(٦) ومنهم أيضا وَزَر بن سدوس : لما سمع بالنبي خلق رأسه ، وتنصر ، وهرب إلى الشام .^(٧)

ويرى دي برسيغال أنه كانت فيهم يهودية . وربما استؤنس لذلك بما يقال من أن كعب بن الأشرف شاعر اليهود ، الذي كان يهجو النبي ويحترض عليه المشركين في المدينة ، حتى أمر النبي به فقتل ،

(١) الأصنام : ص ٦١ و ٦٢ (٢) الروض : ج ٢ ص ٣٤٢ (٣) الأصنام : ص ٣٠

(٤) وهو أن يأخذ ربع المغنم . (٥) الروض الأنف : شرح السيرة ص ٣٤٣ من ج ٢

(٦) الآغاني : ج ١١ ص ٢٣ (٧) الروض الأنف : ج ٢ ص ٣٤٢

كان أبوه من طيء^(١) . كما أن خير كانت في مكان تبسط فيه أيدي الطائيين إلى حد بعيد ، وهي قرية جدًا من جبال طيء ، وعلى الطريق بين المدينة وبينها .

ويقول برسيغال أيضا إنهم كانوا يتوجهون من النجوم إلى سهيل^(٢) .

وقد ظلت طيء متصلة بالنصرانية اتصالاً محكمًا ، حتى بعد الإسلام ، فكانوا في ظروف كثيرة ينضمون إليها ، فتعلبة منها كانوا في الشام مع الصليبيين في هجماتهم عليها ضد المسلمين^(٣) ، وذلك في أيام السلطان صلاح الدين الأيوبي . ويبدو أن النصرانية في طيء كانت تلى الوثنية من حيث الانتشار ، وتليهما اليهودية ، وتلك نزر يسير .

٩ - طيء في الاسلام

(١) إسلام طيء : يكتنف إسلام طيء غموض في كيف أسلمت ؟ فزيد الخيل يأتي النبي على رأس وفد ، فيستقبله النبي ويثني عليه ثناء جمًا ، ويسميه زيد الخير ، ومع ذلك فنحن نسمع أن عليا رضي الله عنه قد ذهب إلى جبال طيء في خمسين أنصاريًا ، على قول دائرة المعارف الإسلامية ، لكسر صنمهم الفلّس . وفي القصة أنه أحضر معه ابنة حاتم أسيرة ، وهي أخت عدى ، ثم أطلقها النبي . فالوفد معناه إسلام القبيلة ، واستحضار الأسرى معناه مقاومتها للمسلمين ؛ ولو قاومت طيء لما كفى لحربها على ومعه خمسون أنصاريًا ؛ فلا يبقى إلا أن عليا ذهب لكسر الصنم ، في قبيلة أسلمت إلا قليلا منها كعدى بن حاتم ، الذي سار إلى الشام تاركًا أخته ، فأخذها الإمام علي ، لأنها لم تسلم ، وأخوها لم يسلم أيضا .

ولكن تبقى القصة التي تقول إن عليًا رآها جميلة ، ولم يكن يعرفها ، فكاد يطالبها من النبي ، ولكنها كلمت النبي ووصفت له أباها ، فقال لها : يا جارية هذه صفة المؤمن ، وأطلقها^(٤) . فإن هذه تدل على أن عليًا لم يعرفها ، مع أنه هو الذي أتى بها إن صححت الرواية .

وهناك رواية أخرى في الروض الأنف ، أنها كلمت النبي مرتين ، فأغضى عنها ، فلما كان ثالث يوم كادت لا تسأله ، ولكن رجلا أشار إليها أن تعيد عليه الطلب ثانيا ، ففعلت ، فلما سألت عنه بعد ذلك أخبروها أنه علي بن أبي طالب . فهي الأخرى لا تعرف عليا ، فكيف يكون هو الذي أتى بها من طيء ؟

(١) الأغاني ج ١٩ ص ١٠٦ (٢) برسيغال : تاريخ العرب قبل الاسلام . (٣) البيان والاعراب للقريري .

(٤) الأغاني ج ١٦ ص ٩٣

الواضح أن في الأمر اضطراباً، والمفهوم إجمالاً أن طيئاً أسلمت من غير حرب، وأن عدى بن حاتم أسلم هو الآخر، وجعله النبي على زكاة طيئ وصدقها ومعه آخران، وذلك عام الوفود؛ وكان على رأس الوفد الذي جاء من طيئ للنبي زيد الخيل، وقد كتب له النبي، فقطع له فيد وأرضين معها، ولكنه مات في الطريق^(١). وأسلم كل من جاء إلا وزر بن سدوس، فإنه قال: إني لأرى رجلاً يملك رقاب العرب، ولا والله لا يملك رقبتى عربى أبداً، ثم لحق بالشام، وتنصر وحلق رأسه.

هذا عن إسلام طيئ كلها، على ما يظهر. أما أنه كان هناك منها أفراد مسلمون قبل ذلك، فذلك يفهم مما يذكره الواقدي عن أربعة من المنافقين سبقوا النبي إلى تبوك قبل غزوها، منهم الحارث بن يزيد الطائي^(٢).

وفي غزوة تبوك نجد رجلاً طائياً مسلماً يقول شعراً، واسمه بجيرة بن بجرة^(٣). وفي غزوة تبوك ممن لهم السبق في الإسلام، واشتركوا في بدر الكبرى، نجد رجلاً اسمه أبو مخشي الطائي^(٤)، وكان حليفاً لبني حجر آل بني سليم المسلمين والغازين في بدر، وعدتهم ستة عشر رجلاً. "وممن له صحبة من الطائيين جرير بن أوس بن حارثة بن لام الطائي، وابن أخيه عروة بن مضر بن أوس بن لام الطائي، له صحبة ورواية"^(٥).

(ب) طيئ زمن الردة: يقول ابن الأثير^(٦): لما مات النبي... وسير أبو بكر جيش أسامة، ارتدت العرب عامة أو خاصة، إلا قريشاً وثقيفاً. واستغلف أمر مسيلمة وطلحة (الأسدي). "وتبع طليحة كثير من العرب عصبية، ولذلك كان أكثر أتباعه من أسد (قومه) وغطفان وطيئ... وسارت فزارة وغطفان إلى جنوب طابية، وأقامت طيئ على حدود أراضيهم"^(٧).

وكان انضمام طيئ إلى أسد في هذا الحلف كان بينهم، لم يروا أن ينكثوا به، وكان طليحة يقيم بزخا، وهو ماء لأسد، "فأرسل إلى جديلة والغوث من طيئ يأمرهم بالحقاق به، فتعجل إليه بعضهم، وأمروا قومهم بالحقاق بهم فقدموا على طليحة"^(٨).

ويظهر أن عدى بن حاتم لم يكن فيهم يومئذ، فقد كان ذهب بصدقاتهم إلى المدينة، فلما عقد أبو بكر رضي الله عنه لخالد اللواء، ووجهه إلى طليحة، أمره أن يبدأ بطيئ، ومنهم يسير إلى بزخا.

(١) الروض الأنف ج ٢ ص ٣٤٢ (٢) الروض الأنف ج ٢ ص ٣١٦ (٣) الروض الأنف ج ٢ ص ٣٢٠

(٤) الروض : الأنف ج ٢ ص ٩٥ (٥) جمهرة الأنساب لابن حزم . (٦) ج ٢ ص ١٦٥

(٧) ص ١٦٦ ولم نجد مكاناً باسم طابية في المعاجم ولكن في ياقوت "طابة" مكان من أرض طيئ . فلهذا المراد .

(٨) ص ١٦٨ (٩) معجم البلدان : ياقوت . (١٠) ابن الأثير، ج ٢ ص ١٦٧

”استمهلته عدى“، وقدم على طي، فدعاهم وخوفهم فأجابوه، وقالوا له: استقبل الجيش: (جيش خالد)، فأخره عنا حتى نستخرج من عند طليحة منا، لثلاث يقتلهم، ففعل، وأرسلت طي إلى إخوانهم عند طليحة، فاجتقوا بهم، فعادت طي إلى خالد بإسلامهم، ولحق بالمسلمين ألف راكب منهم، فكان خير مولود في أرض طي^(١).

وكانت طي شديدة النصب للوفاء بحلفهم لأسد، فرأوا أن يكفوا خالد بن قيس بدلا من حرب أسد، لما بينهم وبين أسد من حلف يدعوهم إلى كف أيديهم عنهم، وعارض في هذا عدى بن حاتم قائلا: ”لو نزل هذا على الذين هم أسرى، الأذنى فالأذنى، لجاهدتهم عليه“ ولكن خالد رأى أن يذهب عدى معهم إلى من هم لقتلهم أنشط^(٢).

ويقول ابن الأثير في مكان آخر، في الكلام على حروب الردة: إن خالد لما انتصر، لم يقبل من أحد من أسد وغطفان وطي وسليم وعامر، إلا أن يأتوه بالذين حرقوا وقتلوا وعدوا على المسلمين في حال ردتهم، فأتوه بهم، فمثل بهم، وحرقهم، ورصنهم بالحجارة، ورمى بهم من الجبال، ونكسهم في الآبار.

وفي الكلام عن أم زمل: ”واجتمع أفلال غطفان وطي و... إلى أم زمل، فلما بلغ خالد أمرها سار إليها، فاقتتلوا قتالا شديدا، فقتلت“.

ويستخلص من هذا كله، أن طي ارتد أكثرها عن الإسلام بعد موت الرسول، ومنعوا الزكاة، وبقى ناس منهم على إسلامهم.

فأما المرتدون فكانوا فئتين، فئة لزمت حدود بلادهم، لا يضيقون على ما يظهر بشيء، قدر ما يضيقون بالزكاة، فهم يمنعونها، ولكنهم لا يتوسلون بقتل ولا نهب في مقاومة الإسلام، وفئة أعملت في المسلمين السلب والنهب والتحريق، وأولئك رأينا ما كان من خالد في عقوبتهم، فلما انتصر خالد هرب منهم أفلال إلى أم زمل، فقاتلوا معها حتى قتلت. والواضح أن أولئك المرتدين المقاومين منهم لم يكونوا كثيرين.

(ج) طي في الفتوح: ثم جاء عصر الفتوح، وقام العرب بنصيبهم الضخم في تكوين تلك الحلقة من سلسلة النشوء الإنساني، وساروا بذلك الجهد المقدور الذي لا يرد، يسحقون الممالك، ويدوسون التيجان، ويهزون ذلك العالم الذي استغرقه سبات قرون طوال ليفيق، وقامت طي

بنصيبها فيهم ، فهم يشاركون في فتوح الممالك ، ويتفزون في البلدان ، ففي الشام منهم قوم ، وهم بها خيرون ، فمن قبل نزلت بها جديلة منهم بعد حرب الفساد ، وكان يتتابع إليها من الغوث أناس ، لشئون أبنت بعضها فيما سبق . وفي العراق منهم قوم يفتحون ويجهلون ، فالسلي بن زيد بن مالك ابن المعلى السنيسى يغرق يوم اجتاز المسلمون دجلة إلى المدائن ، لا يغرق من المسلمين غيره .^(١)

ويقود خالد بن الوليد جيشه محترقا به بادية السماوة ، سائرا من العراق إلى الشام ، ودليله رافعة ابن عميرة ، وهو يومئذ بها خير خبرة تفجر لسان شاعر عربي ، فيقول فيه :
لله عينا رافع أتى اهتدى فوز من قراقر إلى سوى^(٢)

حتى إذا تم الفتح للمسلمين ، واستقروا بالممالك المفتوحة ، استقرت طبي استقرارهم ، فمنهم بالموصل بنو أحمد بن الحارث بن ثمامة بن مالك بن جدهاء .^(٤) قال ابن سعيد : ومنهم في بلادهم الآن أم كثيرة ، ملئوا السهل والجبل ، حجازا وشاما وعراقا ... وهم أصحاب الدولة في العرب لهذا العهد في العراق والشام ، وبمصر منهم سنيس والتمالب بطنان مشهوران . ومنهم زبيد بن معن بن عمرو ... بن سلامان ابن تعل في برية سنجار :^(٥) (من ديار ربيعة بين دجلة والفرات) ... ويجهة بنيامين والشام بنو صخر . ومن بطونهم غزية المروهب صولتهم بالشام والعراق ... وبنو غزية كثيرون وهم في طريق الحاج بين العراق ونجد .^(٦)

ويقول المقرئى « إن ثعلبة بن سلامان من طبي بقيت حتى أيامه بالشام ، مما يلي أرض مصر إلى الخربة ... وكانوا يدا مع الإفرنج لما ملكوا البلاد في الإسلام » .^(٨) والإشارة في ذلك إلى الحروب الصليبية قبيل صلاح الدين وفي أيامه . ويقول أيضا إن ثعلبة هذه وطائفة من جرم أتتا إلى مصر بعد أن فتح صلاح الدين الأيوبي بلاد غزة .

وفي ابن حزم : أن سدوس (بضم السين في طبي ، وفي غيرها بفتحها) تنزل الأندلس . وفيه أيضا : أن من ولد الطرماح الأكبر ، وهو ابن عدى بن حاتم ، كان أبو مالك أبان بن الصمصامة ابن الطرماح ... وكان راوية الأشعار واللغة ، ساكنا بالقيروان بإفريقية . وكان عمرو بن زيد الخيل على جيش لفتح

(١) جمهرة الأنساب لابن حزم . (٢) رافعة في ابن حزم ورافع في الاشتقاق لابن دريد . (٣) ابن دريد الاشتقاق ص ٢٣٣ (٤) ابن حزم يكتبها جدهاء وابن دريد يكتبها جدهاء . وعبارة ابن حزم بعد هذه قد تشعر أنهم كانوا هناك أيضا في الجاهلية ، فهو يقول : وأبوهم سى أحمد في الجاهلية .

(٥) تقويم البلدان لأبى الفداء ص ٢٨٢ (٦) ابن خلدون ج ٢ ص ٢٥٤ وما بعدها .

(٧) حصن بسواحل الشام مشرف على عكا (ياقوت) . (٨) البيان والإعراب .

الري والدليم ، بعثه عمار بن ياسر بأمر عمر بن الخطاب ، فكانت له فيهم فتوح عظيمة ؛ وقد وفد على عمر ، واستخلف مكانه أخاه حنظلة بن زيد الخيل^(١) . وكانت صلة طيء بالشام والعراق من هذه البلاد جميعا ، أوثق الصلات ، وأخصها الشام . فقد رأينا تلك الصلة المتينة في الجاهلية ، المائلة في هجرة الطائيين إليها جماعات وأفرادا ، وفي ذلك التحالف الواضح بين جديلة والغسانيين ، وفي محاولات ملوك الغساسنة إخضاع طيء لها ، وفي تلك النصرانية التي كانت منتشرة في طيء انتشارا ملحوظا . فلما استقر المسلمون بالممالك المفتوحة ، بقيت طيء بالشام ، ورسخت فيه قدمهم ، وسرى فيما بعد أن من كان منهم بالشام كان مع معاوية ، ومن كان منهم بالعراق كان مع علي أو الخوارج . ورسخت قدم الطائيين بالشام ، حتى أصبحنا نسمع المؤرخين في الأنساب يتحدثون ، كما رأينا في النصوص السابقة ، عن عزهم بالشام والعراق ، وعن دولتهم ، وعن رهبة جانبهم ؛ وحتى سمعنا ابن خلدون يصرح بأنهم « ورثوا أرض غسان بالشام ، وملكهم على العرب » . ثم انفرد « بنو مهنى الملوك على العرب إلى هذا العهد ، بمشارف الشام والعراق وبرية نجد .

(د) طيء في عهود الانقسام الإسلامي : ثم تفرق المسلمون بين علي ومعاوية ، وقامت المنافسة بين الشام والعراق ، واحتربت الحرب بينهما . وانقسمت كذلك طيء ، فمن بالشام منها مع معاوية ، ومن بالعراق مع علي .

وانقسم أهل الحجاز على أنفسهم ، بجماعة مع علي ، وجماعة مع عائشة ، حتى إذا كان قبيل موقعة الجمل وعلي بالربذة « أتاه جماعة من طيء فقبل له هذه جماعة قد أتتك ؛ منهم من يريد الخروج معك ، ومنهم من يريدون التسليم عليك ... فلما دخلوا قال لهم : ما شهدتمونا به ؟ قالوا : شهدناك بكل ما تحب . فقال : جزاكم الله ! فقد أسلمتم طائعين ، وقاتلتم المرتدين ، ووافيتم بصدقاتكم المسلمين . فمض سعيد بن عبيد الطائي فقال : يا أمير المؤمنين ، إن من الناس من يعبر لسانه عما في قلبه ، وإني والله ما أجد لسانى يعبر عما في قلبى ، وسأجهد وبالله التوفيق ... فقتل معه بصفين^(٢) » .

وسار علي من الربذة ... فلما نزل بفيء أته أسد وطيء ، فعرضوا عليه أنفسهم ، فقال : الزموا داركم ، في المهاجرين كفاية^(٣) » .

(١) جهرة الأنساب لابن حزم . (٢) ابن الأثير ، ج ٣ ص ١١٢ (٣) المصدر نفسه .

وكان عدى ابن حاتم الطائي صاحب النبي مع علي ، ففُقِئت عينه يوم الجمل^(١) « وكان مع علي رضي الله عنه في جميع مشاهدته » كان صاحب رايته يوم صفين^(٢) ، وكان بنو عم عدى بن حاتم : لام ، وحلبس ، وصلاحان ، بنو غطيف بن حارثة ، مع معاوية يوم صفين^(٣) ، وكان على رأسهم بالشام حابس بن سعد بن المنذر ، قتل مع معاوية في صفين ، وكان عمر بن الخطاب ولّاه قضاء حمص^(٤) ، ثم عزله عنها .

يقول ابن الأثير في وصف صفين : « وقاتلت طيّي يومئذ قتالا شديدا ، فعبئت لهم جموع ، فأتاهم حمزة بن مالك الهمداني ، فقال : من القوم ؟ فقال عبد الله بن خليفة ، وكان شيعيا شاعرا خطيبا : نحن طيّي الرماح ، وطيّي البطاح ... الخ » .

ولما خرج الخوارج كان منهم أناس في أول من خرج ، فإن زيد بن حصين الطائي ، ورجلا آخر في عصابة من القراء صاروا خوارج فيما بعد ، قال لعلّي لما رآه ممتنعا عن الاحتكام إلى كتاب الله : يا عليّ أجب إلى كتاب الله إذا دعيت إليه ، وإلا دفعناك برؤمك إلى القوم ، أو نفعل بك ما فعلناه بابن عفان^(٥) .

ولما قبل عليّ التحكيم ، واختار الحكم ، وأراد أن يبعثه للحكومة ، أتاه رجل من الخوارج ، هو زُرعة بن الأبرج الطائي وآخر معه ، يريدانه على الحرب مع معاوية ، يقولون : لا حكم إلا لله . فقال عليّ : لا أنقض كتابا وعهدا عاهدته إنسانا ... فقال زرعة : يا عليّ ، لئن لم تدع تحكيم الرجال لأقاتلنك ، أطلب رحمة الله » .

ولما عزّم الخوارج على ترك الكوفة ، أرادوا أن يولوا عليهم رجلا ، فعرضوها على زيد بن حصين الطائي ، السابق الذكر ، فأبأها ، ثم كان على رأسهم يوم النهروان ، فقتله أبو أيوب الأنصاري .

فلما قتل عليّ سنة ٤٠ هـ ، ثم تنازل ابنه الحسن عن الخلافة لمعاوية سنة ٤١ هـ ، تحرك الخوارج لقتال معاوية ، ونصبوا عليهم عبد الله بن أبي الحوساء الطائي ، وكانوا يتزلون النخيلة ، بقرب الكوفة .

وفي سنة ٤٢ هـ ، كان اجتماع الخوارج في الكوفة وقد ولى عليها المغيرة بن شعبة على ثلاثة منهم ؛ أحدهم مُعَاذ بن جُوَيْن الطائي ، ابن عم زيد بن حصين المقتول في النهروان . ومن الخارجين على زياد مُعَاذ الطائي ، ويقال لأصحابه أصحاب نهر عبد الرحمن^(٦) .

(١) ابن حزم . (٢) ابن الأثير ، ج ٣ صفين . (٣) ابن الأثير في مواضع متفرقة .

من هذا كله يتبين كيف كانت طبيّ العراق منقسمة على نفسها أيضا ، إلا أن أكثرها مع عليّ في حياته ، وهم ذوو ميل واحترام لذكراه بعد موته .

ومنها جماعة خرجت عليه مع الخوارج .

وإنا لنجد أيضا بعض الطائيين في قتلّة الحسين من أهل العراق ، "فإن حكيم بن طفيل الطائيّ كان أصاب سلب العباس بن عليّ" ، ورمى الحسين بسهم في كربلاء ، وكان يقول : تعلق سهمي بسرباله وما ضره^(١) .

كما نجد أن منهم بعض الشيعة ، بخعفر بن عفان ، شاعر الشيعة المكفوف ، كان من جديلة^(٢) .

رأينا ما كان من طبيّ في الفتوح الإسلامية ، وما تتابع عليها من انقسام ، هو أثر ذلك الانقسام العام ، الذي أصاب الدولة يومئذ ، فاشتركت فيه طبيّ اشتراكا لم تحلّ دونه عصبية قبلية ، ومثّلها في كل الفرق التي كانت إذ ذاك ، رجال كانوا يعملون فيها ، وقد امتلأت نفوسهم بما يعملون ، يفارق الابن أباه ، والأخ أخاه ، في سبيل نصرة مذهبه ، فطرقة بن عدى بن حاتم يترك أباه ، خارجا على عليّ ، ليلحق بالخوارج ، ويتبعه أبوه ، فلا يقدر عليه ، فيعود إلى عليّ ، وبينما هو في طريقه عند ساباط ، إذ لقيه عبد الله بن وهب الراسبي أمير الخوارج ، فيريد قتله ، فيمنعه طائيان ، هما عمرو ابن مالك النّهاني وبشر بن زيد البولاني ، ولولا أن لعدى منزلة خاصة حالت دون قتله لقتلوه ، ذلك أنه صاحب رسول الله ، وأنه ابن حاتم ، وأنه كان سيد طبيّ ، وهو الذي يحبسه زياد في الكوفة يوما ، فلا يوجد ذو شأن فيها إلا ويذهب إلى زياد ، يلومه في حبس صاحب رسول الله ، فيطلقه زياد .

فطبيّ كانت عنصرا من عناصر الأمة الإسلامية ، تحملت كل ما أصابها ، ولقيت كل ما لقيت ، وضعفت فيها روابط العصبية في سبيل الدين ، وأخذ الدين بنفوس أهلها أخذا ، ولا غرابة في ذلك ، فهي قبيلة قد تدينّت قبل الإسلام ، وداخلتها النصرانية واليهودية ، وفهمت للتحالف مع غيرها معنى كان يدعوها إلى الانقسام أحيانا على نفسها والاقتيال ، كما كان ذلك في حرب الفساد وخلاف عليّ ومعاوية ، ورأيناها تتمتع عن لقاء أسد في حروب الردّة ، لما كان بينهما من حلف . ولا ريب في أن ذلك عائد إلى سمو تلك الاعتبار المعنوية ، في نفوس قبيلة لا تشك في أن اتصالها بأمتين عظيمتين كالفرس والروم ، كان له فيها أثر .

وليس يبدو أن كثيرا من الطائيين كانوا يميلون إلى الأمويين ؛ فإن كثرتهم كانت مع عليّ ، بين أنصار معتدلين ، وقليل متشيعين . ومن لم يرضه من عليّ شيء كان نائرا مع الخوارج . فلما استقام أمر الدولة الأموية ، وهى الدولة العربية ، لم نسمع فيها عن رجال طبيّ كثيرا ، بل كانوا كما قلت أكثر ميلا إلى عليّ ، وإلى لألمح فى طبيّ فى هذا شيئا من حس ذلك الحق المقدس ، الذى كان يحسه المسلمون من الأمم المفتوحة ، التى كان فيها نظام الملك قائما . فإن فى انتصارها لعليّ وآل بيت النبىّ ، معنى دينيا يمتزج بمعنى نظامى ، هو أثر من آثار تكون معنى الدولة فى النفوس واستقراره .

لست أذهب إلى أن هذا المعنى كان يقوم فى نفوسهم مقامه من نفوس الفرس والروم المسلمين ، ولكننى أقول إن فيه شيئا من ذلك . لأنهم خالطوهم وعرفوا نظم حياتهم ، وحالف قوم منهم الفرس ، وورثوا المناذرة فى الحيرة ، وحالف قوم منهم الروم ، وورثوا بعد ذلك فى الإسلام ملك الغسانيين ، كما يقول ابن خلدون . وإن حديث عدى عن نفسه ، الذى سبق هنا حين كان يقول : "كنت ملكا فى قومي ، أعيش فى فيهم بالمرباع ... الخ" ليدعم هذا الرأى . ويقول زيد الخيل لعمر فى حضرة النبىّ : "أما بنو حية فملوكنا وملوك غيرنا ، ولكل رجل من حية مرباع^(١)" . كما أن شيئا من الإسلام بسيرة هذه القبيلة بعضها مع بعض فى الجاهلية ، ومع غيرها يوحى بنظام كان يغلب - فى كثير من الأحداث - على طيش الأحلام ، ويحول دون أن تستعر بينها الحرب .

وإن فى حادثة لجوء حاتم إلى الحيرة لمساجدة آخر من بنى لام أصهار النعمان ، وما كان على ما هو مذكور فى الأغاني ، ما يدل على رزانة أحلامهم ، ومحاولاتهم القضاء على ما بينهم من خلاف بوسائل التحكيم^(٢) ، ولقد كان الاحتكام فى هذه الحادثة إلى النعمان .

وفى حادثة أخرى يقصها ابن الأثير ، بين أوس بن حارثة بن لام الطائى ، وكان سيدا فى قومه مطاعا جوادا ، وبين حاتم بن عبد الله الكريم ، وقول عمرو بن هند لكل منهما أنت أفضل أم الآخر؟ وأجابة كل منهما أن الآخر خير منه . فى هذا مثل آخر من ضبط النفس ، ورزانة الحلم ، يكفى لأن يفهمنا أن كثيرا من تعود النظام ، واستقرار القواعد الخلقية ، كان بين سادة طبيّ إذ ذاك^(٣) . يمنح هذا بصاحبه غالبا إلى انتظام فى اختيار الحكام ، وهذا سبب ميل أكثر طبيّ إلى عليّ ، وانحرافهم عن بنى أمية . وظلوا كذلك حتى كانت الدعاية للعباسيين ، فاشتركوا فيها .

(١) الأغاني ج ١٦ ص ٩٥ وما بعدها .

(٢) الأغاني ج ١٦ ص ٤٦ وما بعدها .

(٣) ابن الأثير ج ١ ص ٢٨٩

(هـ) **طبي والعباسيون** : قامت الدعوة العباسية أول الأمر باسم رفع الظلم الواقع على آل النبي، وظل هذا شأنهم في الدعوة لأنفسهم، حتى اصطبغت الدولة العباسية صبغة دينية، إلى جانب المنزلة السياسية، وقام إلى جانبها الموالى وأبناء الأئم المفتوحة، التي اعتادت النظام وتقديس صاحب الملك فيهم. وإنا لنرى من طبي في نقباء العباسيين الذين اختيروا لنشر الدعوة، **حُطَّبة بن شبيب الطائي**. ومرت حوادث وأهوال، واستقرت الدولة العباسية، فاستخدموا الطائيين في الدفاع عن ثغورهم، وفي مهاجمة الخارجين في داخل البلاد على الدولة.

فكان منهم حميد الطوسي، المعروف في بلائه مع المأمون، وهو حفيد حُطَّبة بن شبيب نقيب العباسيين السابق، وإخوته الحسن وعبدالله وشبيب، وآبن عمه كان عبد الحميد بن ربيع بن خالد آبن معدان، وآبناه أصرم وحميد أبو غانم آبن عبد الحميد، ومهدى بن أصرم، ومحمد بن حميد، وأبو نصر وحميد إخوته، الذين مدحهم حبيب ورثاهم بالقصائد المشهورة. وأولاء جميعاً من بني نَبهان بن عمرو بن الغوث بن طبي؛ ومنهم أبو سعيد محمد بن يوسف الثغري صاحب بابك.

(و) **طبي في الحركة الفكرية** : يعد آبن دريد في "الاشتقاق" تسعة شعراء من جديلة، ونحسنا وعشرين من الغوث، وفي الحماسة غير هؤلاء من الطائيين شعراء آخرون، لا نعرف أكانوا آستكثروا من الشعر أم لم يستكثروا، فإن لأحدهم المقطوعة القصيرة، والمقطوعات الطوال شيئاً، وشعرهم فيه حلاوة وسهولة، ويمتاز بالطبع، حتى ليكاد يستحيل كلاماً، إلا أنه يأخذ يجمع القلوب. فآسمع أحدهم سنان بن الفحل يقول، حين اختصم بنو أم الكهف من جريم طبي، مع حى من فزارة على ماء :

وقالوا قد جُنِدتَ فقلتُ كلاً	وربّي ما جنتُ وما انتشيتُ
ولكني ظلمتُ فكدتُ أبيعُ	من الظلم المبين أوبكتُ
فإن الماء ماء أبي وجدي	وبرى ذو حفرتُ وذو طويتُ
وقبلك ربّ خصيم قد تماؤوا	على فما هلمتُ ولا دعوتُ
ولكني نصبتُ لهم جيني	وألة فارس حتى قرئتُ

وأسمع آخر، هو جابر بن حريش الطائي :

ولقد أرانا يا سميَّ بجائِلٍ نرى القرى فكامسا فالأصفرا
فالجزع بين ضباعةٍ فرُصافةٍ فعوارض حوَّ البساسيس مُقفرا
لا أرض أكثر منك بيض نعامه ومذانبنا تندى وروضا أخضرا

ولعبيد بن ماوية الطائي :

ألا حتى ليلى وأطلالها ورملة رياء وأجبالها
وأنعم بما أرسلت بالها ونال التحية من نالها
فلما لدو مرة مرة إذا ركبت حالة حالها

ويقول الحرث بن زيد الخيل، وكان قتل رجلا مسلما أرسله عمر يستقرئ أهل البادية،
لأنه استقرأ ابن عم لحرث هذا، فلم يعرف، فضربه فمات. فقتل حرث الرجل المسلم وجماعة
من أصحابه، وهرب إلى الشام، وقال هذه الأبيات يخاطب بنت القتيل الطائي :

ألا بكر الناعي بأوس بن خالدٍ أنحى الشتوة الغبراء والزمن المحل
فإن يقتلوا بالغدر أوسا فلما نى تركت أبا سفيان ملترم الرحل
فلا تجزعي يا أم أوس فإنه نصيب المنايا كل حاف وذى نعل
قتلنا بقتلنا من القوم عصابة كراما ولم نأكل بهم حشف النخل
ولولا الأسي ما عشت في الناس ساعة ولكن إذا ما شئت جاوبني مثلي

وقد ظل الشعر فيهم هو طريق التفكير، شأن العرب قبل الإسلام. ومن شعرائهم المعروفين في الجاهلية
حاتم بن عبد الله الطائي، وله ديوان مطبوع، ومنهم أيضا زيد الخيل، ومنهم أبو زبيد الشاعر
النصراني، ويقول وستنفيلد في هامش الاشتقاق لابن دريد، "إنه أسلم". وكان عثمان بن عفان
يحب الجلوس إليه. ومنهم في الإسلام الطرمح الأكر بن عدى، ويقول عنه ابن حزم إنه كان
خارجيا صُفريا ومنهم الطرمح الأصغر بن حكيم، وديوانه مطبوع أيضا، وكان خارجيا، ومنهم
حبيب بن أوس. ثم جاء الإسلام وانتشرت طبي في البلاد المفتوحة، واستقروا بها، فشاركوا في الحركة
العملية، فمنهم القضاة في الإسلام. فعمر بن الخطاب يولى حابس بن سعد قضاء حمص، والمختار بن أبي
عبيد الثقفي المتشيع المعروف، يولى على قضاء الكوفة عبد الله بن مالك الطائي.

ومنهم المحدثون كقبيصة بن المهلب^(١)، وعروة بن مضر بن أوس، له صحة ورواية، ومنهم عالم عظيم الذكر بالأخبار والسير، هو الهيثم بن عدى^(٢).

ومنهم كان أبو مالك أبان بن الصمصامة بن الطرقاح الأكبر، راوية الأشعار واللغة، ساكنا بالقيروان بإفريقية^(٣).

ومنهم في الناحية الفنية مالك بن أبي السمع، وأسمه جابر بن ثعلبة الطائي، أحد بني ثعل . وكان مغنيا، أخذ الغناء عن جميلة ومعبد، وعمر حتى أدرك الدولة العباسية، وكان منقطعا إلى بني سليمان بن علي، ومات في خلافة المنصور . وكان مالك رائع الغناء، واسع الأفق، يتلقت ألسانه من كل مكان، وأوجد طريقة جديدة في الغناء غير طريقة أستاذه^(٤).

١٠ - نسبة أبي تمام في طبي

إلى هذه القبيلة الوثنية النصرانية اليهودية المسلمة، ذات الاتصال الوثيق بالفرس والروم، في الجاهلية والإسلام، والتي كان منها أولئك الذين ذكرت من الشعراء والعلماء والمحدثين ورواة الأخبار وأصحاب الفن - إلى هذه القبيلة ينسب كل المؤرخين أبا تمام.

فالصولي في كتابه "أخبار أبي تمام" يقول: هو حبيب بن أوس الطائي صليبة . ويذكر صاحب الأغاني^(٥) أنه من نفس طبي صليبة . وابن حزم الظاهري في جمهرته يقول عنه إنه من ولد الحارث بن طبي، والحارث بن طبي على ما يذكر، كان يقيم في مهرة بن حيدان، وكانوا أخواله، نزل فيهم إذ رحل أبوه وأخوه . والرحلة التي يتحدث عنها هي رحلتهم إلى أجا وسلمي .

ومهرة بن حيدان بطن من قضاة كبير، ينقسم إلى قبائل^(٦). أما كتب الأدب فجمعة على أنه طائي، حتى إنهم ليقولون أحيانا الطائي ويسكتون، فيفهم أنهم يقصدون أبا تمام. وينقل الجاحظ في كتابه المحاسن والأضداد عن الطائي . ويقول عنه المبرد الطائي، وكذلك ابن عبد ربه وابن رشيق والسمعاني وصاحب تاريخ قزوين، ويلقبه الطبري وابن الأثير بالطائي، وكل ما يحيط بأبي تمام لا يكاد يدع مجالا للشك في أنه من طبي^(٧). إلا أن هناك أمرين نقف عندهما شيئا :

أولهما: ما نقله الصولي في كتابه^(٨)، قال: "وقال قوم هو حبيب بن تدوس النصراني، فغير أوسا".

(١) جمهرة الأنساب . (٢) نفسه . (٣) الاشتقاق ص ٢٣٣ . (٤) جمهرة الأنساب .

(٥) الأغاني ج ٤ ص ١٦٦ . (٦) ج ١٥ ص ٩٦ طبعة السعادة . (٧) اشتقاق ابن دريد ص ٣٢٢ .

(٨) أخبار أبي تمام، ورقة ١٢٠ .

وهذه العبارة ما كانت تفيده شيئا . فإن نصرانية رجل من طبي لا تستغرب لو لم تقترب إليها عبارة أخرى ، مذكورة في كتاب وفيات الأعيان لابن خلكان ، في ترجمته أبا تمام . والعبارة هي : ” وذكر أبو القاسم الحسن بن بشر بن يحيى الآمدي ، في كتاب الموازنة بين الطائيين ما صورته : والذي عند أكثر الناس في نسب أبي تمام ، أن أباه كان نصرانيا من أهل جاسم ، قرية من قرى دمشق ، يقال له تدوس العطار ، بفعلوه أوسا . وقد لفقت له نسبة إلى طبي ، وليس فيمن ذكر فيهما من الآباء من اسمه مسعود ، وهذا باطل ممن عمله ، ولو كان نسبه صحيحا لما جاز أن يلاحق طبيًا بعشرة آباء . قلت (ابن خلكان) : وذكر الآمدي هذا في قول أبي تمام :

إِنْ كَانَ مَسْعُودٌ سَقَى أَطْلَاحَهُمْ فَيَضَ الشُّونِ فَلَسْتُ مِنْ مَسْعُودٍ

وقد سقط في النسب بين قيس وذفافة ستة آباء . وقول أبي تمام ” فلست من مسعود ” لا يدل على أن مسعودا من آباءه . بل هذا كما يقال : ما أنا من فلان ، ولا فلان مني .

وقبل أن نناقش هذه العبارة الأخيرة ، يجب أن نذكر عبارة الصولي السابقة ، وكيف أن نصرانية أبيه لا تتعارض مع طائيته ، فقد رأينا من قبل كيف كانت النصرانية في طبي ، وكيف بقيت فيهم بعد الإسلام . ويجب أن نذكر إلى هذا أيضا ، أن الصولي لا يؤمن بهذه القضية ، لأنه ذكرها في معرض من معارض الشك . ذكرها في كلام من عاب أبا تمام ، ويجب أن نذكر أيضا أنه لم يُبدِ شكًا في طائية أبي تمام ، بل قطع بها ، فقال : هو من طبي صليبة .

فعبارة الصولي لا تقدم ولا تؤخر في موضوعنا . ولكن عبارة الآمدي كما ينقلها ابن خلكان ، هي التي تشير صراحة فعلية حول نسب أبي تمام ، إذ العبارة كما في ابن خلكان صريحة في أن أناسا كانوا يتهمون أبا تمام في نسبه إلى طبي .

والذي أريد أن أوجه النظر إليه ، هو أن العبارة تنقسم إلى قسمين : قسم من كلام الآمدي ، ينتهي عند قوله : ” بعشرة آباء ” ، وقسم من كلام ابن خلكان ، ويتبدى عند قوله : ” قلت : وذكر الآمدي ... الخ ” . وينتهي عند : ” ما أنا من فلان ولا فلان مني ” .

وكلام الآمدي قضية تستند إلى دليلين :

أما القضية فهي : ” والذي عند أكثر الناس في نسب أبي تمام ... وقد لفقت له نسبة إلى طبي ” وأما الدليلان فأولهما أن نسبه ، ولم يذكره ، يلاحق فيه طبيًا بعشرة آباء ، وهذا غير جائز . وثانيهما : أنه يقول : ” فلست من مسعود ” . وليس في نسبه أب اسمه مسعود .

فيرد عليه ابن خلكان بما يهدم هذين الدليلين ، بعد أن يشير إلى مكان العبارة من كتاب الموازنة ، فيقول له : ١ — أما أن آباءه عشرة فذلك ليس بصحيح ، إذ سقط من هذه النسبة ستة آباء ، بين قيس وذفافة ، وهي إشارة ضمنية إلى أبوين من آباء أبي تمام ، قيس وذفافة ، فيجب أن نذكرها ، وفيها أيضا موافقة من ابن خلكان على أن آباء أبي تمام يجب أن يكونوا ستة عشر ، ليصل إلى طبي .

٢ — أن الآمدى لم يصب فهم عبارة أبي تمام : ” فلست من مسعود “ .

فابن خلكان يقول له مامعناه : إن عبارة أبي تمام لاتفيد ذلك ، وأسلوب العرب لا يحتم أن يكون مسعود أبا من آباء حبيب .

ومعنى ذلك أن الآمدى لم يعرف هذا الوجه من وجوه تأويل العبارة .



وقد كان الجدل يستقيم على هذا وينتهى بالارتياح إلى ما قال ابن خلكان ، لولا ما هنالك من أشياء : (أولها) أن ابن خلكان الذى يتخذ دليله على صحة نسب أبي تمام آستيفاء هذا النسب العدد الذى أوجبه الآمدى فى عبارته ، وهو ستة عشر أبا لأبي تمام . ابن خلكان حين يذكّر نسب أبي تمام لا يعدّ بينه وبين طبي إلا ثلاثة عشر أبا . فالنسبة عنده هكذا : ” أبو تمام حبيب بن أوس بن الحارث بن قيس بن الأشج بن يحيى بن مروان بن مُر بن سعد بن كاهل بن عمرو بن عدى بن عمرو بن الغوث بن طبي “ .

(وثانيها) أنه يذكر فى تفصيل حجته السابقة سقوط ستة آباء بين قيس وذفافة ، فإذا نظرت إلى النسبة على ماهى فى كتابه لم تجد ذفافة هذا .

(وثالثها) أن ابن خلكان يقول فى كلامه على نسب أبي تمام : ” وقد ساق الخطيب أبو بكر فى تاريخ بغداد نسبه ، وفيه تغيير يسير “ .

أما هذا التغيير الذى يصفه ابن خلكان باليسير ، فهو على ماسياتى ، مع ترك ما آتفقا فيه فى أول النسبة وآخرها . مقابلا كل اسم بما عند الآخر .

عند ابن خلكان : ابن يحيى بن مروان بن مر بن سعد ... الخ

عند الخطيب : ابن يحيى بن مزينا بن مهم بن ملحان بن مروان بن ذفافة بن مُر بن سعد ، ثم تستقيم النسبتان بعد ذلك على صورة واحدة حتى طبي ، ولا إخالك تظن أن هذا الفرق هو

التغيير اليسير الذى أراده ابن خلكان . والفرق إذا بلغ ما بين الثمانية والأربعة لم يكن فرقا يسيرا ،
فبين يحيى ومروان عند ابن خلكان سقط ثلاثة آباء ، وبين مروان ومُر سقط ذفافة ، وهو الاسم
الذى يفهم من كلام ابن خلكان أنه ذكره في نسب أبي تمام .

ونستطيع أن نخرج من هذه الآن بأن أسماء من أسماء آباء أبي تمام كما كتبها ابن خلكان قد
سقطت في النقل عنه . وهو أمر يجب أن ينهنا إلى التريث في تقويم ما فى الكتاب كأثر حقيقى كتبه
ابن خلكان .

فإذا أضفت إليه ما يأتى ، أحسست أن الباحث أكثر حاجة إلى التريث ، وإبصار موقع قدميه .
قد رأينا فى كلام ابن خلكان ما يفهم منه أن الآمدي كان يرى أن مسعودا أحد آباء أبي تمام ،
وأنه ذكر ذلك فى الكلام على بيته :

* إن كان مسعود سقى أطلهم *

فإذا جئت إلى الآمدي وجدت ما يأتى :

قال أبو تمام :

إن كان مسعود سقى أطلهم فيض الشئون فلست من مسعود
ظعنوا فكان بكأى حولا بعدهم ثم ارعويت وذاك حكم لبيد
أجدر بجمرة لوعة إطفائها بالدمع أن تزداد طول وقود

قوله : إن كان مسعود ... يعنى مسعودا أخا ذى الرمة ، ولا يعرف له بيت واحد بكى فيه على
الديار . وهذا من معانى أبي تمام الغامضة ، التى يسأل عنها .

وما زلت أرى الناس قديما يخطون فيه ، وإنما ذكر مسعودا لأنه كان ينهى أخاه ذا الرمة
عن البكاء على الديار ، وذلك قول ذى الرمة :

عشية مسعود يقول وقد جرى على لحيتي من واكف الدمع قاطر
أفي الدار تبكي إذ بكت صباة وأنت أمرؤ قد حملت المعاشر

فأراد أبو تمام : إن كان مسعود الذى أنكر على ذى الرمة البكاء ونهاه عنه ، قد رأى أن البكاء
أحسن بعد أن كان عنده غير حسن ، فلست منه ؛ وذلك كقول القائل : إن كان حاتم قد شخ فلست
منه ، أى : إن كان بعد كرمه وجوده قد رأى أن البخل حسن ، فلست مقتديا به ، وكان هذا عند

أبي تمام أبلغ من أن يقول : إن كان غيلان سقى أطلالهم ، يعني ذا الرمة ، فلسنت منه . وهذا أيضا من استقصاء أبي تمام ، ومبالغته في المعاني ، التي يخرجها إلى التعمية والانغلاق . وقوله : « وذاك حكم ليبد » يريد قول ليبد :

إلى الحول ثم أسم السلام عليكما ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر
وقوله :

أجدر بجمرة لوعة إطفائها بالدمع أن تزداد طول وقود

غلط بين ، لأنه أتى فيه بما يخالف مذاهب أهل الجاهلية والإسلام والأئم كلها ... وهكذا يمضي ثم ينتقل إلى غيره . ولم يقل شيئا في كل كتابه عن مسعود غير هذا . فكان كتاب ابن خلكان على حالته التي بين أيدينا الآن ، قد ظلم الآمدي ، ونسب إليه ما ليس من قوله . ولو لم يكن هذا التناقض الصريح بين ما قاله الآمدي ، الذي هو أول من بين الغموض في هذا البيت كما يبدو من قوله ، وبين ما قاله ابن خلكان ، ولو لم يكن الاضطراب الذي سبقه ، لقلت : عبارة كتبها الآمدي ، ثم سقطت في نقل كتابه إلينا .

والذي أستطيع أن أفهمه من هذا هو أن كتاب ابن خلكان لم ينقل إلينا نقلا أميناً ، وأن خطأ قد وقع في هذا الموضوع نفسه ، أدى إلى اختلاط كلام الآمدي بكلام قوم آخرين ، يهتمون أبا تمام في نسبه .

وعندي أن ما كان قاله ابن خلكان في كتابه ، إنما كان على نحو هذا : وهو أن جماعة من الناس اتهموا أبا تمام بأنه ليس طائياً ، واستدلوا على ذلك بأن آباءه عشرة فقط ، مع أنه يلزمه ستة عشر لكي يصل إلى طبي ، وأنه كان له أب يدعى مسعوداً ، ليس مذكوراً في نسبه ، مع أنه مذكور في شعره . ثم رد ابن خلكان على هذين الدليلين بما سمعناه يقوله ، مستنداً في ذلك إلى تفسير الآمدي السابق الذكر للبيت ، وجاء ناقل الكتاب نخلط فيه لأمر ما ، حتى صار إلى صورته التي هي بين أيدينا . ونخرج من ذلك كله بأن الآمدي لم يتهم أبا تمام ، كما لم يتهمه الصولي ، وأن ابن خلكان دافع عنه ، وحطم حجج خصومه .

كما أنني لم أسمع من خصومه من يهجوهم ويتهمهم بهذه التهمة ، إلا مخلص بن بكار الموصلي ، وقد كان مخلص بالموصل هجا أبا تمام آخر أيامه ، وإبان عزه واشتهاره ، وكأنه كان يريد بهجائه الشهرة ، فلم يعبا به أبو تمام ، ولقد كان احتقار أبي تمام له ثقيلًا ، أثار ضغنه ، حتى هجا بعد موته .

قيل لأبي تمام : قد هجأك مخلد فلو هجوته ؟ قال : الهجاء يرفع منه . قيل أليس هو شاعرا : قال : لو كان شاعرا ما كان من الموصل . يعني أن الموصل لم يخرج شاعرا ...^(١)

وأول شعر هجا به مخلد أبا تمام ، هو كما يروى الصولى عن غلام مخلد :

أنت عندى عربى الـ بأصل ما فيك كلام

عربى عربى أجئى ما تُرام

شعر نخذك وساقى بك نخامى وثمام

وضلوع الشلو من صد رك نبع وبشام

وقذى عينيك صمغ ونواصيك ثغام

لو تحركت كذا لاذ يجفأت منك نعام

وظباء مُحَصَّبات ويرابيع عظام

أنا ما ذنبى إن خا لفنى فيك الأنام

وأنت منك سجيا نبطيات لئام

وقفأ يحلف أن ما عرقت فيك الكرام

ثم قالوا جاسمى من بنى الأنباط خام

كذبوا ما أنت إلا عربى لا تضام

بنته ما بين سلمى وحواليه سلام^(٢)

وله من إرث آباء قيسى وسهام

ونخيل باسقات قد دنا منها صرام^(٣)

أنت عندى عربى عربى والسلام^(٤)

وهجاء مخلد فيه يجرى في هذه السبيل ، ذكره الصولى في كتابه "أخبار أبي تمام" .

(١) الصولى : أخبار أبي تمام ، مخطوط بمكتبة الجامعة المصرية — الورقة ١١٤ (٢) السهبة كفرحة : الحجارة .

جمعها سلام ككتاب (المحيط) . (٣) أصرم النخل : حان له أن يصرم ؛ وصرامه ، ويكسر فيقال أيضا صرامه :

أوان إدراكه (المحيط) . (٤) الورقات : (١١٤ و ١١٥ و ١١٦) .

ولكن هجاء خصم كهذا لا يصح أن يؤخذ مأخذ الحجّة على إجماع المؤرخين . فلقد كان خصومه يركبون فيه أشنع ما يركب . يقول الصوّلى ^(١) : ” وقد رأيت أعزك الله بعض هؤلاء الجهلاء يصحّح أيضا على أبي تمام ، ثم يعيب عليه ما لم يقله أبو تمام قط ... “ . وينقل ^(٢) عن علي بن الجهم أنه لعن دعبلا ... وقال : كان يكذب على أبي تمام ، ويضع عليه الأخبار .

فخصوم أبي تمام كانوا يعمدون إلى كل ما يمكن به النيل منه ، فيفعلونه ، ويكفي أن تعرف أنه كسف خمسمائة شاعر في أيامه ، فكانوا لا ينالون معه درهما حتى مات ، فتقاسموا جميعا ما كان يأخذه ، حتى تقدر حسد هؤلاء له واضطغانهم عليه ، فليس غريبا أن نجده متهما بالكفر عند قوم ، وضعف العقيدة عند آخرين ، وعدم العربية عند غيرهم ، إلى غير ذلك من ضروب الاتهام والتجني .

وأما أن أباه كان نحارا أو عطارا ، فذلك إن صح ما لم يقل أحد إنه كان صناعة من الصناعات المقصورة على جنس من الناس دون جنس . وأما أن أباه كان أوسا أو تدوسا ، وأما أن اسمه يشبهه (Theodose) ^(٣) فيكون اسما يونانيا عرّب ، أو هو عربي اشتق من داس يدوس ، أو ارتجل كما ارتجل غيره ، فذلك لا يبلغ بقضية أبي تمام شيئا ، بل ربما كان مما يستأنس به لتصحيح نسبه في طبي ؛ إن كان الاسم يونانيا . فقد بينت قبلا أن طيئا كانت وثيقة الصلة بالروم في الشام ، وكيف كانت تجاورهم ، وكيف كانت تدين بدينهم جماعات منها ، حتى بعد الإسلام ، فلا غرابة في أن يأخذوا أسماء من أسمائهم ، فيعربوها .

وإنك لتجد في صدر كتاب الاشتقاق لابن دريد ، أن الذي حداه ” على وضع كتابه ، أن قوما يطعنون على اللسان العربي ، وينسبون أهله إلى التسمية بما لا أصل له في لغتهم ، وإلى ادعاء ما لم يقع عليه اصطلاح من أوليتهم “ . ثم يحاول في كتابه إرجاع كل اسم إلى أصل عربي ، إشباعا لعصبية عربية . وهو يريد أن ينفي عن الخليل بن أحمد رواية أنه سأل أبا الدقيش ما الدقيش ؟ فقال : لا أدري ، إنما هي أسماء نسمعها ولا نعرف معانيها .

وإن عصبية أبي تمام لطبي لثرى واضحة في كل شيء . في نحوه ، تراه مُلمّا بكل ما نعرف من لهجات طبي ، كما ذكرت في مكان آخر ، وفي اختياراته . ففي الحماسة الكبرى تراه يختار لما يزيد على خمسين طائيا . وفي الوحشيات لا تعدّ صفحات قلائل حتى تعثر على شعر لطائي ، وفي ممدوحيه .

(٣) صاحب هذا الرأي هو كاتب مادة

(٢) المصدر نفسه الورقة ٢٩

(١) المصدر السابق ، الورقة ٢٨

أبي تمام في دائرة المعارف الإسلامية .

وخلاصة القول عندي أن أبا تمام عربي طائي، وأن هذه التهمة في نسبه إنما أتته كما قلت عن طريق خصومه، الذين حاولوا النيل منه في كل شيء، حتى فيما لا يجوز فيه التهمة من فننه وشعره المائل بين أيدينا.

بل إنك لترى بعض هؤلاء الخصوم يستعينون عليه، حين تعوزهم الوسائل، بنسبته في طي، ففي الموازنة في ذلك النقاش البديع الذي صورته لنا الآمدى تصويرا دقيقا لخصمين يتجادلان في قيمة شعر أبي تمام وشعر البحترى، والذي استأتردد كثيرا في القول بأنه تصوير من عنده لتلك الخصومة، التي كانت تدور في عصره حول هذين الشاعرين، إلا أنها تستند على أصول حقيقية؛ في ذلك النقاش: إذا قال المتصنر لأبي تمام إن البحترى قد أقتر في الشعر الذي رثى به أبا تمام بتفوقه، وفضله على غيره؛ رد عليه صاحب البحترى بقوله: "ولم لا يفعل البحترى ذلك وقد كان هو وأبو تمام بعد اجتماعهما وتفارقهما متصافيين، يجمعهما النسب والطلب والمكسب، ولم يك في زمانهما شاعر مشهور يفد على الملوك، ويحتدى بالشعر، وينتسب إلى طي سواهما".

فهذا خصمه يعترف له بأنه كان من طي، ولا يطعن عليه في نسبه.

كما أن لأبي تمام شعرا كثيرا ينتسب فيه إلى طي، لا يجروا على قوله إلا صادق النسب في قومه، ولست أحصيه هنا، ولكني أذكر أمثلة منه، فهي كثيرة في شعره. يقول حين يمدح يمينا:

وإني ومدحى مذجج أبنة مذجج لكالمفيم الحوض الذي أنا وارده

وأكيس بمجد عاد فيه نواله وشاعر قوم عُدن فيه قصائده

ويشدد به الضيق، ويلج عليه الفقر، وكثيرا ما كان يلج عليه لسرفه، فيمتف بمحمد بن يوسف الطائي هذا الهتاف:

تقربت بالقربى إليك ومعصم من العدل من دون القصيد المقصد

ويقول وهو في مصر لما ضاق في وجهه الرزق، وأنحطم أمله، بعد أبيات باكية:

ولو أننى أعطيت بأسى نصيبه إذن لأخذت الحزم من مأخذ سهل

وكان ورأى من صريمة طيء ومعن ووهب عن أمامى ما يسلي

فلم يك ما جرعت قومي من الأسى ولم يك ما جرعت نفسى من الشكى

وفي هذه المواقف جميعا تنبو النفس عن الادعاء والكذب ، إما خوف الزجر كما هو في الأول والثاني ، وإما لأن هذا الادعاء في فترة من فترات الحزن التي تصفو فيها النفس ، شيء أدعى إلى سخيرية صاحبه من نفسه .

ولكنني بعد هذا كله لا أرتاب في أن في أبي تمام عنصراً أجنبياً ، إلا أنه في الثقافة وليس في الدم . وإذا كان أبو تمام قد افتتح عصراً في الشعر العربي ، وطفر به طفرة رائعة ، فما ذلك بغريب على عربي . ولقد طغت علينا في عصرنا هذا موجة ذات أصل عند آبن خلدون ، تلك هي محاولة إرجاع حركة القيام بكل عمل ضخم في مدنية العرب ، إلى أعجمي من الأمم التي لا يستهم ، وعاشت تحت سلطانهم . ولست أومن بهذه النظرية ، فإن نظرة عامة تلقى على تاريخ العرب ، ترينا أن الأجنبي كان يبدأ بأول خطوة ، فلا يلبث العربي أن يتعلم منه ، ثم يخطو على أثره ، ثم يسبقه ، ويسوده ، فإذا به المجلي في فنه ، البالغ ما يطمح إليه الطامحون . ولقد أثبتت العرب أنهم تلاميذ نجباء ، إذا علموا عملوا في جرأة لا يحلم بها الدخيل عليهم ، وأنهم إنما كانوا في حاجة إلى أساتذة ، وإن العرب إن لم يكن كل العلماء الذين كتبوا في لغتهم منهم ، فقد كان رؤوس هؤلاء العلماء منهم .

فأبو النحوي والعروض الخليل بن أحمد ، وسيد الفقهاء الشافعي ، ولات الشعر ومنااته وعزاه ، كما يقول ابن الأثير في المثل السائر : هم أبو تمام الطائي ، وأبو عبادة البحتري ، والمتنبي ، ومن العرب بعد ذلك أبو العلاء المعري .

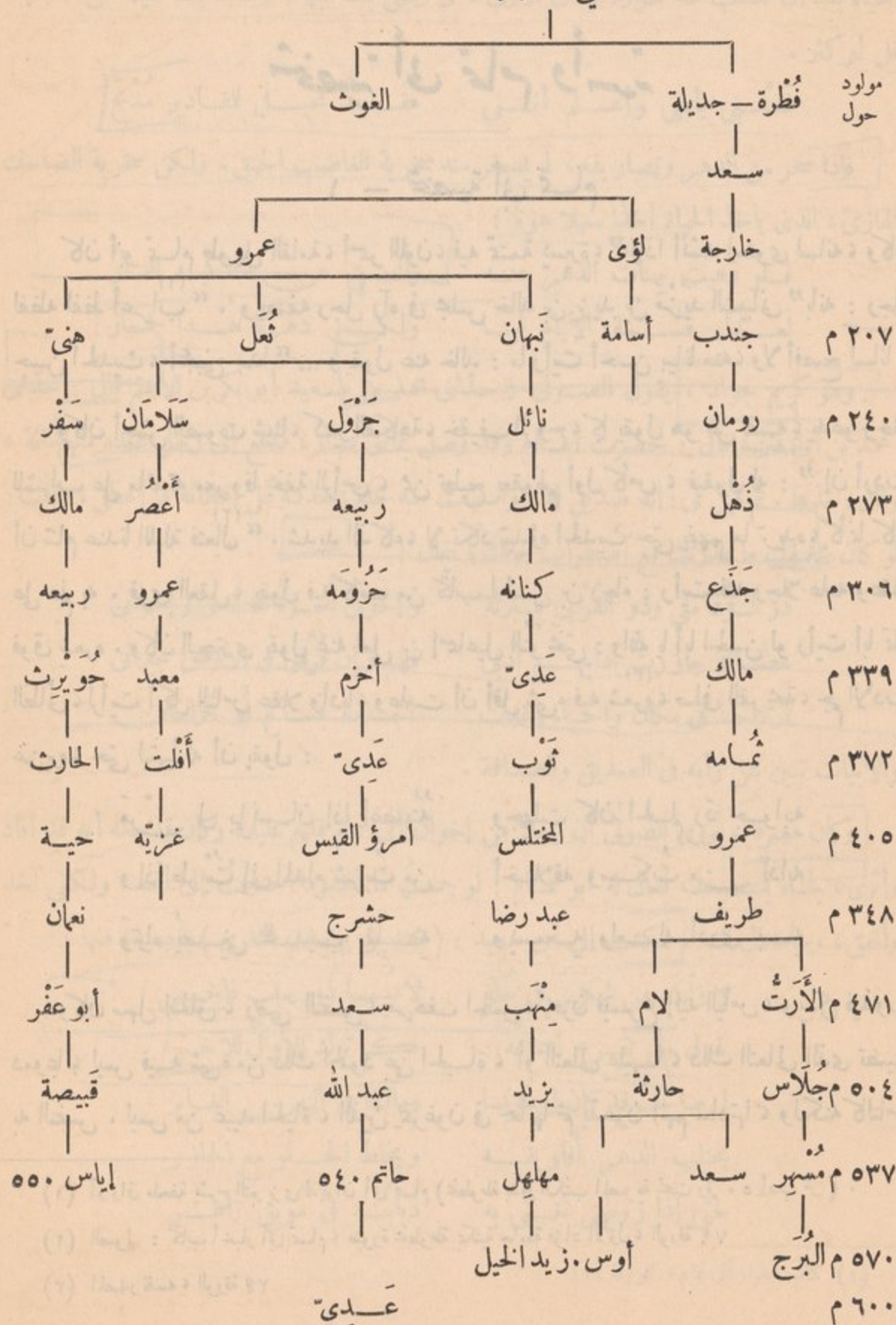
ولقد عاصر الكندي الفيلسوف أبا تمام ، واجتمع معه في مجلس أحمد بن المعتصم .

إن العرب لظروف سياسية طارئة قد شغل معظمهم عن الاشتغال بالعلوم ، أما من اشتغل منهم بعلم أو فن ، فقد برز فيه . وليس لنا أن نطالب أمة تجمع شتات الأجناس من الخلق أن يكون علماءها جميعاً عرباً ، لأن لغتها العربية ، ولأن الدين أرسل به عربي . فإن معظم هذه الأمة لم تكن عرباً خالصة . فإذا تحققت بهذا طبيعة الأشياء ، فكان أغلب علماء أمة أغلبها من الأعاجم عجم ، لم يكن معناد آتهم العرب بالعدم العقلي ، وعدم قبول عقلهم للبحث العلمي . وليس لنا بعد هذا أن ننفي عنهم العلم ، حتى ليدعونا ذلك إلى التشكك في نسب العربي النابغ ، حين تعوزنا الحججة لتطبيق نظرية أصلها الخطأ ، ومثيرها العصبية .

١١ - أشهر مشاهير طيء وبطونها حتى زمن النبي

(عن كتاب تاريخ العرب قبل الإسلام لدى برسفال)

طيء - جُلُهمة



الباب الثاني

شخصية أبي تمام وأسرته

١ - شخصية أبي تمام

كان أبو تمام طويل القامة، أسمر اللون، فيه تمتمة يسيرة؛ "فإذا أنشد استوى لسانه، وكان لفظه لفظ أعراب^(١)". ويصفه رجل رآه في مجلس خالد بن يزيد بن مزيد الشيباني "بأنه : رجل حسن الحديث، أعجبنى جدا" ... ويقول عنه خالد : ما رأيت أحسن بيانا منه، ولا أفصح لسانا . وكان أجش الصوت شيئا، كثير الفكاهة، خفيف الروح، كما يقول هو عن نفسه : يدعو رجلا للشراب على مائدته معروفا بخفة الرأس ، ممن تطيح بعقولهم أول كأس ، فيقول له : "إن أردت أن تنام عندنا الليلة فتعال^(٢)". شديد الذكاء، لا تكاد تبدؤه الحديث حتى يفهم ما تريده، كأنما كان على علم به . قوى العقل، يقول فيه كاتب من كتّاب الحسن بن رجاء : رأيت فيه رجلا علمه وعقله فوق شعره . وكان البحترى يقول عنه لعل بن إسماعيل التوبختي : والله يا أبا الحسن لو رأيت أبا تمام الطائي، لرأيت أكل الناس عقلا وأدبا، وعلمت أن أقل شيء فيه شعره، صافي القريحة، جم الأدب غزيره، حتى ليتيها له أن يقول :

مَنْ لِي بِإِنْسَانٍ إِذَا أَغْضَبْتُهُ وَجِهَلْتُ كَانَ الْحِلْمُ رَدَّ جَوَابِهِ
وَإِذَا طَرَبْتُ إِلَى الْمَدَامِ شَرِبْتُ مِنْ أَخْلَاقِهِ وَسَكِرْتُ مِنْ آدَابِهِ
وَتَرَاهُ يُصْنِئُ لِلْحَدِيثِ بِقَلْبِهِ وَبِسَمْعِهِ وَلَعَلَّهُ أَدْرَى بِهِ

وكان سهل الخلق، رضى النفس، مرهف الحس، يحزن فيسرع إليه اليأس، ويبكى فيذوب دموعا، ليس فيه شيء من ذلك الجمود عن الحياة، أو التعالي عليها، ذلك التعالي الذي تضيق به النفس . ليس من عبید الحياة، الذين يترغون في حماها ثم يدعون أنهم سادتها، ولكنه كالناس

(١) أوراق ملحقة بشرح التبريزي لديوان أبي تمام (مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٥٠ أدب ش) .

(٢) الصولى : كتاب أخبار أبي تمام، صورة مخطوطة بمكتبة جامعة فؤاد الأول، الورقة ٧٩

(٣) المصدر نفسه، الورقة ٣٤

جميعاً، يعبد الحياة، ويتغنى بعبادتها، فإذا هزم لم يصخب كما يصخب تلميذه المتنبي . وإنما يستقبل الحياة بعد أن تذهب عنه سورة اليأس الأولى ، في رضى بما فيها ، وقناعة بما تنيله من عطائها ، قل أو كثر .

فَقَنَّنِي يَا سَيِّ وَأَعْلَمْ أَنِّي مَقُودٌ بِجِبِلٍّ لِلْقَادِرِ مُدْجِجٌ

فإذا سخر من الدهر وتصاريقه، لم يسخر منه سخرية الغاضب الحنق، ولكن سخرية الضاحك الهازئ، الذى يأخذ الحياة أخذاً سهلاً هوناً :

فَلَوْ ذَهَبَتْ سِنَاتُ الدَّهْرِ عَنْهُ وَأَلْقَى عَنْ مَنَاكِبِهِ الدُّثَارُ

لَعَدَلَّ قِسْمَةُ الْأَيَّامِ فِينَا وَلَكِنْ دَهْرُنَا هَذَا حِمَارٌ

وهو كريم جواد . يقول الصولى : حدثني محمد بن سعيد أبو بكر بن الأهم قال : حدثني أحمد بن أبي فتن، قال : حضرت أبا تمام وقد وصل بمائتي دينار، فدفع إلى رجل عنده منها مائة ، وقال : خذها . ثم قيل لى : إنه صديق له . واستبذنت منه خلة ، فعذلته على إعطائه ما أعطى ، وقلت : لو كان شقيقك ما عذرتك مع اضطراب حالك ، فقال :

ذُو الْوُدِّ مِنِّي وَذُو الْقُرْبَى بِمَنْزِلَةٍ وَإِخْوَتِي أَسْوَدٌ عِنْدِي وَإِخْوَانِي

عِصَابَةٌ جَاوَرَتْ آدَابَهُمْ أَدَبِي فَهُمْ وَإِنْ فُرِّقُوا فِي الْأَرْضِ جِيرَانِي

أَرْوَاحُنَا فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ وَغَدْتُ أَجْسَامُنَا بِشَّامٍ أَوْ خُرَاسَانَ

والأبيات تبين عن رأيه في الصديق والصدقة .

وكان مسرفاً . يروى الصولى أن رجلاً من إخوان أبي تمام قدم عليه ، وكان قد بلغه أنه قد أفاد وأثرى ، بجاءه يستعجحه ، فقال له أبو تمام : لو جمعت ما آخذ ما احتججت إلى أحد ، ولكني آخذ وأنفق ، وسأحتال لك . فكتب إلى أبي سعيد : (محمد بن يوسف الثغرى) بقصيدة منها :

لَا زِلْتُ مِنْ شُكْرِي فِي حُلَةٍ لَا بُسْهَا ذُو سَلْبٍ فَخِرٌ

يَقُولُ مَنْ تَقَرَّعَ أَسْمَاعُهُ : كَمْ تَرَكَ الْأَوَّلُ لِلْآخِرِ

لِي صَاحِبٍ قَدْ كَانَ لِي مُؤْنِسَا وَمَالَفَا فِي الزَّمَنِ الْغَابِرِ

يَحْتَلِبُ الدَّهْرَ أَفَاوِيَقَهُ وَيَخْلُطُ الْحَالُوْ مَعَ الْحَازِرِ

حَتَّى إِذَا رَوَّضِي تَغْنَّى بِهِ ذَبَابُهُ فِي مُوْنِقٍ زَاهِرِ

أَفَحَ بِالْعَزْمِ أَمَانِيَّهٗ بَعْدَ اعْتِنَاقِ الْهَمَّةِ الْعَاقِرِ
تَحْمِلُ مِنْهُ الْعَيْسُ أُعْجُوبَةً تَجَدَّدَ السُّخْرَى لِلْسَّاحِرِ
ذَا ثَرَوَةٍ يَطْلُبُ مِنْ سَائِلٍ وَمُفْجَأًا يَأْخُذُ مِنْ شَاعِرِ
فَصَادَفَتْ مَالِي بِإِقْبَالِهِ مَنِيَّةٌ مِنْ أَمَلٍ عَائِرِ
فَشَارِكِ الْمَقْمُورَ فِيهِ وَلَا تَكُنْ شَرِيكَ الرَّجُلِ الْقَامِرِ
فَرِفْدُكَ الزَّائِرَ مَجْدُ وَلَا كَرِفْدِكَ الزَّائِرَ لِلزَّائِرِ

وَيَشْغَفُ بِالْجَمَالِ وَيَتَعَشَّقُهُ، فِي الطَّبِيعَةِ، وَفِي الطَّيْرِ، حَتَّى لِكَأَنَّهُ يَفْهَمُ حَدِيثَهَا :

سَاقٌ عَلَى سَاقٍ دَعَا قُمْرِيَّةً فَدَعَتْ تُقَاسِمُهُ الْهُوَى وَتَصِيدُ
يَتَسَاقِيَانِ بِرَيْقٍ هَذَا هَذِهِ مَجْمَعًا وَذَلِكَ بِرَيْقٍ تِلْكَ مُعِيدُ

وَيَبْكِي لِبُكَاءِ الْجَمَائِمِ، فَيَنْهِنُهُ نَفْسُهُ عَنْ هَذَا الْبُكَاءِ :

لَا تَسْجِينَنَّ لَهَا فَإِنْ بَكَاءَهَا ضَحِكَ وَإِنَّ بُكَاءَكَ أَسْتَفْغَرُ

يَسْتَقْبِلُ حَيَاتِهِ فِي غَيْرِ تَرْمُتِ الْمَتَدِينِينَ، فَهُوَ أَبْنُ عَصْرِهِ الْمَتَرَفِ النَّاعِمِ، يَسْرِفُ، فِي غَيْرِاهْتِمَامٍ لِمَا سَتَأْتِي بِهِ الْأَيَّامُ. رَوَى الصَّوْلِيُّ : "خَرَجَ أَبُو تَمَامٍ إِلَى خَالِدِ بْنِ يَزِيدَ بْنِ مَرْزُوقٍ وَإِلَى إِرْمِينِيَّةَ، فَامْتَدَحَهُ، فَأَمَرَ لَهُ بِعَشْرَةِ آلَافِ دِرْهَمٍ، وَنَفَقَةَ لِسَفَرِهِ، وَأَمَرَهُ أَنْ لَا يَقِيمَ إِنْ كَانَ عَازِمًا عَلَى الْخُرُوجِ. فَوَدَّعَهُ، وَمَضَتْ أَيَّامٌ، فَرَكِبَ خَالِدٌ لِيَتَصِيدَ، فَرَأَاهُ وَقَدَامَهُ زُكْرَةٌ فِيهَا نَيْذٌ، وَغُلَامٌ بِيَدِهِ طُنْبُورٌ. فَقَالَ : حَبِيبُ ؟ قَالَ : خَادِمُكَ وَعَبْدُكَ. قَالَ : مَا فَعَلَ الْمَالُ ؟ فَقَالَ :

عَلَّمَنِي جُودُكَ السَّمَاحَ فَمَا أَبْقَيْتُ شَيْئًا لَدِي مِنْ صِلَتِكَ

فَأَمَرَ لَهُ بِعَشْرَةِ آلَافِ دِرْهَمٍ أُخْرَى، فَأَخَذَهَا.

وَإِنْ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ، وَفِي هَذَا الْمَزَاجِ الشَّعْرِيِّ فِي آتِنَاءِ الْمَكَانِ تَحْتَ الشَّجَرَةِ مَا يَسْتَحْضِرُ فِي الذَّهْنِ أَبْيَاتَ عَمْرِاءِ الْخِيَامِ الشَّاعِرِ الْفَارَسِيِّ :

وَأَخْلَى بِي نَحْسُوشَرَابًا عُتِقَا ثُمَّ نَلْهُو بِنَشِيدٍ مُنَمَّا

وَرَغِيفٌ تَحْتَ ظِلِّ أَشْرَقَا وَأَشْدُّ بِالْأَلْحَانِ يَرْتَدُّ الْخَلَا

* جَنَّةٌ رَاقٍ بِهَا الْحَسَنُ وَرَاعُ *

وقد يسوق هذا إلى الظن أن أبا تمام كان من أصحاب الغلمان ، ولكن هذا ما لا تدل عليه حياة أبي تمام ولا شعره ، وإن ما فيه من ذلك قريب أن يكون من باب طرق فنون شعرية طرقها معاصروه ، فعز عليه ألا يقول فيها ، فقال ؛ وكان ما قاله قليلا جدا ، فهو لا يرضى أن يُتهم في غلامه ، فيدفع ذلك دفعا لا تجد إليه التهمة سبيلا . وفي الصولي :

”روى مسعود بن عيسى قال : حدثني غلام أبي تمام ، المنشد كان لشعر أبي تمام ، وكان حسن الوجه ، قال : دخل أبو تمام على الحسن بن وهب وأنا معه ، وعلى رأسه جارية ظريفة ، فأوما إليها الحسن ، يغريها بأبي تمام ، فقالت :

يَا بْنَ أَوْسٍ أَشْبَهْتَ فِي الْفِسْقِ أَوْسَا وَأَتَّخَذْتَ الْغُلَامَ الْفَاوِيسَا
فَقَالَ أَبُو تَمَامَ :

أَبْرَقْتُ لِي إِذْ لَيْسَ لِي بَرْقُ فَتَرَحَّجِي مَا عِنْدَنَا عِشْقُ
مَا كُنْتُ أَفْسُقُ وَالشَّبَابُ أَحْيَ أَخْيِنَ شَبْتُ يَجُوزُ لِي الْفَسْقُ
لِي هِمَّةٌ عَنْ ذَاكَ تَرْدُعُنِي وَمَرَكَبٌ مَا خَانَهُ عِرْقُ

ولكنه ولوع بالنساء ، يتعشقهن في كل مكان نزله ، ويستفتح معظم قصائده بغزلهن . ينزل مصر فيحب ، ويخرج من الشام إلى مصر طاعةً لجيرة ، ويسير إلى خراسان ، فينزل أبرشهر ، فيسمع وهو سائر صوت مغنية تغني بالفارسية ، فيحبها ، ويتولاه في حبها ، ويلازمها ، حتى لنسمع قوما يقولون إن طول ملازمته لها قد حطت قدره عند عبد الله ابن طاهر ، فكان أن غضب عليه . وهو حضري بمعنى الكلمة ، يحب اللهو ، ويغرم بعيش المدن الصاخبة . وإن ممدوحه مالك ابن طوق يأخذه معه إلى باعينا ، وهي قرية على الفرات صغيرة ، ليس بها ملاهى المدن ، فيصرخ به ضجرا بعيشها ، ونقص لذائدها :

يَا مَالِكَ ابْنَ الْمَالِكِينَ أَرَى الَّذِي كُنَّا نُوْمِلُ مِنْ غِيَابِكَ رَأَا
لَوْلَا اعْتِمَادُكَ كُنْتُ فِي مَمْدُوحَةٍ عَنْ بَرَقَعِيدٍ وَأَرْضِ بَاعِينَا
وَالْكَأَخْيَةِ لَمْ تُكُنْ لِي مَوْطِنًا وَمَقَابِرُ اللَّذَاتِ مِنْ قَبْرَانَا
لَمْ آتِهَا مِنْ أَى وَجْهِ جِئْتُهَا إِلَّا حَسِبْتُ بَيْوتَهَا أَجْدَانَا
بَلَدُ الْفِلَاحَةِ لَوْ أَنَّهَا جَرُولُ أَعْنِي الْخَطِيئَةَ لَاغْتَدَى حَرَانَا
تَصْدَا بِهَا الْأَفْهَامُ بَعْدَ صِقَالِهَا وَتَرَدَّدُ ذُكْرَانُ الْعُقُولِ إِنَانَا
أَرْضُ خَلَعْتُ اللَّهُوَ خَالِي خَاتَمِي فِيهَا وَطَلَقْتُ السَّرُورَ ثَلَاثَا

تردد هذا
شعره
بغيره
ملاذاته
في ذلك
الوقت
الذي
كان
فيه
السرور
والسرور
الذي
كان
فيه
السرور

وفي القصيدة
التي
كان
يغنيها
في
الوقت
الذي
كان
فيه
السرور



إلى جانب هذه الحياة اللاهية في غير حق، نجد أبا تمام المترفع الوقور، الذي ينثر عليه عبد الله ابن طاهر ألف دينار، فلا يمدّ يده إلى واحد منها. ووقاره هذا هو الذي كان يدفع بممدوحيه إلى احترامه، وحبّه، وإقامة ما بينه وبينهم على أساس الصداقة والصحبة، حتى لنجد ممدوحه له كأبن الزيات الوزير يرثيه بعد موته إبان وزارته، وكذلك الحسن بن رجاء. ولقد رأينا من قبل هذا رأيه في الصداقة، وكان أصدقاؤه يعرفون له هذا الشعور من ناحيتهم، فكانوا يحبونه حبا صادقا، نراه في فورة غضب على بن الجهم على دِعبل، لما ذكر في مجلسه فلغنه، فسئل عن ذلك، فقال: لقد كان يطعن على أبي تمام، ويكذب عليه. ونراه في حديث أصدقاؤه جميعا عنه بعد موته، وثنائهم عليه.



ثم هو قاسٍ على أعدائه، شديد النقمة عليهم، ولكنه رحيم بأصدقائه، شديد الحب لهم، ويتلخص مذهبه من هؤلاء وهؤلاء في قوله:

لَيْنَلْ عَدُوٌّ مِنْ عَدُوِّ إِنْما يَغْفُو وَيَصْفَحُ صَاحِبٌ عَنْ صَاحِبٍ
يرى عمورية تحترق فيهتف:

مَا رُبَّ مَيَّةَ مَعْمُورًا يُطِيفُ بِهِ غَيْلانُ أَهْبَى رِبًّا مِنْ رَبِّهَا الْخَرِبِ
وَلَا الْخُدُودُ وَإِنْ أَدْمِينَ مِنْ خَجَلٍ أَشْهَى إِلَى نَاطِرِي مِنْ خَدَّهَا التَّرِبِ

ويحتاج صديقه فيعطيه، وهو في حاجة إلى ما يعطى. فإذا سئل قال:

ذُو الْوَدِّ مِنِّي وَذُو الْقَرْبَى بِمَنْزِلَةٍ وَإِخْوَتِي أَسْوَةٌ عِنْدِي وَإِخْوَانِي
ويُصْلَبُ الْأَفْشِينَ، ويحرق جسده، فيقول:

يَا مَشْهَدًا صَدَرْتُ بِفَرْحَتِهِ إِلَى أَمْصَارِهَا الْقُصُوى بَنُو الْأَمْصَارِ
ويموت أبنه فيقول:

كَانَ الَّذِي خَفْتُ أَنْ يَكُونَا إِنْما إِلَى اللَّهِ رَاجِعُونَ
أَمْسَى الْمَرْجَى أَبُو عَلِيٍّ مُوسَّداً فِي الثَّرَى دَفِينَا
حِينَ اتَّهَى وَاسْتَوَى شَبَابَا وَحَقَّقَ الرَّأْيَ وَالظَّنَّوْنَا
أُصْبِتُ فِيهِ وَكَانَ عِنْدِي عَلَى الْمَصِيبَاتِ أَنْ يُعِينَا

كنت عزيزا به كثيرا وكنت صَبَاباً به حيننا
دافعتُ إلا المنونَ عنه والمرء لا يَدْفَعُ المنونا

الأبيات

... ..

... ..

وكان أبو تمام أنيقا في ملبسه . نزل بغداد أول ما نزلها وعليه ثياب أعرابي ، فلما أن غني وأصاب دنيا ، أخذ يرتدى من الحرير :

قَصَبِيًّا تسترْجِفُ الريحَ مَتْنِيَّ به بأمرٍ من الهُبوبِ مُطَاعٍ

ويختار الفرو الناعم ، والمركب الفاره والعبيد . يتبعه إلى البصرة في نزوله بها مرة أربعة وعشرون فتي ، ويستقبله حين يقرب منها شعراؤها وأدباؤها .

وهو كثير الرحلة ، لا يكاد يستقر في مكان ، كبير الخيلة مما أكسبه تنقله . يستمد استعاراته وتشبيهاته من دنيا واسعة ، كثيرة الصور ، مزدهجة بها ، حتى إن كثرتها ، وتحزيره إياها ، يزيد أسلوبه تعقدا ، ويخرجه مخرج التكلف ، يقول :

أنبطت في قلبي لرأيك مشرعا ظلت تحوم عليه طير رجائي
فيرسم لك في قلبه نبعا متفجرا وطورا حائمة عليه .

وهو بهذه الخيلة الضخمة المتعددة النواحي ، يحوب البلاد طولا وعرضا ، من مشرقها إلى مغربها ، يقول شعره بصوته الأجلح المتقطع أول الأمر ، ثم يجوبها ومعه غلامه ثانية ، وهو غلام حسن الصوت ، جميل الخلقة ، يقول شعره عنه في حضرة ممدوحيه . وهم يستقبلون وفادته بالإكرام والترحيب . فإذا أنس من أحدهم جفوة ، أو أحس إغضاء ، أخذ يعاتبه ، فإن اعتدل فيها وإلا هجاه . ولما يفلح في هذا الهجاء .

٢ - أسرة أبي تمام

لا يذكر الصولي من أسرة أبي تمام إلا آثنين : سهم ، وهو أخو أبي تمام ، ويقول عنه الصولي إنه كان يقول الشعر ، ويدكر من شعره :

ونازعته شيئا إليه مبغضا فلما رأى وجدى به صار يعشقه
فدعه ولا تحزن على فائز به فإنَّ جديداً الليالي ستخلقه

وبين هذا الشعر وشعر أبي تمام أخوة تدرك في الروح ، وفي الفكرة ، وفي البديع .

ويقول الصولي عنه إنه جاء مرة إلى أبي تمام يستمعيه، فقال له : والله لا يفضل عني شيء، ولكنني أحتال لك . فكتب إلى يحيى بن عبد الله بقصيدة أولها :

إِحْدَى بَنِي بَكْرٍ بَنٍ عَبْدٍ مَنَاهِ بَيْنَ الْكَثِيبِ الْفَرْدِ فَلَأَمْوَاهِ

ومنها :

سَهْمُ بَنِ أَوْسٍ فِي ضِمَانِكَ وَائْتَقَا أَنْ لَسْتَ بِالنَّاسِي وَلَا بِالسَّاهِي
أَجْزَلُ لَهُ الْحَظُّ لِمَنْ مَنَكَ وَكُنْ لَهُ رَكْنَا عَلَى الْأَيَّامِ لَيْسَ بِوَاهِ
بُولَاتَيْنِ : وَلَايَةٍ مَشْهُورَةٍ فِي كُورَةٍ وَوَلَايَةٍ بِالْجَاهِ الْأَبْيَاتِ

ويذكر من أسرته ابنه تماماً . وقد عاش تمام بعده، ورأينا فيما سبق شيئاً من أحاديثه عن أبيه ، ويقول إنه كان يقول الشعر ، ولكن شعره كان ضعيفاً . وينقل لنا أنه لما ولي محمد بن طاهر خراسان ، دخل الناس لتهنئته ، فكان فيهم تمام بن أبي تمام الطائي ، فأنشده :

هَنَّاكَ رَبُّ النَّاسِ هَنَّاكَ مَا مِنْ جَزِيلِ الْمَالِ أَعْطَاكَ
قَرَّتْ بِمَا أُعْطِيَتْ إِذَا الْحِجَا وَالبَاسِ وَالْإِنْعَامِ عَيْنَاكَ
أَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِمَا نَلَّتْهُ وَأُورِقَ الْعُودُ لِنَجْوَاكَ

فاستضعفت الجماعة شعره ، وقالوا : يا بعد ما بينه وبين أبيه ! فأغرى محمد بن طاهر به شاعراً ، فقال له شعراً في آخره :

فَهَاكَ إِنْ شِئْتَ بِهِ مِدْحَةً مِثْلَ الَّذِي أُعْطِيَتْ أَعْطَاكَ

فقال تمام : أعز الله الأمير، إن الشعر بالشعر ربا ، فاجعل بينهما رخصاً من دراهم ، حتى يحل لي ولك . فضحك محمد وقال : إن لم يكن معه شعر أبيه ، فمعه ظرف أبيه ، أعطوه ثلاثة آلاف درهم^(١) .

ولكن ديوان أبي تمام يحدثنا عن غير هذين ، فيذكر لنا أن زوجته ماتت فرثاها ، فقال :

جُفُوفَ الْبَلِي أَسْرَعَتْ فِي الْغُصْنِ الرُّطْبِ وَخَطْبَ الرَّدَى وَالْمَوْتَ أَبْرَحْتَ مِنْ خَطْبِ
لَقَدْ شَرِقتُ فِي الشَّرْقِ بِالْمَوْتِ غَادَةً تَعَوَّضْتُ مِنْهَا غَرْبَةَ الدَّارِ فِي الْغَرْبِ
وَأَلْبَسَنِي ثُوبًا مِنْ الْحَزَنِ وَالْأَسَى هَلَالٌ عَلَيْهِ نَسِجُ ثُوبٍ مِنَ التُّرْبِ
أَقُولُ وَقَدْ قَالُوا أَسْتَرَحَ بِمَوْتِهَا مِنَ الْكَرْبِ رَوْحُ الْمَوْتِ شَرٌّ مِنَ الْكَرْبِ

لقد نزلت ضنكا من اللحد والثرى
وكنيت أربجى القرب وهي بعيدة
لها منزل تحت الثرى وعهدتها
ولو كان رحب الذرع ما كان بالرحب
فقد نُقلت بعدى عن البعيد والقرب
ولا نستطيع أن نعلم متى ماتت هذه الزوجة، ولكن في قوله :

لقد شيرقت في الشرق بالموتِ غادة
تعوّضت منها غربة الدار في الغرب
ما يدل على أنها ماتت في المشرق، في وقت كان هو فيه بالمغرب . وأبو تمام يدعو مصر والشام بالمغرب، فيقول :

خلفت بالأفق الغربي لي سكا
قد كان عيشي به حلوا بجلوان

فإذا صح هذا، كانت وفاة زوجته هذه بالمشرق في زمن كان هو فيه بمصر أو بالشام، ولكنه نزل الشام مرارا، فلا نعرف في أى هذه المرات ماتت زوجته . وسنراه بعد في مصر يتحدث عن حب له بالإسكندرية، ولأحظت هناك أنه قد تغيرت نغمة غزله، بعد خروجه منها، وقصده إلى الرقة، مما جعلني أرجح أنه كان تزوج وهو بمصر . ولا نعلم أكانت زوجته هذه التي يرثيها، هي التي تزوجها في مصر، أخذها ثم تركها في المشرق، أم هي غيرها، تزوجها من هناك . وأغلب الظن أنها زوجة ثانية .



أما أبنائه فقد كان له غير تمام، وقد ماتوا في حياته، ففي ديوانه أنه قال يرثي ابنه :

كان الذي خفت أن يكونا
أمسى المربجى أبو على
إنا إلى الله راجعون
موسدا في الثرى دفيناً

فهو يسميه أبا على، وأبو على كنية من أسمه حسن .

وهو في مكان آخر يرثي ابنه محمدا رثاء أوله :

لا يُشيمت الأعداء بالموت أننا
سنخلى لهم من عرصة الموت مؤردا

ومنها يقول :

تسابع في عام بني وإخوتي
فأصبحت إن لم يخلف الله مفردا

— وهذا البيت يفيد أنه مات أبناءه وأخوته جميعا في عام واحد ، فأصبح مفردا ، ويقول : إن لم يخلفني الله ابنا فسأظل كذلك . ولقد مضى أن ابنه تماما قد عاش بعد موته ، فكان هذه القطعة التي قيلت في رثاء ابنه محمد ، كانت قبل مولد ابنه تمام ، أما متى ولد ابنه ، فذلك مالا نعرفه . وكانت أخاه سهما الذي سبق الحديث عنه ، قد مات أيضا قبل مولد تمام ابنه . ولأبي تمام في ديوانه رثاء في أخ له ، قد يكون سهما ، وقد يكون غيره ، قال فيه وقد حضر وفاته :

إني أظن البلى لو كان يفهمه	صدّ البلى عن بقايا وجهه الحسين
يا يومه لم تدع حسنا ولا أدبا	إلا حكمت به للحد والكفن
لله مقتلته والموت يكسرهما	كان أجفانه سكرى من الوسن
يرد أنفاسه كرها وتعطفها	يد المنيّة عطف الريح للغصن
يا هول ما أبصرت عيني وما سمعت	أذني ، فلا أبصرت عيني ولا أذني
لم يبق من بدني جزء علمت به	إلا وقد حله جزء من الحزن
كان اللحاق به أهني وأحسن بي	من أن أعيش سقيم الروح والبدن

وفي الرثاء ما يوحي أنه كان صغير السن ؛ ولعله يتفق مع ما يفهم من حكاية أخيه سهم السابقة . أما أبوه أوس فلا نعرف عنه شيئا ، إلا ما ذكرته في أول كلامي على حياة أبي تمام ، وليس في ديوان أبي تمام رثاء له . وذلك يدل على أنه لم يمت وأبو تمام يقول الشعر ، أو أنه ظل حيا حتى مات أبو تمام . والثانية أضعف ، فما سمعنا في شعر أبي تمام كله شيئا عن أبيه : وليس في كل ما هو معروف في حياة أبي تمام إشارة إليه .



هذه أسرة أبي تمام ، على ما يمكن أن نعرف . ولا شك في أن هناك آخرين ؛ فإننا لم نسمع شيئا عن أمه ، وليس في تاريخ الأشخاص عند القدماء ما يقصرون فيه تقصيرهم في هذه الناحية . وكان في بيت أبي تمام جوار وفتيان ؛ فقد رأينا كيف كان يرافقه حين دخل البصرة لثاني مرة أربعة وعشرون قتي .



ولكنه بعد هذا كان مرزاً في أهله ، مات أبناءه في حياته ، فلم يبق منهم إلا تمام ، وهو آخرهم على ما بدا في بيته السابق . ومات أبوه وهو صغير السن ، ويظهر أن أمه فارقتة أيضا طفلا . وإنا لتبين بغيته فيهم ، وإحساسه فراقهم ، في أبيات يرثي بها جارية له :

ألم ترني خَلَيْتُ نفسي وشأنها ولم أحفل الدنيا ولا حدانها
لقد خَوَّفَتْنِي النَّبَاتُ صُروفها ولو أمتنني ما قِلْتُ أمانها

ولذلك خرج أبو تمام من الشام طفلاً ابن سبيل، هائماً على وجهه، ليس له من يرعاه، فألقته المقادير بمصر طفلاً، عليه أن يعمل ليعيش، وعلى غصنه الرطب الناعم، وشفتيه الطفلتين الباسمتين أن تلقى الحياة القاسية عابسةً. فعمل، وصهرت أحداث دهره نفسه، فأخرجت لنا منه هذا الشاعر، الذي نقرؤه فتهتر نفوسنا بشعره.

الباب الثالث

حياة أبي تمام وحياة شعره

١ - بلده

وُلِدَ أبو تمام : حبيب بن أوس الطائي "بجاسم" يقول ياقوت : "وهو اسم قرية، بينها وبين دمشق ثمانية فراسخ، على يمين الطريق الأعظم إلى "طبرية". ويقول صاحب الأغاني : إنها بناحية منبج . ويضع ياقوت مدينة منبج هذه إلى الشمال الأقصى من بلاد الشام ، بحيث يكون بينها وبين الفرات ثلاثة فراسخ ، وبينها وبين حلب عشرة فراسخ . وهذا لا يتفق مع قرب جاسم من دمشق عند ياقوت . فدمشق تقع في قلب البلاد الشامية . وعندى أن تحديد ياقوت أوثق وأصح . وقد تكون ملاحظة الصلة بين أبي تمام ومنبج ، هي التي حملت صاحب الأغاني على جعل جاسم مسقط رأس أبي تمام ، قريبا منها . فالصولي يروي في أخبار أبي تمام "أن جماعة كانوا يتهمونهم (أى أبا تمام) بأنه كان يعيش مع أم البحترى سفاحا" والبحترى مولود في منبج هذه ، وأملاكه بها ، على حد تعبير ياقوت .

ويذكر أبو تمام في شعر غزل له منبج فيقول :

أطلال بنت العامرى بمنبج غناؤك محظور على الدنف الشجى
أجيبى سؤالى ، وأعيرى إن عرفته ، مقامى عن صحبى ، وحق تعزجى

وناحية دمشق كما يصفها ياقوت : "جنة الأرض بلا خلاف : حسن عماره ، ونضارة بقعة ، وكثرة فاكهة ، ونزاهة رقعة ، وكثرة مياه ، ووجود مآرب" .

واشتهرت جاسم بجاذرها ، فيقول شاعر طائي ، هو عدى بن الرقاع العاملى :

وكأنها بين النساء أعارها عينيه أحور من جاذر جاسم

في هذه البقعة ولد أبو تمام .

وقد أجمع المؤرخون ، والنسليون ، وأصحاب كتب الأدب ، على أنه من نفس طي صليبية . لم يشذ على هذا الإجماع أحد . إلا أن الصولي في كتابه أخبار أبي تمام ، ذكر عبارة أشار فيها إلى نصرانية أبيه ، ولم يذكر هذه العبارة على أنها رأيه هو — فقد تحدث عن رأيه قبل ذلك حديثا قاطعا ولكنه ذكرها في معرض الحديث عن محاولات أعداء أبي تمام النيل منه ، ووسائلهم في ذلك . وقد ناقشنا هذه العبارة في باب سبق ، فأبنا أن نصرانية أبي تمام لا تتعارض مطلقا مع طائفته ؛ فإن النصرانية كانت فيهم قبل الإسلام ، وظلت فيهم بعده إلى زمن متأخر عن زمن أبي تمام . وقد أتاح ذكر الصولي في عبارته السابقة كلمة "تدوس" في نسب أبي تمام بدلا من "أوس" لصاحب مادة أبي تمام في دائرة المعارف الإسلامية ، مجالا لإرضاء عصبية خاصة في نفسه . بفعل أبا أبي تمام نصرانيا ثم استظهر إمكان رد الكلمة إلى أصل يوناني هو "Theodose" . وتابعه في ذلك بعض الباحثين .^(١)

٢ - مولده

أقدم ما بين أيدينا من نصوص يؤرخ مولد أبي تمام ووفاته ، ما كتبه الصولي في "أخبار أبي تمام" ، فيروي عن عون بن محمد الكندي أنه قال : "قرأت على أبي تمام شيئا من شعره ، في سنة سبع وعشرين ومائتين ، وسمعتة يقول : مولدى سنة تسعين ومائة"^(٢) . ثم ينقل رواية أخرى ، عن تمام بن أبي تمام أنه قال : "مولد أبي سنة ثمان وثمانين ومائة" .

(١) قرأت أخيرا في صفحات ألحقت بشرح التبريزي على ديوان أبي تمام (مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٥٠ أدب ش) و يظهر أن ناسخ الخبر نقله عن صفحات قد تأكلت من ناحية ابتداء السطور ، ولكنه ضم متفرقا في غير اهتمام ، لما بينها من ثغرات ، فبدت خرومها إلا أنه ليس من العسف فهم ما هنالك . قرأت فيها ولم يبين الناسخ مرجعه أن أبا تمام كان من بني عدى بن عمرو بن الغوث بن طي . ثم قال : "وقيل كان أبوه نصرانيا من أهل جاسم فصيره أبو تمام أوسا" . ويقال إن اسم أبيه كاوس . وفيه يقول أحمد بن محمد بن الخنعمي :

ولقد طلبت أبا فأعجز وجهه حتى انبرى لك كاوس الحمار
فلم يهتم أبو تمام فقط بأن أباه كان نصرانيا يدعى تدوس ، ولكنه أتهم أيضا بأن أباه كان يدعى كاوس فحذف الكاف . وكاوس اسم فارسي . وأبو تمام هو الذي يقول في صلب الإخشيد .

يا قابضا يد آل كاوس عادلا أتبع يميننا منهم يسار
ولو أتبع هذا النص لأصحاب الظن بأن أبا تمام كان من أصل يوناني لترددوا في الجزم بيونانيته ، لما عسى أن يوجد لهذه الدعوى على أبي تمام من فارسية تنافسها . ومثل هذه التهم ، التي لا تقوم إحداها إلا بانتفاء الأخرى ، إذا تعددت كان تعددها سبيلا إلى بهرجتها وعدم قبولها ، في بابها ، وكانت هي نفسها دليلا على ما كان يحاول أصحابها من إثارة الظنون حول نسب أبي تمام ، ودخلت بذلك في باب المهاترات التي لا تقوم بحال سنداء عليها في تصحيح دعوى ، يقوم على تكذيبها كل النقول التاريخية المصححة عند المؤرخين والنسابين والنقاد . (٢) ورقة ١٣٢

أما ابن خلكان فيضيف إلى هذين التاريخين لمولده ، أنه ولد سنة اثنتين وسبعين ومائة ،
واثنتين وتسعين ومائة . فيقع ذلك الاضطراب في مولد أبي تمام في عشرين سنة .
ولا يكاد يداخلني الشك في أن ابن خلكان ، يوم كتب هذه الروايات ، كان قد قرأ ما كتب
عن حياة أبي تمام ، وما قالوا عن ذكائه ، وموته في سن باكرة ، فلولم يكن عنده احتمال تقوم به
الرواية لما ذكرها ، إن لم ينفها . أما اثنان وتسعون فأنا أميل إلى الإغضاء عنها ، لما يخيل إلى
من أنها عند من نقل عنهم ابن خلكان ، إنما كانت أثرا من آثار التصحيف أو التشابه في الخط
العربي بين سبعين وتسعين ، ولأن ما ينتهي إلى أبي تمام وأبنة خير مما لم ينته إلى أحدهما ، فضلا
عن أن الصولى ، — ومعظم النقل عند من كتب عن أبي تمام كان عنه — لم يذكرها .

فيبقى بعد ذلك روايات ثلاث ، وهى سنة ١٧٢ ، وسنة ١٨٨ ، وسنة ١٩٠ . والأخيرة منها
يضعفها الاطلاع على حياة أبي تمام وغزارتها ، وأنها تجعل ابتداء انتقاله من دمشق إلى مصر
في سن باكرة ، كما أن هناك قرائن أخرى سأذكرها بعد ، تجعل الباحث يميل إلى جعل مولد أبي تمام
متقدما ما أمكن ذلك .



هناك قرائن قد يُستأنس بها في أن أبا تمام قد ولد سنة ١٧٢ . ولكن هذه القرائن ليست
بالقاطعة . بل يقابل كلا منها احتمال لا يرتاح باحث معه إلى الاستناد عليها .

وأول ما يجب أن نذكره قبل الكلام على هذه القرائن ، هو أن أبا تمام نزل مصر في حديثه ،
وتلقى العلم بمسجدها الجامع ، وظل بها فترة لا تقل عن خمس سنين ، سجلها هو في قصيدة من قصائده ،
لا نعرف أقالها وهو في مصر ، أم قالها بعد خروجه منها ، ومطلعها :

أَصَبَ بِحُمَيَّا كَأَسْمَا مَقْتَلِ الْعَذْلِ تَكُنْ عَوْضًا إِنْ عَنَّفُوكَ مِنَ النَّبْلِ^(١)

ومنها :

أَخْمَسَةُ أَحْوَالٍ مَضَتْ لِمَغْيَبِهِ وَشَهْرَانِ ، بَلْ يَوْمَانِ تُكَلُّ مِنَ الشُّكْلِ

وبيت آخر من قصيدة أخرى ، قالها في العراق ، في مدح الحسن بن سهل ، يجب ألا ننساه ،
وذلك هو :

سِتُّ وَعَشْرُونَ تَدْعُونِي فَاتَّبِعْهَا إِلَى الْمَشِيبِ وَلَمْ تَقْطَعِي لِي وَلَمْ تَحْبِ^(٢)

فهو — كما تبين من كلامه — قال هذه القصيدة في العراق للحسن بن سهل وسنه ست وعشرون سنة، فيكون قالها في سنة ١٩٨ أو سنة ٢١٤ للحسن بن سهل في العراق .

فأما أن أبا تمام كان في العراق حول سنة ٢١٤ فذلك لا شك فيه، فقد قتل في تلك السنة محمد ابن حميد الطائي، في أذربيجان في حرب بابك الخرمي، فرثاه أبو تمام بقصائد وصل فيها إلى غاية فنه، ويمكن الإنسان أن يتبع حياة أبي تمام، بعد هذه السنة، في المشرق حتى موته .

أما أنه كان في العراق سنة ١٩٨ يمدح الحسن بن سهل، فذلك ما يستحق منا أن نطيل

الوقفة عنده .

(٢) وجه الحسن بن سهل في هذه السنة إلى العراق، والياً عليه وعلى غيره، من قبل المأمون . فليس ما يمنع أن يتوجه إليه أبو تمام ليمدحه في تلك السنة . فإذا فرضنا أن أبا تمام كان حقا بالعراق سنة ١٩٨ كان علينا أن نتلمس هل كان قبل ذلك في مصر أم لم يكن ؟ ونتيجة هذا البحث لا تبدو عقيمة تمام العقم، فإننا نجد في سنة ١٩٦ في مصر أحد ممدوحى أبي تمام واليا عليها، وهو المطالب بن عبد الله الخزاعي، وليها من قبل المأمون، ومدايح أبي تمام فيه ليست مذكورة في نسخة الديوان المطبوعة بين أيدينا، ولكن فيها هجاء لأبي تمام فيه، لا يزيد على بيتين، يشير فيهما إلى مدائح له، وهما :

أَوَّلُ عَدْلٍ مِنْكَ فِيمَا أَرَى أَنْكَ لَا تَقْبَلُ قَوْلَ الْكَذِبِ
مَدَحَتَكَ كَذْبًا بَخَازِيَنِي بَخْلًا، لَقَدْ أَنْصَفْتَ يَا مَطْلَبُ

ولكن لا نعرف أ كان مدحه المطالب في مصر، أم كان في غيرها ؟ في ذلك الزمن أو بعده ؟ فإننا نجده في مصر واليا عليها مرة أخرى، يظل فيها سبعة أشهر، على ما يقول اليعقوبي في تاريخه، وذلك في سنة ١٩٨ وعلى كل حال فالمرتان داخلتان في نطاق فترة السنين الخمس، السابقة لسنة ١٩٨، وهي السنة التي نزل فيها الحسن العراق .

(ب) أضف إلى ما تقدم : أن حدثا حدث في تاريخ الحسن بن سهل، يجعلنا نرجح أن مدائح أبي تمام فيه كانت قبل سنة ٢٠٣، ففي هذه السنة، يروى لنا الطبري وابن الأثير : أن الحسن قد أصيب بالسوداء إصابة شديدة، حتى أنه وُضع في الحديد، وحُبس، واستخلف المأمون على جنده دينار بن عبد الله — أحد ممدوحى أبي تمام في الديوان . وإن كان الصولى يجعل القصيدة

المقولة فيه فيمن يدعى دينار بن يزيد — واتخذ على وزارته بدلا منه، أحمد بن أبي خالد. ويقول ابن خلكان إن مرة السوداء ثارت عليه، حتى منعه التصرف .

(ج) وفي سنة ١٩٨ أيضا، يقتل الأمين، وترزّل أرجاء العالم الإسلامي بفتن كانت تلتهمه كالنار؛ فيخرج بكل قطر من استطاع أن يخرج به ... ومن بين الخارجين بأذربيجان، علي بن مرّ، ممدوح أبي تمام وصديقه؛ ولكن لم تلبث أذربيجان أن أعيدت إلى حظيرة الخلافة . ولا شك في أن علي بن مرّ هذا، كان مغضوبا عليه إذ ذاك من الخليفة . ويظهر أنه رضى عنه بعد ذلك في زمن لا نعرفه . وفي رضا الخليفة عنه يقول أبو تمام^(١) :

كم وقعة لك ما ينقك يذكركها خليفة الله في ستر وفي عان

ويظهر أن الخليفة كان يستخذه بعد رضاه في إخضاع جماعة بغت بالشام، فيقول أبو تمام :

لم يبق من شجر البغي التي غرست بجانب الشام من جذم ولا فتن

ثم يقول له ما يبين عن اتصاله به أيام محنته، وما يلقى في الروع شيئا من أنهما متقاربان سنا :

إلى حرمة بك فاحفظها وجازيها يا حافظ العهد والعود بالمين
أولى البرية حقا أن تراعيه عند السرور الذي آسأك في الحزن
إن الكرام إذا ما أسهلوا ذكروا من كان يألفهم في المنزل الخشين

ومما يؤكد الحس بتقاربهما في السن، كتاب كتبه أبو تمام إليه في غيبته، قال منه :

ما زلت بعدك يا أحنى في حسرة وتلد حتى أراك سلمي
أقر السلام عليك مني كلما جرت الرياح فأنشقتك نسما^(٢)

وقد كتب إليه ذلك الكتاب لما غاب عنه وشاقه .

هذا التقارب في السن، المدرك في كتاب أبي تمام، بينه وبين ثائر بأذربيجان على الخلافة، يجعلنا لا نظن أن سنّ هذا الثائر يوم ثار، كانت عشر سنين أو تزيد عليها قليلا .

(د) يذكر ابن الأثير، في حوادث سنة مائتين، فتنة بالموصل، وقعت بين بني أسامة وبني تغلب^(٣)، وقد يزيد هذا قوة، ماجاء وسأذكره في ديوان أبي تمام، يقول ابن الأثير: "واقتلوا قتالا شديدا، فقتل من بني أسامة جماعة، وأسر منهم جماعة، ومن بني تغلب، وكانوا معهم ... وصلاح

(١) الديوان ط مصر ١٦٨ (٢) القصيدة ص ٢٥٣ من الديوان .

(٣) في ابن الأثير وتغلبة؛ وهو تصحيف صحته ما أثبتناه .

الأمر، وسكنت الفتنة“ . ولا يذكر ابن الأثير بعد هذا التاريخ، حتى سنة اثنتين وثلاثين ومائتين، شيئاً عن فتنة وقعت في الموصل، واشتركت فيها أسامة وتغلب ...

فإذا صح أن هذه الفتنة هي التي يتحدث عنها أبو تمام في قصيدته، التي يمدح بها مالك بن طوق، قوى ماضى به، ورجح وجوده بهذه الناحية نحو سنة ٢٠٠ . أما القصيدة فمطلعها :

لو أَنَّ دَهْرًا رَدَّ رَجَعَ جَوَابِي أَوْ كَفَّ مِنْ شَأْوِيهِ طَوْلَ عَنَابِي^(١)

وفيهما يشير إلى أنه كان شاباً، فيقول :

أَوْ مَا رَأَتْ بُرْدَى مِنْ نَسِجِ الصَّبَا وَرَأَتْ خِضَابَ اللَّهِ وَهُوَ خِضَابِي
وَرَأَيْتَ قَوْمَكَ وَالْإِسَاءَةَ مِنْهُمْ جَرَحَى بِظَفَرِ الزَّمَانِ وَنَابِ
هُمْ صَيَّرُوا تِلْكَ الْبُرُوقَ صَوَاعِقَا فِيهِمْ وَذَاكَ الْعَفْوَ سَوَاطِ عَذَابِ
فَأَقْلَ أَسَامَةَ جُرْمَهَا ، وَاصْفَحْ لَهَا عَنْهُ ، وَهَبْ مَا كَانَ لِلوَهَابِ

وقد يعترض على هذا، بأنه ليس لنا أن نقطع بأن ابن الأثير قد ذكر كل الفتن التي حدثت في تلك الأيام، وليس ما يمنع أن تتكرر الفتنة بين جماعتين بعينهما في أزمنة متباعدة، فيأتي ابن الأثير ويذكر واحدة لأهميتها، ويترك الباقي، ثم يأتي أبو تمام فيذكر الأخرى لاتصالها بمدوحه، فيلتبس التاريخ بالشعر، بما يثير في الظن أنهما عن حادثة واحدة، وليس ذلك صحيحاً .

فأقول: هذا حق، ولكن ليس فيه ما يقطع بأن هذه القصيدة قيلت في غير هذه الفتنة، فهو احتمال لا أذهب إلى القطع به، وقد يزيد في قوة الاعتراضين، أن أبا تمام يذكر في قصيدة أخرى في مدح مالك أيضاً، تشبيهاً يثبت أنه قالها في زمن متأخر . يقول فيها عن بيوت أجبائه :

كَانَتْ لَنَا صِنْمًا نَحْنُو عَلَيْهِ وَلَمْ نَسْجِدْ كَمَا سَجَدَ الْأَفْشِينُ لِلصَّنَمِ

وثبات جرم الأفشين إنما كان سنة ٢٢٥ ، وموته كان سنة ٢٢٦ . ولكن هذا لا يمنع أيضاً أن يكون أبو تمام اتصل به مرتين، مرة نحو سنة ٢٠٠، ومرة أخرى نحو سنة ٢٢٦ .

(هـ) ما كاد الأمين يقتل في بغداد سنة ١٩٨ هجرية، وينتصر الفرس ومعهم المأمون، حتى أهدر العالم الإسلامي هزة مروعة، فإذا بالثورات تتناول من أقصاه إلى أقصاه، لأن قتل الخليفة وأنهيار هذا الصرح الضخم، من المعاني الدينية والقدسية، التي نسجها العباسيون حول الخلافة، في الدعوة لأنفسهم، كان شديد الوقع في النفس . ولم يلبث أن زاد الطين بلة تسلط الفرس على

الخليفة المأمون ، فبدأ العرب ، حتى من كان منهم مع المأمون ، يشعرون بانسياقهم التدريجي إلى دولة يخلص فيها السلطان للفرس . وإن يعقوبى ليصور لنا تلك المرارة التي كانت في نفوس العرب ، وما كانوا يحسونه من خذلان فيما يعتقدون أنه حق لهم ، في قصة شخص هَرَثْمَة بن أعين ، القائد العربى ، على المأمون ، وهو القائد الذى ذل له ملكه ، وكان الفضل بن سهل يحس خطورته ، فأوقع بينه وبين المأمون . قال يعقوبى :

” وشخص هَرَثْمَة إلى المأمون ، فدخل عليه في محفة ، وكلّمه بكلام غليظ ، ودخل معه يحيى بن عامر بن إسماعيل الحارثى ، فقال : السلام عليك يا أمير الكافرين . فأخذته السيوف في مجلس المأمون ، حتى قتل . فقال هَرَثْمَة : قدّمت هذه المجوس على أوليائك وأنصارك . فأمر المأمون بسحب رجل هَرَثْمَة وحبسّه ، فأقام في محبسه ثلاثة أيام ومات ^(١) .“

وإن الإنسان ليحس مبلغ ما بنفس هذين الرجلين العظيمين من عطاء العرب ، حتى دفع بهم إلى هذه الجراءة على الخليفة ، بحضرة من يوجهون إليهم هذا السباب ، وساقهم إلى استهانة بالموت . وما كان المأمون يومئذ إلا صديعة من سباهم هذان بالكافرين والمجوس ، وما كان يشعر بقوة وسلطانة يومئذ إلا بهم ، بل لقد كان كما كان يراه أهل عصره سجينهم ؛ فلم يكن يعمل عملاً إلا ما يرون .

فلما مات الأمين ثارت الأرض واضطربت ، فما من يوم إلا وخارجى يطفو ، ومذهب ينبو ، ومذهب يخفت ، ولكن أعلاها صوتاً كانت دعوة العلويين . فقد استولوا — على ما فى يعقوبى — فى غير توحيد لحركتهم — على البصرة ، والكوفة ، وواسط ، واليمن .

وتغلب غيرهم من العرب على الحجاز ، ونصيبين ، والموصل ، وإرمينية ، وأذربيجان ، والجليل . ولهذا ماله من مغزى ، كما أن فى ذلك الالتفات والجنوح إلى أولئك الذين قام على أيدي أجدادهم من قبل سلطان العرب وبأسهم ، استجابة واضحة لتلك الدواعى النفسية والتاريخية ، التى كانت تحكم الخصومة بين الفرس والعرب وتوجهها .

وكان الفرس قوما يميلون ، بعد التدين ، إلى ملكية ترتكز على سند دينى ، ونظام مطّرد ، يضع نمطها فيما يشبه الوراثة ويحددها . فلم يجدوا ما يتجهون إليه بعد الإسلام إلا خلافة علوية ، تمت إلى صاحب الدعوة بأقرب الأسباب ، فاتجه نظرهم إلى على أول الأمر . فلما انتهى الأمر بنجسارته المعركة ، اتجهوا إلى العباسيين ؛ حتى إذا استقر لهؤلاء السلطان أخذوا يحنون إلى ميلهم العلوى الأول .

وبذلك اجتمع للعدوين من المسلمين — الفرس والعرب — وجهة واحدة، وغاية تكاد تتفق، وإن اختلفت الدوافع، واصطدم ما يحفز هذا بما يحفز ذاك. فلم يكن أسرع من المأمون إلى الاستجابة لهذا سياسةً ودهاءً. وكان قد مضى عليه تحت جناح الفرس سنين، أحس فيها باختناق سلطانه، وتضاؤل صَوْلته، فأراد أن يستجيب للفرس إرضاءً ومداراةً؛ حتى تنهيا فرصة الخلاص منهم، وتسكيناً لثورة الثائرين من الأقاليم العربية — فاختار في سنة ٢٠١ ولياً لعهد علي بن موسى الرضا، وأمر جنده بطرح السواد، ولبس الخضر، وكتب بذلك إلى الآفاق.

ولكن الأمر لم يكن عند العرب في القشور، وإنما كان في الأصول، فإذا ضرام الثورة يعم، وإذا الفتنة تنال بغداد نفسها، وإذا هو يخضع عن ملكه هناك، ويباع بالخلافة عمه إبراهيم المهدي، لأن القوم لا يطلبون الخلاص فيها من العباسيين، وإنما هم يطلبون خلاص العباسيين من سلطان المجوس. وتجرى الدماء جرياً تحف من هوله القلوب بين الضلوع، وتثور الناس بما يشبه الحشر، فلم تكن تلك الأمة الهائلة التي اجتاحت العالم منذ قرن وبعض قرن، والتي تحطم هذا الانحطام السريع، تحت أولى الضربات التي توجه إليها. كل هذا والمأمون لا يعلم من أمر الناس شيئاً، فهو كما يعرفون عنه حبيس في قفص من ذهب، يأتيه الفرس بالحلب الذي يشاءون. حتى إذا أبلغه ولى عهده ما هنالك لم يصدق، فهو يطلب شهوداً، وإذا هم لا يشهدون حتى ينيلهم أماناً من الفضل ابن سهل وزيره الفارسي، فإذا آمنهم قالوا.

ويدرك الخليفة ما هنالك، فإذا هو يدبر للخروج إلى العراق وإلى بغداد عاصمة أجداده، وقاب ملكه، وإن قلبه ليخفق بين الإشفاق والطرب، وإنه ليلمهل في طريقه، فإذا سمع أن الفضل قد أخذ من شهدوا أمامه، فضر بهم، وحبس بعضهم قال: دعوني فإني أداري.

وبينما هو في الطريق يموت الفضل بن سهل في حمامه، قتلاً بيد جماعة من عبيده، ويؤتى بهم ليحاكموا أمام المأمون؛ فيقولون له: إنك أمرتنا بقتله. ولكنه يأمر بهم فيقتلون، ويرسل برءوسهم إلى الحسن بن سهل أخى الفضل، ومعها رسالة باكية.

ويخلص الخليفة من أهول مستبد عرفته الخلافة الإسلامية حتى عهده. ثم هو لا يكاد يصل إلى طوس حتى يموت علي بن موسى الرضا، في قول بعض، مسموماً. وإن دهاء المأمون ليلمح حين يقرأ الإنسان قول اليعقوبي: "وأظهر المأمون عليه جزاء عظيماً. فخذني أبو الحسن بن أبي عباد قال:

رأيت المأمون يمشى فى جنازة الرضا حاسرا، فى مَبْطَنة بيضاء، وهو بين قائمى النعش يقول: إلى من أروح بعدك يا أبا الحسن؟ ! وأقام عند قبره ثلاثة أيام، يؤتى فى كل يوم برغيف وملح فىأكله. ثم انصرف فى اليوم الرابع". وكان موت الرضا فى سنة ٢٠٣ هـ.

فى هذه الفترة — بعد ما بينت من أشياء تلمح فيها علاقة أبى تمام بحوادث المشرق — يستطيع الانسان أن يضع من قصائده قصيدة قالها فى آل على:

أَطْيَبَ حَيْثُ أَسْتَنْتِ الْكُتُبَ الْعُفْرُ رَوَيْدِكَ لَا يَغْتَالِكِ اللَّوْمُ وَالزَّجْرُ

فى هذه الفترة، حيث الميل عند العرب واضح نحو العلويين، وحيث هو يفوقه عند الفرس، كما أن ظاهر تحرك الخلافة وميلها إلى جانبهم أيضا، فى هذه الفترة أستطيع أن أضع قصيدة أبى تمام تلك حتى يعبر بذلك عن حس نفسى يجيش فى صدر أمته، وحتى يضرب ضربة شاب ناشئ، يريد أن ينال الشهرة والجاه باسترضاء الخليفة والفرس جميعا. فضلا عن أن وضع القصيدة فى هذه الفترة، لا يدع محلا للعجب من تعصبه للعباسيين الواضح فى شعره بعد هذا الزمن، كقوله من قصيدة يمدح فيها أحمد بن المعتصم.

فالأرضُ معروفُ السماءِ قرى لها وبنو الرجا لهم بنو العباس

القومُ ظلُّ الله أسكن دينه فيهم، وهم جبلُ الملوك الراسى

فى كل جوهرة فيرند مُشرق وهم الفِرند لهؤلاء الناس

فهو فى الأولى إنما كان يمدح العلويين، لظنه أن ذلك يرضى العباسيين.

كما أن هناك شيئا فى هذه القصيدة، فالناظر فيها من الناحية الفنية مضطر أن يضعها فى أول شعره من حيث الزمن، وذلك لما فيها من ألفاظ غريبة كثيرة، وصور تميل إلى الفن الجاهلى. ففيها التشبيه الطويل، وهو ما يندر فى شعر أبى تمام. وفيها بيت لا إخاله صادقا فيه بالتحديد، ولكنه دليل واضح على أنه قالها وهو شاب، فهو يقول:

وإن الذى أخذانى الشيبَ لَدى رأيتُ ولم تكمل لى السبعِ والعشرُ

فهو يقول إنه قالها وسنه أقل من سبع عشرة سنة. وهو مالا يصدق معه فرض أنه قالها فى العراق، وفى هذه الظروف التاريخية التى ذكرتها. فإذا جعلنا مولده سنة ١٨٨، على الرواية الثانية، كان كأنه قال هذه القصيدة سنة ٢٠٥، أى بعد موت موسى الرضا — إن صدقناه فى تحديده سنه فيها —

وبعد أن كان المأمون ترك لباس الخضره ، ونزع عن الدولة شعارها العلوي سنة ٢٠٥ ، وهو فرض مرجوح وإن لم يكن مستحيلا .

هذه شبه وجدتها ، نتعاون جميعا على تقرير احتمال وجود أبي تمام بين سنة ١٩٨ وسنة ٢٠٣ ، يضطرب في العراق وأرجاء المشرق .

وهناك خبر آخر أرجأته ، ذكره الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ، وذكره ابن عساكر في تاريخ دمشق . ومقتضاه : أن أبا تمام اجتمع ببغداد في جامعها ، بدعبل وأبي الشيص وابن أبي فتن ، وكانوا يجتمعون فيه بعد صلاة الجمعة ، فيتناشدون الأشعار ، والناس يستمعون لهم . قال علي بن الجهم ، وهو راوي القصة ، وكان معهم : ” أبصرت شابا في أنحريات الناس ، جالسا في زى الأعراب ، فلما قطعنا الإنشاد قال لنا : قد سمعت إنشادكم منذ اليوم ، فاسمعوا إنشادي ” ثم أخذ في إنشاد قصائده ، إحداها في المعتصم ، ومنها البيت :

بالقائم الثامن المستخاف اعتدلت قواعد الملك ممتدا لها الطول

وغير هذه واحدة في المأمون ، وواحدة في محمد بن حسان الضبي . ولكن هذا لا يصح تاريخا : ذلك أن أبا الشيص مات ، على ما يقول صاحب النجوم الزاهرة ، سنة ١٩٦ ، وأبو تمام يتحدث عن المعتصم الخليفة الثامن من بني العباس ، والمعتصم لم يكن خليفة إلا بعد موت المأمون ، وقد كان ذلك سنة ٢١٨ . كما أن الصولي يقول قولا يدل على أن أبا تمام لم يتصل بالمعتصم إلا في فتح عمورية . فمن المستحيل أن تناقش قبل سنة ١٩٦ قصيدة قيلت سنة ٢١٨ ، كما أن ما أعرفه عن صلته المحققة بالمأمون لم تكن إلا حول سنة ٢١٧ . فلما أن القصة موضوعة ، وإما أنها زيد عليها ، وإما أنها أخطىء في رواية أسماء أصحابها . ولقد رأيت ابن نباتة في سرح العيون ، يجعل أبا الشيص ابن أبي الشيص ، ولكنه لا يثبت أن يخطىء في صلب القصة ، فيضع أبا الشيص ثانية .



وخبر آخر ، هو أن أول شارح للحماسة هو محمد بن آدم الهروى ، ذكر ذلك صاحب ” كشف الظنون ” ، وذكر أنه مات سنة ٢١٢ ، وذكر فريتغ في هامش مقدمة لطبعة ” الحماسة ” الأوربية ، أنه مات سنة ٢٠٢ وكتبها بالحروف . ولا أعرف من أين أتى بهذا التاريخ ، فلاني لم أجد لهذا الهروى شارح الحماسة ذكرا إلا في كشف الظنون ، وتاريخ موته فيه كما ذكرت . وهذا الشرح الباكر . كتاب أبي تمام في حياته ، غريب يرجح معه - لو صح - أنه ولد سنة ١٧٢ وليس بعدها . ولكن

المسعودى يصرح فى كتابه مروج الذهب ، أنه : " قد كان أبو تمام ألف كتابا ، وسماه الحماسة ، وفى الناس من يسميه كتاب " الحَيِّية " ، انتخب فيه شعر الناس ، ظهر بعد وفاته ^(١) " .

ونص المسعودى صريح فى أن الحماسة ظهر بعد موت أبي تمام ، وليس فى حياته . كما أن فى التواريخ التى يذكرها صاحب كشف الظنون اضطرابا لا يدع فى النفس اطمئنانا إليها ، فضلا عن أن تاريخ موت الهروى هذا ، يختلف فى الطبعة الأوروبية عنه فى طبعة بلاق المصرية ، فهو فى الأخيرة سنة أربع عشرة ومائتين ، يكتبها بالأرقام ، ثم تلتو الأرقام الحروف .

وهناك قصة لم يذكرها الصولى فى أخبار أبي تمام ، وذكرت فى مقدمة ديوانه الذى استحضرتة الجامعة المصرية حديثا من مكتبة الإسكوريال . ومضمونها أن أبا تمام مرّ بالبصرة مرة ، فرأى طفلا تبلغ سنه الخمس ، ثم مر بها ثانية ، فرآه وقد بلغت سنه الثلاثين ، فكان بين مروريه بالبصرة خمسا وعشرين سنة ؛ فلو فرضنا أنه مر بها آخر أيامه ، أى فى سنة ٢٣٢ أو سنة ٢٣١ لكان أول مرور له بها سنة ٢٠٧ أو سنة ٢٠٦ ؛ فلو أنه كان مولودا سنة ١٨٨ ، لكانت سنه يومئذ تسع عشرة سنة أو ثمانى عشرة سنة . ولو ذهبنا فى الظن إلى أنه ترك مصر هذه السنة وهو قد بقى فى مصر على أقل تقدير خمس سنين ، لكانت سنه يوم نزل مصر أربع عشرة سنة ، أو ثلاث عشرة سنة . وهو ما ليس مستحيلا ، ولكنه بعيد شيئا . كما أن تاريخه فى مصر ، وعمله ، واتصاله بمن اتصل بهم فيها ومدحهم ، لا يتناسب مع هذه السنّ الباكورة ^(٢) هذا إن صحت القصة ؛ فإن الفتى الذى قابله أبو تمام فى البصرة - على ما يظهر من مقارنة القصة بغيرها فى كتب أخرى - هو عبد الصمد ابن المعدل ، وهو خصم من خصوم أبي تمام ، تصوره القصة فى منتهى التوقد والذكاء ، وتصور أبا تمام بصورة المنهزم أمامه طفلا وشابا ، تاركاً له البصرة ، إذ هذه حال أطفالها ، فكيف برجالها . فليس يبعد أن يكون خصومه قد حاكوها نكاية به ؛ وأغرب ما فيها أنها مروية على لسان أبي تمام نفسه .



يتقوى هذا كله ما يلاحظ من أن ممدوح أبي تمام فى مصر ، وهو عياش بن هبة الحضرى ، ليس له ذكر فى تاريخ مصر إلا فى سنة ٢٠١ ، لما ولى الشرطة لوالها سليمان بن غالب . ولما صُرف سليمان فى هذه السنة عن إمرة مصر ، وتولاها السرى بن الحكم لثانى مرة ، جعل غير عياش على

شرطته . بعد هذا تسكت كتب التاريخ سكوتا تاما عن ذكر عياش هذا^(١) . ولكن ديوان أبي تمام ينبئ أنه مات ، وأن أبا تمام هجاه بعد موته ، كما هجاه في حياته . وأغلب ظني أن أبا تمام اتصل به في ولايته الشرطة لا بعدها ، وفي شعره ما يشعر أنه كان كذلك أيام اتصال أبي تمام به ، يقول :

يَهْوُلُكَ أَنْ تَلْقَاهُ صَدْرًا لِمُحْفِلٍ وَتَحْزَنُ لَأَعْدَاءٍ وَقَلْبًا لِمُوكِبِ

وآخر اتصل به أبو تمام اتصالا لا يعرف مكانه ، وهو المطلب بن عبد الله الخزاعي . وقد كان والى مصر ، مرة سنة ١٩٦ من قبل الأمين ، وثانية سنة ١٩٨ من قبل المأمون ، وثالثة سنة ١٩٩ بعد أن ثار أهل مصر ، وأخرجوا المطلب من السجن ، وكان فيه بأمر الخليفة منذ عزل سنة ١٩٨ ، فاضطر الخليفة إلى قبوله ، حتى ثبتت قدمه في العراق بقتل الأمين ، فأرسل إلى مصر واليا جديدا ومعه جيش ، فقاتله المطلب ، ولكنه هُزِمَ وهرب إلى مكة في سنة مائتين ، وكان هذا آخر عهد المطلب بمصر . يظهر بعد ذلك المطلب في العراق مع المأمون تارة ، ومع إبراهيم بن المهدي أخرى ، في أحداث سنة ٢٠١ ، ثم مع المأمون ثالثة ، حتى يسجنه إبراهيم بن المهدي ، ثم يخل سبيله ، وذلك سنة ٢٠٣ في ذي الحجة . وبعد ذلك يختفى هو الآخر من التاريخ ، فلا نجد له ذكرا .

وقرب ولاية عياش بن لهيعة الحضرمي الشرطة ، من ولاية المطلب مصر في الزمن ، يجعلني أرجح أن أبا تمام شهد مصر في ولاية المطلب لها ، فمدحه مدائح لم يذكرها ديوانه ، ولكن ذكر لنا بيتين أشرت إليهما ؛ فيهما ما يدل على أنه مدحه كما مدح في تلك الأيام أيضا عياش بن لهيعة الحضرمي .



وتحقيق حياة أبي تمام لا يتأتى إلا من قبل مقارنة شعره بأحداث التاريخ ، ولكن هذا الشعر لم يأتنا كاملا ؛ فمدائحه في المطلب ليست بين أيدينا ، وصلته به لا تتضح أى انضاح في ديوانه .

وكذلك الحلودي الذي يهجوّه دون أن نعرف سبب هجائه .

وهناك ما يساعد على الظن أن أبا تمام كان يعتمد إلى بعض شعره فيثبته ، ولا يثبت بعضه الآخر ؛ ويرى ذلك واضحا في العجالة التي ختمت بها نسخة ديوانه ، المستحضرة حديثا من مكتبة الأسكوريال ، فإن بعضها منقول عن قراطيس كتبها أبو تمام بنفسه ، وحملها القالي معه إلى الأندلس ، وأكملها

(١) قرأت أخيرا في صفحات ملحقة بشرح التبريزي على ديوان أبي تمام عن هذا ، أن أبا تمام أقام عند عياش مدة يستبطئه ويستريده ، فلم ينل منه خيرا . ومات عياش ، فرحل أبو تمام عن مصر إلى الشام ، فمدح بها أبا المغيث . وهذا يؤيد ما ذهبت إليه . (مخطوطة بدار الكتب المصرية . ٥٠ أدب ش) .

نأخذها من كتابات أخرى للقالى ، ومن رواية الصولى لديوان أبي تمام . وفارئ شعره لا يلبث طويلا حتى يعرف أن كثيرا من شعره ، وخاصة ما قاله فى أوائل اشتغاله بالشعر ، ليس مذكورا فى ديوانه . ولو تهيا لنا شعره كاملا ، لوجدنا فيه فائدة لا أشك فى قيمتها ، فى تحديد كثير من خطواته ظل غامضا .

ويظهر أن أسلوب ذلك العصر كان يميل إلى شىء من التظاهر بصغر السن ، وأن أنصار أبي تمام كانوا يرجون ذلك عنه تعظيما لشأنه . وفى شعر أبي تمام نفسه ما يثبت أن الحديث عن السن والشيب ، لم يكن حديثا يقصد فيه إلى الحق ، وإنما كان تقليدا من التقاليد الشعرية ، أشبه شىء بالحديث عن الديار والأمكنة وذكر أسمائها . فهو يقول فى قصيدته التى يمدح فيها آل النبي :

وإن الذى أخذانى الشيبَ للذى رأيتُ ولم تكملْ لى السبعِ والعشرِ

فكان الشيب أصابه قبل أن يبلغ السابعة عشرة . ويقول فى أخرى فى مالك بن طوق :

أو ما رأيتُ بُردى من نسج الصبا ورأت خضاب الله وهو خضابى

والواضح فى تاريخه أنه لم يتصل بمالك هذا فى العراق قبل أن تبلغ سنه السابعة عشرة ، سواء كانت ولادته سنة ١٧٢ أو سنة ١٨٨ . وعندى أن ذكر الشيب ، وصغر السن واجتماعهما معا ، كان من قبيل الغزل ، وذكر الصدود ، وأدعاء الحب والوله ، جريا وراء التقليد الشعرى العربى ، من أستفتاح القصائد بالغزل ، ومحاولته تصوير الحب والتهويل فى أمره ، مع أنه لا يكون شىء من ذلك وقع أصلا . ولست أمتنع أن يكون صدق فى بعضها ، ولكننا لا يمكن أن نصحح له من ذلك إلا ما اتفق مع التاريخ المعروف الموثوق به . وإن فى تكذيب الصولى لما اختص بذكر سن أبي تمام فى قصته مع الكندى ، يجلس أحمد بن المعتصم ، ما يلقى نورا كثيرا على نوع القصص التى كان أنصار أبي تمام يشيعونها حوله .

ولست أول من شك فى قصة موت أبي تمام شابا ، فقد شك فيها قبلى ابن خلكان ، فعلق على قولهم عنه : "إنه مات وقد نيف على الثلاثين سنة" بقوله : "وهذا يخالف ما سياتى من تاريخ مولده ووفاته" . ثم يذكر بعد ذلك سن مولده ، على اختلاف الروايات ، كما بينت سابقا ، وبينها ولادته سنة ١٧٢ ، ووفاته سنة ٢٣٢ ، بفعل بذلك سنه ستين عاما فى قول .



إن الفترة السابقة لسنة ٢١١ من حياة أبي تمام غامضة، لا يكاد يتبين فيها الإنسان شيئاً تبيناً جلياً واضحاً، إلا من قبيل تصيّد الأحداث تصيّداً، مع تعرّض كل خطوة من خطواته لاحتمالات كثيرة. أما وضع اليد على نص صريح قاطع يؤيد ولادته سنة ١٧٢ أو سنة ١٨٨ فليس الآن ممكناً. غير أنني أكثر ميلاً، بعد كل ما ذكرت، إلى جعل ميلاده سنة ١٧٢. فإن هذا الفرض يحلّو كثيراً من الغموض، الذي يعتور كثيراً من شعر أبي تمام.

فإذا تهيأ لك مثلي هذا الميل الذي تهيأ لي، كان من السهل اعتماداً على ما سبق ذكره، أن تتبع خطواته على طريق رُبّما لا يكون أغلاظ كثيراً من سلك لاعب مخاطر.

فنعول إنه ولد سنة ١٧٢، وكان بمصر حول سنة ١٩٥، حيث يغلب سلطان طيء، فيكون على ولايتها جابر بن الأشعث الطائي، وعلى شرطتها طائي أيضاً. وحيث يكون والي سنة ١٩٦ المطلب بن عبد الله الخزاعي أول مرة، ثم سنة ١٧٨^{١٩١} ثاني مرة، وهو ممدوح أبي تمام. وحيث يتصل أبو تمام أيضاً بعبّاش بن لهيعة الحضرمي، الذي تولى الشرطة بعد ذلك سنة ٢٠١، ثم اختفى من التاريخ، ولكن أبا تمام اتصل به قبل ذلك. وهو يترك مصر إلى الشام سنة ١٩٨ هـ، فيلبث بعضها في دمشق يمدح أبا المغيث موسى بن إبراهيم الرافقي. ولكنه لا ينال منه كثيراً فيمجهوه، وينحدر إلى الرقة، حيث محمد بن حسان الضبي، ثم يتركه إلى أذر يجان حيث علي بن مرّة، فيصادقه أبو تمام، ثم يتركه بعد ذلك إلى كور الفرات، فيكون هناك سنة ٢٠٠ يمدح مالك بن طوق، ويتحدث عما بين أحياء تغلب من خلاف. وفي خلال ذلك أو قبله يكون الحسن بن سهل عاملاً في إخضاع العراق للأمون، فيمدحه أبو تمام ولكنه لا ينال منه كثيراً، أو أن مدحه له يقطعه بخافة جنون الحسن ابن سهل سنة ٢٠٣ ووضعه في الحديد، فيأخذ في مدح من ولي أمر الجند بعده: جعفر بن دينار (على ما هو مكتوب في الديوان). بعد ذلك تأتي فترة غامضة من حياة أبي تمام، يمكن أن نضع فيها قصيدته في آل بيت النبي. يظل هذا الغموض مخمياً حتى سنة ٢١١، فينتشع عن أبي تمام في مصر ثانية يمدح عبد الله بن طاهر في مقدمه إليها، لإخضاع ثورة السريّ بن الحكم. وليس في التاريخ ذكر لمقدم أبي تمام مصر مرة ثانية، ولكن ليس فيه أيضاً ما ينقض ذلك. ومتى كان في التاريخ عناية بتاريخ أبي تمام أو وضوح؟

في فترة الانقطاع هذه يمكن أن نضع قصائد لايين في تاريخ أبي تمام متى وضعت، كالقصيدة في أبي عبد الله حفص بن عمر الأزدى من خراسان . ويمكن أيضا أن نقول إنه صنف فيها مختاراته الكثيرة، وأشهرها الحماسة . فيكون أبو تمام في ذلك قد أتجه إلى ناحية العلم .

بعد سنة ٢١٠ تستقيم حياة أبي تمام وتتضح حتى آخر أيامه ، كما سنرى . وإن لم يتبها لك هذا الميل ، فلست ألزمك إياه . وما تحدثت عنه هنا إلا أمانة للتاريخ ، عليه يبدى يوما صفحته فلا ألام .

أما الرأي السائد ، إذا صرفنا النظر عن هذه الشكوك ، وأبدنا إلا إحسان الظن بتصریحات أبي تمام ، وهدمنا الشبهات السابقة ، فيترتب عليه قبول أن أبا تمام ولد سنة ١٨٨ وسواء أكان هذا أم ذاك ، فإن أبا تمام ولد في جاسم ، كما بنيت سابقا ، قرية من قرى الشام تقرب من دمشق .

٣ - نشأته

(١) في الشام : ولا أظنه نشأ إلا كما ينشأ أبناء الفقراء من أهل عصره . يرسل إلى كتاب القرية ليتعلم القراءة والكتابة ، وليحفظ القرآن الكريم . ودعك من ذكر نصرانية أبيه ، فما كانت إلا افتراء من افتراء خصوم أبي تمام . وقد حفظ أبو تمام القرآن كما يبدو ذلك من شعره . ولكننا لا نعلم أكان ذلك في كتاب القرية أم بعد نزوله مصر واتصاله بجامعة الأكر . وأغلب ظني أنه حفظه في مصر ، فلم يترك أبو تمام طويلا في الكتاب .

وكان أبوه عطارا بدمشق ، يكسب قوته من عمله ، فلم يلبث أن أخرج ابنه من الكتاب ، ليودعه عند حائك بدمشق يخدمه ، ويعمل عنده — على حد تعبير ابن خلكان — حتى يتعلم صنعة يعيش من ورائها . يقول ابن عساکر في "تاريخ دمشق" في سند ينتهي إلى يحيى بن صالح أبي الوليد ، قال : "رأيت أبا تمام الطائي ، حبيب بن أوس بدمشق ، غلاما يعمل مع قزاز . كان أبوه نمارا بها^(١) ."

(ب) الرحلة إلى مصر : وقد عمل الغلام زمنا لا نعرف مداه . ولم يكن ينجيل لأبيه أوس ، أن هذا الفتى الذي لم يزد أمه فيه على أن يكون صانعا يكسب قوته بعرق جبينه ، سيصبح سيد شعراء العربية . ولكن الولد كان أكبر همة مما ظن أبوه ، فلم يلبث أن رحل إلى مصر ، رحل إليها رحلة

ليست على ما نظن أكثر من رحلة المغامرين، يطالب الغنى حيث يأمل، بعد أن لم يحده حيث كان، ولكن الصولى يقول لنا نقلا عن البحترى إن أبا تمام قال له : أول شعر قلته :

* تَقَى جَمْعَاتِي لَسْتُ طَوَّعَ مُؤَنَّبِي *

ومدحت بها عياش بن طهيرة ، فأعطاني خمسة آلاف درهم .^(١)

فإذا كان هذا أول شعر قاله أبو تمام فإن قصيدته :

أَظْيِيَّةَ حَيْثُ أَسْتَنْتَ الْكَشْبَ الْعَفْرُ رَوَيْدِكَ لَا يَغْتَالُكَ اللَّوْمُ وَالزَّجْرُ^(٢)

التي يمدح فيها آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يصرح فيها بأن سنه يوم قالها لم تكن بلغت السابعة عشرة ، فهو يقول منها :

وإِنِّ الَّذِي أَحْذَانِي الشَّيْبَ لِلَّذِي رَأَيْتُ وَلَمْ تَكُنْ لِي السَّبْعُ وَالْعَشْرُ

وهي بمقتضى ما ينقل البحترى عن أبي تمام ، ليست أول قصيدة لأبي تمام ، فإن أبا تمام قد نزل مصر قبل السابعة عشرة بكثير . إذ بقى في مصر ما لا يقل عن خمس سنوات :

أَحْمَسَةُ أَحْوَالٍ مَضَتْ لِمَغِيْبِهِ وَشَهْرَانِ بَلْ يَوْمَانِ تُكَلُّ مِنَ التَّكْلِ

أما الفترة التي يمكن أن نؤكد أن أبا تمام كان خلالها في مصر ، فهي من سنة ٢١١ إلى سنة ٢١٤ ، قضى جزءا من هذه الأخيرة في مصر ، وجزءا في العراق :

لَعَمْرِي لَقَدْ كَانَتْ بِمَصْرَ وَقِيْعَةً أَقَامَتْ عَلَى قَصْدِ الْهَدْيِ كُلِّ مَائِلِ

على الخندق الأقصى وما كان حوله وما قد يليه من فضاء وساحل

رَأَى ابْنَ السَّرَى النَّصْرَ أَوَّلَ يَوْمِهِ وَأَوْدَى بِقَرْمٍ مِنْ أَبِي السَّرَوِ بَاسِلِ

لَوْ يَنْ جَمُوعَ ابْنِ السَّرَى وَخَيْلَهُ شِمَاطِيْطٌ تَتْرَى كَالنَّعَامِ الْجَوَافِلِ

فَلَمَّا رَأَوْا أَنْ لَا مَحِيْصَ وَأَنَّهُ كِفَاحُ الرَّدَى فِي كُلِّ حَقٍّ وَبَاطِلِ

تَوَخَّوْا أَمَانَ الْأَرْيَحِيِّ ابْنِ طَاهِرٍ فَمِنْ فَارِسٍ يَأْتِيهِ طَوْعًا وَرَاجِلِ^(٣)

وفي يوم الثلاثاء ثلاث عشرة من ربيع الآخر سنة ٢١٤ ، قتل أهل الحوف الناثرون والى مصر عمير ابن الوليد ، فقال أبو تمام قصيدته :

أَعْيِدِي النَّوْحَ مُعْوَلَةً أَعْيِدِي وَزَيْدِي مِنْ بُكَائِكَ ثُمَّ زَيْدِي

(١) أخبار الصولى : ورقة ٥٤ : (٢) ديوانه : ص ٨٠ : (٣) القضاء والولاية للكندي : ص ١٧٩

(٤) المصدر نفسه : ص ١٨٠

ومنها :

أَلَا أَيْلُغْ خَلِيفَتَنَا مَقَالِي وَأَيْلُغْهُ الْأَمِينَ بْنَ الرُّشَيْدِ
بَآنَ أَمِيرِنَا لَمْ يَأَلْ عَدَلَا وَنَصَحَا فِي الرِّعَايَا وَالْجُنُودِ

فِيَا يَوْمَ الثَّلَاثَاءِ أَصْطَبَحْنَا غَدَاةً مِنْكَ هَائِلَةَ الْوُرُودِ

حَضَرْتُ فَنَاءَ بِإِيكَ فَاعْتَرَانِي شَجًّا بَيْنَ الْمَخْنَقِ وَالْوَرِيدِ
رَأَيْتُ بِهِ مَطَايَا مُهَمَّاتٍ وَأَفْرَاسًا صَوَافِنَ بِالْوَصِيدِ

وقال غيرها . وفي رجب سنة ٢١٤ هـ هزم عيسى بن زيد الجلودى ، في الثورة ، وهو يومئذ والى مصر من قبل المأمون للمرة الثانية ، وهازموه هم الثائرون . فيقول أبو تمام في ذلك ، يمدح الثائرين من القيسية واليمانية ، ويذم الجلودى :

اللَّهُ أَرْهَقَكَ الْهَزِيمَةَ إِذْ جَذَبْتُكَ أَحْبَالُ الرَّدَى جَذْبًا
وَأَتَيْتُكَ خَيْلٌ ، لَوْ صَبَرْتَ لَهَا ، أَنَّهُنَّ رَوْحَكَ فِي الْوَغَى نَهْمًا
مِنْ حَيٍّ عَدْنَانٍ وَإِخْوَتِهِمْ قُطَّانَ لَا مِيلَا وَلَا نُكْبَا

ولكن وجوده في هذه الفترة معناه أن سنه كانت ، على فرض ولادته سنة ١٨٨ ، تزيد على عشرين سنة يوم دخل مصر ، إذا قدرنا أنه لم يظل فيها أكثر من خمسة أحوال ، كما قال ، فيكون أول شعر قاله ، هو بعد سن العشرين . مع أنه يصرح في شعر ليست له هذه الأولية أن سنه لا تزيد على سبع عشرة سنة . كما أننا لا نسمع عن ممدوحه عيَّاش بن طبيعة الحضرمي بعد سنة ٢٠١ في مصر . فلا يبقى ليلالئم بين هذه كلها إلا القول بأن أبا تمام نزل مصر مرتين ، ثانيتهما هي هذه التي بدأت سنة ٢١١ ، وانتهت برحيله إلى العراق سنة ٢١٤

أما المرة الأولى فتكون حول سنة ٢٠١ ، ومعنى ذلك أن أبا تمام نزل مصر وسنه لا تزيد على اثنتي عشرة سنة ، وبرزحها ولما يبلغ السابعة عشرة . ونكون بذلك أمام فتى يفعل المعجزات ، ويهاجر في طلب الثروة طفلاً ، أو مدفوعاً بعامل لا نعرفه ، ويكافح في مصر كفاحاً فيه ما فيه من

(١) ديوان ص ٢٠٩ (٢) الكندي ص ١٨٦ (٣) الديوان : ص ١٧٩ (٤) ميلا : جمع أميل .

والأميل ، من لا ترس معه أو لا سيف أو لارح ، والجبان . والأنكب : من لا قوس معه .

عناء لحدث مثله ، فيحصل العلم في جامعها الأكبر ، ويعيش من سقاية الماء أو من عمل آخر ، لم يبين لنا التاريخ ما هو .

(ج) **حياة أبي تمام في مصر** : كانت مصر ، كما هي اليوم ، قبله أنظار العالم الإسلامي ، ومطمع طلاب الغنى والجاه ، ومعهد كثير من الجمال يجتذب القلوب . وكان جامع عمرو فيها مستقر مدرسة من أعظم المدارس الإسلامية ، ونظرة في كتاب حسن المحاضرة للسيوطي ، كافية لإطلاع الانسان على مبلغ عظمة الحركة العلمية في مصر يومئذ .

ولقد نزل الشافعي مصر سنة ١٩٥ " وصنف كتبه الجديدة كالأم ، والأمالى الكبرى ، والأمالى الصغرى ، ومختصر البويطي ، ومختصر المزنى ، ومختصر الربيع ، والرسالة ، والسنن . قال ابن زولاق : صنف الشافعي نحو من مائة جزء ، ولم يزل بها ناشرا للعلم ، ملازما للاشتغال بجامع عمرو ، إلى أن أصابته ضربة شديدة ، مرض بسببها أياما ، ثم مات يوم الجمعة سلخ رجب سنة أربع ومائتين^(١) . هذا ما يقوله السيوطي ، ولست أظن أنه صنفها جميعا في مصر .

وعلى كل حال ، فمصر كانت ذات أثر سحري في الشافعي ، في غزارة إنتاجه ، وتوجيه مذهبه ، وتصفية ذهنه . ولقد أبان أستاذنا أحمد أمين هذا في كتابه " ضحى الإسلام " في فصل ممتع .

وكان الشافعي في مصر ، في تلك الفترة التي استنتجت أن أبا تمام كان فيها في مصر يتردد على جامع عمرو .

وكان قبل الشافعي في مصر فقهاء عظام ، كالليث بن سعد المصري وتلاميذه . وكان فيها أيام الشافعي من الفقهاء إسحاق بن الفرات أبو نعيم التيجي ، صاحب مالك . قال الشافعي : ما رأيت بمصر أعلم باختلاف الناس من إسحاق بن الفرات . وروى عن الليث وغيره ومات سنة ٢٠٤^(٢) وأشهب بن عبد العزيز العامري ... قال الشافعي : " ما أخرجت مصر أفقه من أشهب لولا طيش فيه " . ومات سنة ٢٠٤ ، وعبد الله بن عبد الحكم بن أعين بن ليث بن رافع المصري ... وثقه ابن زُرعة وغيره . ولد سنة ١١٥ أو سنة ١١٤ وغير هؤلاء كثيرون ، مما يدل على أن الحركة يومئذ ، كانت قوية جارفة ممتلئة حياة .

وكان في مصر في تلك الفترة ابن هشام ، الذي اختصر كتاب السيرة لابن إسحاق . وكان إماما في اللغة والنحو والعربية ، أدبيا أخباريا نسابة . قال الذهبي : سكن مصر ومات سنة ٢١٨

(٢) المصدر نفسه ص ١٣٦

(١) حسن المحاضرة للسيوطي ص ١٣٦

ثمان عشرة ومائتين . وقال ابن كثير : كان مقيا بديار مصر ، وقد اجتمع به الشافعي حين ورودها ، وتناشدا من أشعار العرب أشياء كثيرة^(١) .

وقدم مصر من الشعراء ، قبل أبي تمام ، جميل بن عبد الله بن معمر العُدري صاحب بئنة ، ومات بمصر سنة ٨٣ هـ ، ووردها أيضا كثير عزرة المتوفى سنة ١٠٥ هـ ، وماتت بها عزرة صاحبته ، وبها دفنت ، ووردها عبيد الله بن قيس الرقيات .

ووردها نصيب بن رياح الشاعر أبو محجن ، من شعراء الحماسة ، ووردها أبو نواس ، وأقام بها مدة^(٢) . وقدمها دِعبل في عهد المطالب بن عبد الله الخزاعي . وكان دِعبل في مصر حوالى سنة ٢٠٠ هـ ، كما بين من شعره في المطالب لما هزم آخر مرة^(٣) . وقدمها بعد أبي تمام كثيرون أيضا ، منهم أبو العباس الناشئ وكشاجم والمتنبى وغيرهم .

ففى مصر أبدا ذلك القبس الخالد من المعرفة والإلهام والجمال المتفجر نوره ، فى سحر يجذب القلوب ، ومصر التى هدت العالم من قبل ، على ضوء حضارتها وجهادها فى سبيل البشرية ، قد ساهمت ، على مرور الأيام ، فى بث هذا النور فى قلب كل من أودع الإنسانية ثمرة من عبقرية ، أو أثرا من هداية .



نزلها أبو تمام بنفس وثابة ، وقلب ذكى ، وعلم بالقراءة والكتابة ، وشىء لا نعرف قدره من الإلمام بصناعة الحياة أو القزازة . فلم يلبث أن جرى لسانه بالشعر فياضا كالنيل ، ينساب عذبا ككائه المحبوب . كان يتردد على جامع عمرو ، فيسمع من أساتذة أجلاء ، يطفئون ظمأه إلى العلم ، ويطفئ ظمأهم إلى الماء . نزلها حائكا ، وقذفت به أشعر شعراء العربية على الإطلاق . وإنى لأتخيل ذلك الفتى الذى لم يَفْع ، أسمى اللون ، طويل القامة بالنسبة لسنه ، حلو الحديث ، فيه تمتة يسيرة ، يختلط بعينه بريق الذكاء بظل من ذلة الفقر ، خفيف الروح ، يتعثر فى ثيابه ، وقد حنى رأسه قليلا تحت ثقل ذلك الوعاء ، الذى يحمله على ظهره ليسقى منه الماء . وهو يتنقل من حلقة إلى حلقة ، ويصغى إلى شىء من القصص ، وإلى شىء من التاريخ ، وإلى شىء من الشعر ، وإلى شىء من الفقه ، وإلى شىء من الحديث ، وإلى شىء من الفلسفة ، ويخطط هذا بذاك ، ويحفظ ما استطاع أن يحفظ .

(د) نواحى ثقافة أبي تمام : وكان أبو تمام ذا ميل إلى الأدب ، فخالس الأدباء والشعراء ، وأخذ فى تحصيل الشعر . حفظ ، على ما يقول ابن خلكان ، أربعة عشر ألف أرجوزة غير القصائد . ولم يقل الشعر قبل أن يحفظ سبعة عشر ديوان شعر للنساء ، فضلا عن الرجال . كما يقول ابن رشيق فى العمدة . ثم قال أول شعره فيها كما ذكرت . ويستطيع الإنسان أن يتعرف نواحى دراسة أبي تمام فى سهولة ، من مطالعة ديوانه . وأول شىء يأخذ بالنفس فى ديوانه من هذه الناحية هو :

أثر القرآن :

لا أعرف شاعرا من شعراء العربية تأثر بالقرآن تأثر أبي تمام به ، فإن القارئ لا يكاد يضى فى الديوان ، حتى يعثر بين خطوة وأخرى ، بشاعر كأنما يضع نصب عينيه النقل من الكتاب الكريم . ولأضرب مثلا لذلك قصيدته فى مدح المعتصم ، وذكر إحراق الأفسشين وصلبه ، ففيها كأنما أخذ القرآن بلبه ، وأستأثر بخياله . ففمنها : (٢)

مَكْرًا بَنَى رَكْنِيهِ إِلَّا أَنَّهُ وَطَدَ الْأَسَاسَ عَلَى شَفِيرِ هَارٍ
ففيه شفير هار ، وما أقربها من جُرْفِ هار . ومنها :

طَارَتْ لَهَا شُعْلٌ يَهْدِمُ لَفْحُهَا أَرْكَانَهُ هَدَمَا بَغِيرَ غُبَارٍ
فَفَصَّلْنَا مِنْهُ كُلَّ جَمْعٍ مَفْصِلٍ وَفَعَلْنَا فَاقِرَةً بِكُلِّ فَقَارٍ

قال أبو بكر الصولى : إنما قال : وفعلنا ، نخص هذه اللفظة ، لقول الله جل وعز : « تَظُنُّ أَنَّ يُفَعَّلَ بِهَا فَاقِرَةٌ » . ومنها :

صَلَّى لَهَا حَيًّا ، وَكَانَ وَقُودَهَا مَيْتًا ، وَيَدْخُلُهَا مَعَ الْفُجَّارِ
ومنها :

لَوْ لَمْ يَكِدْ لِلْسَامِرِيِّ قَبِيلُهُ مَا خَارَ عَجْلُهُمْ بِغَيْرِ خُورٍ
وَتَمُودُ لَوْ لَمْ يَدْهِنُوا فِي رَهْمِ لَمْ تُرْمَ نَاقَتُهُ بِسَهْمِ قُدَّارٍ

(١) فى مؤخره شرح التبريزى لديوان أبي تمام رواية عن الجمل المصرى ، قال : إنه خرج مع أبي تمام إلى شاطئ النيل بمصر ، ودفعا بثيابهما إلى من يغسلها . فنام الجمل ، وجلس أبو تمام ومعه شعر الطرماح ، فافترغ الرجل من دق الثياب حتى حفظ أبو تمام خمس عشرة قصيدة (٥٠ أدب ش) . (٢) ديوانه ص ٧٥

ومنها :

ثانيه في كيد السماء ولم يكن لاثنين ثاين إذ هما في الغار

فها هي ذى سبعة مواضع ، في قصيدة واحدة ، يقتبس فيها من القرآن لفظا ومعنى ، وفيها نفسها يشير إلى القرآن غير ذلك مرتين ، فيقول عن سعد بن أبي السرح :

حتى استضاء بشعلة السور التي رفعت له سنجفا عن الأسرار

ويقول :

سور القرآن الغر فيكم أنزلت ولكم تصاغ محاسن الأشعار

والقصيدة كلها مثل لعلم أبي تمام ، وثقافته ، وروح عصره . وقد أشرت في مكان آخر إلى نقص فيه ، من الناحية الإنسانية ، واكماله من الناحية الشعرية الخالصة . وهنا أشير إلى أنها تمثل ثقافة أبي تمام ، ففيها غير أثر القرآن أثر العلم بالتاريخ الإسلامي ، والأخبار الجاهلية ،

والقصص الديني .

وقطعة أخرى لم تذكر في ديوانه ، قالها في عبد الله بن طاهر في خراسان لما حمزه ببابه ، هو وجماعة زمانا ، فكتبها في ورقة ، وأرسلها إليه ، وهي :

أيهذا العزيز قد مسنا الضرب جميعا وأهلنا أشتات

ولنا في الرجال شيخ كبير ولدنا بضاعة مزجاة

قل طلابها فأضحت خسارا فتجارأثنا بها ترهات

فأحتسب أجرنا وأوف لنا الكيد بل وصدق فإننا أموات

ويقول :

قد أوتيت من كل شيء نعمة وددا وحسنا في الصببا مغموسا

لولا حداتها وأنى لا أرى عرشا لها لحسبها بلقيسا

فما أبرع نقله فيهما عن الآية الشريفة :

« إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ ، وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ، وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ » .

ويقول :

من كل سابعة الشباب إذا بدت تركت عميد القرين عميدا

يقول التبريزي في شرحه :

« وإنما بنى هذا الكلام على الآية ، وهى قوله عز وجل : « وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » .

ويقول في وصف المطر :

هَدِيَّةٌ مِنْ صَمِيدِ جَوَادٍ لَيْسَ بِمَوْلُودٍ وَلَا وَلَادٍ

ويقول :

مَثَلَتْ لَهُ تَحْتَ الظَّلَامِ بِصُورَةٍ عَلَى الْبَعْدِ أَقْتَتُهُ الْحَيَاءُ مُصَمِّمًا
كَيْوَسَفَ لَمَّا رَأَى بَرهَانَ رَبِّهِ وَقَدْ هَمَّ أَنْ يَعْرِوِرَى الذَّنْبَ أُعْجَمًا

ويقول :

لَمَّا وَرَدَنَ حِيَاضَ سَيْبِكَ طُلُحًا خَيَّمَنَ ثُمَّ شَرِبَنَ شَرْبَ الْهِيمِ

ومنها :

أَخْرَجَتْهُمْ بَلْ أَخْرَجَتْهُمْ فِتْنَةً سَلَبَتْهُمْ مِنْ نَضْرَةٍ وَنَعِيمٍ
نَقَلُوا مِنَ الْمَاءِ النَّمِيرِ وَجَنَّةٍ رَغَدَ إِلَى الْغَسَلِينَ وَالزَّقُومِ

ويقول :

طَوَى أَمْرَهُمْ عَنُوءَةً فِي يَدَيْهِ طَى السَّجَلِ وَطَى الرَّدَاءِ

ويقول :

فَاللَّهُ قَدْ ضَرَبَ الْأَقْلَ لِنُورِهِ مَثَلًا مِنَ الْمَشْكَاةِ وَالنَّبْرَاسِ

ويقول :

كَأَنَّ بِلَادَ الرُّومِ عُمَتْ بِصَيْحَةٍ فَضَمَّتْ حَشَاهَا أَوْرَاقًا وَسَطَهَا السَّقْبُ

ويقول :

وَيَبِّغُ اللَّهُ هَذَا مِنْ بَرِّيَّتِهِ فِي قَوْلِهِ "خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ"

فإن يكف هذا ، وإلا فإن الرجوع إلى الديوان كفيلا بأن يمدك بالكثير منه ؛ وإن كنت أطلت في تعداد الأمثال ، فما ذلك إلا لأنى وجدت في تلك الاقتباسات والتضمينات مثلاً خلاصة لحسن الاستفادة ، وسلامة الذوق ، وحلاوة العبارة .

أثر التاريخ :

وناحية أخرى تلى هذه الناحية أثرا في ثقافته . وهي الإسلام بأيام العرب وتاريخهم ، في الجاهلية والإسلام ، وقصصهم وأساطيرهم . وفي شعره أيضا بعض إشارات موجزة إلى تاريخ الفرس ، كقوله :

لقد أذكرانا بأس عمرو ومُسهر
وما كان من إسفنديار ورستمَا

وهو يذكرها في شعره ، فيجريها مجرى الأمثال ، للتدليل على قدرة ممدوحه . وهنا يظهر أثر هذا العصر ، الذي أنجب ابن هشام . ولا أظن إلا أن أبا تمام قد رأى ابن هشام ، وسمع منه . فقد اجتمع ابن هشام بالشافعي في مصر ، وبقى فيها إلى أن مات سنة ٢١٨ هـ ، أى أن وجوده في مصر يضم بين ضفتيه فترتي وجود أبي تمام في مصر . وأبو تمام كثير التمثل بأحداث التاريخ ، في كل مناسبة تعنُّ له ، في تصوير الحرب ، وفي الرثاء ، وفي المدح ، وأذكر لذلك أمثلة :

يقول أبو تمام :

كم وقعةٍ لي في الهوى مشهورةٍ ما كنتُ فيها الحارث بن عبادٍ
يقول التبريزي (ج ٢ ص ٢٧) : "يعنى أن الحارث بن عباد اعتزل حرب بكر وتغلب حتى قتل ابن أخيه جبير . والقصة مذكورة بوضوح في مجمع الأمثال للبدائي ، في الكلام على المثل :

"أشام من البسوس" . وهي رائعة ، تمتزج فيها الإنسانية ، بالحلم ، بالرجولة ، بالشعر ، امتزاجا أخذا ، يرى مبلغ ما أراد أبو تمام أن يهزم من نفس قارئه أو سامعه ، بتذكيره بالقصة ، ويقول الحارث فيها :

لَمْ أَكُنْ مِنْ جُنَاتِهَا عِلِمَ اللَّهِ هُ وَإِنِّي بِجَرِّهَا الْيَوْمَ صَالِي
ويقول :

تُرْفُ إِلَيْكُمْ يَا بَنَ نَصْرِ كَانَهَا حَلِيلَةُ كَسْرَى يَوْمَ آوَاهُ قِصْرُ
ويقول :

لهم يومٌ ذى قارٍ مضى وهو مفردٌ وحيدٌ من الأشباه ، ليس له صحبٌ
به علمتُ صُهبُ الأعاجيم أنه به أعربتُ عن ذاتِ أنفسِها العُربُ
هو المشهدُ الفضلُ الذى ما نجا به لكسرى بن كسرى لا سَنَامٌ ولا غَرْبُ

يقول التبريزي في شرح البيت :

”أى به علمت الأعاجم ، ما كانت تنطوى لها عليه العرب ، من طلب الفرصة للوثوب عليهم“ .

ويقول :

إِنَّ خَيْرًا مَّا رَأَيْتَ مِنَ الصَّفَدِ سَجَّ عَيْنَ النَّائِبَاتِ وَالْإِغْمَاضِ
غُرْبَةً تَقْتَدِي بِغُرْبَةِ قَيْسٍ بَ بِنِ زَهْرٍ وَالْحَارِثِ بِنِ مُضَاضِ

ويقول :

أَمَوَاقِفَ الْفَتَيَانِ تَطْوِي لَمْ تَزِرْ شَوْقًا وَلَمْ تَنْدُبْ لَهَنَ صَعِيدَا ؟
أَذْكَرْنَا الْمَلِكَ الْمُضَلَّلَ فِي الْهَوَى وَالْأَعَشَيْنِ وَجَرَوْلَا وَلَيْدَا
حَلَّوْا بِهَا عِقْدَ النَّسِيبِ وَتَمَنَّمُوا مِنْ وَشِيهَا رَجَازًا بِهَا وَقَصِيدَا^(١)

وقد يطيل في ذلك إطالة محببة ، كقوله مادحا إسحاق بن مصعب ، ذا كرا إيقاعه بالمحمرة من أصحاب

بآبك ، يقول عن إيقاعه بهم :

مَحَوْتَ بِهَا وَقَائِعَ مِنْ مَلُوكِ وَكُنَّ وَقَدْ مَلَأْنَ الْخَافِقَيْنِ
صَبِيحَةَ خَازِرٍ أَنْتَ ، وَمَهْوَى عُيَيْدِ اللَّهِ فِيهَا وَالْحَصَيْنِ
وَفَيْفَ الرِّيحِ إِذْ دَلَفْتُ مَعَدُّ بِأَجْمَعِهَا وَأَسْرَةً ذِي رُعَيْنِ
وَأَيَّامَ الذَّنَائِبِ زَعَزَعْتُهَا وَيَوْمَ مُهْلِهِلٍ وَالشَّعْثَمَيْنِ
وَأَيَّامَ الْكُلَابِ غَدَاةَ هَرَّتْ مَرَارَيْنِ فِيهَا مُثْرِقَيْنِ
أَخُ تَرَكْتُ أَسْنَتَهُ أَخَاهُ كَلِيلًا لِلْجَيْنِ وَلِلْيَدَيْنِ
وَمِنْ سَاتِيذَ مَا بَرَوَانَ فَلَتْ شَبَابًا نَخِيرَ فُسَيْيحِ الطَّائِفَيْنِ

(١) يتحدث أبو تمام في هذه الأبيات عن مواقف الشعراء بالأطلال ، وقد بكأها في أول القصيدة ، وكأنما كان يساوره أن يدع هذا البكاء ، ويقطع عن هذه السنة ، ولكنه لم يستجب لما خالجه ، فبكأها . فهو يسائل نفسه متعجبا من هذا الذي خطر له ، وهو الذي قد أبدع في وصفها ، والوقوف عندها إبداعا يذكر بالشعراء الذين ذكروهم ، وهم من قد زانوا بهذه الوقفات على الأطلال عقود نسيهم ، وزخرفوا بوشيا أرجازهم وقصائدهم . هذا إذا كان الفعل حلى من الحلية . فإذا كان الفعل حل ، من الحل ضد العقد ، وعقد جمع عقدة ، كان معناه أنهم روضوا بهذا الباب من الغزل ما امتنع من النسيب ، فأوجدوا به لأنفسهم مجالا للقول ؛ فإذا فهمنا في باء ” بها “ معنى ” في “ كان لنا أن نعتبر حل العقدة بمعنى الفيض بالقول كما يسيل ماء السحابة إذا انحلت عقدها . أى أنهم لما وقفوا بها حركت أشجانهم ، فتفجرت أسنتهم بالشعر نسيبا ؛ وقد تكون العبارة أذكرنا ، ونون النسوة فيها تعود على المواقف .

بَلَا فِيهَا إِيَّاسٌ كُلُّ لَذِينِ
وَجُجْرَا وَأَمْرَأُ الْقَيْسِ بْنِ حُجْرٍ
وَيَوْمَ الْبِشْرِ أَنْسَتْهُ وَهَدَّتْ
وَيَوْمَ الْمَصْدِفَةِ حِينَ سَامُوا
وَلَكِنْ أَذْكَرْتَنَا يَوْمَ بَدْرٍ
وَكُلُّ مُصَمِّمٍ فِي الْعَظَمِ لَيْنِ
لِيَالِي كَاهِلٍ وَبَنِي قَعِينِ
وَقَائِعَ رَاهِطٍ وَبَنَاتِ قَيْنِ
أَنُوشِرَوَانَ خَطْبَا غَيْرِ هَيْنِ
وَمَشْتَجِرَ الْأَسْنَةِ فِي حُنَيْنِ

ويقول مشيراً إلى تاريخ الإسلام في عزاء مالك بن طوق في أخيه :

وَقَالَ عَلِيٌّ فِي التَّعَاذِي لِأَشْعَثِ
أَتَصْبِرُ لِلْبَلَوَى عِزَاءً وَحَسْبَةً
وَلِلطَّرَفَاتِ يَوْمَ صِفِّينَ لَمْ يَمُتْ
وَخَافَ عَلَيْهِ بَعْضُ تِلْكَ الْمَأْتَمِ :
فَتَوَجَّرَ ، أَمْ تَسْلُو سَلَوَ الْبِهَائِمِ ؟
خُفَاتًا وَلَا حَزَنًا عَدَى بْنُ حَاتِمٍ (١)

ويقول في تاريخ الرسول ذا كرا عليا :

يُسَدُّ بِهِ الثَّغْرُ الْمَخُوفُ مِنَ الرَّدَى
بِأَحَدٍ وَبَدْرٍ حِينَ مَاجَ بَرَجَالِهِ
وَيَوْمَ حُنَيْنٍ وَالنِّضِيرِ وَخَيْبِرِ
وَيَعْتَاضُ مِنْ أَرْضِ الْعَدُوِّ بِهِ الثَّغْرُ
وَفُرْسَانَهُ أَحَدٌ وَمَاجَ بِهِمْ بَدْرُ
وَبِالْحَنْدَقِ الثَّأْوِي بِعَقْوَتِهِ عَمْرُو

ويقول فيما كان بين النبي وسعد بن أبي سرح في شأن الوحي :

هَذَا النَّبِيُّ وَكَانَ صَفْوَةَ رَبِّهِ
قَدْ خَصَّ مِنْ أَهْلِ النِّفَاقِ عِصَابَةً
وَأَخْتَارَ مِنْ سَعْدِ لَعِينِ بَنِي أَبِي
حَتَّى اسْتِضَاءَ بِشَعْلَةِ السُّورِ الَّتِي
مِنْ بَيْنِ بَايٍ فِي الْأَنَامِ وَقَارِ
وَهُمْ أَشَدُّ أَذَى مِنَ الْكَفَارِ
سَرَّحَ لَوْحِي اللَّهِ غَيْرَ خِيَارِ
رَفَعَتْ لَهُ سَجْفًا مِنَ الْأَسْتَارِ

ثم يقول :

وَالْهَاشِمِيُّونَ اسْتَقَلَّتْ عَلَيْهِمْ
فَشَفَاهُمْ الْمُخْتَارُ مِنْهُ وَلَمْ يَكُنْ
حَتَّى إِذَا أَنْكَشَفَتْ سَرَائِرُهُ أَغْتَدَوْا
مِنْ كَرْبَلَاءَ بِأَوْثِقِ الْأَوْتَارِ
فِي دِينِهِ الْمُخْتَارِ بِالْمُخْتَارِ
مِنْهُ بَرَاءَ السَّمْعِ وَالْأَبْصَارِ

وغير هذا كثير، مما يدل على طول باع في العلم بالتاريخ .

(١) والطرفات ، محرّكة : بنو عدى بن حاتم ، قتلوا بصفين ، وهم طريف ، وطرفة ، ومطرف .

روايته بعض الأحاديث :

ولأبي تمام ذكر في المحدثين . ففي تاريخ دمشق لأبن عساكر ، أنه روى حديثاً عن رسول الله . وهذا الحديث اتصل بالحافظ بن عساكر نفسه ، وأسماء الرواة فيه مضطربة لكثرة الخطأ بالكتاب . قال الحافظ : أخبرنا أبو الحسن ، أنبأنا القاضي أبو المظفر بن إبراهيم بن نصر النسفي ، أنبأنا عبد الحى بن عبد الله بن موسى الجوهري بن الفضل الشاعر ، أنبأنا خالد بن يزيد الشاعر ، حدثني أبو تمام : حبيب بن أوس الشاعر ، حدثني صهيب بن أبي الصهبان (أو الصهباء) الشاعر ، حدثني الفرزدق همام بن غالب الشاعر ، حدثني عبد الرحمن بن حسان بن ثابت الشاعر ، حدثني أبي حسان ابن ثابت الشاعر ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يا حسان ، آهجهم وجبريل معك . وقال : إن من الشعر حكمة . وقال لى : إذا حارب أصحابي بالسلاح ، فحارب أنت باللسان" انتهى . وأتصال موضوع الحديث بصناعة أبي تمام وعمله ، لا يدل على أنه كان يطلب الحديث طلب المخصص له جهداً . ولكنه يدل على أنه اتصل بالمحدثين .

روايته الأدب :

وقد روى أبو تمام في الأدب عن كثيرين ، ذكرهم الصولى في كتابه "أخبار أبي تمام" ولا يلزم في روايته أن يكون اتصل بمن روى عنهم . فقد روى عن الخطيئة مثلاً ؛ ومن روى عنهم كرامة بن أبان العدوى ، وأبو عبد الرحمن الأموى ، وسلامة ابن جابر النهدي ، وقلاية الجرهمي ، ومحمد بن خالد الشيباني ، وغيرهم .

ورواياته عن هؤلاء جميعاً في الأدب : عبارات قصيرة موجزة أشبه بالحكمة ، والمثل السائر . وأضرب مثلاً لها . يقول الصولى : "حدثنا أحمد (بن أبي طاهر) ، قال : حدثنا أبو تمام ، قال : حدثنا كرامة ، قال : تكلم رجل في مجلس الهيثم بن صالح ، فنهذر ولم يصب ، فقال له : يا هذا ، بكلام أمثالك رزق الصمت المحبة " . وجميع رواياته تشبه هذه .

اتصاله بالمذاهب في عهده :

في شعر أبي تمام إشارات إلى بعض المذاهب الفلسفية ، المتصلة بالدين والسياسة في عصره ، لا يستعمل منها مذهباً استعمال المعتنق له ، إلا مذهب الانتصار لعل وشيعته ، يتناوله في قصيدة طويلة مذكورة في ديوانه . أما الباقي فإشارات موجزة ، كقوله في وصف الخمر :

✓ جَهْمِيَّةُ الأوصافِ إِلَّا أَنَّهُمْ قَدْ لَقَّبُوهَا جَوْهَرُ الأَشْيَاءِ
وكقوله :

فلَوْ صَحَّ قَوْلُ الجَعْفَرِيَّةِ فِي الذِي تَنُصُّ مِنْ الإِلْهَامِ خِلْنَاكَ مُلْهُمَا

وقد يستعمل بعض الألفاظ الفلسفية في شعره ، كقوله :

صاغَهُمْ ذُو الجَلالِ مِنْ جَوْهَرِ المَجْدِ وَصاغَ الأَنامَ مِنْ عَرَضَةٍ

✓ وهو يميز لنفسه استعمال اصطلاحات علمية في الشعر ، كقوله ، وفيها اصطلاحان من اصطلاحات الفقهاء :

فَإِنْ يَكُ ذَنْبٌ عَزَّ أَوْ تَكُ هَفْوَةٌ عَلَى خَطَأٍ مَنِ فَعَذَرِي عَلَى عَمْدٍ

ويقول في وصف الخمر :

✓ خرقاء يَلْعَبُ بالعقول حَبَابُهَا كَتَلْعَبُ الأَفْعَالِ بالأَسْمَاءِ

✓ وقد يشير إلى النجوم إشارات تنبئ عن اتصال بعلم التنجيم ، وقد أزهري في عصره ، يقول :

✓ لَهُ كَبَرِيَاءُ المُشْتَرَى وَسَعُودُهُ وَسُورَةُ بَهْرَامٍ وَظَرْفُ عَطَارِدٍ

وفي شرح البيت منقول عن الخارزنجي ما يأتي^(١) :

”المشترى كوكب العطاء والملوك ؛ وبهرام هو المريخ ؛ وهو كوكب السلطان ؛ وعطارد كوكب الكتاب والأدباء“. وهي معان أشبه بما نعرف من رموز اليونان إلى آلهتهم .

ويقول في مكان آخر ، في مدح نوح بن عمرو السكسكي :

مَناسِبُ تُحَسَّبُ مِنْ ضَوْئِهَا مَنازِلًا لِلْقَمَرِ الطالِعِ

✓ كَالدَّلْوِ وَالْحَوْتِ وَأَشْرَاطِهِ وَالْبَطْنِ وَالنَّجْمِ إِلَى البالِعِ

✓ وإلحاق أبي تمام على المنجمين في عصره بالتهكم ، فيه ما يأنس الإنسان منه نظرة لاتجاهاتهم ،

كقوله في فتح عمورية :

✓ السيفُ أَصْدَقُ أَنْبَاءٍ مِنَ الكُتُبِ فِي حَدِّهِ الحَدُّ بَيْنَ الحَدِّ واللَّعِبِ

✓ أبيضُ الصَّفائِحِ لاسودُّ الصَّحَائِفِ فِي مُتُونِ جِلَاءِ الشَّكِّ والرَّيْبِ

✓ وقد ذكر المنجمين في موضع آخر أو أكثر بمثل هذا التهكم .

النحو:

وَألم أبو تمام بالنحو إلماماً حسناً ، فلم يؤخذ عليه في كثير من المواضع خطأ نحوي ، بل إن أحدهم ليعترض على بيته :

أغرث همومي فأصطحبن همومها ، نومي ، وبثت على فضول وسادي

(وقد رويت فأصطحبن همومها ، وأستلبن أيضاً) . أعترض عليه بقوله ، إن أصطحب لا تأخذ مفعولاً . فيرد عليه المرزوقي بقوله : ” إن أبا تمام كان سايم الشعر . فالمراد أصطحبن وقت نومي ، فالمصدر مستعمل بمعنى الظرف ، كما يقال آتاك طلوع الفجر ^(١) ” . ولكن أبا تمام في نحوه كثير الاستعمال للغة طيء .

(١) فهو كما رأينا في بيته الماضي يقول أصطحبن همومها . وهي لغة ” يتعاقبون فيكم ملائكة ” لغة طيء . ونسبت أيضاً إلى قبائل أخرى من اليمن مثل بلحريث . ولكن إلحاح أبي تمام عليها يوثق الرأي القائل بأنها لغة طيء . يقول المرزوقي في الكلام على البحث السابق : وقوله فضولها (أو همومها على اختلاف في الرواية) ارتفعت بأصطحبن ، والنون منه لم ينجى الضمير ، وإنما هي علامة تؤذن بالجمع ، كالتاء في قامت هند . وهذا أحد وجوه التأويل لهذه اللغة . وهو كثير الاستعمال لهذه النون ، يقول :

وَأَكْسِ بِمُجْدٍ عَادَ فِيهِ نَوَالُهُ وشاعِر قوم عُدْنَ فِيهِ قَصَائِدُهُ

ويقول :

شَجَا فِي الْحَشَا تَرْدَادُهُ لَيْسَ يَفْتُرُ بِهِ صُمْنٌ آمَالِي وَإِنِّي لَمَفْطَرُ

وينقل التبريزي عن أبي العلاء ، في الكلام عن هذا البيت قوله :

” يبين في كلام الطائي ، أنه كان يختار إظهار علامة الجمع في الفعل ، في مثل قوله : صُمْنٌ آمَالِي . ولو قال صام آمالي ، لاستقام الوزن ^(٢) ” .

(٢) وفي مقابل هذا يحذف علامة التأنيث التي تلحق الماضي ، حين يكون فاعله جمع غير العاقل ، كقوله :

كَمْ أَنْجَبُوا قَمْرًا جَلًّا أَفْعَالُهُ قَمْرًا ، وَمَكْرُمَةً تُنَاغِي الْفَرْقَدَا

ولو قال : جَلَّتْ أَفْعَالُهُ لاستقام الوزن .

(١) شرح التبريزي لديوان أبي تمام ج ٢ ص ٢٧١ (٢) شرح التبريزي ج ٢ ص ٣١٤ (١)

(٣) ويستعمل أيضا من لغة طيء "ذو" الموصولة، يقول :
أنا ذو عرفت فإن عرتك جهالةً فأنا المقيمُ قيامة العُدالِ

(٤) وفي شعره من لغة طيء أيضا قوله :
هل أورك المجد إلا في بني أدٍ أو اجتنى منه لولا طيء ثمر

يقول التبريزي :

"إذا كان آخر الماضي ياءً وقبلها كسرة، فطيءٌ تقلبها ألفا فيقولون آجتى، في اجتنى : واقتدى في اقتدى . ومن العرب من يسكن ، وهي لغة رديئة ، والأغلب أن يكون الطائي سكن الياء ههنا، ولم يستعمل اللغة الطائية" . ولا أعرف أنا ما وجه إلزامه لغة رديئة غير لغة قومه ، مع أنه يتحزأها في كثير .

(٥) ويقول قوم من طيء : "دَفَنُ البَناءِ ، مِن المَكْرَماهِ" ، موضع قول غيرهم :
"دَفَنُ البَناءِ ، مِن المَكْرَماتِ"
فيقول أبو تمام :

إحدى بني بكر بن عبد مناه بين الكتيب الفرد فالأمواه
ألقي النصف فأنت خاذلة المنى أمينة الخالي وهو اللاهي

ولقد كان أبو تمام، على ما يظهر، ذا علم بلهجات القبائل؛ فلما نرى بيته :

ثانيه في كيد السماء ولم يكن لآتين ثانٍ إذ هما في الغار

وقد أثار ضجة بين النحاة، لما يجب من نصب ثانٍ، خبرا ليكن . ولكن يأتي الفراء فيقول : "إنها لغة عند العرب أن تأتي بالمنصوب في لفظ المخفوض" . ويندر أن يعتسف أبو تمام طريقه على غير القاعدة . ومن هذا النادر قوله في هجاء عتبة بن أبي عاصم :

نكلت قصائدى إن مرَّ يومٌ ولما أقض فيه منك نجبا
وكنت إذن كآنت فإت مثلي إذا ما كان مثلك كان كلبا

فاستعمل ضمير الرفع أنت بعد الكاف لا أعرف له وجها إلا أنها لغة نادرة .

وهو كثير التفريع في الجملة، يغلو في استعمال الفضلات، يقدم ويؤخر في توسعة على نفسه، توسعة قد توقع السامع أحيانا في اضطراب، كقوله :

لَمْ يَغْلِقِ اللَّهُ بَابَ الْعُرْفِ عَنْ أَحَدٍ بَابُ الْأَمِيرِ لَهُ الْمَالُوفُ مَفْتُوحُ
وسأحدث في مكان آخر عن تركيب الجملة عند أبي تمام ، وكونه كان مظهرا من مظاهر حسه
للجمال . وقد يفصل بين الصفة والموصوف بجار ومجرور، كقوله :
أَهَيْسُ الْأَيْسُ لِحَاءِ^(١) إِلَى هَمِيمٍ تُغْرِقُ الْأُسْدَ فِي آذْيِهَا اللَّيْسُ
يريد أن يقول : تغرق هذه الهمم في موجاتها الأسد الليس . وقد يعيد الضمير على متأخر، فيقول
في هجاء عياش بن طبيعة الحضرمي :

وَبَقِيْتُ لَوْلَا أَنِّي فِي طَيِّئٍ عِلْمُ لِقَالِ النَّاسِ : أَنْتَ جَرِيرُ
يَا خَلْقَةَ اللَّهِ الَّتِي مِنْ طَرَزِهَا نَشَأَ فَكَانَ الْقَرْدُ وَالْخَزِيرُ
وما أشبه "فكان" بأن تكون زائدة في البيت ، فتصبح العبارة : "نشأ القرد والخزير" . من
لغة طيئ السالفة الذكر . وغير هذا قوله :

لَوْلَا قَبُولِي نَصَحَ الْعَزْمُ مُرْتَحِلًا لِسَابِقَانِي إِلَيْهِ الرَّحْلُ وَالْجَمْلُ
وهذا البيت صريح في أنه من لغة طيئ .

وأبو تمام مشغوف باستعمال المثني شغفا واضحا، يقول في وصف بابك :
تَحَدَّرَ مِنْ لِهَبَيْهِ يَرْجُو غَنِيمَةً بِسَاحَةِ لَا السَّوَانِي وَلَا الْمُتَخَاذِلِ
ويقول :

تَحَمَلْتُ مَالُو حُمْلِ الدَّهْرِ نَصْفَهُ لَفَكَّرَ دَهْرًا أَيُّ عِبْئِهِ أَثْقَلُ
ويقول :

لَوْ أَنَّ دَهْرًا رَدَّ رَجْعَ جَوَابِي أَوْ كَفَّ مِنْ شَأْوِيهِ طَوْلَ عِتَابِي
ويقول :

أَبَقَ عَلَى جَوْلَةِ الْأَيَّامِ مِنْ كَنَفِي رَضَوِي وَأَسِيرِي فِي الْآفَاقِ مِنْ مَثَلِ
ويقول :

فَمَا هَضْبَتَا رَضَوِي وَلَا رُكْنُ مَعْنِي^(٢) وَلَا الطَّوْدُ مِنْ رُكْنٍ وَلَا أَنْفٌ يَذْبَلُ^(٣)
بِأَثْقَلٍ مِنْهُ وَطَاءً حِينَ يَغْتَدِي فُلُوقِي وَرَاءَ الْمَلِكِ نَحْرًا وَكَلْبًا

(١) الأهيس : الشجاع، والأيس : كذلك، وجمع الأليس : الليس .

(٢) معنق : قصر عبيد بن ثعلبة بحجر اليمامة . وهو أشهر قصور اليمامة ، يقال إنه من بناء طسم ، وهو على أكمة مرتفعة .

(٣) ركن بضمين : موضع باليمامة . ويذبل : جبل مشهور بنجد .

ويقول :

وليس أمرؤ في الناس كُنتَ سَلامُهُ عَشِيَّةً يَلْقَى الحَادِثَاتِ بِأَعْزَلَا
يَرَى دِرْعَهُ حَصْدَاءَ وَالسَيْفَ قَاطِعَا وَزُجْجِيهِ مَسْنُونِينَ وَالسَّوْطَ مَغُولًا^(١)

ولقد تعمدت أن آتى بمعظم هذه الأبيات من صفحات متقاربة في ديوانه، ليرى في جلاء غرام أبي تمام باستعمال المثني، في غير ضرورة قاهرة .

* *

ولم أقصد في سرد وجوه ثقافة أبي تمام إلى أول شعره، كما أنى لم أعمد إلى متأخره، وإنما وضعت يدي على ماتبها إلى في شعره، حين توخيت تأريخ ثقافته، في غير نظر إلى أزمان . إذ قد يتقدم زمن الشعر أو يتأخر ولكن المؤثر فيه واحد . وثقافة الانسان آخر عمره، ليست إلا نتاجا لما جنى في كل سنيه . كما أن الانعكاسات الذهنية والنفسية للمؤثرات قد تتأخر زمنا طويلا، حتى يبين أثرها واضحا، وحتى تهضمها القوى، وتروضها المعالجة والممارسة والنظر في التاريخ العلمى لذلك العصر، يرى شدة الصلة بين ما يدرسه الطالب في مصر وما يدرسه في غيرها حيث تسيطر عوامل متشابهة، وبيئة علمية لا تتفاوت في الأصول والجواهر، وإن تفاوتت في الأعراض . ولقد كانت الثقافة المعتادة لكل طالب علم يومئذ، هي ما رأينا أبا تمام يلم به . فلا يكاد الإنسان يظن أنه دخل جامع عمرو ليدرس العلم فيه، نخرج منه ولم يحفظ القرآن، أو يعرف النحو، مع أن كل العلوم كانت ترتبط يومئذ بالقرآن . ولقد جعلت نصب عيني أوضح الإشارات وأبجلها، وإلا فإن آثار نواحي هذه الثقافة بادية في كل شعره، ما قيل منه أول أمره، وما قيل منه آخره .

(هـ) أول شعر أبي تمام في مصر وخصائصه :

١ - مدحه عياش بن لهيعة : لم يلبث أبو تمام أن قال الشعر . وأول ما قاله منه على

رواية الصولي :

تَبَيَّ جَمَاحِي لَسْتُ طَوَّعَ مُؤَنَّبِي وَلَيْسَ جَنِّبِي إِنْ عَذَلْتِ بِمُضْجِحِي
فَلَمْ تَوَقِدِي سُخْطًا عَلَى مَتَنِّصَل وَلَمْ تَسْتَزَلِي عَتَبًا بِسَاحَةِ مَعْتَبِ
رَضِيتُ الْهَوَى وَالشُّوقَ خِدْنًا وَصَاحِبَا فَإِنْ أَنْتِ لَمْ تَرْضَى بِذَلِكَ فَأَغْضَبِي
يَصْرِفُ حَالَاتِ الْفِرَاقِ مَصْرِفِي عَلَى صَعْبِ حَالَاتِ الْأُمَى وَمُقَلَّبِي^(١)

(١) الزج : الحديدة أسفل الرمح . والدرع الحصدا . المحكمة ، الضيقة الحلق . والمغول : سيف دقيق له قفا .

وفي القصيدة ميل إلى أسلوب الفن الجاهلي ، ففيها يقول :

وْخَوْطِيَّةٌ شَمْسِيَّةٌ رَشِيَّةٌ مُهْفَهْفَةٌ أَعْلَى رَدَاحِ الْمُحَقَّبِ

ومنها :

مِنْ الْمَعْطِيَّاتِ الْحُسْنِ وَالْمُؤْتَيَّاتِهِ مُجْلِبِيَّةٌ أَوْ فَاضِلًا لَمْ تَجَلَّبِبْ

لَوْ أَنَّ أَمْرَأَ الْقَيْسِ بَنَ حُجْرٍ بَدَتْ لَهُ لَمَّا قَالَ مُرَّابِي عَلَى أُمِّ جُنْدَبِ

ومنها :

إِذَا أَمَّهُ الْعَافُونَ أَلْفَوْا حِيَاضَهُ مِلَاءً وَأَلْفَوْا رَوْضَهُ غَيْرَ مُجْدِبِ

وهو في أول شعره يَبُوحُ بِخَاجَةٍ مِنْ خَلْجَاتِ نَفْسِهِ ، وَشُعُورٍ لَا أَشْكُ فِي أَنَّهُ كَانَ يَثْقُلُهُ كَثِيرًا ، فيقول للآئمتة :

أَحَاوَلْتُ إِرْشَادِي فَعَقَلِي مَرشَدِي أُمِّ اسْتَمْتِ تَأْدِييَ فَدَهْرِي مُؤَدِّي

هَمَّا أَظْلَمَا حَالِي تُمَتَّ أَجْلِيَا ظَلَامِيَهُمَا عَنْ وَجْهِ أَمْرَدٍ أَشْيِيَا

إنَّ جِهَادَ الْوَحِيدِ فِي مُضْطَرَبِ الْحَيَاةِ جِهَادٌ ثَقِيلٌ مُضْنٌ ، وَخَاصَّةً إِذَا بَدَأَهُ وَغَصْنَهُ رَطِيبٌ ، فَإِنْ هَذَا الْكَفَاحُ مَهْمَا يَنْتَهَ بِالنَّصْرِ ، يَتْرَكَ فِي الْقَلْبِ كَلَمًا دَامِيًا أَبَدًا ؛ فَبِسْمَةِ النَّصْرِ تَمْزِجُهَا الذِّكْرُ بِعَبُوسِ الْأَلَمِ ؛ وَشُعُورُ صَاحِبِهِمَا بَيْنَهُمَا فَرَحٌ وَقُورٌ شَاكٌ ، أَوْ حُزْنٌ هَادِيٌّ مُبْتَسِمٌ ؛ وَلَكُمْ يَطْبَعُ الْكَفَاحُ الْأَوَّلُ الْحَيَاةَ كُلَّهَا بِطَابَعٍ أَبَدِيٍّ . وَإِنْ فِي إِشَارَةِ أَبِي تَمَامٍ فِي عِبَارَتِهِ هَذِهِ : ” أُمِّ اسْتَمْتِ تَأْدِييَ فَدَهْرِي مُؤَدِّي “ . فِي إِشَارَتِهِ هَذِهِ ، مَا يَلْخُصُّ سِيرَتَهُ ، وَكَفَاحَهُ ، وَحَيَاتِهِ . وَإِنَّمَا لَتَذَكُّرُ بِالْحِكْمَةِ الْمَعْرُوفَةِ :

مَنْ لَمْ يُوَدِّهِ وَالِدَاهُ أَدَبَهُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ

وَمَا أَظُنُّ إِلَّا أَنَّ أَبَا تَمَامٍ ، يَوْمَ قَالَ هَذِهِ الْعِبَارَةَ ، كَانَتْ تَمَثَّلُ لَهُ وَرَاءَ كُلِّ لَفْظٍ مِنْ أَلْفَاظِهَا ، دُنْيَا سَاخِرَةٌ مَائِجَةٌ ، قَدْ حُرِّمَ فِيهَا الْمَعُونَةُ مِنْ مُعِينٍ ، وَالْحَنَانُ مِنْ رَحِيمٍ . أَلَمْ يَهَذَا الْمَعْنَى فِي قَصِيدَةِ لَيْسَ الْغَرَضُ مِنْهَا الْإِلْمَامُ بِهِ ، فَتَرْبُهُ ، عِجْلًا ، وَتَرْكُهُ أَشْبَهَ بِالْعَبْرَةِ مَا تَكَادُ تَسِيلُ حَتَّى يَحْفَفُهَا صَاحِبُهَا ، فِي خَفَاءٍ وَعِجْلَةٍ ، حَتَّى لَا يَلْحَظُ النَّاسُ مَا بِهِ . وَأَغْلَبَ مَا كَانَ التَّعْبِيرُ عَمَّا فِي النَّفْسِ فِي الشَّعْرِ الْعَرَبِيِّ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ . وَإِنْ أَبَا تَمَامٍ لَيْسَتْ عِيدُ جَاشِهِ بِخَافَةٍ ، وَيَطْرُدُ تِلْكَ الذِّكْرَى الْمُؤَلِّمَةَ ، أَوْ هُوَ يَخْلُطُ بِعُبُوسَتِهَا بِبِسْمَةِ النَّصْرِ ، وَالشُّعُورُ بِالْفُوزِ ، فَيَقُولُ عَنْ نَفْسِهِ :

شَجًّا فِي حُلُوقِ الْحَادِثَاتِ مَشْرِقٍ بِهِ عَزَمُهُ فِي السُّرَّهَاتِ مُغْرِبِ

كَأَنَّ لَهُ دِينَارًا عَلَى كُلِّ مَشْرِقٍ مِنْ الْأَرْضِ أَوْ نَارًا عَلَى كُلِّ مَغْرِبِ

ولكنه لا يلبث أن يعود إلى ما هرب منه حين يذكر ماضيه، فهو في حاجة إلى معين، وإن يكن ذلك في شيء من الكبرياء، فترى حاجته تسفر وتتوارى وتصطنع العلل :

تركتُ حُطاما مِنكَبِ الدهرِ إذ نوى زحامي لما أن جعلتكَ مِنكبي
وما ضيقُ أقطارِ البلادِ أضافني إليك ولكن مذهبي فيك مذهبي
وأنت بمصرٍ غايي ، وقرابتي بها وبنو الآباء فيها بنو أبي
ولا غرو أن وطأت أكفَ مرتعي لهمَلِ أحفَاضِي^(١) ورفَّتَ مشربي
فقومت لي ما أعوج من قصد همتي وبيضت لي ما أسود من وجه مطلي

وفيها يقول له : إنني قصدتك مع أن بمصر قرابتي وبنى أبي من طيئ .

أما غزله في القصيدة فيبدوه بخطاب عاذلته، التي تعذله في حبه، فيقول : إنه لن يطيعها، وليس يخاف سخطها، وإنما هو محب مدله، تحذ الهوى خدنا وصاحبها، وهو ذو قلب مهياً للحب على ما به من أسي وألم . ثم يختمه بوصف جسماني لمن أحبها، وأثر جمالها في القلب . ويقول إن هذه حاجتي، لا آرتيادك بالأذى محلي إلا تبكرى تتأوبى . وهو فيها لا يتحدث عن هجر، ولا نسمع كثيراً تلك النغمة الحزينة التي تغلب في غزله عامة، والظاهر أن ذلك راجع إلى أنه كان في مستهل أمره، ممتلئاً آملاً .

وفيها البيتان اللذان قال فيهما إنه وإن كان لا يزال شاباً أمرد فقد لحقه الشيب . ويرى التبريزي لهما أحد معنيين : الأول أن يكون قد شاب في حال المرد، لعظم ما لاقاه من الشدائد . والثاني أن يكون أراد أنه فتي في السن، وهو في العقل شيخ . وقد يكون التفسير الأخير أليق بأبي تمام يومئذ .

وأبو تمام في هذه القصيدة معنىً بالبدیع ، ولكن اتجاهه إلى المعنوى منه أكثر من اتجاهه إلى اللفظي . فهو كثيراً ما يقصد الاستعارة ، والمجاز ، والتشبيه ، من أنواع البيان . فإذا جئنا إلى ما يطلق عليه البديع في الأزمنة المتأخرة، لم نجد في اللفظي منه كثيراً، وإنما هو يعنى بالمقابلة بين معنيين متضادين في البيت . بحماح وطوع ، والرضا والغضب ، ومجلبب وفاضل ، وتبكرى وتتأوبى، وأظلمها وأجلىا . وإن يكن فيها شيء من مراعاة الموسيقى اللفظية، وآتساق المقاطع، وحفظ التناسب، كما في البيت :

بختيلٍ ساجٍ من الطرفِ أحورٍ ومقتبَلٍ صافٍ من الثغرِ أشنبٍ

فكل كلمة في الشطر الأول تقابلها نظيرتها ومثيلتها في الشطر الثاني، بما يدل على قصد واعتماد لذلك .

(١) أحفاض : جمع حفص وهو الجمل الضعيف .

على أنها مع ذلك ليست بادية التكلف ، وليست تضيق بها النفس . فأبو تمام يقصد إلى البديع في أول قصيدة من قصائده ، وخاصة ما يمس المعنى منه ، ولكنه لم تنهأ له بعد سعة الخيال وخصبه . وليس في القصيدة لفظ غريب ، تنفر منه النفس أو السمع .



ولقد كانت هذه القصيدة بداية طيبة ، فأعطاه عياش خمسة آلاف درهم ، كما ينقل البحري عن أبي تمام . ويستطيع الإنسان أن يصور لنفسه ، مبلغ نشوة هذا الفتى الصغير الفقير ، يملك خمسة آلاف درهم . ولا نعرف ماذا آرتاد بها ، ولكننا نعرف أنه كان كريما مسرفا ، كما رأينا في الحديث عن شخصيته . فلم يلبث أن بددها ، ثم عاد إلى عياش يمدحه . وليس في ديوان أبي تمام ، في مدح عياش ، غير القصيدة السابقة ، إلا قصيدة أخرى مطلعها :

أَحْيَا حُشَاشَةَ قَلْبٍ كَانَ مَحْلُوسَا	وَرَمَّ بِالصَّبْرِ عَقْلًا كَانَ مَالُوسَا ^(١)
سَرَى رِءَاءَ الْهَوَى فِي حِينٍ جَدَّتْهُ	وَأَهْلًا لَهُ مِنْهُ مَسْرُوءًا وَمَلْبُوسَا
لَوْ تَشْهَدُنِي أَقَاسِي الدَّمْعِ مِنْهُمْ	وَاللَّيْلَ مُرْتَجِّجَ الْأَبْوَابِ مَطْمُوسَا
أَسْتَنْبْتُ الْقَلْبَ مِنْ لَوْعَاتِهِ شَجَرَا	مِنْ الْهَمُومِ فَأَجَنَّتْهَا الْوَسَاوِيسَا

وهذه القصيدة من الناحية الفنية لا تأتي بعد الأولى ، من حيث القيمة الفنية ، ولا بد أن يكون بين الاثنتين قصائد أخرى ، ذهبت فيما ذهب من شعر أبي تمام . على أن ما يبدو في غزلها من الكتابة — وأبو تمام دائم الملاءمة بين روح غزله وبين ما يضطرب في نفسه — يجعلنا نقدر أنه كان في حاجة إلى المال .

٢٨ — معاتبته عياشا : لا تلبث العلاقة بين عياش وأبي تمام أن تترزعزع . ويفسر لنا صاحب العقد الفريد سبب ذلك ، بأن أبا تمام استسلف عياشا مائتي مثقال ، فشاور فيه زوجته ، فقالت له : " هو شاعر : يمدحك اليوم ، ويهجوك غدا . فأعتل عليه ، وأعتذر إليه ، ولم يقض حاجته " . ويظهر أن هذا الاعتلال قد استمر زمنا ، فأخذ أبو تمام يعاتبه ، محتفظا بمعنى المدح في عتابه ، شاكيا طول ما بقي ببابه ، ففي قصيدة له أولها :

صَدَفَتْ هُيَا قَلْبِي الْمُسْتَهْتَرِ	فَبَقِيْتُ نَهْبُ صَبَابَةٍ وَتَفَكَّرِ ^(٤)
--	--

(١) ألس : اختلط عقله ، وهو مألوس .

(٢) ج ١ ص ١٤٤ ط : الجمالية .

بصفة المفعول : المولع به ، لا يبالي بما قيل فيه .

(٤) اللهميا : تصغير لهوى ، من اللهم ، بوزن ليلي . والمستهر بالشئ .

يقول :

أملُ ببابك صائمٌ لم يُفطِرْ	الفطر والأضحي قد أنسلخا ولي
تتوقع الحبلى لتسعة أشهر	حولٌ ولم يُنتج نذاك وإنما
مدح أجيش له بسبعة أبحر	جش لي ببحرٍ واحدٍ أغرقك في

فهو يذكر فيه بقاءه ببابه حولاً كاملاً، مرّ فيه عيدا الفطر والأضحي، وأمله صائمٌ لم يفطر. ولا أظن أن أبا تمام قد بقي هذا الحول في انتظار مائتي مثقال، ولكن في انتظار عطاء لا يعلم مقداره. فإذا أردنا أن نتعرف حال أبي تمام النفسية، وما توالى عليه من حس، وجدناه في هذه القصيدة في غزله . وقد قلت إن غزل أبي تمام تصوير لما في نفسه من هم ، وهو حين يشكو يجعل مرآته الحب :

ترميه عن شرنٍ بأم حبوك ^(١)	غرض الحوادث ما تزال مائمة
لتكادُ تفجؤه بما لم يقدر ^(٢)	سدكت به الأقدار حتى إنه
بالصبر إلا أنه لم ينصر ^(٣)	ما كع عن حرب الزمان ورميه
متوطئاً أعقاب رزقٍ مدير	ما إن يزال بحد حزم مقيل

أما عياش فقد بدأ يلقيه في آمتعاض وتجهم :

هك عني كآبة وبُسور ^(٤)	فإذا جئت زائراً حجت وجه
بشر في أكثر الأمور بشر	فتطلق مع العناية إن الـ
ن ببذل فروضة وغدير	إنما البشر روضة فإذا كا
ظ لعنوان ما يُجنُّ الضمير	وأقسم اللحظ بيننا إن في اللـ

بعد ذلك تشور نفسه لكثرة ما رجاه، ويحس ذلة السؤال جارحة أليمة فيقول :

من دونه شرق من تحته بحر	ذل السؤال شجاً في الخلق معترض
من ماء وجهي إذا أفنيت عوض	ما ماء كفك إن جادت وإن بخلت

وهو ينسب جفاء عياش له إلى قوم يسعون به عنده :

لم يأتلوا في ما أعدوا وما ركضوا	أظن عندك أقواماً وأحسبهم
نواطق عن قلوب حشوها مرض	يرمونني بعيون حشوها شزر

(١) الشرن : البعد . وأم حبوك : الداهية . (٢) سدك به كفرح : لزمه ، والسدك كفرح المولع بالشيء .

(٣) كع : يكع ويكع : جبن وضعف . (٤) البسور : العبوس والتقليب .

لولا صيانته عُرِضَ وانتظار غدي والكظم حتم على الدهر مفترض
لما فككت رقاب الشعر عن فكري ولا رقابهم إلا وهم خيَضُ
أصبحت يرمي نباهاً في بخاملة من كله لنبالى كلها غرض

وفي البيت الأخير إشارة إلى من يرميه بخاملة "ويظهر أن خاملة هذه وصف لموصوف محذوف، لأنه مفهوم، أى قصيدة خاملة" وأظنه يشير بهذا إلى شاعر هاجاه في مصر، هو يوسف السراج، يذكّر ابن رشيق في عمدته، أنه أخفمه في الهجاء^(١).

٣ - هجاءه عياشاً : ثم عيل صبره، وأقطع ذلك الأمل الذى كان يمسكه عن هجائه، فهجا عياشاً هجاء من قد جرح وشعر بحرارة جرحه، وراه وهو يهجو ولا ينكر ما كان فيه أيام كان يمدحه ويرجوه. فهو صريح، وهو في حاجة إلى المال تبين في هجائه :

النار والعار والمكروه والعطب والقتل والصَّلب والمرَّان والخشب
أحلى وأعذب من سيب تجود به ولن تجود به يا كَلْبُ يا كَلْبُ

وهو يأخذ على نفسه مدحه لهم، ولجأته في ذلك :

لحاجة بي فيكم ليس يشبهها إلا لاجتكم في أنكم عَرَب
أشكىتموني فلما أن شكوتكم غضبتُم دام ذاك السخط والغضب

أما هجاءه له، فهو أشبه بالشتائم الساذجة، منه بالهجاء الحقيقي. ويظهر أنه استفد من الجهد في تهديده بالهجاء، أكثر مما بذل في هجائه حقاً. وهو ينذر في كل قصيدة بما سينكل به :

لَيَسْوَدَنَّ بقاع وجهك منطقي أضعاف ما سودت وجه قصيدى
ولأشهرت عليك شُنع أوأيد يُحسِّن أسيافاً وهن قصائد
فيها لأعناق اللئام جوامع تبقى، وأعناق الكرام قلائد
يلز من عرض قفاك وسم خزاية لم يخزها بأبى عينية خالد

وليس أبو تمام بالذى يغضب فيستغرق الغضب كل نفسه، ولكنه يغضب فيحزن ويحس الخيبة، ويتأمل في حاله، وما وصلت إليه، فيبكي نفسه وحظه في ساعة يشتم غريمه. وإنك لتحس بغيته في آماله في عياش في قصيدته :

كأنى لم أبشك دخلي
وتركى مقلتي تهمى قدمي
كلاني إن راحتي تأت
وبالإسكندرية رسم دار
ذكرت به وفيه منسياتي
وما زالت تُجدُ أسي وشوقا
فقدتُك من زمان كل فقد
محت نكباته سبل المعالي
فما حيل الأديب بمدركات
ولو نُشر الخليل له لعفت
ولم تريا ولوعي من ذهب
وتدمع في الحقوق وفي الفضول
لقلبي في البكاء وفي العويل
عفا، فغفوت من صبري وجولي^(١)
عزائي، مسعرات لظى غليلى
له وعليه إخلاق الطلول
وغالت حادثاتك كل غول
وأطفأ ليلهُ سُرج العقول
عجائبه، ولا فكر الأصيل
رزاياه على فطن الخليل

والبيت الأخيرين عن ناحية من اطلاع أبي تمام . فالمقصود هنا هو الخليل بن أحمد، أحد آباء العقل الإسلامي . ومنها يذكر عياشا :

أعيش أروع أو لا ترع حق
أراك ، ومن أراك الغي رشدا
ثم يقول له ذكرا أبا عياش وكان قاضيا :

ملاحم من لباب الشعر تنسى
أمثلك يرتجى لولا تنائي
أمورى وألتيائي في حويل^(٢)

ومنها :

وكنْتُ أعزَّ عزا من قنوع
فصرت أذل من معني دقيق
تعوضه صفوح عن جهول
به فقر إلى فهم جليل

وظل يهجو عياشا لا ينقطع عن هجائه ، ولا ينسى يده عنده ، حتى مات عياش ، فلم يسمح الموت الجبار ذلك الأثر الذي تركه عياش في قلب أبي تمام ، فهجاه بعد موته :

إني على ما نابني لصبور
إني بغير تصبر جدير

(١) الجول بالضم : العقل والعزم . (٢) اللتياء : من معانيه : الاختلاط . والحويل : الخدق وجودة

النظر ، والقدرة على التصرف .

ومنها :

فَكَتْ أَكْفُ الْمَوْتِ غُلَّ قِصَائِدِي عَنْهُ ، وَضِغْمُهَا عَلَيْهِ يَزِيرُ^(١)
 مَا زَالَ غُلُّ الذَّمِّ ثَانِي عِطْفِهِ حَتَّى أَتَاهُ الْمَوْتُ وَهُوَ أَسِيرُ
 مِنْ بَعْدِ مَا نَزَّهْتُ فِي سُوءَاتِهِ حَسَنَاتٍ شَعَرَ بِمُجْرَمٍ بِخُورِ
 وَبَقِيتُ لَوْلَا أَنَّنِي فِي طَيِّئٍ عِلْمُ لِقَالِ النَّاسِ أَنْتَ جَرِيرُ
 يَا خَلْقَةَ اللَّهِ الَّتِي مِنْ طَرَزِهَا نَشَأَ فَكَانَ الْقِرْدُ وَالْخَزِيرُ

وهكذا شيع أبو تمام الرجل إلى قبره بالسباب ، في غير رهبة لحرمة الموت وجلال القبر ، فقيض القدر الساخر له من وفاه أبحر يوم مات ، وشيعه غلغل بن بكار الموصل بالهجاء إلى قبره . وسأتحدث عن ذلك بعد .

٤ — مهاجاته يوسف السراج الشاعر المصري : رأينا أبا تمام يشير إشارة موجزة إلى جماعة يفسدون بينه وبين عياش :

أَظُنْ عِنْدَكَ أَقْوَامًا وَأَحْسِبُهُمْ لَمْ يَأْتُلُوا فِي مَا أَعْدَوْا وَمَا رَكَّضُوا

ومنها :

أَصْبَحْتُ يَرْمِي نَبَاهَاتِي بِخَامِلَةٍ مِنْ كُلِّ لِنْبَالٍ كُلُّهَا غَرَضُ

وقلت إنه يشير بهذا إلى شاعر يدعى يوسف السراج ، هاجاه في مصر . ولسوء الحظ ليس أمامنا شيء من أخبار السراج وخصومته مع أبي تمام ، إلا إشارة موجزة في كتاب الوساطة للخرجاني^(٢) ، يذكر فيها شعرا لأبي تمام ، قاله في السراج ، ساذكره بعد ، ويقول عنه كان شاعر مصري وقت أبي تمام . وإشارة أخرى موجزة أيضا في كتاب العمدة لابن رشيق^(٣) ، يقول فيها : إن أبا تمام هاجى السراج وعته ، فما أتى بشيء .

والمعروف عن أبي تمام أنه كان لا يهاجى إلا نظيرا كما يقول ابن رشيق^(٤) .

٥ — مذهب السراج في شعره : يأخذ الخرجاني على أبي تمام إغراقه أحيانا في الغريب ، والتعمق للمعاني ، بينما هو (أبو تمام) يعيب على السراج ، شاعر مصري وقته ، الغريب والمعاني ، فيقول أبو تمام للسراج :

(١) زار يزركض يضرب ، ثم خففت الهمزة فأصبح الفعل يزير : صوت الأسد . (٢) الوساطة ص ٢٥

(٣) ج ١ ص ٦٩

(٤) العمدة ج ١ ص ٧٠

فما لك بالغريب يدٌ ولكن تعاطيك الغريب من الغريب
فلو نبش المقابر عن زهير لصرح بالعويل وبالنجيب
مضى كانت معانيه عيالا على تفسير بقراط الطبيب
فكيف ولم يزل للشعر ماء يرف عليه ريحان القلوب

ويقول الجرجاني بعد هذا : خبرني : هل تعرف شعرا أحوج إلى تفسير بقراط ، وتأويل أرسطو ، من قوله :

جَهْمِيَّةُ الأوصاف إلا أنهم قد لقبوها جوهر الأشياء
وقوله :

يوم أفاض جوى ، أغاض تعزيا خاض الهوى بحرى حجاج المزبد

وأى شعر أقل ماء ، وأبعد من أن يرف عليه ريحان القلوب من قوله :

خَشِنَتْ عليه أخت بنى الخُشَيْن وأنجح فيك قولُ العاذِلين
ألم يقنعك فيه الهجر حتى بكَّت لقلبه هجرا بين

فهل رأيت أغث من بككت في بيت نسيب ؟ ... ثم يمضى في ذلك .

ومن إيضاح أحد طرفي المقارنة ، كما بينه الجرجاني ، نستطيع أن نعرف الآخر ، لا سيما بعد أن ذكر أبو تمام عن السراج أصطناعه الغريب أولا ، وتعمقه المعاني ثانيا .

ولا إخالنا نختلف في أن هذا هو مذهب أبي تمام ، ولا ينقصه إلا البديع . وكأني بالجرجاني كان يحوم حول هذا المعنى ، الذى تنشئه فى الذهن الصلة بين مذهب السراج ، ومذهب أبي تمام ، وتقويه نشأة أبي تمام المصرية . ذلك المعنى ، هو أن أبا تمام أخذ عنه مذهبه فى الشعر ، وتأثر به .

٦ - تأثر أبي تمام بمذهب السراج : كان اشتباك أبي تمام فى مصر مع السراج اشتباك الخصومة والمهاجاة ، طريقا من طرق انفعاله بشعره الذى يقذفه به ، وداعيا إلى نظر أبي تمام فيه ، نظر المتأمل ، ليرى وجوه حسنه ونواحي قبحه . فكان ذلك الشعر درسا من الدروس التى تلقاها فى مصر ، أثر فيه ، ووجه شعره ، لا سيما وأن أبا تمام كان يومئذ حدثا غض الإهاب ، فى دور الإعداد والتقبل للتأثرات ، والأنطباع بها أنطباعا لازمه حتى آخر أيامه .

وإن أحدنا ليتأثر بخصمه أحيانا أكثر مما يتأثر بأقرب الناس إليه . كان أبو تمام كثير العيب لغريب السراج ومعانيه ، فلم يلبث أن تأثر بهما ، وأصبحا من أخص خصائص مذهب الشعري كما بينت ذلك في مكان آخر . ولست أشك بعد هذا في أن نفس أبي تمام كانت ذات استعداد خاص لتقبل هذا المذهب ، وإنما أتحدث الآن عن المؤثرات الموجهة لطبيعة فيها خصب وفيها استعداد .



وكما تستطيع أن تجد آثار عناصر ثقافة أبي تمام ، التي تحدث عنها سابقا ، في شعره المصري تستطيع أن تجد مذهب في طلب المعاني والبديع ، وإلمامه بالغريب من اللفظ ، والإكثار من الاستعارة والمجاز . وفرق ما بين هذه هناء ، وبينها في العراق فرق ما بين الزميين .



ويظهر أن هجاء أبي تمام للسراج لم يبق لنا كله ، فليس في ديوانه سوى ما ذكرت ، إلا مقطوعة كلها قذف منكر ، لا يفيدنا في موضوعنا كثيرا . إلا أن فيها بيتا يكشف لنا عن ناحية من نواحي حياة السراج هذا ، وقد ذكر أبو تمام مثله في مقطوعته السابقة . أما البيت فهو :

ما إن سمعتُ ولا أرايَ سامعا حتى الماتِ بشاعِرِ سراج

ولقد استظهرت من قبل أنه مدح المطلب بن عبد الله الخزاعي في هذه الفترة وهجاء ، ولكن ليس في ديوانه شيء من مدائحه فيه ، ولا أهاجيه ، إلا بيتين ذكرتهما من قبل^(١) . أما خصومته مع السراج ، فكانت خصومة أصحاب العمل الواحد ، تقوم بينهم المنافسة ، فيتنابدان . وقد حكم ابن رشيق للسراج أنه أحم أبا تمام هجاء ، وأن عظمة أبي تمام الشعرية لم تنقذه من الهزيمة أمام الشاعر المصري في الهجاء .

٧ - تنقلات أبي تمام في مصر وما قال فيها من شعره : ويظهر أن أبا تمام تنقل

بين أنحاء مصر ، فسمعناه يذكر رسوم دار بالإسكندرية . وأقام فيها زمنا طويلا يذكر منه خمس سنين في قصيدة له ، قالها يصف فيها تقشير الرزق عليه بمصر ، ولا نعلم أقالها حين أراد الخروج أو وهو خارج . وأغلب ما هناك أنه لم يمض بين قوله إياها وخروجه كثير . ومطلعها :

أصِبَ بُحْمًا كَأَيْسَهَا مَقْتَلُ الْعَذْلِ تَكُنْ عِوَضًا إِنْ عَنَّفُوكَ مِنَ النَّبْلِ

وهناك قصيدة أخرى ، ليست في ديوانه المطبوع بالقاهرة ، ولكنها مذكورة في الجزء الأول من طبعة بيروتية ومطلعها :

أطلال بنت العامري بمبنيج غناؤك محظور على الدنف الشجي
ويظهر أن الأخيرة قيلت قبل الأولى من حيث الزمن . وفي القصيدة الثانية ما يبين أن أبا تمام أتى مصر يطلب الغنى ، يقول منها :

وطال قُطُونِي أرضَ مصرَ حاجةٍ يقال لها أَقْبَحُ بهاتي وَأَسْمَجُ
أَقْلَبُ في أَقطارها الطرف كي أرى ولستُ بِراءٍ ذاكَ عَصَمَةَ مُتَجِي
فَقَنَعَنِي يَأْسِي وَأَعْلَمُ أَنِنِي مَقُودٌ بِجَبَلٍ لِلْمَقَادِيرِ مُدْجِ
ونحنُ أَناسُ نذخر الصبرَ لِلْأَسَى ونحتاجُ لِلْيَوْمِ الْعَبَوسِ المِهْيَجِ
عِهدنا إِلَى الْبَيْضِ المَأْمُورِ لَا تُرَى مَسَلَّةٌ إِلَّا لِضَرْبِ مَتَوَجِ
ترى الناسُ نِسْنا إِذا الحربُ جَرَّبتُ شَبَا طِيءٌ والأشْعَرِينَ وَمَذْجِ^(١)

وإن الإنسان ليستطيع أن يدرك مقدار هدد نفس أبي تمام مع يأسه حين يسمع قوله :

فَقَنَعَنِي يَأْسِي وَأَعْلَمُ أَنِنِي مَقُودٌ بِجَبَلٍ لِلْمَقَادِيرِ مُدْجِ

فهذه القناعة باليأس عند خيبة الأمل ، وذلك الاعتصام بالمقادير في وجه دنيا عابسة ، يقابلها عند المتنبي ، يوم خرج من مصر في مثل هذه الخيبة أو ما هو أقل ، ذلك الضجيج والعجيج ، والسباب وخبط الرأس بالجدران ، والهتاف بالأرض أن تنشق ، وبالسماء أن تساقط كسفا فوق رؤوس المصريين ومصرهم ، لأنهم لم يملكوه عليهم .

أما القصيدة الأخرى التي قالها غالبا عند خروجه من مصر فتبين عن حزن شديد ، حرك بنفسه الشوق إلى أهله وبلده ، وكان قد مضى عليه يوم قالها خمس سنوات مقيما في مصر ، ومنها :

سَقَى الرَّائِحُ الغادى المَهْجَرُ بِلْدَةً سَقَتْنِي أَنفَاسُ الصَّبَابَةِ وَالْحَبَلِ
سَحَابٌ إِذَا القَتْ عَلَى خَلْفِهِ الصَّبَا يَدَا قَالَتِ الدُّنْيَا أَتَى قَاتِلُ الْحَلِ
إِذَا مَا أَرْتَدَى بِالْبَرْقِ لَمْ يَزَلِ النَّدَى لَهُ تَبَعًا أَوْ يَرْتَدَى الرُّوضُ بِالْبَقْلِ
إِذَا أَنتَشَرَتْ أَعْلَامُهُ حَوْلَهُ أَنْطَوْتُ بَطُونُ الثَّرَى مِنْهُ وَشَيْكََا عَلَى حَمَلِ

(١) النسناس بفتح نونه الأولى وكسرهما : جنس من الخلق ، ينبأ أحدهم على رجل واحدة . وقالوا : هم خلق على سورة الناس ولكن خالفهم في أشياء ، وليسوا منهم .

ترى الأرض تهتز ارتياحا لوقعه
بفاد دمشقا كلها جود أهلها
سقاها كما أسقاها في لظى آلوعى
فلم يبق في أرض البقاعين بقعة
بنفسى أرض الشام لا آمن الحمى
ولا أيسر الدهنا ولا أوسط الرمل

ومنها في وصف حاله ، وما كان يعمل في نفسه :

أخمسة أحوال مضت لمغيبه
تواني وشيك النجج عنه ووكلت
وشهران بل يومان تُشكل من الشكل
به عزمات أوقفته على رجل

* *

لقد طلعت في وجه مصر بوجهة
وساوس آمال ومذهب هممة
وسورة علم لم تُسدّد فأصبحت
نايت فلا مالا حويت ولم أقم
بخلت على عرضي بما فيه صونه
بلا طالع سعد ولا طائر سهل
نخيمة بين المطية والرحل
وما يُتمارى أنها سورة الجهل
فأمتع إذ جُعّت بالمال والأهل
رجاء آجتاء الجود من شجر البخل

ثم هو يصب جام غضبه على من قصده في مصر فلم ينله بغيته :

عصيت شبا حزمي لطاعة جيرة
وأبسط من وجهي الذي لو بذلته
دعني إلى ان أفتح القفل بالقفل
إلى الأرض من نعلي لما نقبت نعلي

ومنها :

وكان ورأي من صريمة طيء
فلم يك ما جرعت نفسى من الآسى
ومعن ووهب عن أمامي ما يُسلي
ولم يك ما جرعت قومي من الشكلي

٨ - أرتحاله عن مصر : نزل أبو تمام مصر طفلا لم ينفع يطلب الغنى ، فوهبت له علما ، وغمرت قلبه نورا ، وفتحت عينيه على دنيا جديدة ، وأشاعت فيه آملا واسعا ، ولكنها لم تهب له من المال ما كان يطمح اليه .

قذفت به إلى الدنيا بعد أن أعدته أحسن الإعداد وزودته بسراج يستعين به على اقتحام الدهر وأحداثه، ولكنه كان ممدود اليدين، يريد أن ينال بهما جميعا، فلما لم يجد بإحدهما ما طلب، ألهاه ذلك عما باليد الأخرى، فأنفلت غاضبا في شيء من يأس الشباب ولكنه لم يكن ندلا، فلم يخلط بين الوطن الذي آواه، وبين الرجل الذي ضمن عليه.

لم يخرج أبو تمام من مصر إلا بعد أن استضاءت نفسه بذلك النور الذي يضاعف الحس بالحياة، فيزيد من ظلمتها، كما يفجر من لآلئها، ويجعلها مسرحا للاقتراح الرائع بين عبادة الحياة والنقمة عليها، ويدفع إلى قوله :

أحاولت إرشادي فعقلي مُرْشِدِي أم آستمت تأديبي فدهري مؤدِّي
هما أظلمما حالِّي ثمت أجليا ظلّاميهما عن وجهٍ أمرَدَ أَشْيَبِ

٤ - أبو تمام في الشام

عاد أبو تمام إلى الشام من مصر شاعرا . وقد نزل الشام بعد عودته هذه من مصر عدة مرات سنتحدث عنها على حسب أزمنتها .

(١) شعره في أبي المغيث : وفي الشام يمدح أبو تمام طائفة من الناس ، ولكن هذا المدح يحمي أيضا في أزمنة متفرقة . وأظهر من مدحه أبو تمام في الشام هذه المرة ، هو أبو المغيث موسى بن إبراهيم الرافقي . ومدائح أبي تمام وهجاؤه فيه يفهم من ثناياها أنها قيلت في زمنين متباعدين : الأول منهما قبل أن يرحل أبو تمام إلى العراق ، وقبل أن يلقي نجاحا كبيرا . فنسمعه في قصيدة يقول لمدوحه أبي المغيث :

وغدا ستعلم كيف غبّ قصائدي إن ملن بي همي إلى بغداد

فلم تكن قد مالت همته به يوم قالها إلى بغداد بعد .

وأغلب الأمر أن أبا تمام ترك مصر إلى الشام سنة ٢٠٣ ، ليزور أهله وأحبائه ، وكان قد طال أمد أفرافه عنهم وشوقه إليهم ، كما يبدو ذلك في قصيدته التي تحدثت عنها ، ولتحدث إلى جيرة يخیل إلى أنهم كانوا ذوى أثر بالغ في حياته ، يقول عنهم إنهم هم الذين دفعوه إلى نزول مصر :

عصيتُ شبا حزمي لطاعة جيرة دعيتني إلى أن أفتح القفل بالقفل

مدحه : وقصيدة أبي تمام في أبي المغيث :

لَطَمَحْتَ فِي الْإِبْرَاقِ وَالْإِرْعَادِ وَغَدَا عَلَى سَيْلِ لَوْمِكَ غَادِ

هي واحدة القصائد ، التي يستطيع الباحث في أطمئنان أن يقطع أن أبا تمام قالها قبل رحيله إلى العراق فيه ، لقوله السابق فيها .

ولكنه يحدثه فيها عن شعر سبق له فيه ، فيقول :

سَلْ مُحَبَّرَاتِ الشَّعْرِ عَنِّي هَلْ بَلَتْ فِي قَدَحِ نَارِ الْمَجْدِ مِثْلَ زِنَادِي
لَمْ تَبَقْ حَلْبَةً مِنْطِقِي إِلَّا وَقَدْ سَبَقَتْ سَوَابِقَهَا إِلَيْكَ جِيَادِي
أَبْقَيْنَ فِي أَعْنَاقِ جُودِكَ جَوْهَرًا أَبْقَى مِنَ الْأَطْوَاقِ فِي الْأَجْيَادِ
وَعَدًّا سَتَعْلَمُ كَيْفَ غَبُّ مَدَائِحِي إِنْ مِلْنَا بِهَيْمَى إِلَى بَغْدَادِ

وهو يصف فيها رحلته إلى ممدوحه بما يوحى أنه قصده من مكان غير دمشق ، التي كان يقيم فيها أبو المغيث وما أظنه كان إلا مصر لقرب نزوحه عنها .

يقول ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق : " ذكره أبو الحسن الرازي في تسمية أمراء دمشق ، في خلافة بني العباس فقال : أمراء دمشق من قبل المعتصم : موسى بن إبراهيم بن سابق الرافقي أبو المغيث المرة الأولى ، ثم أبو المغيث للمرة الثانية ، بعد أن ولي بعده أبو الصالحات ، ثم دينار بن عبد الله بن أحمد بن محمد . وعزل وأعيد ، ومات المعتصم وأبو المغيث على دمشق " ومن هذا نرى أن أبا تمام مدح أبا المغيث هذه المرة قبل أن يكون أبو المغيث واليا على دمشق لأن أولى ولايته عليها كانت أيام المعتصم ، والمعتصم لم يكن خليفة قبل سنة ٢١٨ هـ .

ومن قصائده التي يغلب أن يكون قالها فيه هذه المرة قصيدة مطلعها :

صَرَفَ النَّوَى لَيْسَ بِالْمَيْكِيثِ يَنْبِثُ مَا لَيْسَ بِالنَّبِيْثِ
هَبْتُ لِأَحْبَابِنَا رِيَّاحٌ غَيْرُ سَوَاهٍ وَلَا دَثُوثُ

ومنها يستعجل عطاءه :

أَنْكِدْ بِأَرِي النَّوَالِ مَا لَمْ يَخْلُ مِنْ الْعُشْبِ وَاللَّوِيثِ
مَا الْجُودُ بِالْجُودِ أَوْ تَرَاهُ لَيْسَ بِتَزْرِ وَلَا لَيْثِ
طَالَ الْمَدَى فَأَعْتَاكَ عُنْبُ مِنْ صَادِقِ الْوُدِّ مُسْتَرِيثِ

خَذْهَا فَمَا نَالَهَا بِنَقِصٍ مَوْتُ جَرِيرٍ وَلَا الْبَعِثِ
وَكُنْ كَرِيمًا تَجِدُ كَرِيمًا فِي مَدْحِهِ يَا أَبَا الْمَغِيثِ

وثالثة يغلب فيها روح مثل هذا الروح المنبث في السابقة وهي :

وَتَنَازِلُكَ إِنَّمَا لِغَرِيضٍ وَلَا لِتُؤْمٍ وَبَرْقٍ وَمِضْ

ومنها :

أَتَأْتِي الْأَيَّامَ بِالنَّظَرِ الشَّرِّ رِ وَكَانَتْ وَطَرُفُهَا لِي غَضِيضٍ
كَيْفَ يُمِيسِي بِرَأْسِ عَلِيَاءٍ مُضْجٍ وَجَنَاحِ السَّمَوِّ مِنْهُ مَهْيِضٍ
هَمَّةٌ تَنْطَحُ النُّجُومَ وَجَدَّ أَلْفٌ لِلْحَضِيضِ فَهُوَ حَضِيضٍ

ثم يختتمها باستجداء واستعجال للعطاء ، وذكر لقصائد قالها قبل في أبي المغيث :

كُنْ مَا بَا أَبَا الْمَغِيثِ فَمَا زِلْ بَتَ مَا بَا يَاوِي إِلَيْكَ الْجَرِيضِ
كُلَّ يَوْمٍ نَوْعٌ يَقْقِيهِ نَوْعٌ وَعَرُوضٌ يَتْلُوهُ فِيكَ عَرُوضٌ
وَقَوَائِفٌ قَدْ ضَمَّ مِنْ طَوْلٍ مَا أَسْتَعُ حَمَلٌ فِيهَا الْمَرْفُوعُ وَالْمَخْفُوضُ
الْمَدِيحُ الْجَزِيلُ وَالشُّكْرُ وَالصَّد قِ وَمُرُّ الْعِتَابِ وَالتَّخْرِيطِ
وَحَيَاةُ الْقَرِيضِ إِحْيَاؤُكَ الْجَو دِ فَإِنْ مَاتَ الْجُودُ مَاتَ الْقَرِيضُ
كُنْ طَوِيلَ النَّدَى عَرِيضًا فَقَدْ سَا رِ ثَنَائِي فِيكَ الطَّوِيلُ الْعَرِيضُ

ومنها :

يَا حَبِيبَ الْإِحْسَانِ فِي زَمَنِ أَصَدِّ بَحٍ فِيهِ الْإِحْسَانُ وَهُوَ بَغِيضُ

وإنما دعاني إلى جعل هذه الثلاث نتاج هذه الفترة من فترتي اتصال أبي تمام بأبي المغيث ،
شيوع ذلك الروح من الاستجداء للمال فيها جميعا . وقد كانت هذه طلبته أول أمره معه . أما مبتغاه
في المرة الثانية فلم يكن المال ، وإنما كان الوظيفة كما سنرى بعد ، وذلك في زمن متأخر ، بعد أن
أثرى أبو تمام وسار صيته ، ومل كثرة الانتقال فأخذ يتجه إلى نوع جديد من الحياة فيه استقرار
وهدوء . يقول له في قصيدة قالها فيه سنة ٢٢٧ :

أَعْطِ الرِّيَاسَةَ مِنْ يَدِيكَ فَلَمْ تَزَلْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُدْعَى الرَّئِيسَ رَئِيسًا

فهو يريد رياسة . وهذه الإشارة إلى رياسة أبي المغيث : "فلم تزل من قبل أن تدعى الرئيس
رئيسا" إنما هي إلى الفترة الأولى التي سبق الحديث عنها ، ولم يكن فيها أبو المغيث قد ولى بعد أمر
دمشق . أما كيف عرفت أن هذه السينية قيلت سنة ٢٢٧ ، فذلك ما سألتحدث عنه في حينه .

عتابه : لم يلبث أن ثار بين أبي تمام وأبي المغيث ماثار من قبل بينهما وبين عياش بن طبيعة الحضرمي في مصر . فقد كان أبو تمام شديد الطمع ، واسع الآمال ، كثير الطلب للمال ، مما قد لا تتسع له يد رجل كأبي المغيث .

رحلته عن الشام : وكان كما رأينا كثير الإلحاح في قصائده بالطلب ، يتبع القصيدة بالقصيدة ؛ فأعطاه أبو المغيث حتى إذا زاد طلبه ، قصر في شأنه ، فأخذت مدائحهم فيه تأخذ نعمة من المن عليه بها ، والإنذار بأنه ستركه إلى بغداد . ولكن ذلك لم يخلق في أبي المغيث القدرة على إرضاء مطامع أبي تمام ، فاغتاظ ورحل عنه آخذا في عتابه . ولم أسمه عتابا إلا لأنه موضوع في باب العتاب في الديوان ، أما هو فهجاء قح مليء بالحق :

وإني لأستحي يقيني أن يرى	لشكّي في شيء عليه دليل
وما زال لي علم إذا ما نصصته	كثير بأن الظرف فيك قليل
وإن يك عدّى عن سواك إليك بي	رحيل فلي في الأرض عنك رحيل
أبي الحزم لي مكا بدار مضيفة	وعيس أبوها شذقم وجديل
أبعد التي ما بعدها متلوم	عليك الحُرّ قلت أنت عجول
سأقطع أرسان العتاب بمنطقي	قصير ، عناء الفكر فيه طويل
وإن أمرء ضئت يدها على أمرئ	ينيل يد من غيره لبيخيل

ومن الأبيات يظهر كيف رحل عنه أبو تمام غاضبا ساخطا ، **نخاف موسى هجاءه ، فأرسل إليه يسترضيه ، أو قال عنه :** إنه تعجل الرحيل قبل أن يمكننا من إعطائه حاجته . فيرد عليه أبو تمام بقوله : أبعد كل هذا التمكث والانتظار ، تقول إنني تعجلت ؟ لقد أبيت لي البقاء عند من يضيعني حزمي ، والعيس الأصيل التي تحملني إلى حيث أجد رزقي . وهو يتهمه بقلّة الظرف ويقول له إن محاولتك حبسي عن الرحيل إلى غيرك من الأجواد ، بخل يضاف إلى بخلك .

وكان هذا بدء الهجاء . وما حال بينهما وبين الأفحاش فيه إلا قربه من صاحبه ، وخوفه بطشه ، حتى إذا أبعد عنه أخذ في هجائه ، فلم يجد بدا من أن يكذب نفسه في مدحه له :

عجبا لقوم يسمعون مدائحي	لك لم يقولوا : قم فأنت مصاب
نبروا بكذاب مسليمة فقد	وهموا وجاروا ، بل أنا الكذاب
وهتكت ديني فاستترت بتوبة	فأنا المقر بذنبيه التواب

وفيها ما يدل على أنه كان حجبته عنه :

هَبْ مَنْ لَهُ شَيْءٌ يَرِيدُ حِجَابَهُ مَا بَالُ لَا شَيْءٍ عَلَيْهِ حِجَابُ
مَا إِنْ سَمِعْتُ وَلَا أَرَانِي سَامِعًا أَبَدًا بِصَحْرَاءٍ عَلَيْهَا بَابُ

وهو في قصيدة أخرى يتحدث عن هذا الحجاب :

لَا تُدْهَشْنِي بِالْحِجَابِ فَإِنِّي نَدَسُ الْبَيْدِيَّةِ عَارِفٌ بِمُوَارِي^(١)
لَا تَكْلَفَنَّ وَأَرْضُ وَجْهِكَ صَخْرَةٌ فِي غَيْرِ مَنْفَعَةٍ مُؤَوَّنَةٌ حَاجِبُ

ذهب عنه أبو تمام يضرب في الأرض يشتمه ويهجوّه . فأراد أن يحتال في إرجاعه ، فلم يرجع كما رأينا من قبل ، ولما هجاه صرح بتهديده بالموت ، فرد أبو تمام على ذلك أقبح رد .

وله في هجائه قطعة يصدق حين يصف نفسه فيها بخفة الروح :

حَلَقَ اللَّهُ لِحْيَةً لَكَ لَوْ تُحَى لَمَقَ لَمْ يُذَرَّ مَا غَلَاءَ الْمَسْوُوحِ
وَذَرَاها فِي الرِّيحِ إِنْ كُنْتَ تَرْجُو سِيرَ شِعْرِي فِي نَعْتِهَا بِالرِّيحِ

ولقد أقام أبو تمام عنده شهورا يقول :

مَا خَلَفْتُ حَوَاءَ أَحْمَقَ لِحْيَةٍ مِنْ سَائِلٍ يَرْجُو الْغِنَى مِنْ سَائِلٍ
ذَلِكَ الَّذِي أَحْصَى الشُّهُورَ وَعَدَّهَا طَمَعًا لِيَنْتَجِعَ سَقْبَةً مِنْ حَائِلٍ

ويظهر أن خيبة الأمل العريض ، هي التي كانت تدفع بأبي تمام إلى هذا الغضب ، الذي كان يزلزل بنفسه فيدفعه إلى سب نفسه في هجائه . فقد كان في سن يتحرق معها إلى تحقيق مطامعه ، وكان ثقل وقع الخيبة عليه عظيما . وإن حسه بذلك لبدو واضحا في استهلال هجاء له في أبي المغيث :

أَنْضَيْتُ فِي هَذَا الْأَنَامِ تَجَارِي وَبَلَوْتُهُمْ بِتَصَفِّحَاتٍ مَذَاهِبِي
وَذَمَلْتُ فِي الْأَيَّامِ حَتَّى أَسَحْتُ شَطْطِي سِنَامِي وَأَنْتَحْتُ فِي غَارِي
مَتَجَشَّمَا سُبُلَ الْمَطَامِعِ طَالِبَا مِنْهَا وَفِيهَا شَاوَ رِزْقِ هَارِي
أَمْرَانِ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ فَاعْلَمُوا طَوْقَانِ فِي عُقَيْ الْقَضَاءِ الْغَالِبِ

وفيها يضع دستور الخلق في هجائه ، ومدحه ، وصلاته بالناس ، وبه يخلص سيرة الحياة في عصره :

لِيَنْلَ عَدُوٌّ مِنْ عَدُوٍّ إِنَّمَا يَغْفُو وَيَصْفَحُ صَاحِبٌ عَنْ صَاحِبٍ

(١) الندس : الفهم كالندس كعصد . والمواربة : المداواة والمخاطلة .

مميزات فنه في هذا العهد : كانت هذه خاتمة طور من أطوار حياة أبي تمام ، بدأ بعده طورٌ جديد في العراق . ولقد رأيناه من قبل ينتوى الذهاب إليها ، آملاً الخطوة بتحقيق آماله ومطامعه .

وهذا الطور الذي ختمناه يمتاز فيه شعره عن سابق شعره في مصر ، بهذيب ناشئ عن طول الممارسة . كما أن فيه وصف الرحلة إلى ممدوحه ، وهو ما تخلو منه قصائده المصرية . وتجد فيه كل عناصر ثقافته ، التي أشرت إليها من قبل . إلا أنها هنا أخذت تتضح وتبين ، تبعاً لمطاوعة الشعر له بكثرة معالجته فتجد في قصيدته :

لَطْمَحَتْ فِي الْإِبْرَاقِ وَالْأَرْعَادِ وَغَدَا عَلَى بَسِيلٍ لَوْمِكَ غَادِ
أثر التاريخ والأخبار :

كَمْ وَقَعَةٍ لِي فِي الْهَوَى مَشْهُورَةٍ مَا كُنْتُ فِيهَا الْحَارِثَ بْنَ عُبَادِ
وترى أثر القرآن وإن كان خفيفاً ، فلم يكن أبو تمام قد وجد بعد الشجاعة الكافية لاستغلاله :

عَذْنَا بِمُوسَى مِنْ زَمَانٍ أَنْشَرْتُ سَطَوَاتُهُ فِرْعَوْنَ ذَا الْأَوْتَادِ
ومنها :

لَا تُنْكِرِي أَنْ يَشْتَكِيَ ثِقَلُ الْهَوَى بَدَنِي فَمَا أَنَا مِنْ بَقِيَّةِ عَادِ
ومنها :

مَا لِلخَطُوبِ طَغَتْ عَلَى كَأَنَّمَا جِئْتَ بِأَنْ نَدَاكَ بِالْمِرْصَادِ
ويتضح أثر الغريب في قصيدته :

صَرَفُ النُّوَى لَيْسَ بِالْمِكِيثِ يَنْبِثُ مَا لَيْسَ بِالنَّبِيثِ
ولكنه الغريب ، الرائق في السمع ، الموسيقى الرنين .

٥ - أبو تمام على أطراف العراق

(١) مع محمد بن حسان الضبي في الرقة البيضاء : يقول أبو تمام في قصيدة من قصائده في ابن حسان هذا :

لَوْلَا ابْنُ حَسَّانَ الْمَرْجِيُّ لَمْ يَكُنْ بِالرَّقَةِ الْبَيْضَاءِ لِي مُتْلُومٌ

يقول ياقوت في الرقة : " بفتح أوله وثانيه وتشديده ... مدينة على الفرات بينها وبين حران ثلاثة أيام . معدودة في بلاد الجزيرة لأنها من جانب الفرات الشرق ... ويقال لها الرقة البيضاء " .

ولم يكن أبو تمام قد ذهب حتى أيام مدائحه في ابن حسان إلى بغداد فيقول له من قصيدة :

بالشام أهلى ، و بغداد الأهوى ، وأنا بالرقتين ، وبالفسطاط إخواني

ولا أظن النوى ترضى بما صنعت حتى تشافيه بى أقصى خراسان

خلقت بالأفق الغربى لى سكنا قد كان عيشى به حلوا بحلوان

وفى الديوان بالرقتين والصحيح ما ذكرته . يقول ياقوت . "والرقتان الرقة والرافقة" . ويقول فى مكان آخر ؛ "الرافقة بلد متصل البناء بالرقة ، وهما على ضفة الفرات ، وبينهما مقدار ثلاثمائة ذراع" .

والقصيدة تمثل حالة أبى تمام بعد تركه الشام . فهو مفرق النفس بين تلك البلاد التى نزلها

جميعا . يذكر أهله بالشام ، ويحن الى إخوانه بالفسطاط ، ويتحرق على عيش كان حلوا بحلوان .

ولأول مرة نستطيع أن نقول عن أبى تمام إنه كان يومئذ قد تزوج ، وإن زواجه هذا كان فى مصر

فقد سمعناه من قبل يتحدث عن رسم دار بالاسكندرية وهو الآن يقول :

خَلَقْتُ بِالْأَفْقِ الْغَرْبِيِّ لى سَكَا قد كان عيشى به حلوا بحلوان

غُصْنٌ مِنَ الْبَابِ مَهْتَرٌ عَلَى قَمِيرٍ يهتر مثل أهتزاز الغصن بالبان

أَفْنَيْتُ مِنْ بَعْدِهِ فَيْضَ الدَّمُوعِ كَمَا أَفْنَيْتُ فى هجره صبرى وسُلُوَانِي

وَلَيْسَ يَعْرِفُ كُنْهَ الْوَصْلِ صَاحِبُهُ حَتَّى يُغَادَى بِنَايٍ أَوْ بِهِجْرَانِ

(ب) طابع شعره : ونغمة شعره حزينة ، تحمل أثرا من تكرار فشله الماضى ، وهذا الشوق

الحديد ، الصادر عن فراق من نوع جديد . وكان لا زال يقامى شيئا من حرب الأيام وما لاقى

فى أول أمره ، ولكنه يروض نفسه فيها على هذا الفراق ، تحقيقا لأمانيه :

مَا الْيَوْمُ أَوَّلُ تَوْدِيْعِي وَلَا الثَّانِي الْبَيْنُ أَكْثَرُ مِنْ شَوْقِي وَأَحْزَانِي

دَعِ الْفِرَاقَ فِيمَا الدَّهْرُ سَاعَدَهُ فَصَارَ أَمْلَكَ مِنْ رُوحِي لِحُثْمَانِي

خَلِيفَةُ الْخَضِرِ مِنْ يَرْبُوعٍ عَلَى وَطَنِ فِي بَلَدٍ فَظَهَرُ الْعَيْسِ أَوْطَانِي

وهو كثير ذكر النوى فى قصائده فيه . ولما نزل عنده كان شديد الأمل :

يَأْمَنُ بِهِ بَدُنَتْ مِنْ بَعْدِ مَا هَزُلْتُ مَنِى الْمُنَى وَأَرْتَنِ وَجْهَ خُسْرَانِي

كُنْ لِي مَجِيرَا مِنْ الْأَيَّامِ إِنْ لَهَا يَدَا تَفْحَصُ عَنْ سِرِّي وَإِعْلَانِي

ويظهر أنه حقق آماله :

شَافَهُتُ أَسْبَابَ الْغِنَى بِمُحَمَّدٍ حَتَّى ظَنَنْتُ بِأَنَّهَا تَتَكَلَّمُ

* * *

لَمْ يَنْأَ عَنِّي مَطْلَبٌ وَمُحَمَّدٌ عَوْنٌ عَلَيْهِ أَوْ إِلَيْهِ سُلْمٌ

وهو من القليلين الذين اتصل بهم أبو تمام فلم يهجههم ولم يعاتبهم . ولكن هذا النجاح معه قد أدخل على نفس أبي تمام الطمأنينة شيئا ، ووسع الدنيا في وجهه ، فاستشرف إلى مدح من هو أكبر شأنا من محمد بن حسان . وما نعرف عن ابن حسان شيئا ، إلا أنه كان كبير ضربة في هذه الناحية .

والرقة البيضاء التي كان يقيم بها ابن حسان ، على أطراف الجزيرة من العراق ، أقرب ما تكون من الشام ، لا تكاد المسافة بينها وبين حلب تزيد على المسافة بين دمشق وحمص . فاذا كنت فيها فانت في الجزيرة بين دجلة والفرات . وإلى الشرق من الجزيرة بعد عبور دجلة آذر بيجان ، فقومس ، نخراسان . وإلى جنوب الرقة بشرق ، العراق ، وفيه بغداد حاضرة الخلافة . وكان أبو تمام يتطلع إليها ولكنه — كما يظهر — يتهيبها وإن جاذبته نفسه إليها .

وكان العراق من بعد مقتل الأمين في ثورات ودماء ، وكان المأمون قد ولى أمره الحسن بن سهل ، ليخضعه لسلطانه ، وكان في الحركة القائمة ضد المأمون غلبة للعلوية ، وقد تحدثت عن ذلك قبلا . فأراد المأمون إرضاءهم بأختيار ولى عهده من العلويين ، فلم تلبث أن شبت الثورة ببغداد ، وأختير ابراهيم بن المهدي خليفة ، بعد أن خلع المأمون .

ولكن الهدوء أخذ يعود الى الناس شيئا ، منذ تحرك المأمون من مرو الى خراسان . وقتل الفضل بن سهل في الطريق سنة ٢٠٢ ، ومات الرضا سنة ٢٠٣ ، فخلع البغداديون ابراهيم بن المهدي بقيادة أنصار المأمون سنة ٢٠٣ .

وكان القائم بالأمر في العراق بالنيابة عن المأمون ، الحسن بن سهل ، أخا الفضل المقتول . ولأبي تمام في الحسن بن سهل في ديوانه قصيدتان ، يقول في إحداهما :

سِتُّ وَعَشْرُونَ تَدْعُونِي فَأَتْبِعُهَا إِلَى الْمَشِيِّ فَلَمْ تَظْلِمَ وَلَمْ تَحْبِ

وقد غلبت السوداء على الحسن بن سهل في هذه السنة (٢٠٣) ، حزنا على أخيه الفضل . ويقول ابن خلكان : إنها منعتة التصرف ، ويقول ابن الأثير : إنه وضع في الحديد وجعل على عسكره دينار بن عبد الله ، مما يرجح أن أبا تمام قد مدحه قبل هذا الجنون ، أى في سنة ٢٠٣ أو قبلها .

ولكن هذا يتناقض مع قوله : ست وعشرون ... البيت . إذا كان مولودا سنة ١٨٨ ، إذ تكون سنه يومئذ خمس عشرة أو ست عشرة سنة على الأكثر . وإذا كنت الآن أؤرخ حياة أبي تمام ، على أنه ولد سنة ١٨٨ لأنها كما قلت الرأي السائد . فلا محيص من ترك هذا الرأي ، لما أشتملت عليه القصيدة من نص صريح .



لا نعرف بعد هذا إن كان أبو تمام قد تجاوز الرقة البيضاء الى العراق ، أو لم يتجاوزها ، ولكني أرجح أنه سار الى العراق ، لما كان يبدو من ميله الى الذهاب إليه حين كان بالركة ، وأندرج في غمار الناس فيه ، وقال قصيدته في آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم سنة ٢٠٥ في العراق ، متأثرا بالعوامل التي تحدثت عنها قبلا ، مما قوى الميل إلى العلويين .

٦ - فترة غامضة

احتمال اشتغال أبي تمام فيها بالتأليف - ومن هنا الى سنة ٢١١ لا نكاد نعرف ، على وجه التحقيق ، شيئا عن أبي تمام . ولكني أستظهر أن أبا تمام قد قضى هذه الفترة ، منتقلا بين العراق وخراسان والشام ، يحاول أن يؤسس سمعته ومجده في تلك الأثناء المختلفة . وأغلب ظني أنه جمع مختاراته الكثيرة في تلك الفترة من حياته .

يقول ابن النديم : " أبو تمام حبيب بن أوس الطائي وله من الكتب : (١) كتاب الحماسة . (٢) كتاب الاختيارات من شعر الشعراء . (٣) كتاب الاختيار من أشعار القبائل . (٤) كتاب الفحول . وأشهرها جميعا كتاب الحماسة " .

ويقول الآمدي الحسن بن بشر ، صاحب الموازنة ، ما يزيدنا إيضاحا وذلك في الكلام على سرقات أبي تمام : كان أبو تمام مشتهرا بالشعر ، مشغوبا به ، مشغولا مدة عمره بتخيره ودراسته ، وله كتب واختيارات فيه مشهورة معروفة فمنها : (١) " الاختيار القبائلي الأكبر " ، اختار فيه من كل قصيدة . وقد مر على يدي هذا الاختيار ، ومنها : (٢) اختيار ترجمته " القبائلي " . اختار فيه قطعا من محاسن أشعار القبائل ، ولم يورد فيه كبير شيء للشعورين ؛ ومنها : (٣) الاختيار الذي تلقط فيه محاسن شعر الجاهلية والإسلام ، وأخذ من كل قصيدة شيئا ، حتى انتهى إلى إبراهيم بن هرمة ، وهو اختيار مشهور معروف " باختيار شعراء الفحول " ؛ ومنها : (٤) اختيار تلقط فيه أشياء من الشعراء المقلين ، والشعراء المغمورين غير المشهورين ، وبؤبه أبوابا ، وصدره بما قيل في الشجاعة . وهو

أشهر اختياراته، وأكثرها في أيدي الناس، ويلقب "بالحماسة"؛ ومنها: (٥) "اختيار المقطعات" وهو مبوب على ترتيب الحماسة، إلا أنه يذكر فيه أشعار المشهورين وغيرهم، القدماء والمتأخرين، وصدره بذكر الغزل. وقد قرأت هذا الاختيار، وتلقت منه نتفا وأبياتا كثيرة، وليس بمشهور شهرة غيره، ومنها: (٦) اختيار مجزّد، في أشعار المحدثين، وهو موجود في أيدي الناس ...



وهذه الاختيارات جميعا، تدل على اتجاه خاص إلى التأليف، ولا يكفي فيها أن نقول مع القائلين: إنه إنما كان مشغوبا بجمعها للاستفادة مما بها في شعره. ولو أراد ذلك وحده لقرأها فيما بينه وبين نفسه ولم يجعلها تحت أعين الناس، يقارنون بين ما فيها وبين ما في شعره من معان. فليس الغرض ما أراد خصوم أبي تمام أن يفهموه لنا، وما كان ذلك من أبي تمام إلا اتجاهها إلى التصنيف، على وجه من الوجوه، لسبب من الأسباب؛ قد يكون اضطرابه إلى العيش من هذه السبيل، لما لم يستمع الناس لشعره، في تلك الفترة من حياته. فكان حديث النزول بالعراق، في وسط يعرج بالشعراء عجيجا، منهم من غلب على ميدانه بما له من حق سبق إلى حلبته، وكان أبو تمام يحمل مذهبا جديدا، يمزج فيه بين طلب اللفظ، وطلب المعنى، والإغراب حيناً، والتغميض حيناً، فشغل الناس عنه أول الأمر، حتى تهيأت نفوسهم بعد إلى قبول شعره. قد يكون هذا، وقد يكون غيره، وكل ما يمكن أن يقال: هو أن هذه الفترة من حياة أبي تمام غامضة.

(ب) شعره في آل عبد الكريم: يقول صاحب مادة أبي تمام في دائرة المعارف الإسلامية "إن أبا تمام أنتقل من دمشق إلى حمص، ليبدأ مهمته كشاعر، بتأليف أهاج في آل عتبة بن أبي عاصم، منتصرا لحماته بنى عبد الكريم. ثم رحل إلى مصر، حيث كان يكسب قوته أول الأمر ببيع الماء في الجامع الكبير".

فهو يجعل إتيانه مصر بعد قوله الشعر في حمص. وهذا ما يكذبه نص الصولي، الذي ذكرته في أول شعر قاله أبو تمام، وما رأينا من أنه نزل مصر صغيرا. كما أن في شعر أبي تمام في عتبه، ما يدل على أنه قاله بعد أن نزل المشرق والحجاز. ولم يذهب أبو تمام إلى المشرق والحجاز إلا بعد خروجه من مصر. يقول أبو تمام في هجاء عتبة هذا:

وقصائدُ تسرى إليك كأنها جُرْتُ تَهافتُ أو همومٌ تطرُقُ

مِنْ مَنِيضَاتِكَ مُقْعِدَاتِكَ خَائِفَا مُسْتَوْهَلًا حَتَّى كَأَنَّكَ تُطَلِّقُ^(١)
مِنْ شَاعِرٍ وَقَفَ الْكَلَامُ بِيَابِهِ وَأَكْتَنَ فِي كَتَفَيْ ذُرَاهِ الْمَنِيْقِ
قَدْ ثَقَّفْتُ مِنْهُ الشَّامَ ، وَسَهَّلْتُ مِنْهُ الْحِجَازَ ، وَرَقَّقْتُهُ الْمَشْرِقُ

فهو يذكّر فيها أثر الحجاز والمشرق عليه . وإن لم يذكر مصر فليس معنى ذلك أنه لم يكن قد أتى إلى مصر . وأغلب ظنى أن اشتباك أبي تمام مع عتبة هذا فى حمص ، كان فى هذه الفترة من حياته . فعندنا قصته مع ابن المعدل أو فتى البصرة التى أشرت إليها قبلا ، وهى تفيد أنه كان فى البصرة ، كما استنتجت منها ، حوالى سنة ٢٠٧ لأوّل نزوله بها . وفى ديوانه شعريصف فيه حجة له :

لَعَلَّكَ ذَاكَرُ الطَّلِيلِ الْقَدِيمِ وَمُؤَيِّفٌ بِالْعَهْدِ عَلَى الرُّسُومِ

وفى هذا الشعر يقول أبو تمام ، مخاطبا راحلته وراحلة رفيقه وممدوحه :

فَمَالِكَ تَشْتَكِينَ وَأَنْتِ تَحْتِى وَتَحْتَ مُحَمَّدٍ بِدْرِ النُّجُومِ
مَتَى أَظْمَتِكَ هَاجِرَةٌ فَشِيمِى أَنَا مِلَّةَ تُرُوكِ بِالنَّسِيمِ
وَأَنْتِ عَشِيَّتِكَ ظِلْمَاءُ بَخْلِى يَغُرَّتُهُ دُجَى اللَّيْلِ الْبَهِيمِ
فَمَرَّتْ مِثْلَ مَا يَمْشِى شَهِيدُ سَوِيًّا فِي صِرَاطٍ مُسْتَقِيمِ

فهو يذكّر فى أبياته ، ممدوحا من ممدوحيه ، اسمه محمد . ومن ممدوحيه الذين حجوا محمد بن يوسف الثغرى أبو سعيد . ولكن خروج أبى سعيد الى هذه الحجة ، إنما كان بعد عمورية ، كما يقول ذلك راوى ديوان أبى تمام (النسخة المستحضرة حديثا من الاسكوريال) ، وقد قال أبو تمام فى ذلك قصيدة مطلعها :

مَالِى بَعَادِيَةِ الْأَيَّامِ مِنْ قَبْلِ لَمْ يَنْ كَيْدُ النُّوَى كَيْدِى وَلَا حِيلِ

وفىها ما يدل على أنه لم يرحل معه الى الحجاز هذه المرة :

مَنْ كَانَ حَلَى الْأُمَانِ قَبْلَ ظُعْنِهِ أَصْبَحْتُ مَذْصَارًا أُمْنِيَّةٍ عُطِّلِ

الأبيات . فلم يرحل معه هذه المرة ، وقد يكون رحل معه غيرها .

وعلى كل حال ، ليس أمامنا ما يمكن معه القطع بأن أبا تمام قال هذا الشعر قبل شعره فى عتبة ، كما أنه ليس أمامنا ما يقطع بأن اشتباكه مع عتبة ، ومدحه آل عبد الكريم ، (وهم طائيون) كان فى هذه الفترة . وكل ما هنالك ظنون تستند على أن عتبة بن أبى عاصم شاعر من المجاهيل

(١) طلفت كنى على البناء للجهول فى المخاض طلقا : أصابها وجع الولادة . ومستوها أى فزعا . المحيط

المغمورين ، مما يجعل مثل أبي تمام يستنكف أن يهاجيه في عصر متأخر من حياته ؛ بعد أن اشتهر أمره وذاع صيته . كما أن آل عبد الكريم هؤلاء ، ليسوا من الشهرة في التاريخ بحيث نضعهم في صف من اتصل بهم أبو تمام بعد سنة ٢١٤ ، من كبار رجال الدولة الإسلامية وقوادها .

هذه مرجحات تجعلني أضع مدح أبي تمام لبني عبد الكريم في هذه الفترة . وبسببهم اشتبك مع عتبة بن أبي عاصم الشاعر الذي كان يهجوهم . وبذلك يكون أبو تمام قد زار الحجاز في هذه الفترة ، وليس يبعد أن يكون أدى إذ ذاك فريضة الحج ، وأن شعره هذا فيها .



وهو يصرح في قصيدة له فيهم مطالعها :

يادارُ دارَ عليك إرهامُ الندى
وَكَسَيْتِ مِنْ حُلِّ الْحَيَا مُسْتَأْسِدَا
وَأَهْتَزُّ رَوْضِيكَ فِي الثَّرَى فَتَرَادَا^(١)
أَنْفَا يَغَادِرُ وَحْشَهُ مُسْتَأْسِدَا

يصرح فيها أنه قصدهم من دمشق :

يا صاحبي بدمشق لست بصاحبي
أَذِنَ الْمَعْبُودَةُ السَّنَادَ وَأَنْثَا
وإلى بني عبد الكريم تواهقت
رَتَكَ النِّعَامَ رَأَى الظَّلَامُ خُودَا^(٢)
ما لَمْ تُمَهِّدْ لِلْهُمُومِ مِمَّهْدَا^(٣)
بِالسَّيْرِ مَا دَامَ الطَّرِيقُ مَعْبُدَا

وممدوحه من طيء :

لا تَعْدِمَنَّ طِيَّ فَلَظَمَا
عِدِمْتُ عَشِيرَتَكَ الْجَوَادَ السَّيِّدَا

وقد هجاهم عتبة ؛ فيقول له أبو تمام :

بنو عبد الكريم نجومٌ لَيْلٍ
فَلا حَسَبٌ صَحِيحٌ أَنْتَ فِيهِمْ
تُرَى فِي طِيٍّ أَبَدَا تَلُوحُ
فَأَخْبِرْنِي لِمَنْ خُلِقَ الْمَدِيحُ
فَتَكْثُرُهُمْ وَلَا عَقْلٌ صَحِيحُ

وكان عتبة رجلا كبير السن :

وما وَقَدَ الْمَشِيبُ عَلَيْكَ إِلَّا
بِأَخْلَاقِ الدَّنَاءَةِ وَالضَّرَاعَةِ

(١) أرهمت السماء : أتت بالرهام بكسر الراء . وهو المطر الضعيف الدائم . والإرهام : المصدر من أرهم . وتراد : أهتز .
نعمة كارتاد . (٢) السناد بالكسر : الناقة القوية . (٣) تواهقت الركاب : تسارت .
ورتك البعير : مقاربتة خطوه . وخود : أسرع في سيره .

شاعرا ينتسب إلى كلب :

دَعَاكَ فِي كَلْبٍ أَعْمُ فُضِيحَةً وَأَحْسُ أَمْ دَعَاكَ فِي الشُّعْرَاءِ؟

ويقول عنه في أخرى :

نُبِّئْتُ عُتْبَةَ شَاعِرُ الْغَوَاغِ قَدْ ضَجَّ مِنْ عَوْدِي وَمِنْ إِبْدَائِي

وقد هجاه عتبة أول الأمر :

أُنْبِئْتُ عُتْبَةَ يَعْوِي كِي أَشَاتِمَهُ اللَّهُ اكْبِرْ أَنِّي أَسْتَأْسِدُ النَّقْدَ^(١)

مَا كُنْتُ أَحْسِبُ أَنَّ الدَّهْرَ يُهَانِي حَتَّى أَرَى أَحَدًا يَهْجُوهُ لَا أَحَدٌ

مدفوعا إلى هجائه وهجاء قومه بآخرين ربما كانوا كلبا :

دَعْ مَعْشِرِي لَا مَعْشِرُ لَكَ إِنِّي مِنْ خَلْفِهِمْ وَأَمَامِهِمْ لَكَ مُوبِقٌ

كَمْ نَادَمْتُ أَسِيفُنَا أَرْمَاحَهُمْ بَيْنَ الْجِيوشِ عَلَى دِمٍّ يَتَرَقَّرُ

عُمِّي حَدُّوكَ إِلَى أَيِّ عَجِيبَةٍ أَعْمَى دَلِيلُ هُدًى وَأَنْحَرُسُ يَنْطِقُ

٧ - عود أبي تمام إلى مصر

[في سنة ٢١٠] كما يقول الكندي في الولاة والقضاة ، أقبل عبد الله بن طاهر إلى الشام ، فظفر بنصر بن شيث ، وكان خارجا على الخلافة . وأقبل سائرا نحو مصر ، ليخضع عبيد الله بن السري ، الذي كان يليها على غير رغبة المأمون . وقد حاربه عبد الله وقهره ، وأنزله على أمان ، ثم أرسله إلى بغداد ، وذلك في سنة ٢١١ ، فقال أبو تمام في ذلك شعرا منه :

لَعَمْرِي لَقَدْ كَانَتْ بِمِصْرَ وَقِيعَةً أَقَامْتُ عَلَى قَصْدِ الْهُدَى كُلِّ مَائِلٍ

ولسنا نعرف إن كان أبو تمام قد اتصل بعبد الله قبل ذلك في العراق ، أو عند نزوله الشام ، أو أنه ورد مصر وأبو تمام فيها ، أو وردها أبو تمام عليه .

وفي يوم الثلاثاء ، لثلاث عشرة من ربيع الآخر سنة ٢١٤ قتل أهل الخوف الثائرون من اليمانية والقيسية ، عُثْمَيْرُ بْنُ الْوَلِيدِ ، وإلى مصر من قبل المأمون . فقال أبو تمام يرثيه :

فِيَا يَوْمَ الثَّلَاثَا كَمْ كَثِيبٍ رَمَاهُ الْحَزَنُ فَيْكَ وَكَمْ عَمِيدٍ

(١) النقد : بالنحر يك جنس من الغنم فيج الشكل .

ومنها :

حضرت فناء بابك فأعتراني شجى بين المخنق والوريد

وفي سنة ٢١٤ هـ هزم هؤلاء الثوار من القيسية واليمانية عيسى بن يزيد الجلودى ، بالنويرة في مصر ، فقال أبو تمام يهجو الجلودى في شعر ذكرت منه قبل شيئا .

٨ - في العراق

وفي هذه السنة نفسها يترك أبو تمام مصر مرتحلا عنها الى العراق ، حيث يتدأ أزهر أيامه ، وأخصبها ، وأذخرها بالإنتاج والحياة والشعر .

تفصيل مقتل محمد بن حميد الطوسي ، ورثاء أبي تمام له : في هذه السنة يقول أبو تمام قصيدته :

كذا فليجل الخطبُ ويُقدح الأمرُ
فليس لعينٍ لم يفيض مأوها عُذْرُ

في رثاء محمد بن حميد الطائي ، وكان في حرب بابك الخرمي قتل . ولإدراك الصلة بين شعر أبي تمام وبين ما كان في قتل محمد أنقل ما كتبه ابن الأثير ، قال عن أين حميد :

” فسلك المضايق إلى بابك ، وكان كلما جاوز مضيقا أو عقبة ، ترك عليه من يحفظه من أصحابه إلى أن نزل ” بهشتادسر “ وحفر خندقا ، وشاور في دخول بلد بابك ، فأشاروا عليه بدخوله من وجه ذكره له ، فقبل رأيهم ، وعبا أصحابه ، وجعل على القلب محمد بن يوسف بن عبد الرحمن الطائي المعروف بأبي سعيد ، وعلى الميمنة السعدى بن أصرم (ويقول عنه يعقوب المهدى بن أصرم ، وأظن أن في عبارة ابن الأثير تصحيفا ، إذ هو في ديوان أبي تمام أيضا مهدي بن أصرم) وعلى الميسرة العباس بن عبد الجبار اليعقوبي ، ووقف محمد بن حميد خلفهم في جماعة ينظر إليهم ، ويأمرهم بسد خلل إن رآه . فكان بابك يشرف عليهم من الجبل ، وقد كمن لهم الرجال تحت كل صخرة . فلما تقدم أصحاب محمد ، وصعدوا في الجبل مقدار ثلاثة فراسخ ، خرج عليهم الكناء ، وأنحدر بابك إليهم فيمن معه ، وأنهم الناس ، فأمرهم أبو سعيد ومحمد بن حميد بالصبر فلم يفعلوا ، ومروا على وجوههم والقتل يأخذهم .

يقول ابن الأثير ” وصبر محمد بن حميد مكانه ، وفر من كان معه غير رجل واحد ، وسارا يطلبان الخلاص ، فرأى جماعة وقتالا ، فقصدهم فرأى الخرمية يقاتلون طائفة من أصحابه ، فحين رآه الخرمية

قصوده، لما رأوا من حسن هيئته . فقاتلهم وقتلوه، وضربوا فرسه بمزارق، فسقط الى الأرض وأكبوا على محمد بن حميد فقتلوه . وكان محمد ممدوحا جوادا فرثاه الشعراء وأكثروا، منهم الطائي . فلما وصل خبره الى المأمون عظم ذلك عنده ^(١) .

قصة هذا البطل، قد ألهمت أبا تمام شعرا من أجمل الشعر، وهزت نفسه بقصائد من خير ما في ديوانه . يقول البديعي : إن أبا تمام لما بلغه خبر قتله، غمس طرف رداءه في مداد ثم ضرب به كتفيه وصدره، وأنشد القصيدة التي تمنى أبودلف لو كان هو المقتول وقيلت فيه :

كذا فليجل الخطبُ وليفدج الأمرُ
فليس لعَيْنٍ لم يفيض ماؤها عذرُ
تُوَفِّيَتِ الآمالُ بعدَ محمدٍ
وأصبحَ في شُغْلٍ عن السفرِ السَّفرِ

ومنها :

فَقِيَّ كَلِمًا فَاضَتْ عِيُونُ قَبِيلَةٍ
فَقِيَّ دَهْرَهُ شَطْرَانِ فِيمَا يَنْوِبُهُ
فَقِيَّ مَاتَ بَيْنَ الطَّعَنِ وَالضَّرْبِ مِيتَةً
وَمَا مَاتَ حَتَّى مَاتَ مَضْرِبُ سَيْفِهِ
وَقَدْ كَانَ فُوتُ الْمَوْتِ سَهْلًا فَرَدَّهُ
وَنَفْسٌ تَعَافُ الْعَارَ حَتَّى كَأَنَّهُ
فَأَثَبَتْ فِي مُسْتَنْقَعِ الْمَوْتِ رِجْلَهُ
غَدَا غُدُوَّةَ وَالْحَمْدُ نَسَجَ رِدَائِهِ
تَرْدَى ثِيَابُ الْمَوْتِ حُمْرًا فَاذْجَى
كَأَنَّ بَنِي نَهَانَ يَوْمَ وَفَاتِهِ
يُعَزِّوْنَ عَنْ ثَاوٍ تُعَزَّى بِهِ الْعَلَا
وَأَنَّى لَهُمْ صَبْرٌ عَلَيْهِ وَقَدْ مَضَى
فَقِيَّ كَانَ عَذَبَ الرُّوحِ لَا مِنْ غَضَاضَةٍ

دَمًا ضَحِكْتُ عَنْهُ الْأَحَادِيثُ وَالذِّكْرُ
فَقِيَّ بِأَسِيهِ شَطْرُوفِي جُودِهِ شَطْرُ
تَقُومُ مَقَامَ النَّصِيرِ إِنْ فَاتَهُ النَّصْرُ
مِنَ الضَّرْبِ وَأَعْتَلَّتْ عَلَيْهِ الْقَنَا السُّمُرُ
إِلَيْهِ الْخَفَاطُ الْمَرُّ وَالْخَلْقُ الْوَعْرُ
هُوَ الْكَفَرُ يَوْمَ الرُّوعِ أَوْ دُونَهُ الْكُفْرُ
وَقَالَ لَهَا : مِنْ تَحْتِ أَنْحَصِكَ الْحَشْرُ
فَلَمْ يَنْصِرْ إِلَّا وَأَكْفَانُهُ الْأَجْرُ
لَهَا اللَّيْلُ إِلَّا وَهِيَ مِنْ سُنْدُسٍ خُضْرُ
نَجُومُ سَمَاءٍ خَرَّ مِنْ بَيْنِهَا الْبَدْرُ
وَيَبْكِي عَلَيْهِ الْبَاسُ وَالْجُودُ وَالشَّعْرُ
إِلَى الْمَوْتِ حَتَّى آسُتْشَهِدَا : هُوَ وَالصَّبْرُ
وَلَكِنْ كَبُرَا أَنَّ يُقَالَ بِهِ كِبَرُ

وهكذا يسير في القصيدة حتى ينتهي . وأهم ما فيها هو فنسه في تصوير ما وقع ، فان الصلة بين حديث ابن الأثير المؤرخ، وقصيدة أبي تمام الشاعر، ترى أن كل بيت من أبيات أبي تمام قد استند إلى أصل في التاريخ .



كان بابك خارجا بشعر آذر بيجان منذ سنة ٢٠١ . يقول ابن الأثير : إنه تحرك في الجاويدانية : أصحاب جاويدان بن سهل صاحب البذ ، وآدعى أن روح جاويدان قد حلت فيه ، وأخذ في العبث والفساد . وتفسير جاويدان : الدائم الباقي . ومعنى نُحْرَم فرج . وهى مقالات المجوس . والرجل منهم ينكح أمه وأخته وأبنته ، ولهذا يسمونه دين الفرج ، ويعتقدون مذهب التناسخ ، وأن الأرواح تنتقل من حيوان إلى غيره .

ويقول اليعقوبى : " إنه تحرك بتحريض حاتم بن هرثمة ، لما قتل المأمون أباه هرثمة بن أعين . تحرك فغلب في عمل آذر بيجان ، وبلغ المأمون الخبر ، فولى يحيى بن معاذ بن مسلم : مولى بنى ذهل أرمينية ، (وأمره بحرب بابك) ففعل ذلك . وأوقع يحيى بن معاذ وقعات لم يظهر عليه في وقعة منها ، وكان المأمون قد أمر عيسى بن محمد بن أبى خالد ، القائد المحارب كان في أيام الخلع . فلما لم يحمّد أثريحي ولى عيسى أرمينية وآذر بيجان ... ولقيه بابك فهزمه ، فمّر عيسى مولى لا يقف ... وانصرف من آذر بيجان إلى أرمينية ... وأستعظم أمر بابك بالبذ ، فولى المأمون زريق بن على بن صدقة الأزدي ، فلم يصنع شيئا . فولى محمد بن حميد الطوسى (الذى سبق رثاء أبى تمام فيه) فقتل محمد ، وانهزم العسكر " .

(ب) اتصال أبى تمام بأبى سعيد الثغرى : كان من قواد محمد بن حميد الطوسى الطائى هذا في موقعته مع بابك ، أبو سعيد محمد بن يوسف الطائى ، ويلقب بالثغرى نسبة لعمله معظم أيامه في ثغور المسلمين .

ومحمد بن يوسف الطائى من ممدوحى أبى تمام ، الذين ظل اتصاله بهم من أول معرفتهم له حتى آخر أيام حياته . ويظهر لى أن معرفة أبى تمام بأبى سعيد كانت قبل سنة ٢١٤ هذه . فلا أبى تمام فيه شعر يدل على أنه كان صغير السن يوم قاله ، وأن أبا سعيد لم يكن ينظر إليه بعين الاعتبار . يقول له بعد بكاء :

فلئن شطت الديار وغال الـ هـرُ في آلف وفي مألوف
وتبدلت بالبشاشة حزنا بعد هـو في مريع ومصيف
فعزائي بأن عرضى مصون سائغ الورد ، والسماح حليف
ثم علمى على حداثة سنى بصروف الدهور والتصريف

ومنها :

ليت شعري ماذا يُربُّك مني ولقد فقتُ فطنة الفيلسوف
اتهمز فرصة تسرك مني بأصطناع الخيرات والمعروف
أنا ذو منطقٍ شريفٍ لإعطا ومنطقي يمنع عني
ما أبالي إذا عنتك أموري كيف أنحت على أيدي الصُروف

فهو في الأبيات جديد لديه ، يقدم إليه بضاعته ، وأبو سعيد مشغول عنه . وهو ما يبعد أن تكون عليه حال أبي تمام صاحب الرثاء في محمد بن حميد . وله أبيات لها نفس هذا الروح أولها :

فأشدُّ يدك على يدي وتلافني من مَطْلِبٍ كدير المواردِ راكِدِ
الأبيات . وله فيه قصيدة أخرى ، تدل على أن اتصاله به سنة ٢١٤ إنما كان تكلمة حياة سبقت له معه ؛ إذ أن فيها روحا قلقا ، وضعفا هو ضعف الناشئ :

حلَّ الأميرُ محلَّ رِفْدِ الرافِدِ ومُيِّح طارفٍ ماله والتالِدِ^(١)

ومنها :

اليأسُ ألزمني محلَّ القاعدِ إذ ليس جدِّي في الحدودِ بصاعدِ
مالي حُرمتُ لديكُ حُظوةَ خالدِ أولستُ أقدمَ حُرمةَ من خالدِ
عَوَزُ الرجالِ أقامَ مُنَّةَ خالدِ والضيفُ نفقَ سوقِ بردِ الباردِ
شخصانِ أفاكاكِ قِيلُهما الخنا حالاَ لديكَ محلَّ عمرو الزاهدِ

ومنها :

فعلامَ أصبحُ من نَدَاكِ بمَعزِلِ وسواي تلحظُهُ بعينِ الوالدِ

ففيها حس باليأس والحُرمَان ، وقعود الجد ، وهو أشبه بشعره أول أمره .

وكان أبو سعيد هذا من مرو . ويقول عنه أبو تمام :

غَرَّبَتْهُ العُلَى على كثرةِ الأهلِ فأضْحَى في الأقربينَ غريباً
فَلَيْطَلَّ عمره فلو مات في مرٍ ومُقيماً بها لمات غريباً

ويذكر الصولي عنه أيضاً أنه كان من مرو . وظنى أنه أتصل به في خراسان ، قبل مقدمه مصر

للزعة الثانية . أي قبل سنة ٢١١ . وربما يكون عرف عن طريقه آل حميد .

هذا احتمال لا نستطيع أن نقطع به ، يساعده ما ذكرت . وقد يكون اتصال أبي تمام به أول اتصال سنة ٢١٤ ، لما مات محمد بن حميد فكان من محاولاته ما رأينا .

(ج) أنصالة بمهدي بن أصرم : ممن اتصل بهم أبو تمام ، من قواد هذه المعركة أيضا مهدي بن أصرم^(١) ، وهو طائي أيضا يقول أبو تمام :

عَمِيدُ الْغَوْثِ إِنْ نَوَّبُ اللَّيَالِي سَطَتْ وَقَرِيعَهَا عِنْدَ الْقِرَاعِ
وهو من قصيدة مطلعها :

خَذِي عِبْرَاتِ عَيْنِكَ مِنْ زُمَايِ وَصُونِي مَا أَذْلَيْتَ مِنَ الْقِنَاعِ
أَقِلِّي ، قَدْ أَضَاقَ بِكَ ذَرْعِي وَمَا ضَاقَتْ بِنَازِلَةِ ذِرَاعِي
أَلْفَةَ النَّحِيبِ كَمْ أَفْتَرَقِ أَلَمْ فَكَانَ دَاعِيَةَ أَجْتِمَاعِ

(د) أثر معارك بابك في شعر أبي تمام : وكما ألفت هذه الموقعة أبا تمام هذا الشعر كله ، ظل أثرها يتردد في شعره بعد ذلك زمانا . فهو إذا مدح محمدا أبا سعيد التغري بعد ذلك سنة ٢٢٠ ، ذكر ابن حميد شهيد بابك فقال له :

مِنْ كُلِّ قَرَمٍ يَرَى الْأَقْدَامَ مَادِبَةً إِذَا خَدَى مُعَلَّمًا بِالسَّيْفِ أَوْ وَتَجَا^(٢)
تَتَعَى مُحَمَّدًا الشَّوَى رِمَاحُهُمْ وَيَسْفَحُونَ عَلَيْهِ عِبْرَةَ نَشَجَا^(٣)

ويقول في أخرى قالها بعد أخذ بابك سنة ٢٢٢ :

وَاللَّهِ يَشْكُرُ وَالْخَلِيفَةُ مَوْفِقًا لَكَ شَائِعًا بِالْبَدِّ صَعْبَ الْمَشْهَدِ
أَدْرَكَتْ فِيهِ دَمَ الشَّهِيدِ وَنَارَهُ وَفَلَجَتْ فِيهِ بِشِيرَ كُلِّ مُوَحِّدٍ^(٣)



وعندي أن هذه الموقعة ، وأنفعال أبي تمام بها ، قد أعطت شعره لونا جديدا . ذلك أن شعر أبي تمام قبلها كان لا يكثر فيه وصف الحرب ، أما بعد هذه الموقعة ، فقد كثر كثر جعلته من مميزات شعره .

(١) كما هو في الديوان وفي تاريخ يعقوبي . أو سعاد بن أصرم كما هو في تاريخ ابن الأثير .

(٢) خدى البعير والفرس خديا وخديانا : أسرع . والوسيج : سير الإبل والفعل وسج كوعد .

(٣) الفلج : الظفر والفوز .

٩ - تنقل أبي تمام بين الثغور

إذا كان أبو تمام بأذربيجان فهو في إقليم يجاور إرمينية . وهي ثغر من ثغور المسلمين ، الملاصقة لأرض الروم في آسيا الصغرى . وكانت إرمينية ، ككل ثغور المسلمين في هذه الناحية ، محل اتصالهم بقوة معادية ، تتبادل فيه الغارات بين الأمتين . وطبيعة البلاد الجبلية ، وتلك الاضطرابات الدائمة على حدودها ، وأندساس العناصر الغريبة فيها ، كان يجعلها محلا لثورات بعض أبنائها ممن يوقظ أطماعهم المذ والجزر الدائم على الحدود ، وتحريض العدو ، فما كانت تهدأ ثورة حتى تنور أخرى .

(١) اتصّاله بخالد بن يزيد : ففي سنة ٢١٤ ، وهي السنة التي كان فيها أبو تمام بأذربيجان ،

كان المأمون قد وجه بخالد بن يزيد بن مزيد الشيباني لإخضاع نائر بأرمينية ، يدعى محمد بن عتاب ، فأخضع خالد الثوار ، وقتل فيهم وأسر ، وأرسل الأسرى إلى المأمون . فما كان من المأمون إلا أن عفا عنهم ، وضمهم إلى جند أخيه المعتصم . ويقول اليعقوبي : " إنه عزل خالدا عن أرمينية وولاه آخر ، فأحس خالد السعاية ، فأنحدر خالد إلى بغداد ، فضمه الخليفة إلى المعتصم " .

(ب) مدح أبي تمام للمأمون : وأرجح أن أبا تمام قد اتصل به في هذه المرة ، إذ بعدها

بقليل نجد من قصائده فيه قصيدة تتصل بغزو المأمون للروم في سنة ٢١٦ كما سيبيء بعد .

" في سنة ٢١٥ خرج المأمون في المحرم متوجها إلى بلاد الروم ، فغزا الصائفة ، وأفتتح أنقرة ، نصفا بالصلح ، ونصفا بالسيف ، وأخر بها . وهرب منويل البطريق منها . ثم أنصرف فتزل على دمشق^(١) . فيقول أبو تمام لأبي سعيد بن يوسف الثغري ، وكان مع المأمون كما يفهم من اليعقوبي :

لَمَّا فَصَلْتَ مِنَ الدُّرُوبِ إِلَيْهِمْ	بِعَرَمَرِمٍ لِلْأَرْضِ مِنْهُ خُورُ
إِنْ يَبْتَكِرُ تَرْشِدَهُ أَعْلَامُ الصُّوَى	أَوْ يَسِيرُ لَيْلًا فَالْنَجُومُ مَنَارُ
فَالْحِمَّةُ الْبَيْضَاءُ مِيعَادُ لَهُمْ	وَالْقُفْلُ خَتْمُ وَالْخَلِيجُ شِعَارُ

ومنها :

إِنْ لَا تَتَلَّ مَنَوِيلَ أَطْرَافِ الْقَنَا	أَوْ تُثْنِ عَنْهُ الْبَيْضُ وَهِيَ حِرَارُ
فَلَقَدْ تَمَنَّى أَنْ كُلَّ مَدِينَةٍ	جَبَلٌ أَشْمُ وَكُلُّ حِصْنٍ غَارُ

ولم يذكر في التاريخ أسم منويل هذا إلا في هذه الموقعة بين الروم والمأمون ، ومعنى هذا أن أبا سعيد كان يقوم بعمل في هذه المعركة إلى جانب المأمون .



وفي سنة ٢١٦ عاد المأمون الى بلاد الروم غازيا ، فداس أرضا ، ووجه المعتصم وغيره ففتحوا ، وهدموا حصونا ، ثم عاد الى دمشق ، فزل بها . يقول اليعقوبي : " وبلغ المأمون أن طاغية الروم قد زحف ، فوجه إليه العباس آبنه ، فلقبه وهزمه . وكان العباس على الجزيرة منذ سنة ٢١٤ ، وفتح الله على المسلمين ، ووجه اليه توفيل ملك الروم ، بالأسقف صاحبه ، ومعه كتاب منه ، رفض المأمون أن يقرأه ، وسأل أن يقبل منه مائة ألف دينار والأسرى الذين عنده ، وهم سبعة آلاف أسير ، وأن يدع لهم ما آفتح من مدائن الروم وحصونهم ، ويكف عنهم الحرب خمس سنين ، فلم يجبه الى ذلك ، وأنصرف الى كيسوم من أرض الجزيرة من ديار مصر^(١) .

وكان خالد بن يزيد الشيباني ، على ما رأيناه من قبل في عسكر المعتصم . فيقول أبو تمام في قصيدة له فيه ، بعد أن يصف رحلته إلى خالد^(٢) :

ولما رأى توفيل راياتك التي	إذا ما استقامت لا يقاومها الصلب
تولى ولم يأل الردى في آتباعه	كأن الردى في قصده هائم صب
كأن بلاد الروم عمت بصيحة	فضمت حشاها ، أورها وسطها السقب
بصاغرة القصى وطمين واقترى	بلاد قرظاؤوس وابلك السكب
غدا خائف يستنجد الكتب مذعنا	عليك فلا رسل ثنتك ولا كتب
وما الأسد الضغام يوما بعاكس	فريسته إن أن أو بصبص الكلب
مضى مذبرا شطر الدبور ونفسه	على نفسه من سوء ظن بها ألـب
جفا الشرق حتى ظن من كان جاهلا	بدين النصارى أن قبلته الغرب

ولهذه القصيدة زمن آخر يمكن أن توضع فيه ، وهو سنة ٢٢٣ . وذلك في أيام المعتصم ، لما خرج لفتح عمورية ، أنتقاما لغزو الروم زبطرة ، والتمثيل بأهلها . فقد آجتاحت جيوش المسلمين بلاد الروم ، وكان خالد بن يزيد الشيباني والى إرمينية يومئذ من قبل المعتصم ، ولكنه لم يلبث بها طويلا . يقول اليعقوبي « فولى المعتصم خالد بن يزيد أرمينية ، وناحية من ديار ربعة . فلما بلغ خبره إرمينية تحصن كل رئيس فيها ، وأشتد خوفهم منه ، وعملوا على العصيان . فكتب منصور بن عيسى السبيعي ، صاحب بريد أرمينية ، إلى المعتصم بذلك ، فرد خالد وأمر باقرار على بن الحسين^(٣) . »

فليس هناك ما يمنع أن يكون خالد قد رد عن أرمينية فاشترك في فتح عمورية وغزو أرض الروم .



وقدم المأمون مصر، كما يقول الكندي "لعشر خلون من المحرم سنة ٢١٧ لإخضاع الثائرين من أهل الخوف، وكان قد سبقه إليها الأفشين . وبعد أن استقام الأمر فيها، خرج عنها في يوم الخميس لثماني عشرة من صفر". يقول اليعقوبي "وقدم دمشق منصرفا من مصر، فأقام أياما، ثم شخص إلى الثغر فنزل أذنة معسكرا بها . وقد كان أبو سعيد محمد بن يوسف الطائي و... من أصحاب محمد بن حميد الطوسي، الذين كانوا بأذر بيجان صاروا الى باب المأمون ...".

ولم يكن أبو تمام حتى ذلك الحين قد اتصل بخليفة من الخلفاء ولا مدحه، فأراد أن يجرب حظّه هذه المرة، فقال في سنة ٢١٧ والمأمون يومئذ في غزو الروم بعد عودته من مصر، قصيدة مطلعها :

كُشِفَ الْغِطَاءُ فَأَوْقَدِي أَوْ أَنْحِدِي لَمْ تَكْمَدِي فَظَنَنْتُ أَنَّ لَمْ تَكْمَدِي
ومنها يذكر مجيئه مصر :

فانتاشِ مِصرَ مِنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ تَجَاوِزِ وَتَعْطِفِ وَتَعْمُدِ

ولما كانت هذه أول مرة يتجه فيها بشعره إلى خليفة عالم كالمأمون، فقد بذل أبو تمام في نظمها غاية ما يستطيع من جهد، وأفرغ فيها كل مواهبه الصناعية، فخرجت أشبه بكل هذه الزخارف التي يسوق الإنسان إليها نفسه سوقا، ويدفعها في إخراجها دفعا، خالية من الروح القيم الذي يجري في كثير من شعر أبي تمام . ولقد مضى المطالع، واستأرى فيه حظا من توفيق؛ ليس فيه جديد معنى وإن كان فيه عظيم تكلف .

ففي المطالع من البديع . أوقدي وأنحدي، وفيه لم ولم، وفيه تكمدي بمعنى تخفين الكمد، وتكمدي بمعنى تصابين بالكمد؛ والقصيدة مليئة بعد ذلك بالمحاولات البديعية، المحتمل منها وغير المحتمل، وفيها من الأبيات ما أخذ على أبي تمام التغميض فيه، أو قبح الاستعارة . فالجرجاني يتساءل أهناك بيت شعر أحوج إلى تفسير بقراط من قول أبي تمام :

يَوْمُ أَفَاضَ جِسْمِي أَغَاضَ تَعْزِيَا خَاضَ الْهَوَى بِحَمْرِ حِجَاهِ الْمُزِيدِ

والآمدى يقول : وهل يزيد قبح الاستعارة على قوله :

فَطَوَيْتَ بِالْمَوْعِدِ أَعْنَاقَ الْوَرَى وَحَطَمْتَ بِالْإِنْجَازِ ظَهَرَ الْمَوْعِدِ (١)

وإن عباراته في الاعتراض على قول أبي تمام في هذه القصيدة :

جَارَى إِلَيْهِ الْبَيْنَ وَصَلَ خَرِيدَةً مَاشَتْ إِلَيْهِ الْمَطْلَ مَشَى الْأَكِيدَ

لَتُشْبِهَ صَرَاحَ الْجَارِعِ . فهو بعد تفسير البيت يهتف مستنجدا بأهل اللغة العربية . ومنها البيت الذي يضربه الأمدي مثالا للعاطلة وهو :

يَا يَوْمَ شَرَدَ يَوْمَ لَهْوَى لَهْوَهُ بَصَبَاتِي ، وَأَذَلَّ عِزَّ تَجَلُّدِي

كما أن فيها من الألفاظ : ” العنقفير المؤيد ” وكفى . ويظهر أن أبا تمام كان يريد أن يتقرب إلى المأمون غاية ما يستطيع . فيقول له :

وَوَسِيلَتِي فِيهَا إِلَيْكَ طَرِيفَةٌ شَامٍ يَدِينُ بِحُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ^(١)

نَيْطُ قَلَائِدَ ظَرْفِهِ بِمُحْيِرٍ مَتَدَمِشْقٍ مَتَكَوِّفٍ مُتَبَغِّدٍ

فهو يتوسل إلى قربه بأنه شامي يحب آل النبي ، مع أن كل شامي متشيع لبني أمية .

قال التبريزي « ووصف نفسه بالمتكوف ليمت إلى المأمون بأنه شيعي ، لأن المأمون أظهر التشيع في أول أمره ، وأهل الكوفة ينسبون إلى أنهم شيعة . ومتدمشق ، لأنه من جاسم من أعمال دمشق ، ومتبغدد ، أي ظريف ، لأن أهل بغداد ينسبون إلى الظرف . وإذا رأيت أن الشارحين قد أخرجوا هذه الصفات إلى معانيها التبعية عن الأصلية ، فلا يلزم منها أنه ذهب إلى الحيرة ودمشق وبغداد والكوفة وإن جاز ذلك » .

وأظننا الآن لسنا بحاجة إلى الاحتجاج بهذا البيت ، فقد كان أبو تمام جاب قبل قوله هذا ، العراق وأبعد إلى غيرها . ويلي البيتين الماضيين ثالث :

حَتَّى لَقَدْ ظَنَّ الْغَوَاةَ وَبَاطِلُ أَنَّ قَدْ تَجَسَّمَ فِي رُوحِ السَّيِّدِ

أي باطل ما ظنوا ، من أن روح السيد الحميري الشاعر المتشيع قد حل في . فهو ينكر الحلول ، ولا ينكر التشيع . وفي هذا ما يستأنس به ، ليسند ما قلت من أنه قال قصيدته المتشيعية يوم كانت سنه سبع عشرة كما ذكر فيها ، تقربا لأصحاب الشأن يومئذ ، كالخليفة وآل سهل .

ولا نعرف أنشد قصيدته هذه بين يدي المأمون ، أم أرسلها إليه . وفي القصيدة بيت قد يؤخذ منه أنه بعثها إليه وهو بعيد عنه يقول منها :

وَمِنْ خِرْحَاتِي عَنْ ذِرَاكَ عَوَائِقُ أَصْحَرَنَ بِي لِلْعَنْقِفِيرِ الْمُؤَيِّدِ

(١) يقال في النسبة إلى الشام : هوشامى وشامى وشام .

فمزعجاتي أسم فاعل قد يكون مقصودا به الماضي . أى أن ما أبعدنى حتى الآن عن جنابك عوائق . وكل ما أماننا يرجح أنه كان قريبا منه يوم قالها ، وهو إما أرسلها إليه ، أو قالها بين يديه ، فذلك مالا نعرفه ، وظنى أنه لم ينشدها بين يديه .



لم يلبث أبو تمام أن ألحق هذه القصيدة ، التى إخاله أحس قلة توفيقه فيها ، بقصيدة أخرى هى ثورة واضحة على السابقة . ثورة واضحة على الماضية ، لأنه خرج فيها من موضوع كان يروض نفسه رياضة عنيفة على طريقه ، إلى موضوع يدفع بالنفس الى أن نفعل به فتقول الشعر فيه .

خرج من أستفتاح قصيدته الأولى بالغزل المصنوع ، المكدود ، البرىء من العاطفة ، إلى أستفتاح الثانية بوصف الربيع الطلق الضاحك . خرج إلى حس بجمال الطبيعة يذيب النفس شعرا ، ويملؤها إلهاما . من أحد عشر بيتا فى غزل ثقل منفرا ، إلى أحد وعشرين فى وصف الربيع ، دون أن يشير فيها ببيت واحد إلى المرأة . قال أبو تمام فى المأمون :

رقت حواشى الدهر فهى تَمَرُّمُ	وغدا الثرى فى حليّه يتكسرُ
نزلت مُقدمة المصيف حميدةً	ويدُ الشتاءِ جديدةً لا تُكفرُ
لولا الذى غرس الشتاء بكفّه	قاسى المصيف هشا ما لا تُثمرُ

يقول قد حلت مقدمة المصيف ، أى أيام الربيع ، ولا تزال آثار الشتاء ونعمه ، جديدة لم تبل ، ولا يمكن كفرانها . والقصيدة فى الديوان مجعولة فى المعتصم ، وليس ذلك بصحيح لأمر :

أولا — أن أبا تمام يقول فيها :

أَرَبِيعَنَا فى تِسْعَ عشرةَ حِجَّةً حَقًّا لَهْنُكَ لِلزَّبِيعِ الأزهرُ

وفى ذلك الوقت ، أى فى سنة ٢١٧ ، كان قد مضى على ملك المأمون تسعة عشر عاما ، إذ أن الأمين قتل فى الخامس والعشرين من محرم سنة ١٩٨ ، وتمت بذلك نهائيا البيعة للمأمون .

١ ثانيا — أن اتصال أبي تمام بالمأمون ، كان بعد خروجه من مصر لينزل بالثغور ، وقد كان خروجه من مصر لثمانى عشرة من صفر سنة ٢١٧ ، وهذا يوافق (١٦ مارس سنة ٨٣٣ م) أى فى أوائل الربيع وأواخر الشتاء كما يذكر أبو تمام فى قصيدته .

ثالثاً — أنه قد سبق إلى هذا الرأي أناس فقالوا به . ينقل التبريزي ^(١) في شرحه عن أبي العلاء :
 ” من قال إنه مدح بهذه القصيدة المأمون أحتج بهذا البيت :

(أربعيناً في تسع عشرة حجة الخ)

يذهب إلى أن الطائي قال هذه القصيدة ، وقد مضى من ملك المأمون تسع عشرة سنة . أى هذا
 الامام قد قام مقام الربيع ، أو أن الربيع عظم حسنه لبركة المدوح في هذه السنين .

فلم يعارض أبو العلاء هذا الرأي وإن كان أضاف إليه رأياً آخر . قال : ” ولا يمتنع أن يكون
 أراد أن سنه وقت إنشاء هذه القصيدة تسع عشرة سنة “ .

ولم يذكر أبو العلاء في حديثه أوجه الاعتراضات على هذا الرأي وهو البيت :
 بالثامن المستخلف آتسق الهدى حتى تخير رشده المتخير

مما يجعلني أظن أنه لم يكن في القصيدة ؛ إذ يبعد أن أصدق أن أبا العلاء قد غفل عن الجمع بين
 أطراف القصيدة في ذهنه ، حين أراد أن ينظر فيها . وإلا فإنه حجة لا يستطيع أن يقوم لها الرأي
 القائل إنها في المأمون ، ولا يمكن أن يغفل عنها أبو العلاء .

فإما أن البيت أضيف على القصيدة ، وإما أنه اضطرب في يد الناقل فصير ” بالثامن “ بدل
 ” السابع “ أو أنه قصد إلى هذا التبديل قصداً ، إرضاء لميل فيه إلى ختام الجدل الدائر حول القصيدة
 على وجهٍ يميل إليه ^(٢) . وهناك رأي ثالث يورده التبريزي في تفسير هذا البيت يقول : ” بعد تسع عشرة سنة
 من مضى مائتي سنة من الهجرة “ .

أما رأى أبي العلاء في تفسير البيت يجعل سن أبي تمام يوم قاله تسع عشرة سنة ، والرأي الذي
 يراه التبريزي وجعل به القصيدة مقولة في سنة ٢١٩ ، فيوهن منهما شيئاً ما قاله الصولي في كتابه
 أخبار أبي تمام من أن أول لقاء لأبي تمام مع المعتصم كان في المصيصة . فالمعتصم حين يذكر به
 بعد رجعته من عمورية يقول : ” أليس الذي أنشدنا بالمصيصة ، الأجدش الصوت ؟ “ ^(٣) .

(١) (ج ٢ ص ٣٠٣) . (٢) كان أنصار أبي تمام كثيراً ما يفعلون هذا فأصلح بعضهم له البيت المعروف .
 ثانيه في كبد السماء ولم يكن لأثنين ثان إذ هما في الغار

جعله لأثنين ثالثاً . ليخلص أبا تمام من خطأ ظنه وقع فيه ، وكما أصلحوه له ” بقلت لقلبه هجراً بين “ فجعلوه ” قرنت لقلبه ... الخ “
 ص ١٦١ ديوانه . وذلك في قصيدته : خشنت عليه أخت بني الخشين . التي قالها في اسحق بن إبراهيم المصمعي . لأن
 النقاد عابوا على أبي تمام غثاثة قوله : بقلت . في بيت نسيب .

(٣) أخبار أبي تمام : الصولي (ورقة ٦٢) .

والمصيصة كما في ياقوت مدينة على شاطئ جيحان ، من ثغور الشام بين أنطاكية وبلاد الروم ،
تقارب طرسوس . ومن الحديث يفهم أن ذلك كان بعد فتح عمورية ، ولم تفتح عمورية
إلا في سنة ٢٢٣ في قول ، أو سنة ٢٢٤ في قول آخر . وأبو تمام في قصيدته هذه شاعر حقا .
يقول في إرضاء حسه الشعرى أكثر مما يقول في إرضاء المأمون بمدحه .



تأتي بعد هذه قصيدة ثالثة مطلعها :

دِمْنُ أَلَمٍ بِهَا فَقَالَ سَلَامٌ كَمْ حَلَّ عَقْدَةَ صَبْرِهِ الْإِلْمَامُ

ومنها غزل يمتاز بحلاوة الروح ، وإطالة النظر في العاطفة ، وتتابع الفكرة ، ونضج الشعر :

وقفوا على اللوم حتى خيلوا أَنَّ الْوُقُوفَ عَلَى الدِّيارِ حَرَامٌ

لَا مَرَّ يَوْمٌ وَاحِدٌ إِلَّا وَفَى أَحْشَاءُهُ لِمِحْلَتَيْكَ غَمَامٌ

حَتَّى تُعَمِّمَ صُلْعَ هَامَاتِ الرَّبِيِّ مِنْ نُورِهِ وَتَأْزُرُ الْأَهْضَامُ

وَلَقَدْ أَرَاكَ فَهَلْ أَرَاكَ بَغِيطَةٌ وَالْعَيْشُ غَضٌّ وَالزَّمَانُ غُلَامٌ

أَعْوَامٌ وَصَلَّ كَانَ يُنْسِي طَوْلَهَا ذَكَرُ النَّوَى فَكَأَنَّهَا أَحْلَامٌ

ثُمَّ أَنْبَرْتُ أَيَّامَ هَجْرٍ أَرْدَفْتُ نَجْوَى أَسَى فَكَأَنَّهَا أَعْوَامٌ

ثُمَّ أَنْقَضْتُ تِلْكَ السَّنُونَ وَأَهْلُهَا فَكَأَنَّهَا وَكَأَنَّهُمْ أَحْلَامٌ

أَتَحَدَّرْتُ عَبْرَاتُ عَيْنِكَ أَنْ دَعْتُ وَرَقَاءُ حِينَ تَضَعُضَعُ الْإِظْلَامُ

لَا تُشَجِّنْ لَهَا فِائَتْ بَكَاءِهَا ضِحْكُ وَإِنَّ بَكَاءَكَ أَسْتِغْرَامُ

هَنَّ الْحَمَامُ ، فَإِنْ كَسَرْتَ عِافَةً مِنْ حَائِنٍ فَلَنْهَنْ حِمَامُ

شعر كأنه الحديث الجارى سهلا رخاء ، ليس يخبط فيه صاحبه كما يشاء لسانه ، وكما تحكمه عباراته ،
لكنه يفكر ويتأمل ويتتبع فكرته ، وهو يحس فينظر في حسه قبل أن يبرزه الناس ، يروض العبارات
ترويضاً لأدائه . ليس بالرياضة القاسية التي تجعل الشعر ناشف الماء ، ذابل الروق . وفيها مزج
بين وصف جمال الطبيعة ، والغزل ومنها يذكر غزاته :

لَمَّا رَأَيْتَ الدِّينَ يَخْفِقُ قَلْبُهُ وَالْكَفَرُ فِيهِ تَغَطَّرُ عُرَامُ

أَوْرَيْتَ زَنْدَ عِزَائِمٍ تَحْتَ الدَّجَى أَسْرَجْنَ فِكْرَكَ وَالْبِلَادُ ظِلَامُ

وترى في هذا البيت الصلة بينه وبين بيته في قصيدته الأولى في المأمون وهو :

وأرى الأمور المشكلات تمزقت ظلماً عنها عن رأيك المتوقد

ومنها يذكر الروم وحربه معهم ويصف جيش المأمون :

فنهضت تسحب ذيل جيش ساقه حسن اليقين وقاده الإقدام

* *

سَفَعَ الدُّعُوبُ وجوههم فكأنهم
تَحَذُّوا الحديدَ من الدروع معاقلاً
مسترسلين إلى الخُتُوفِ كأنما
أسادُ موتٍ مُخِدراتُ مالها
حتى نقضت الرومَ منك بوقعة
في معركِ أَمَّا الجِمامُ ففطِرَ
والضربُ يُقَعِدُ كُلَّ قَرَمٍ كَتِيبَةٍ
ففصمت عُرُوةَ جمعهم فيها وقد

وأبوههم سَامُ أبوههم حَامُ
سُكَّنتها الأرواحُ والأجسام
بينَ الخُتُوفِ وبينهم أرحام
إلا الصَّوَارِمُ والقَنَا آجام
شنعاءَ ليس لِنَقْضِها إبرام
في هَبْوتِيهِ والكَمَّةُ صِيَام
شَرِسِ الضَّرِيَّةِ والخُتُوفِ قِيَام
جَعَلَتْ تَفْصَمُ مِنْ عُرَاها الهَام

* *

ما كان للإشراكِ فورةً مشهيد
لما رأيتهم تساق ملوكهم
جرحى إلى جرحى كأن جلودهم
متساقطى ورقَ الثيابِ كأنهم
أَكْرَمَتْ سَيْفَكَ غَرِبَهُ وَذُبَابُهُ

واللهُ فيه وأنتَ والإسلام
حزقا إليك كأنهم أنعام
يُطَلَى بِهَا الشَّيْآنُ والأعلام
دانوا فأحدثَ فيهم الإحرام
عنهم وحُوقَ لِسَيْفِكَ الإكرام

هذه الأبيات في وصف الحرب، التي لا أجد من نفسى القدرة على مقاومة تأثير جمالها، كانت أثراً من آثار الحياة الحديدية التي جرت إليها أبا تمام ظروف العراق والمشرق .

* *

مات المأمون، على ما يقول اليعقوبى، يوم الخميس لثلاث عشرة بقيت من رجب سنة ٢١٨ في الثغور، حيث كان يغزو بين لؤلؤة وطرسوس؛ فخال الموت بين أبي تمام وبين ما كان يبغيه .

ولسنا ندرى ماذا نال الشاعر من الخليفة، ولا كيف استقبل هذا الحادث. وليس في ديوانه رثاء له، ومع ذلك فإن نقص شعر أبي تمام لا يجعلني أقطع بأنه لم يرثه لما مات.

وكان المأمون لما خرج إلى بلاد الروم في محرم سنة (٢١٥) استخلف على بغداد إسحق بن إبراهيم بن مضعب، وهو ابن عم عبد الله بن طاهر، وولاه مع ذلك السواد، وحلوان، وكوز دجلة. فلما مات المأمون بالشعر "كان معه المعتصم، فبايعه القواد، ثم عاد إلى بغداد في مستهل رمضان؛ فأكاد يستقر بها، حتى خرجت الحمرة بالجبيل، فقتلوا وقطعوا الطريق، وأخافوا، وعرضوا لحاج نراسان فهزموهم، وقتلوا منهم جماعة. فوجه المعتصم إسحق بن إبراهيم في جيش، واستخلف إسحق على الشرط أخاه طاهرا، ونفذ فواقعهم، فقتل منهم مقتلة عظيمة، وأقام حتى أصالح البلد بعد أن نالته منهم شدة^(١)".

أما مذهب الحمرة هؤلاء، فيحدثنا ابن الأثير حديثا، يفهم منه أنهم كانوا على دين الحرمية، أصحاب بابك الخرمي، وقد سبق حديثي عنهم. فيذكر في حوادث سنة ٢١٨ "أن كثيرا من أهل الجبال، وهمذان، وأصبهان، وماسبذان وغيرها، دخلوا في دين الحرمية، وتجمعوا فعمسكروا في عمل همذان. فوجه إليهم المعتصم العساكر، وكان فيهم إسحق بن إبراهيم المصعبي (مدوح أبي تمام)؛ فعقد له على الجبال في شوال. فسار إليهم فأوقع بهم في أعمال همذان، فقتل منهم ستين ألفا، وهرب الباقون إلى بلد الروم، وقرئ كتابه بالفتح يوم التروية".

ولقد كان أبو تمام أيام غزو المأمون، بنواحي الثغور، يضطرب بين أذربيجان وإرمينية، ليمدح أبا سعيد محمد بن يوسف، وخالد بن يزيد الشيباني. ويظهر لي أنه نزل إلى الشام فزار أهله، ثم أتجه إلى الشمال ليمدح المأمون بمدائحه السالفة. وينبغي أن نلاحظ هنا أن الدفاع في الثغور، كان خطأ متصلا يبدأ على حدود إرمينية وأذربيجان، ويتجه غربا حتى يصل إلى طرسوس، على ساحل البحر الأبيض. ونجد في التاريخ ما يشير إلى اتصال حكام هذه الثغور جميعا، في الهجوم على أرض الروم، وفي الدفاع عن حدودهم، حتى يكونوا بذلك جبهة مشتركة. ونجد ذلك واضحا في اتصال أبي سعيد الثغري، وقد كان بأذربيجان، وخالد بن يزيد بن مزيد وقد كان بإرمينية، بغزوات الخلفاء حين كانوا يتجهون للهجوم على بلاد الروم. وفي وقت الحرب لا يمكن أن يستقر أحد هؤلاء القواد في مكان واحد. وهذا علة انتقال أبي تمام، وتعدد أشخاص مدوحيه في الزمن الواحد.

(ج) اتصاله بإسحاق بن إبراهيم المصعبي : لا نعرف أرحل أبو تمام مع الخليفة إلى بغداد، أم بقي في الثغور بعد رحيل الخليفة . إلا أننا نجد له شعرا في مدح إسحاق بن إبراهيم المصعبي ، الذي تحدث عنه قبلا ، والذي كان على شرطة بغداد ، ثم أرسله المعتصم لإخضاع الحمرة لما خرجوا بالجلال ، بأعمال همدان ، قال فيه قصيدة يقول جامع الديوان في رأسها إنه قالها يذكر فيها إيقاع إسحاق بالحمرة وأصحاب بابك ، وكانوا تواعدوا إلى موضع علم به ، فوقف لهم فيه ، فكل من جاء قتل ، وجرت أذنه ، حتى وجه إلى المعتصم بستين ألف أذن .

ومطلع هذه القصيدة :

خُسْنَتْ عليه ، أختَ بني خُشَيْنِ ! وأوقع فيكَ قولُ العاذِلَيْنِ
أَنَايَاً وَأَغْتَرَابَا ؟ أَي صَبِيرٍ عَلَى الْبَلَوِ يَعْتَرُسُ بَيْنَ ذَيْنِ

يقول منها :

سَلِ الْجِبَلَ الْمَنَعَ حَيْثُ أَخْنَى عَلَيْهِ زُخْرُفًا نَكِدَ وَحَيْنِ
وقال أخرى مطلعها :

أَصْنَعِي إِلَى الْبَيْنِ مَقْتَرًا فَلَا جَرَمَا إِنَّ النُّوَى أَسَارَتْ فِي عَقْلِهِ لَمَّا
ومنها :

قَزْتُ بِقُرْآنِ عَيْنِ الدِّينِ وَأَشْتَرْتُ بِالْأَشْتَرَيْنِ عَيُونَ الشَّرِكِ فَأَصْطُلِمَا
وَيَوْمَ خَرَجَ وَالْأَلْبَابُ طَائِرَةٌ لَوْلَمْ تَكُنْ حَامِيَ الْإِسْلَامِ مَا سَلِمَا
ومنها :

غَادَرْتُ بِالْجِبِلِ الْأَهْوَاءَ وَاحِدَةً وَالشَّمْلَ مَجْتَمِعَا وَالشَّعْبَ مَلْتَمِئَا

والبيت الأخير يشبه ما يقوله اليعقوبي من أنه " أقام حتى أصلح البلد " . (وقزان : كما يقول ياقوت قصبة البذين بأذربيجان ، حيث استوطن بابك الخرمي . وخيرج بالراء المهملة — وليست بالزين كما هي في الديوان — موضع) .

وقد قصده أبو تمام وهو بالجلال ، كما يبين ذلك من قصيدة ثالثة ، يتحدث فيها عن رحلته إليه ، ويظهر أنها أول قصائده فيه . يقول منها :

(١) اللهم محرّكة : الجنون (٢) أشتَر : " ناحية بين نهاوند وهمدان . (ياقوت) " . وهم يقولون : البذ والبذين ؛ كما مضى في نص ياقوت ، فلعل أبا تمام ثنى الأشتَر على قياس تنبيههم البذ .

وإلى جناب أبي الحسين تَشَنَّتْ (١)
جاءتك في معج، خوانف في البرى
بزمائها كالمُصْعَبِ المخطوم (٢)
وعوارفاً بالمعلم المأموم (٣)
حيصت ظهارته بجلد أطوم (٤)

الآبيات ... ومنها يذكر الجبال :

نفسى فداؤك والجبال وأهلها
بالداوذية وخيرج وذواتها
في طرُمسَاء من الحروب بهيم
عهد لسيفك لم يكن بذيوم

ومنها يذكر استعمال المأمون له ، ثم المعتصم من بعد المأمون :

إِنَّ الخليفة والخليفة قبله
بلواك تَرْب نصيحة وعزيم

ومنها أيضاً ما يدل أنه قصده :

مَشَتْ الخطوبُ القهقري لما رأت
خَبِيءَ إليك مؤكداً يرسي

يقول الصولي في أخباره " ما كان أشغف بشعر أبي تمام من إسحق بن إبراهيم المصعبي " (٤)
ومع ذلك فقد اختلف معه أبو تمام بعد هذه المرة بزمان رأى فهجاه .

١٠ - أبو تمام في خراسان

في خلال ذلك يكون عبد الله بن طاهر والياً على خراسان والمشرق ، وهو يومئذ من أكبر الناس . ولى المشرق منذ مات أبوه طاهر بن الحسين سنة ٣٠٧ هـ ، فنَدَّب لحكمه أخاه طلحة ، فظل حاكماً به إلى أن مات سنة ٣١٣ هـ . فأنحدر عبد الله إلى خراسان ، وقد خرج بها خوارج أوقعوا بأهل قرية الحمراء ، من أعمال نيسابور . فهدد الأرض ، ودخل نيسابور ، كما يقول ابن خلكان ، في رجب سنة ٣١٥ هـ ، وقد أمسك الغيث ، فأمطرهم السماء . وكان جواداً ، كريم النفس . وله في ذلك حكايات تشبه الحكايات التي تروى عن العرب في عصر بطولاتهم الذهبية (٥) . ولد سنة ١٨٢ هـ ، وتآدب في صغره ، وقرأ العلم والفقه ، وسمع من وكيع ، وعبد الله المأموم ، وروى عنه إسحق بن راهويه ،

(١) تشنعت الناقة : جدت في السير . والمصعب : الفحل . والمخطوم : البعير وقد جعل الخطام على أنفه .

(٢) المعج : السرعة . والخوانف من الدواب ما أزال رأسه في سيره إلى فارسه . المعلم : المعروف المشهور . والمأموم : المقصود .

(٣) الناجية : الناقة السريعة . وحيصت : خيطت . والظهارة : ضد البطانة . والأطوم : السلحفاة .

(٤) ورقة ١٠٨ (٥) ارجع إلى بعضها في النجوم الزاهرة (ج ٢ ص ١٩١ وما بعدها) .

وهو أكبر منه، ونصر بن زياد، وخلق سواهم. وكان بارع الأدب، حسن الشعر. وتقلد الأعمال الجليلة وأول ولايته مصر. ويعتده آستانى لين بول فى كتابه « تاريخ مصر فى القرون الوسطى » من أشهر قواد عصره.

(١) الرحلة إلى نراسان : وقد عرفه أبو تمام ، وقال فيه شعرا ، لما كان فى مصر (سنتى ٢١٠ و ٢١١) لإخضاع ابن السرى ، وطرده الاندلسيين من الأسكندرية .

ويظهر أن أحداث العراق قد شغلت أبا تمام منذ سنة ٢١٤ حتى هذا العهد ، (سنة ٢١٩) ، عن الذهاب إلى ابن طاهر . فما هو إلا أن يموت المأمون ، ويعود المعتصم عن الثغور إلى بغداد ، حتى يذكر أبو تمام ابن طاهر ، فيأخذ فى السير إليه .

يأخذ فى السير إليه ، وفى صدره آمال تبعث به إلى أن يقول لأحد ممدوحيه بالثغور ، (محمد ابن المستهل) ، فى قصيدة يمدحه فيها :

أنا راحل ببلاد مروراكب فى جودة الأشعار كل مجيد
ثم يطلب منه فرسا يستعين به على قطع طريقه :

فأعز ذلة رحلتى بمهذب حلو الخييل مقذذ مقود
ويسير حتى إذا بلغ قُومس ، وقد طالت عليه الشقة قال :

يقول فى قوميس صحبى ، وقد أخذت منا السرى وخطا المهرية القود
أمطلع الشمس تبغى أن تؤم بنا فقلت كلاً ولكن مطلع الجود

(ب) أولى قصائده فى ابن طاهر : يقول ابن خلكان : فلما وصل إليه أنشده قصيدته البديعة البائية ، التى يقول فيها :

وركب كأطراف الأستة عرسوا على مثلها والليل تبدو غياهبه
لأمر عليهم أن تتم صدوره وليس عليهم أن تتم عواقبه

ومطلع هذه القصيدة :

هن عوادي يوسف وصواحبه فعزما فقيداً أدرك السؤل طالبه
إذا المرء لم تستخلص الحزم نفسه فذروته للحادثات وغارب

ويقول صاحب الأغاني : إن أبا تمام لما قدم إلى خراسان ، أجمع الشعراء إليه ، وسأله أن ينشدهم . فقال : قد وعدني الأمير أن أنشده غدا ، وستسمعونني . فلما دخل على عبد الله أنشده :

* هن عوادي يوسف وصواحيه *

فصاح الشعراء بالأمير أبي العباس : ما يستحق مثل هذا الشعر غير الأمير أعزّه الله . وقال شاعر منهم ، يعرف بالرياحي : لي عند الأمير جائزة وعدني بها ، وقد جعلتها لهذا الرجل ، جزاء عن قوله للأمير . فقال : بل نضعفها لك ، ونقوم له بما يجب علينا . والقصيدة تنطق عزما ، وإقداما ، وأملا . وهو فيها يروض نفسه على الرحيل ، في سبيل تحقيق أمله . وقوة عزيمته فيها ، واختفاء ذلك الروح الحزين اليأس من غزلها ، ليس إلا رد فعل لذلك النجاح الذي لقيه في سنيه التي قضاه في العراق والنجور .

يقول منها لعاذلته في جلد وإصرار ، وأغلب الظن أنها زوجته :

وأخشن منه في الملماتِ راكبهُ	أعاذلتى ! ما أخشن الليلَ مَرَكَبًا
فأهواله العظمى تليها رغائبه	ذريني وأهوال الزمانِ أفانها ؛
أخو النجح عند الحادثات وصاحبه	ألم تعلمي أن الزماعَ على السرى
هي الوفرُ أو سرب تَرَن نوادبه	دعيني على أخلاقِي الصَّم للتي
خشونته ما لم تفل مضاربه	فإن الحسام الهندواني إنما
فقلت : أطمئني ، أنضر الروض عازبه	وقلقل نأى من خراسان جاشها

ثم يقول في وصف رحلته إلى عبد الله ، وهي عادته حين يرحل إلى ممدوحه :

وركب كأطراف الأسينة عرسوا	على مثلها ، والليل تبدو غياهبه
لأمرٍ عليهم أن تتم صدوره	وليس عليهم أن تتم عواقبه
على كل مواري الملائ تهدمت	عريكته العلياء وأنضم حاليه
رعته الفياقي بعد ما كان حقبه	رعاها ، وماء الروض ينهل ساكبه
فاضحى الفلا قد جد في بري نخضه	وكان زمانا قبل ذاك يلاعبه
فكم جرع وإد جب ذروة غارب	وبالأمس كانت أتمكته مذانبه
إليك جزعنا مغرب الملك كلما	وسطنا ملا صلت عليك سبابه

ولا أراه إلا قد وُفّق في تصوير الرحلة، وذلك الليل الرهيب الأسود، وفي ذلك المس الرفيق القلب، بتعريجه على الطبيعة يصف أنهلال ساكبها، في لفظ عذب رقيق. وهو بين ثنايا هذا الوصف، الرائع الأخاذ، الذي آستمده من طريقه إلى ابن طاهر، لا ينسى عقله ولا يغفل عن فنه الذي تمازج فيه الفكرة الشعور :

لَأَمْرِ عَلَيْهِمْ أَنْ تَمَّ صَدُورُهُ وليس عليهم أَنْ تَمَّ عَوَاقِبُهُ

(ج) مغاضبة ابن طاهر إياه : ولقد نقلت ما كتبه صاحب الأغاني، في كيف أستقبل الشعراء هذه القصيدة، وأزيد عليه قوله : "إنه لما فرغ أبو تمام من القصيدة، نثر عليه عبد الله ألف دينار فلم يمس أبو تمام منها شيئا، وآلتقطها الغلمان. فوجد عليه عبد الله، وقال : يترفع عن برى، ويتهاون بما أكرمه به، فلم يبلغ ما أراد منه بعد ذلك". و يروى الصولى إلى هذا سببين آخرين لغضب عبد الله.

أحدهما : أن أبا تمام مُجز على بابه مدّة، هو وجماعة، فكتب إليه شعرا :

أَيْهَذَا الْعَزِيزُ قَدْ مَسَّنَا الضَّرُّ رُجْمِيْعًا وَأَهْلَنَا أَشْتَاتُ

الأبيات . وقد ذكرتها قبلا . فغضب عبد الله من محاكاته القرآن .

والثانى : "وقيل : بل إن أبا تمام، لما دخل أبرشهر، هوى بها مغنية كانت تغنى بالفارسية، وكانت حاذقة طيبة الصوت . فكان عبد الله كلما سأل عنه، أخبر أنه عندها . فنقص عنده".

(د) تحقيق السبب في غضب عبد الله بن طاهر : هذه جملة الأسباب التى ينسبون إليها فساد ما بين عبد الله بن طاهر وأبي تمام، وليست تقبلها النفس جميعا قبولاً سهلاً، فإن كبرياء أبي تمام وأنفته أن يلتقط الدنانير الملقاة على الأرض، ليست من الأمور التى تهتاج نفسا كريمة كنفس عبد الله، ولأن غضب عبد الله يغلب أن يكون قد سبق إلى أبي تمام قبل أن يقول شعره الذى يقتبس فيه من القرآن، كما يظهر من قولهم : إنه كان محجوزا قبل قوله ببابه مدّة . كما أنه ليس فى قوله ما يجرح شعور مسلم . ولأن حب أبي تمام مغنية، وتردده عليها، وإن يكن من الأمور التى يستنكفها أمير كعبد الله، إلا أن معرفته بأخلاق أبي تمام الشاعر تخفف من أثره . وفى تاريخ هذا العصر ما يشبه ذلك . فقد كان أبو نواس شاعر الرشيد، وهو أكثر الناس مجونا وفسقا .

ولكن هناك شيئا آخر، هو أهم من هذه جميعا، فقد نزل أبو تمام خراسان، فمدح عبد الله بالقصيدة السابقة، واستقبله عبد الله وشعراؤه ذلك الاستقبال الجميل، ورحب به ترحيبا حقق هذه الآمال التي كان يعقدها عليه أبو تمام في مقدمه . فكان غضبة عبد الله إنما جاءت بعد مقدم أبي تمام خراسان، وبقائه فيها زمنا طويلا أو قصيرا .

لما نزل أبو تمام خراسان، أخذ يجوب أنحاءها

يسقط الطيرُ حيث يلتقطُ الحبَّ . بُ وتغشى منازلُ الكرماءِ

فمدح من يدعى عبد الله، حفص بن عمر الأزدي، وكان رئيسا من رؤساء العرب في ذلك الإقليم بقصيدة مطلعها :

عَفَّتْ أَرْبَعُ الْحَالَاتِ لِلأَرْبَعِ الْمُلْدِ لِكُلِّ هَضِيمِ الْكَشْحِ، مَجْدُولَةُ الْقَدِّ

ويسير أبو تمام في قصيدته هذه، فيصف حفصا بالبأس والقوة، ويصف قدرته على قيادة قومه في الحرب، ثم يأخذ بعد ذلك في إبداء صفحة من التاريخ . فيصف لنا نزاعا، من نوع ذلك النزاع الذي كان يشب من آونة لأخرى بين العناصر المختلفة في تلك الدولة الواسعة . فيصور ما كان بين الفرس والعرب من خصومة قامت يومئذ، ويشير إلى انقسام في صفوف العرب، بين قحطانيين وعدنانيين، وإلى أن حفصا هذا جمع بينهم . قال أبو تمام :

وَأَنْتَ وَقَدْ مَجَّتْ خِرَاسَانُ دَاءَهَا وَقَدْ نَغَلَتْ أَطْرَافُهَا نَغْلَ الْجَالِدِ (١)

وَأَوْبَاشُهَا نُحِزُّ إِلَى الْعَرَبِ الْأَلَى لِكَيْمَا يَكُونَ الْحَرْبُ مِنْ خَوَلِ الْعَبِيدِ

وَمَا قَصِدُوا إِذْ يَسْجُبُونَ عَلَى الْمَنَى بَرُودَهُمْ إِلَّا إِلَى وَارِثِ السُّبْرِدِ

وَرَامُوا دَمَ الْإِسْلَامِ لِأَمِنْ جَهَالَةٍ وَلَا خَطَأً، بَلْ حَاوَلُوهُ عَلَى عَمْدِ

فَمَجُّوا بِهِ سَمًّا دُعَافًا وَلَوْ نَأَتْ سَيُوفُكَ عَنْهُمْ، كَانَ أَحْلَى مِنَ الشَّهِيدِ

وَلَمْ يَجِدُوا إِذْ ذَاكَ مِنْ ذَاكَ مِنْ بَدٍّ وَلَمْ يَحْكَمْ فِي النِّظَامِ وَإِسْطَةُ الْعَقْدِ

وَكُنْتَ هُنَاكَ الْأَحْتَفَ الطَّبَّ فِي بَنِي تَمِيمِ بْنِ مُرٍّ، وَالْمَهْلَبَ فِي الْأَزْدِ

وَكُنْتَ أَبَا غَسَّانَ مَالِكَ وَائِلَ عَشِيَّةَ دَانِي حِلْفُهُ الْحِلْفَ بِالْعَقْدِ

عَشِيَّةَ دَانِي حِلْفُهُ الْحِلْفَ بِالْعَقْدِ

(١) نفل الجلود كفرح أفسد في الدباغة .

مَنْتَرَةُ هَذَا الْكَلْبِ لِأَنَّهُ بِهِ سَلَسَابُ الْخَيْفِ مَابِهِ .

هذه الأبيات ، على ما أرى ، هي التي أغضبت عبد الله بن طاهر على أبي تمام . فقد كان عبد الله ينحدر من أصل فارسي ، فأبوه طاهر بن الحسين بن مصعب بن زريق بن ماهان ، وفي رواية أخرى زريق بن أسعد بن راذويه ، وفي رواية ثالثة : أسعد بن زاذان . كما يقول ابن خلكان .

ويقول عن جده مصعب أوعن طاهر نفسه — ففي العبارة ما يفهم منه الأمران — "إنه كان خراعيًا بالولاء" . ويقول اليعقوبي في ترجمته : "البوشنجي" . وبوشنج بقرب هراة في خراسان .

فإذا قال أبو تمام عن فرس خراسان ، وهم الذين كانوا يترقبون الفرصة للوثوب :
وَأَوْبَاشُهَا نُحْزِرُ إِلَى الْعَرَبِ الْأَلَى لِكَيْمَا يَكُونَ الْحُرُّ مِنْ خَوَلِ الْعَبْدِ
أحس عبد الله أمر ما يحسه الإنسان إذا مُسَّتْ قوميته .

وإذا قال أبو تمام :

لِيَالِي بَاتَ الْعِزُّ فِي غَيْرِ أَهْلِهِ وَعُظْمُ وَغْدِ الْقُومِ فِي الزَّمَنِ الْوَعْدِ

وكان الأمير عبد الله من هؤلاء الذين يدعوهم أبو تمام بالأوغاد ، وأبو تمام هذا هو صاحب الأنفة العربية ، التي قد تكون أثارت بنفس عبد الله شيئاً ، حين استكبرت على عطائه وجزائه ، فإن هذا يصبح جارحاً ثقيلاً .

وإذا قال أبو تمام ، وإن قصد بها إلى غير عبد الله :

وَمَا قَصَدُوا إِذْ يَسْجَبُونَ عَلَى الْمَنَى بَرُودَهُمْ إِلَّا إِلَى وَارِثِ الْبُرْدِ

وكان الحسين بن طاهر هو خالع الخليفة المأمون ، وتارك الدعاء له على المنبر في سنة ٢٠٧ ، وجد عبد الله في هذا البيت شيئاً من السعاية الخبيثة به ، هو بلا ريب كاره صاحبها وحاجبه عنه . قد يكون أبو تمام قصد إلى هذا ، وقد لا يكون قصد إليه ، وإنما كان أندفاعه في مدح صاحبه العربي ، ولكن مالا أكاد أشك فيه ، هو أن هذه الأبيات تغضب رجلا يمت إلى الفارسية بسبب . ويظهر أن عبد الله لم يصرح بسبب غضبه هذا ، ضنا بنفسه أن ينسب إلى عصبية . فلم يعرف أبو تمام ، أو لم يجزؤ أن يعتذر عنها هيبة . ولكن أبا تمام أتى خراسان ممثلاً أملاً وعزماً ، فعز عليه أن يعود صفر اليدين ، فبقى يضرب في أنحاء خراسان . فترل أبرشهر ، وأحب تلك المغنية ، وشغف بحبها حتى ما كان يكاد يفارقها ، كما مضى في أخبار الصولي ، وقال فيها شعراً :

أَيَا سَمَرِي بَلِيلَةَ أَبْرَ شَهْرٍ
شَكَرْتُكَ لَيْلَةَ حُسْنَتْ وَطَابَتْ
إِذَا وَهَدَاتُ أَرْضَ كَانَ فِيهَا
سَمِعْتُ بِهَا غِنَاءً كَانَ أُخْرَى
وَمُسْمِعَةً تَقُوتُ السَّمْعَ حُسْنًا
مَرَّتْ أَوْتَارَهَا فَشَجَّتْ وَشَاقَتْ
وَلَمْ أَفْهَمْ مَعَانِيهَا وَلَكِنْ
فَيْتُ كَأَنِّي أَعْمَى مُعْنَى
ذَمَّتْ إِلَى نَوْمِي فِي سِوَاهَا
أَقَامَ سُورُورُهَا وَمَضَى كَرَاهَا
رِضَاكَ، فَلَا تَحِنُّ إِلَى رُبَاهَا
بَأَنَّ يَقْتَادَ نَفْسِي مِنْ عَنَاهَا
وَلَمْ تُصِمِّمَهُ لَا يُصَمِّمَ صَدَاهَا
فَلَوْ يَسْطِيعُ سَامِعُهَا فَدَاهَا
وَرَّتْ كَيْدِي، فَلَمْ أَجْهَلْ شَجَاهَا
بِحُبِّ الْغَانِيَاتِ وَمَا يَرَاهَا

(هـ) محاولته إصلاح ما بينه وبين ابن طاهر : ولم يغفل الأمير خلال ذلك عن الشاعر ، فكان يسأل عنه فيُخبر أين هو . ويظهر أن أبا تمام كان بعث إليه برقعة فيها شعره ، فلم يحبه عبد الله ، فقال مرة ثانية يمدحه ، ويوسط بينه وبينه ، شاعره أبا العميثل :

لَيْتَ الظُّبَاءَ أبا الْعَمَيْثِلِ خَبَرْتُ خَبَرَا يَرْوِي صَادِيَاتِ الْهَامِ

ولست أرى ما هو مكتوب في رأس القصيدة بالديوان من أنه قالها ، لأن عبد الله كان وقع له بشيء فتأخر عنه . ولقد طال بقاؤه في خراسان ، وحل عليه وهو بها الشتاء ، وكان قارس البرد فقال :

لَمْ يَبْقَ لِلصَّيْفِ لَارِسٌ وَلَا طَال وَلَا قَشِيبٌ فَيَسْتَكْسِي وَلَا سَمَلٌ
عَدْلٌ مِنَ الدَّمْعِ أَنْ يَبْكِيَ الْمَصِيفُ كَمَا يُبْكِي الشَّبَابُ وَيُبْكِي اللَّهُوُ وَالْغَزَلُ

والبيتان يريان مقدار حاجته في ذلك الشتاء . وأخذ يحل به اليأس ، وتنهار آماله ، التي بناها وهو آت ، وأحس وحدته وغربته ، فأخذ يبكيها جميعا :

صَرِيحٌ هَوَى تُغَادِيهِ الْهُمُومُ بَنِيْسَابُورَ لَيْسَ لَهُ حِمِيمٌ
غَرِيبٌ لَيْسَ يُؤْنِسُهُ قَرِيبٌ وَلَا يَأْوِي لِغَرِيبَتِهِ رَحِيمٌ
مَقِيمٌ فِي الدِّيَارِ نَوَى شَطُونُ يَشَافُهُ بِهَا كَمْدٌ قَدِيمٌ
يُمَدُّ زِمَامُهُ طَمَعٌ مَقِيمٌ تَدْرَعُ ثَوْبَهُ رَجُلٌ عَدِيمٌ
رَجَاءٌ مَا يَقَابِلُهُ رَخَاءٌ هُوَ الْيَأْسُ الَّذِي عَقْبَاهُ سُومٌ

ثم يذكر أهله وداره بالشام؛ وقد رأينا كيف تركها إلى خراسان أول الأمر، مليئا بالعزم والأمل:

فقد فارقتُ بالغرْبِ دارا بأرض الشام خَفَّ بها النعمُ
وكنْتُ بها المَنَّعَ غيرَ وَغْدٍ ولا نَكِيذٍ إذا حلَّ العَظِيمُ
فإنَّ أَلْكَ قد حَلَّتْ بِدارِ هَوْنٍ صَبَوْتُ بها فقد يصبو الحَكِيمُ
أَلُومَكَ لا أَلُومَ سِوَاكَ دَهْرًا قَضَى لِي بِالذِي يَقْضَى سُدُومُ^(١)
إذا أنا لَمْ أَلَمْ عَثَرَاتِ دَهْرٍ أَصَبْتُ بها الغَدَاةَ فَمَنْ أَلُومُ
سوفي الدنْيَا غَنَّى لَمْ أَنْبُ عَنْهُ ولكن ليس في الدنْيَا كَرِيمُ

(و) رضا ابن طاهر: ولم ينقطع أبو تمام عن باب ابن طاهر في خراسان، وحثت سنة ٢٢٠ وهو فيها. يقول جامع ديوان أبي تمام، إن أبا تمام كان ينسأ بور، على باب عبد الله بن طاهر، فخرج أبو العميشل حاجبه برقعة فيها بيتان من شعر قاهما عبد الله؛ فقال لأبي تمام: قل في معنى هذين البيتين ووزنهما، وهما في الأفشين. وكان يحارب بابك في مدينة أرسق. والأفشين وجه إلى حرب بابك سنة ٢٢٠، وفيها كانت موقعة أرسق هذه. وكأنما كان عبد الله يريد بذلك إرغام أبي تمام على مدح أعجمي قح، أنتقاما منه، وتنكيلا بتلك العصبية التي دفعت بأبي تمام إلى قول شعره السابق، فقال أبو تمام قصيدته:

غدا المُلْكُ معمورَ الحرِّ والمنازلِ منورَ وَحْفِ الرُوضِ عذب المناهلِ^(٢)

وهذه القصيدة أول شعر قاله في مدح الأفشين. وكأنما أحس أبو تمام لذلك كرها، فبدأ القصيدة بمدح الخليفة، وختمها بمدح الخليفة، ومدح فيما بين ذلك الأفشين. ومن هذه القصيدة الأبيات المشهورة:

تَسْرَبَلُ سِرْبَالًا مِنَ الصَّبْرِ وَارْتَدَى عَلَيْهِ يَعْضُظُ فِي الكَرِيهِةِ فَاصِلِ
وقد ظَلَّتْ عِقْبَانُ أَعْلَامِهِ ضَحَى بِعِقْبَانِ طَيْرٍ فِي الدَّمَاءِ نَوَاهِلِ
أَقَامَتْ مَعَ الرَايَاتِ حَتَّى كَانَهَا مِنَ الْجَيْشِ إِلَّا أَنَّهَا لَمْ تَقَاتِلِ

(١) سدوم: يقال أجور من قاضى سدوم. وسدوم قرية قوم لوط، أو بلد بمحس سمي باسم ملك ظالم.

(٢) الحر والحراة الناحية والوحف من النبات: الريان.

ويظهر أن الأبيات السابقة إلى أبي العميش قد عملت عملها . يقول الصولي " فدخل على عبد الله بن طاهر ، فقال له : أيها الأمير ! والغضب على من حمل إليك أمله من العراق ، وكدّ فيك جسمه وفكره ، ومن يقول فيك :

* يقول في قوميس صَحْبِي وقد أخذت *
قال : فدعا به وناداه يومه ذلك ، وخلع عليه ، ووهب له ألف دينار وخاتماً^(١) .

ولم يكن مع ذلك يسلم من عنت عبد الله . ينقل الصولي عن المبرد أنه قال : " مات أبنان لعبد الله بن طاهر في يوم واحد ، فدخل عليه أبو تمام ، فأنشده :

ما زالت الأيام تخير سائلا أن سوف تفجع مُسْهِلا أو غافلا
إلى أن بلغ منها قوله :

لو ينشأن إكان هذا غاربا للكرُمات وكان هذا كاهلا
إنّ الهلال إذا رأيت مُؤَوّه أيقنت أن سيكونُ بدرا كاملا

قال : فلما سمع عبد الله ذلك ، وكان يتعمته كثيرا ، قال : قد أحسنت ، ولكك تؤسفني وليس تعزيني ، فلما قال :

قُلْ للأمير وإن لقيت مُوقَرّاً منه برّيب الحادثات حُـلَاحِلا^(٢)
... الأبيات . قال : الآن عزيت " .

يقول الصولي : " وحلّ الشتاء ، فاشتدّ عليه أمر البرد ، فقال شعره الماضي في الشتاء " .

١١ - في أذربيجان ثانية

مع أبي سعيد الثغري في حروب بابك : كان بدء المحرم من سنة ٢٢٠ يوافق (١٠ طوبه سنة ٥٥١ و ٥ يناير سنة ٨٣٥) أي أن أول تلك السنة وقع في قلب الشتاء . وقد وجه المعتصم في هذه السنة بالأفشين لحرب بابك ، بعد أن عقد له على الجبال . وقبل ذلك ، كان أبو سعيد ، محمد بن يوسف الطائي بأذربيجان بأمر المعتصم . فيقول الطبري : " إنه لما أفضى الأمر إلى المعتصم ، وجه أبا سعيد إلى أردبيل ، وأمره أن يبني الحصون التي نهىها بابك فيما بين زنجان وأردبيل ، ويجعل فيها الرجال مسالّح ، لحفظ الطريق لمن يجلب الميرة . ففعل . ووجه بابك سرية

له في بعض غاراته ، وصير عليهم رجلا اسمه معاوية ، فأغار على بعض النواحي ، ورجع منصورا . فبلغ ذلك أبا سعيد ، فخرج إليه وواقعه ، وهزمه ، وهي أول هزيمة على أصحاب بابك ^(١) .

فلما جاء الأفشين أذربيجان ، كان من بين قواده أبو سعيد . وقد أنزله برستاق يسمى (خش) ، وأنزل قائدا آخر برستاق (أرشق) . وفي هذه السنة (٢٢٠) ، كانت بين بابك والمسلمين موقعة مشهورة في شعر أبي تمام ، يذكرها دائما في مدحه أبا سعيد . وهي موقعة أرشق . يقول ابن الأثير : "وفيها هزم بابك ، ولم يفلت من رجاله أحد ، وأفلت هو في نفر يسير من خياله ، ودخل موقان وقد تقطع عنه أصحابه ، ورجع عنه الأفشين إلى برزند ^(١) ، وأقام بابك بموقان ، وأرسل إلى البذ ، بجاءه عسكر ، فرحل بهم من موقان حتى دخل البذ " .

وقد رأينا أبا تمام قبل الآن في خراسان ، عند عبد الله بن طاهر يقول شعرا في موقعة أرشق هذه ، وفي الأفشين . فكأنه لم يشهد أرشق في أذربيجان . ولكن شعره الذي قاله في أحداث هذه الفترة ، مذكور فيه ما يفهم أنه قاله قبل أن يؤخذ بابك . وبابك إنما أخذ سنة ٢٢٢ ، فلما أخذ قال أبو تمام في ذلك شعرا .

ترك أبو تمام خراسان بعد زمن موقعة أرشق في سنة ٢٢٠ ، راحلا إلى أذربيجان ، حيث كان صاحبه أبو سعيد الطائي ينتصر في الحرب مع الأفشين على بابك . ويظهر أن أبا تمام أخذ يجد بعد سنة ٢١٤ لذة في شهود هذه المعارك ، الدائرة رحاها بين المسلمين وغيرهم . جاء إليها فظل بقية سنة ٢٢٠ وطيلة سنة ٢٢١ ، يستمد شعره في ممدوحه أبي سعيد ، من أنتصاره أول مرة على معاوية قائد بابك ، ومن بلائه في موقعة أرشق . جاء إلى أبي سعيد وهو يذكر أن أول نجاح قد لقيه في هذه الناحية ، فتجدد عزيمته ، ونسمع من غزله في أول قصيدة له في أبي سعيد بعد رجعه ، تلك النغمة التي سمعناها منه أول مقصده ابن طاهر ، أيام كان يمتلئ أملا وعزما . يبدوها بقوله :

غَدْتُ تَسْجِيرُ الدَّمْعَ خَوْفَ نَوَى غِدِّ وَعَادَ قَتَادًا عِنْدَهَا كُلَّ مَرْقِدِ

ومنها :

وَلَكِنِّي لَمْ أَحْوَ وَفَرَا جُجَعًا فَقُزْتُ بِهِ إِلَّا بِشَمْلِ مُبَدِّدِ

وَلَمْ تَعْطِنِي الْأَيَّامُ نَوْمًا مُسَكَّنًا أَلَّذُ بِهِ إِلَّا بِنَوْمِ مُشَرِّدِ

(١) يقول ياقوت : برزند : الدال مهملة : بلد من نواحي تفليس من أعمال جرجان من إرمينية الأولى . كان أول من عمرها الأفشين ، وجعلها معسكرا له بعد أن كانت خرابة . ويعدها أبو سعد من نواحي أذربيجان . (١)

وطولُ مُقامِ المرءِ في الحى مُخلَقٌ لِدَيْبِاجِيَّتِهِ فَأَغْتَرِبَ تَجَدَّدِ
فإني رأيتُ الشمسَ زِيدتُ محبةً إلى الناسِ أنْ لَيْسَتْ عَلَيْهِمْ بِسَرْمِدِ

ومنها يذكّر محمد بن حميد الطوسي، قتيلا سنة ٢١٤ ولم يكن نسيه :

لقد كَفَّ سَيْفُ الصَّامِتِيٍّ مُحَمَّدٍ تَبَارِيحُ نَارِ الصَّامِتِيٍّ مُحَمَّدٍ

والصّاميتيون جماعة من طيء، منهم محمد بن يوسف، وهو المقصود في الشطر الأول، ومحمد ابن حميد، وهو المقصود بالشطر الثاني، ثم يذكّر هزيمة معاوية التي تحدّثت عنها :

عدا الليلُ فيها عن معاوية الردى وما شكَّ ريبُ الدهرِ في أنه رَدِي^(١)

ثم يقول في موقعة أرشق، وهرب بابك إلى موقان :

وفي أرشقٍ الهيجاءِ والخيلُ ترتجى بأبطالها في جاحمٍ متوقِّدِ
عَطَطَتْ على رغمِ العدا عزمَ بابك بعزيمِك عَطَّ الأَثْمَى المعضِّدِ
فإنْ لا يَكُنْ وَلِيٌّ بِشِلْوٍ مَقْدِدِ هناك فقد وَلَّى بعزمِ مَقْدِدِ
وقد كانتِ الأرواحُ أبصرن قلبه فأرمدَها سِترُ القُضَاءِ المَدَدِ
وموقان كانت دارَ هجرته فقد تورَّدتْها بِالْخَيْلِ أَيْ تَوَرَّدِ
حطَّطَتْ بها يومَ العروبةِ عزَّه وكان مقيما بين نَسِيرٍ وفرقِدِ
رآكَ سديدَ الرأيِ والريحِ في الوغى تَأَزَّرُ بِالْإِقْدَامِ فِيهِ وَتَرْتَدِي

ويقول في وصف هربه :

فَمَرَّ مطيعا للعوالي مُعوِّدا مِنْ الخوفِ والإحْجَامِ مَا لَمْ يَعُوِّدِ
ثم يتحدث في آخرها عن رحلته إلى أبي سعيد :

إليك هتكا جُنَحَ لَيْلٍ كَأَنَّهُ قَدَا كَتَحَلْتُ مِنْهُ الْبِلَادُ بِإِثْمِدِ

إلى آخر القصيدة .

تظل شاعرية أبي تمام تستمد فيضها من هذه الوقائع، بين أبي سعيد و بابك، حتى سنة ٢٢٢ حين يؤخذ بابك . غير أن حضوره الوقائع بعد أرشق، ورؤيته الجيوش تتحرك وتقاتل، يعطيه ما يضيفه إلى ما في القصيدة السابقة من نواح طرقها . يأخذ في وصف الجيش على ما يراه . وليس وصف الجيوش جديدا لديه فنسمعه في قصيدته :

(١) يقال : عدا عن الأمر عدوا وعدوانا : صرفه وشغله .

يَبْعُدُ غَايَةَ دَمْعِ الْعَيْنِ مَا بَعْدُوا هِيَ الصَّبَابَةُ طَوْلَ الدَّهْرِ وَالسُّمْدِ
يقول :

لَقِيْتَهُمُ وَالْمَنَايَا غَيْرُ دَافِعَةٍ لِمَا أَمَرْتَ بِهِ ، وَالْمُلْتَقَى كَبَدُ
فِي مَوْقِفٍ وَقَفَ الْمَوْتُ الدُّعَافُ بِهِ فَالْمَجْدُ يُوجَدُ وَالْأَرْوَاحُ تُفْتَقَدُ
فِي حَيْثُ لَا مَرْتَعُ الْبَيْضِ الرِّقَاقِ ، إِذَا أَصْلَتُنْ ، جَذَبَ وَلَا وِرْدَ الْقَنَا ثَمْدُ^(١)

إلى أن يقول :

صَدَعَتْ جِرَيْتُهُمْ فِي عُصْبَةٍ قُلِيلٍ قَدْ صَرَحَ الْمَاءُ عَنْهُمْ وَأَنْجَلَى الزَّبَدُ^(٢)
مِنْ كُلِّ أَرْوَعٍ تَرْتَاغُ الْمَنْوُونُ لَهُ إِذَا تَجَرَّدَ لَا نِكْسُ وَلَا جَحْدُ
يَكَادُ حِينَ يَلَاقِي الْقِرْنَ مِنْ حَنْقٍ قَبْلَ السَّنَانِ عَلَى حَوْبَائِهِ يَرِدُ
قَلُّوا وَلَكِنْهُمْ طَابُوا فَانْجَدَهُمْ جَيْشٌ مِنَ الصَّبْرِ لَا يُحْصَى لَهُ عَدَدُ
إِذَا رَأَوْا لِلْمَنَايَا عَارِضًا لِبَسُوا مِنَ الْيَقِينِ دُرُوعًا مَا لَهَا زَرْدُ
نَاوَا عَنِ الْمَصْرَخِ الْأَدْنَى فَلَيْسَ لَهُمْ إِلَّا السَّيُوفُ عَلَى أَعْدَائِهِمْ مَدَدُ

ثم يذكر معاوية :

وَلَّى مُعَاوِيَةَ عَنْهُمْ وَقَدْ أَخَذَتْ فِيهِ الْقَنَا فَأَبَى الْمَقْدَارُ وَالْأَمَدُ
نَجَّكَ فِي الرُّوْعِ مَا نَجَّى سَمِيكَ فِي صَفَيْنَ ، وَالْخَيْلُ بِالْأَبْطَالِ تَجْرِدُ
إِنْ تَنَفَّلْتَ وَأَنْوَفَ الْمَوْتِ رَاغِمَةً فَأَذْهَبَ فَأَنْتَ طَلِيقُ الرِّكْضِ بِالْبَدُ

ومنها يذكر بابك :

كَأَنَّ بَابَكَ بِالْبَدْنَيْنِ بَعْدَهُمْ نُؤَى أَقَامَ خِلَافَ الْحَيِّ أَوْ وَتَدُ

وفي هذه الفترة قال قصيدته :

أَبَى فَلَا شَنْبًا يَهْوَى وَلَا فَلَجًا وَلَا أَحْوَارًا يَرَاعِيهِ وَلَا دَعَجًا

(١) التمد والتمد محركة : الماء القليل .

(٢) في طبقات الديوان جرية : وجرية مصدر جرى يقال : جرى جريا وجريانا وجرية . وأولى بها أن تكون جرية بالباء المنقوطة بواحدة حتى ينسق مع عبارته (صدعت) . والجربة : بالكسر جلدة توضع على شفير البئر حتى لا ينتثر الماء فيه ثانية بعد ما خرج منه . فهي أشبه منه بالوقاء إن تصدع آثان ماؤه . والقليل : القليلو العدد .

ومما يدل على أنها قيلت قبل أخذ بابك قوله منها :

إِنْ يَنْجُ مِنْكَ أَبُو نَصِيرٍ فَعَنْ قَدْرِ
قَدْ حَلَّ فِي صَخْرَةِ صَمَاءٍ مُعْنِقَةٍ

تتجو الرجال ولكن سلته كيف نجا
فانحت برأيك في أوعارها درجا^(١)

ومنها يذكر محمد بن حميد :

تَنَعَّى مُحَمَّدًا الشَّادِي رَمَاحَهُمْ
وَيَسْفَحُونَ عَلَيْهِ عَبْرَةَ نَشْجَا



ومن القصائد التي يمكن أن يكون قالها في هاتين السنتين قصيدته :

أَمَّا إِنَّهُ لَوْلَا الْخَلِيطُ الْمَوْدَعُ
وَرُبْعٌ خَلَا مِنْهُ مَصِيفٌ وَمَرِيعٌ

فهو يقول منها :

لَدَى سَنْدَبَايَا لَا تَهَابُ وَأَرْشِقُ
وَأَبْرَشَتَوَيْمَ وَالْيَسَارِ وَمُلْتَقَى

وموقان، والسمر اللدان تزعزع
سنايكها والخيْلُ تَرْدِي وَتَمَزَعُ^(٢)

١٢ - ميزات شعره في هذا الطور وبعد هذه الرحلة

رحلة أبي تمام الى خراسان، ختام طور من أطوار تاريخ شعر أبي تمام ، وبدء طور جديد يتميز عن جميع عهوده الماضية . فبعد رجعة أبي تمام من خراسان ، يبدأ دور أنضج شعره وأكمله . ففي قصائده طول غير متكلف ، وخصب واضح ولين ، وفي التيار النفسي الجارى فيها أريحية وحلاوة ، وفي حسه تركيز وعمق . وإن الانسان ليسمع قوله :

لَقَدْ سَاسَنَا هَذَا الزَّمَانُ سِيَاسَةً
تَرَوُّحُ عَلَيْنَا كُلَّ يَوْمٍ وَتَغْتِيدِي
يَدَأْفُ لَهُ سَمٌّ مِنَ الْعَيْشِ مُنْقَعٍ^(٣)
سُدِّي ، لَمْ يَسْمَحْ قَبْلَ عَبْدٍ مَجْدَعٍ
خُطُوبُ كَأَنَّ الدَّهْرَ مِنْهُنَّ يُصْرَعُ
يَدَأْفُ لَهُ سَمٌّ مِنَ الْعَيْشِ مُنْقَعٍ^(٤)

(١) المعنق كمحسن : ما طال وارتفع من الأرض .

(٢) كل هذه أسماء بلاد بالناحية كانت بها وقائع . وبالديوان والبيات ، بالناء . ولم أجد لها في كتب الجغرافيا القديمة . لكن هناك البيار بالراء . يقول عنها ياقوت : " مدينة لطيفة من أعمال قومس " ويقول أبو الفداء في تقويم البلدان ، عن قومس : " صقع كبير فيه بلاد كثيرة وقرى . وهو بين خراسان وبلاد الجبل ... ومن مدنه بسطام وبيار " .

(٣) مجدع كعظم : مقطوع الأذن . (المحيط) (٤) الدوف : الخلط والبلل بالماء ونحوه .

فيدرك أى رجل غدا أبو تمام ، ويعلم فرق ما بين هذا البلاء للدنيا ، الخالق لاطمئنان إلى أحداثها ،
شبيهه باليأس ، وبين قوله أيام نزوحه في حديثه عن مصر :

فَقَنَّنِي يَا سَيِّ وَأَعْلَمُ أَنَّنِي مَقُودٌ بِجَبَلٍ لِلْقَادِرِ مُدَجِّجٌ

ويعرف كيف استحالت نظراته في فنه ، من تخطفات ولحات عاجلة للأشياء ، إلى تأملات
طويلة تُجَدَّب من أصول الحياة آجتذا ، يقصد فيه إلى أغزر ما في الوجود من معان . وتأمل
إنجازه هذا المعنى القريب إلى الناس جميعا ، ومن أين أخذ تشبيهه ، وأى علاقة ربط بها المعنى والصورة :

لَقَدْ آسَفَ الْأَعْدَاءَ مَجْدُ آبْنِ يَوْسِفَ وَذُو النِّقْصِ فِي الدُّنْيَا بِذِي الْفَضْلِ مُوَلِّعُ
أَخَذْتُ بِجَبَلٍ مِنْهُ لَمَّا لَوَيْتُهُ عَلَى مِرَرِ الْأَيَّامِ ظَلَّتْ تَقَطُّعُ^(١)
هُوَ السَّيْلُ إِنْ وَاجَهْتَهُ أَنْقَذَتْ طَوْعَهُ وَتَقْتَادُهُ مِنْ جَانِبَيْهِ فَيَتَّبَعُ

وإن هذا التساند بين الأبيات ، وعلاقة بعضها ببعض حتى ليكمل أحدها معنى الآخر ، مع تلك
المراعاة الصادقة لفصل كل بيت عن الآخر فصلا تاما تبعا للتقليد الشعري العربي ، إن هذا يرى
مبلغ نظر أبي تمام إلى فنه ، ويبين عن مقدار تطور هذا الفن بعد رجعته من خراسان إلى آخر أيامه .

كان لكل رحلة من رحلات أبي تمام أثر واضح في شعره . ولقد تلبعت في تاريخ حياته كل
تطور هام في شعره ، وقصدت إلى أن أنبه عليه في وقته . فقلت إنه بدأ يتحدث عن الرحلات
في شعره الذي قاله بعد خروجه من مصر ، وقلت إنه بدأ يصف الحرب والجيوش لما نزل العراق
وأذربيجان منذ سنة ٢١٤ ، وأنا قائل الآن إن سنة ٢٢٠ وما بعدها من حياته ، هي السنين التي
يبدو فيها خصب أبي تمام النفس بأجلى ما ظهر في شعره طول حياته . أما مظاهر هذا الخصب
النفسى فقد نهت عليها قبيل هذا . وسأنبه عليها كلما وجد مجال لذلك التنبيه .

١٣ - نهاية أمر الخرمية

١ - الاستيلاء على البذ : في سنة ٢٢٢ فتحت البذ ، مدينة بابل ، ودخلها المسلمون ،
وخربوها وأستباحوها ، وذلك لعشر بقين من رمضان .

وفي هذا الفتح كان مع الأفشين ، جعفر الخياط ، وكان أول من أشتبك مع الخرمية على باب
مدينتهم ، وساعده في ذلك جماعة من المطوعة ، تحت إمرة أبي دلف العجلي ، ممدوح أبي تمام .

(١) المرة : بالكسر القوة ، وطافة الحبل : جمعها مرر وأمرار .

يقول ابن الأثير عنهم : « وقد تعلقوا بالبذ وأثروا به أثرا ، وكادوا يصعدونه فيدخلون البذ » . ولم يساعدهم الأفشين في هذا اليوم ، لما كان يعلم من كمين الخرمية لهم ، ولكنه كان لا يعرف أين كان ذلك الكمين ، فكان يصابهم ليعرفه .

ولما جاء موعد الهجوم على البذ ، رتب الأفشين قواده ، بحيث كان تل البذ محاصرا من كل مكان ، ثم هاجم المدينة بقواده الأربعة . فكان جعفر مما يلي الباب ، وإلى جانبه أبو سعيد ، ودارت الحرب وأشتد الضيق بمن في المدينة ، وطالب بابك أمان أمير المؤمنين ، ولكنه طلب التأجيل إلى الغد ، فنصحته الأفشين بأن يكون ذلك اليوم ، وأن يرسل الرهائن ، فقبل . وبينما الأفشين في تلك المفاوضات إذ أتاه الخبر أن طلائع عسكر المسلمين قد دخلوا المدينة ، وأنهم يحاصرون بابك في قصر من قصوره . فركب وصاح بالناس ، فدخل ودخلوا معه ، وصعد الناس بالأعلام فوق قصور بابك ، وكان قد كمن في قصوره ومعه ستمائة رجل ، فخرجوا على الناس فقاتلوهم ، ومروا بابك حتى دخل الوادي الذي يلي هشتادسر . وأشتغل الأفشين ومن معه بالحرب على أبواب القصور ، فأحضر التناطين فأحرقوها ، وهدم الناس القصور ، فقتلوا الخرمية عن آخرهم . وأخذ الأفشين أولاد بابك وعياله ... وأما بابك فإنه سار فيمن معه . وكتب الأفشين إلى ملوك إرمينية وبطارقهم يعلمهم أن بابك قد هرب وعدة معه ، وهو ماز بكم . وأمرهم بحفظ نواحيهم ولا يمتز بهم أحد إلا أخذوه حتى يعرفوه .

وجاءت جواسيس الأفشين إليه فأعلموه بموضع بابك . وكان في واد كثير الشجر والعشب ، طرفه بأذربيجان ، وطرفه الآخر بإرمينية ، ولم تكن تستطيع الخيل نزوله ، ولا يرى من يستخفي فيه ، لكثرة شجره ومياهه ... فوجه الأفشين إلى كل موضع فيه طريق إلى الوادي جماعة من أصحابه يحفظونه .

ولكن بابك تمكن من الإفلات من ذلك الوادي ، وأخذ معه أمه ومعاوية الذي مر ذكره ، فسار على وجهه في جبال إرمينية . يقول ابن الأثير : « وكان بطارقة إرمينية قد تحفظوا بنواحيهم ، وأوصوا ألا يجتاز بهم أحد إلا أخذوه حتى يعرفوه . وأصاب بابك الجوع ، فرأى حراثا في بعض الأودية ، فقال لغلامه : أنزل إلى هذا الحراث ، وخذ معك دنائير ودراهم ، فإن كان معه خبز فاشتر منه . وكان للحراث شريك قد ذهب لحاجة ، فنزل الغلام إلى الحراث ليأخذ منه الطعام ، فرآه رفيق الحراث ، فظن أنه يأخذ ما معه غصبا ، فعدا إلى المسلحة ، وأعلمهم أن رجلا عليه سيف

وسلاح، قد أخذ خبز شريكه . فركب صاحب المسلحة، وكان في جبال ابن سنباط، فوجه إلى سهل ابن سنباط فركب في جماعة، فوافى الحراث والغلام عنده، فسأل عنه، فأخبره الحراث خبره، فسأله . فأخبره الغلام عن مولاه ودله عليه . فلما رأى وجه بابك عرفه، فترجل له وأخذ يده فقبلها، وقال : أين تريد ؟ قال : بلاد الروم . قال : لا تجد أحدا أعرف بحقك مني، وليس بيني وبين السلطان عمل، وكل من ههنا من البطارقة إنما هم أهل بيتك ... نخدعه ابن سنباط حتى صار إلى حصنه . وأرسل بابك أخاه عبد الله إلى حصن أصطفانوس، فأرسل ابن سنباط إلى الأفشين يعلمه بذلك . فكتب إليه الأفشين يعده ويمنيه، ووجه إليه أبا سعيد (محمد بن يوسف الثغري) وآخر، وأمرهما بطاعة ابن سنباط . وأمرهما ابن سنباط بالمقام في مكان سماه، وقال : لا تبرحا حتى يأتيكما رسول، فيكون العمل بما يقول لكما . ثم إنه قال لبابك : قد ضجرت من هذا الحصن، فلو نزلت إلى الصيد؟ ففعل . فلما نزل من الحصن أرسل ابن سنباط إلى أبي سعيد ورفيقه، فأمرهما أن يوافياه : أحدهما من جانب وادٍ هناك، والثاني من الجانب الآخر . ففعلا ... فبينما بابك وابن سنباط يتصيدان، إذ خرج عليهما أبو سعيد وصاحبه في أصحابهما، وعلى بابك درّاعة بيضاء، فأخذهما ... وأركبه أبو سعيد، وساروا به إلى الأفشين، وسير معه سهل بن سنباط ابنه معاوية، فأمر له الأفشين بمائة ألف درهم، وأمر لسهل بألف ألف درهم، ومنطقة مغرقة بالجواهر وتاج البطرقة ... وكتب إلى المعتصم بذلك، فأمره بالقدوم به عليه . وكان وصول بابك إلى الأفشين ببرزند، لعشر خلون من شوال سنة ٢٢٢ .



قد أكون أسهبت في ذكر ما كان في هذه المعركة، ولكن ذلك شيء لا بد منه . فكل خطوة من هذه الخطوات مذكورة في شعر أبي تمام . ولقد مدح أبو تمام ممن أشتركوا في هذه المعركة أبا سعيد الثغري . وفي مدحه له ما يفيد أنه هو الذي أخذ بابك، فلولم يفهم أنه هو الذي تسلم بابك من أسريه بن سنباط، لعدّ أبو تمام مغاليا، أو ظهر بمظهر من لم يفهم الأحداث التي كانت تجري حوله .

أتصاله بأبي دلف العجلي :

ومن مدحهم من قوادها أيضا، أبو دلف العجلي . وقد رأينا كيف كان على رأس المتطوعة . وكانت يقيم تارة بالجبال، وتارة بالعراق . يذكر يا قوت في كلامه على مادة "الجبال" أن أبا دلف العجلي قال :

وإني أمرؤ كسروى الفعال أصيفُ الجبال وأشتو العراقا
والبس للحرب أثوابها وأعتيق الدارعين أعتناقا

ولمّا اختار أبو دلف ذلك ، ليسلم من سمائم العراق وذبابه ، وهوامه وحشراتة ، وسخونة مائه وهوائه . واختار أن يشتو بالعراق ، ليسلم من زمهرير الجبال ، وكثرة ثلوجه ... وبلغ هذان البيتان إلى عبد الله بن طاهر ، وكان سيّئ الرأي في أبي دلف ... فقال أبياتا أولها :

ألم تر أنّا جلبنا الخيول إلى أرض بابل قُبّا عتقا

وختامها :

وأنت أبا دلف ناعم تصيفُ الجبال وتشتو العراقا

فلما وقف أبو دلف على هذه الأبيات آلى على نفسه لا يصيف إلا بالعراق ، ولا يشتو إلا بالجبال ... وقال :

ألم ترّني حين حال الزمانُ أصيفُ العراق وأشتو الجبالا
سُموّم المصيف ، وبرد الشتاء حنّانيك حالا أزالتيك حالا
فصبرا على حدّث النائبات فإنّ الخطوب تُذلّ الرجالا

ولا نعلم أقال أبو تمام قصائده في أبي دلف في العراق ، أم في الجبال ، أم فيهما جميعا . غير أنه يشير إلى وقائع بابك في شعره فيه . يقول في قصيدته :

على مثلها من أربع وملاعب أذيلت مصونات الدموع السواكِب

مخاطبا أبا دلف :

وقد علم الأفشين وهو الذي به يُصان رداء المُلْك عن كل جاذِب
بأنك لما استخذل النصر واكتسى أهَابي تُسْفى في وجوه التجارب
تجلّلتُه بالرأى حتى أريتُه به ملء عينيه مكان العواقب
بأرشق إذ سالت عليهم غمامة جرت بالعوالى والعتاق الشواذب

وأخرى مطلعها :

أما الرسوم فقد أذكّرنا ما سلفا فلا تُكفّن من شأنك أو يكفّا

يقول فيها :

إن الخليفة والأفشين قد علما من آشتنى لهما من بابك وشفا
في يوم أَرشق والهيجاء قد رشت من المنية رشقا وإبلا قصفا

ومنها يصف هرب بابك :

ومرَّ بابكُ مرَّ الريح منجذبا محلولياً دمه المعسول لو رشفنا

ومنها :

وغَيضةُ الموتِ أعنى البذقت لها عمر مرما لحزون الأرض معتسفا
كانت هي الوسطَ المنوعَ فاستلبت ما حولها الخيلُ حتى أصبحت طرفا
فظلَّ بالظفرِ الأفشينُ مرتديا وظلَّ بابكها بالذل ملتحفا

ومنها البيت الذي يضر به ابن الأثير مثالا في حسن التقسيم ، وهو في وصف الرماح :

مثقفات سبَّحْنَ الرومَ زُرقتها والعُربُ سُمرتها والعاشقُ القَصفا

وكان أبو دلف كريما مشهورا بكرمه ، شجاعا تتمثل فيه صورة العربي بآبائه وأنفته . فنال منه أبو تمام كثيرا . يقول صاحب الأغاني إنه أعطاه خمسين ألف درهم ، وهو يعتذر إليه ، لما أنشده قصيدته :

على مثلها من أربعٍ وملاعب أذيلت مصوناتُ الدموع السواكِب

وكان الأفشين يحسده لحسن سيرته مع عرو بته . وقد رأينا قبلا ما كان من كراهة عبد الله ابن طاهر له . ولقد آحتال له الأفشين يوما حتى شهد عليه بخيانة وقتل ، وكاد يقتله ، لولا أن بلغ الخبر أحمد بن أبي دواد القاضي ، فركب في وقته مع من حضر من عدو له ، فدخل على الأفشين ، وقد جرى بأبي دلف ليقتل ، فوقف ابن أبي دواد ثم قال : إني رسول أمير المؤمنين إليك ، وقد أمرك ألا تحدث في القاسم بن عيسى حديثا حتى تُسلمه إلي . ثم التفت إلى العدول وقال : أشهدوا أني أدت الرسالة إليه من أمير المؤمنين والقاسم على قيد الحياة ... وخرج . فلم يقدر الأفشين عليه . ثم أبلغ ابن أبي دواد الخبر إلى المعتصم ، معلما إياه أنه قام بهذا العمل رغبة منه في إنقاذ أبي دلف قبل أن يفوت الوقت فسّر المعتصم . وفي هذا قال أبو تمام شعرا يهني أبا دلف بسلامته من الأفشين أوله :

قد شرد الليل هذا الصبحُ عن أفقه وسوغ الدهر ما قد كان من شرقه

والقصة كما يتبين فيها من اجتماع أحمد ابن أبي دواد ، والخليفة ، والأفشين ، وأبي دلف في مكان واحد ، يغلب أن تكون وقعت في سر من رأى .

(ج) اتصاله بجعفر بن دينار :

ومن مدحهم أبو تمام من قواد هذه المعركة أيضا ، جعفر بن دينار الخياط . ومن قوله فيه :

شجى في الحشا تردأه ليس يفتر به ضمن آمالي وإني لمفطر

حَلَقْتُ بِمُسْتَنِّ الْمُنَى تَسْتَرْشُهُ
سَحَابَةٌ كَفَّ بِالرَّغَائِبِ تُطِيرُ
إِذَا دَرَجَتْ فِيهِ الصَّبَا كَفَّ كَفَّتْ لَهَا
وَقَامَ يَبَارِيهَا أَبُو الْفَضْلِ جَعْفَرُ
تَفَاخَرَتِ الدُّنْيَا بِأَيَّامِ مَا جَدِ
بِهِ الْمَلِكُ يَبْهَى وَالْمَفَاخِرُ تَفْخِرُ
فَتَى مِنْ يَدَيْهِ الْبَأْسُ يَضْحَكُ وَالنَّدَى
وَفِي سَرَجِهِ بَدْرٌ وَلَيْثٌ غَضَّ نَفْرُ

(د) اتصاله بالأفشين :

صدر أمر الخليفة ، بعد أخذ بابك ، إلى الأفشين بإحضاره إلى سُرَّ مَنْ رَأَى . وكان الخليفة قد بدأ بناءها سنة ٢٢٠ ، وأبو تمام في غيبة عنها بخراسان ، أول الأمر ، ثم بالغور بعد ذلك ، يشهد حرب بابك ، ويجد في ذلك الهول البالغ ، والأحداث العارمة غذاء لشاعريته ، ومددا يستمد منه موضوعات شعره . فلما أُمر الأفشين بالرحيل إلى سر من رأى ، سار إليها ، تحب ركابهُ بأخطر ثائر عرفه ذلك العصر ، ظل ممتنعا في جبله آتئين وعشرين عاما . يقطع الطريق ، ويسلب الناس ويقتلهم ، ويسبي نساءهم . يقول ابن الأثير : " وكان جميع من قتل بابك في عشرين سنة مائتي ألف وخمسة وخمسين ألفا وخمسمائة إنسان . وغلب من القواد يحكي بن معاذ ، وعيسى بن محمد ابن أبي خالد ، وأحمد بن الجنيذ فأسره ، وزريق بن علي بن صدقة ، ومحمد بن حميد الطوسي ، وإبراهيم بن الليث . واستنقذ ممن كان في يده من المسلمات وأولادهن سبعة آلاف وستمائة إنسان . ولما وصل الأفشين ، توجه المعتصم ، وألبسه وشاحين بالجوهر ، ووصله بعشرين ألف ألف درهم وعشرة آلاف ألف يفرقها في عسكره ، وعقد له على السند ، وأدخل عليه الشعراء يمدحونه " ولقد كان وصول الأفشين سنة ٢٢٣ . ويزيد الطبري أنه ممن دخل عليه ، أبو تمام فمدحه بقصيدته النونية :

بَدَّ الْحِلَادُ الْبَدَّ فَهُوَ دَفِينُ
مَا إِنْ بِهِ إِلَّا الْوَحْشُ قَطِينُ
لَمْ يُقَرَّ هَذَا السِّيفُ هَذَا الصَّبْرَ فِي
هِيَجَاءَ إِلَّا عَزَّ هَذَا الدِّينُ

ومنها يذكر بابك :

لَا فَاكَ بَابُكَ وَهُوَ يَزَارُ وَأَنْثَنِي
وَزِيرُهُ قَدْ عَادَ وَهُوَ أَنْينُ

ويقول مشيرا إلى محاولته الهروب إلى بلاد الروم :

وَرَجَا بِلَادَ الرُّومِ فَاسْتَعَصَى بِهِ
أَجَلَ أَصَمٍّ عَنِ النَّجَاءِ حُرُونُ
هِيَاتَ لَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّكَ لَوْ تَوَى
بِالصِّينِ لَمْ تَبْعُدْ عَلَيْكَ الصِّينِ

ما نال ما قد نال فرعون ولا هامان في الدنيا ولا قارون
بل كان كالضحالك في سطواته بالعالمين وأنت أفريدون

وفي البيت الأخير أثر من الأساطير الخرافية الفارسية، يبدو في شعر أبي تمام العربي قبل أن يصوغ فارسي الشاهنامة شعرا . وفي هذه الاستفادة الدائمة من أساطير الماضين ، ما يشبه ماجد بعد ذلك بقرون طوال في أوربا ، من محاولات استغلال الأساطير اليونانية في الشعر الأوربي ؛ وما يجعل للشرق حق السبق إلى هذه الصبغة الفنية للشعر . كما أن في تشبيه أبي تمام الأفشين بأفريدون — بعد معرفة طريقة أبي تمام في استخلاص قضاياها وتشابهها من الواقع دائما — ما يقطع في ذلك الاضطراب القائم حول جنس الأفشين ، أفارسي هو أم تركي . فالأفشين لاشك فارسي الجنس ، وكذلك كان بابك الخرمي .

ومن هذا نفهم أن أبا تمام نزل سنة ٢٢٣ سر من رأى ، وكأنه رجع مع الجيوش لما رجعت من حرب بابك ، فشارك الشعراء في مدح الأفشين .

(ه) مدح أبي تمام للمعتصم :

وفي هذه المرة مدح المعتصم بقصيدته :

خَوَّاكَ عَيْنٌ عَلَى نَجْوَاكَ يَا مِذْلُ حَتَّامَ لَا يَتَقَضَّى قَوْلُكَ الْخِطْلُ
وإنَّ أَسْمَجَ مَنْ تَشْكُو إِلَيْهِ هَوَى مِنْ كَانَ أَحْسَنَ شَيْءٍ عِنْدَهُ الْعِذْلُ

” حدث الحسن بن وهب قال : قلت لأبي تمام : أفهم المعتصم بالله من شعرك شيئا ؟ قال : استعادني ثلاث مرات :

وإنَّ أَسْمَجَ مَنْ تَشْكُو إِلَيْهِ هَوَى البيت

وأستحسنه ثم قال لأبن أبي دواد : يا أبا عبد الله ! الطائي أشبه بالبصريين منه بالشاميين “ .

وفي الصولي ما يمكن أن يفهم منه أن أبا تمام لم يتصل بالمعتصم إلا في المصيصة ، في حرب عمورية . وقد ذكرت ذلك قبلا . فإن المعتصم قال لأبن أبي دواد ، لما ذكر له أبا تمام بعد الرجوع من عمورية : أليس الذي أنشدنا بالمصيصة ، الأجش الصوت ؟

ولكن هذا الخبر لا يقطع بأن مقابلة المصيصة كانت في غزوة عمورية أو بعدها أو قبلها ، كما أن جعل هذه المقابلة أول مقابلة لهما ، لا يستند إلى شيء أكثر من أن المعتصم قد ذكرها في حديثه لأبن أبي دواد . وليس هناك ما يمنع أن يكون رآه قبلها ، فلما ذكر به هذه المرة لم يذكر إلا مرة المصيصة .

وفوق هذا فإن لأبي تمام قصيدة يمدح فيها المعتصم ، ويذكر فيها أخذ بابك ، وقتله في سامراً سنة ٢٢٣ ، ولا يشير فيها أية إشارة إلى غزو المعتصم عمورية مما يدل على أنها قيلت قبل عمورية .

أما الذى جعلنى أقدم هذه القصيدة على قصائده فى المعتصم ، فتلك قصته حين نزل بغداد فدخل الجامع ، وكان به من الشعراء على بن الجهم ، وأحمد بن أبي قنن ، وأبن أبي الشيص ، وكانوا يتناشدون الأشعار بعد صلاة الجمعة . فأنشدهم هذه القصيدة من قصائده فى المعتصم ولم ينشدهم غيرها ، مع أن له فى المعتصم خيراً منها ، ولكنه لم يكن قال فيه غيرها .

ويقول ابن أبي الجهم فى القصة : إن هذا كان أول ما عرفوا أبا تمام . ويصوره لنا ابن الجهم أسمر طويلاً يتزيا بزى الأعراب . وقد عاب عليه ابن أبي الشيص قوله :

* حتى ظننت قوافيه ستقتل *

بتسكين الياء فى " قوافيه " .

عاد بعد ذلك أبو تمام الى سامراً ، وكان بابك قد قتل . يقول ابن الأثير : إن المعتصم أمر السيف أن يقطع يديه ورجليه فقطعهما ، فسقط . فأمره بذبحه ، ففعل ، وشق بطنه ، وأنفذ رأسه إلى خراسان وصلب بدنه بسامرا . فقال أبو تمام قصيدته :

آلتُ أمورُ الشُّركِ شرّاً مآلِ	وأقرّ بعدَ تَخْمُطٍ ^(١) وصِيَالِ
غَضِبَ الخَلِيفَةُ لِلْخِلَافَةِ غَضِبَةً	رَخُصْتُ لها المِهْجَاتُ وهى غَوَايِ
لَمَّا أَتَتْنِى جَهْلُ السُّيُوفِ لِبَابِكِ	أَغْمَذَنَ عَنْهُ جَهَالَةُ الْجُهَّالِ
فَلَا ذَرْيَ بَجَانٍ اخْتِيَالٌ بَعْدَ مَا	كَانَتْ مُعَرَّسَ عَبْرَةٍ وَنَكَالِ

والقصيدة مَثَلٌ من أسمى ما بلغ إليه فن القصص الشعرى فى العربية . فهو يذكر فيها قصة ثورة بابك من يوم اتصل بها ، وهزائمه ، وصراعه فى أرشق ، ومُوقان ، وما كان بالبذ ، ومحاولته الحرب ، وكيف أوقعه أجله الدانى . وهو لا ينسى صغيرة ، ولا كبيرة ، ولا يكذب ولا يغلو . وإن الإنسان ليجده يسير فى حدود ما ذكره التاريخ . ولكنه يغمر الأحداث بفيض حسه ، وبفهمه لخفايا النفس ، ويعمل خياله فى إبراز للوقائع ولكنه لا يغير حقيقتها . وأرى أن الرجوع الى القصيدة للمقارنة بينها وبين التاريخ هو خير ما يعمل فى مثل هذه الحال .

(١) تخمط : تكبر وغضب .

١٤ - موقعة عُمورية

(١) **تنكيل توفيل بأهل زبطرة** : وبينما كان أبو تمام في بغداد سنة ٢٢٣ يمدح الخليفة ، ويحد في أحداث بابك مادة لشعره ، جدّ على أطراف الدولة في الثغور حادث جَلَل ، أثار المعتصم ، وحرك بنفسه حب الانتقام له . ذلك هو أن توفيل بن ميخائيل ، ملك الروم ، خرج يبيش ضخّم إلى بلاد المسلمين ، فأوقع بأهل زبطرة وغيرها . يقول ابن الأثير "خرج توفيل في مائة ألف ، وقيل أكثر . منهم من الجند نيّف وسبعون ألفاً ، وبقيتهم أتباع . ومعهم من المحمّرة ، الذين كانوا خرجوا في الجبال ، فلحقوا بالروم حين قاتلهم إسحق بن إبراهيم بن مصعب ، جماعة . فبلغ زبطرة ، فقتل من الرجال ، وسبي الذرية والنساء ، وأغار على أهل ملطية وغيرها من حصون المسلمين ، وسبي المسلمات ، ومثل بمن صار في يده من المسلمين ، وسمل أعينهم ، وقطع أنوفهم وآذانهم . فخرج إليه أهل الثغور من الشام والجزيرة إلا من لم يكن له دابة ولا سلاح " .

(ب) **ثورة الرأي العام الإسلامي** : ويقول المسعودي « فضج الناس في الأمصار ، وأسْتَغاثوا في المساجد والديار . فدخل إبراهيم بن المهدي على المعتصم فأنشده قائماً قصيدة طويلة يصف فيها ما نزل (بالناس) ويحثه على الجهاد فيها :

يا غارة الله قد عاينت فأتيتك
هتك النساء وما فيهن يرتكب
هيب الرجال على أجرامها قتلت
ما بال أطفالها بالذبح تنهب

(ج) **خروج المعتصم بنفسه** : ويقول ابن الأثير " وبلغه أن امرأة هاشمية صاحت وهي أسيرة في أيدي الروم : وامعتصماه ! فأجابها ، وهو جالس على سريره : لبيك . لبيك . ونهض من ساعته وصاح في قصره : النفير النفير . ثم ركب دابته ، وسَمَط خلفه شكلاً ، وسكة حديد ، وحقيبة فيها زاده . وبلغ من ثورة نفسه وعزيمته على التضحية أنه استحضر القضاة والشهود ، فأشهدهم أنه قد وقف أملاكه وأمواله أثلاثاً : ثلثا لله تعالى ، وثلثا لولده وأقاربه ، وثلثا لمواليه " .

يقول المسعودي " خرج المعتصم من فوره نافراً وعليه دُرّاعة بيضاء من الصوف ، وقد تعمّم بهامة الغزاة ، فمسكروا غربى دجلة . وذلك يوم الاثنين لليلتين خلتا من جمادى الأولى سنة ٢٢٣ ، ونصبت الأعلام على الجسر ، ونودي في الأمصار بالنفير مع أمير المؤمنين ، فسارت إليه العساكر والمطوعة من سائر بلاد الاسلام " .

في هذا كله ما يرى مبلغ ما كان لغارة توفيل البربرية على المسلمين في ديارهم من أثر في نفوس الناس يومئذ . وفي وصف التاريخ لنفرة المعتصم ، واضطراب الأقطار الإسلامية لهذا الخطب ، ما يجعلنا نحس مدى آنفعال النفوس بهذا الحادث ، ومقدار ما أحفظها على من لم يرع في غارته حرمة النساء ، ولا براءة الأطفال .

(د) فتش عمورية : وبمثل هذا الحقد جرد المعتصم جيوشه ، وبه اجتاحت دروب الروم ، وداس قراها في آسيا الصغرى ، وسار أبو تمام في صحبته كما يقول صاحب الفخرى ، وبنفسه من الحقد ما بكل مسلم . وكان على مقدمته أشناس ، يتلوه محمد بن إسحق بن مصعب ، (أحمد ممدوحى أبي تمام) وعلى القلب عجيف بن عنبسه . فلما دخل بلاد الروم نزل على نهر السن ، وهو على سلوقية قريبا من البحر ، بينه وبين طرسوس يوم . وأمضى المعتصم الأفشين إلى سروج ، وأمره أن يدخل من درب الحدث ليوقع بتوفيل ، طاغية الروم ، وكان قد زحف في جيش ضخم لما سمع بخروج المعتصم فهزمه الأفشين ^(١) .

وكان أهل أنقرة قد أجلا عنها لما سمعوا بقدوم المسلمين ، ودخل المسلمون من أما كن عدة فأوقع ذلك الاضطراب في صفوف الروم . ودخل المعتصم أنقره ، وقدم عليه وهو فيها الأفشين ... وأمر المعتصم جنوده أن يحرقوا كل ما يصادفون من القرى . ثم سار حتى أناخ على عمورية ، فضر بها عليها الحصار . وكان بطريقها اسمه ياطس ، على أصح الأقوال ، وهو خال ملك الروم ، ومعه فيها تسعون ألفا .

ويقال إنه لما أعترم فتحها قال له المنجمون : إنا نجد في كتبنا أنها لا تفتح هذه الأيام ، فلم يعبا بهم وسار إلى فتحها . وقد نعى إليه أن في سورها مكانا ضعيفا ، فسلط منجنيقاته عليه ، واشتد الحصار على الروم ، وكانوا قد أرسلوا إلى ملكهم يطلبون نجدة . ولكن المعتصم أخذ رسلهم . فأرادوا خديعة المسلمين ، وتخذيلاهم عنهم عسى أن يصل إليهم مدد . فبعثوا إلى المعتصم يقولون : إنا نرى في كتبنا أن مدينتنا هذه ، لا تفتح قبل نضج التين والعنب ، وأنها لا يفتحها إلا أبناء زنا . فضحك المعتصم وقال : أما فتحها قبل نضج التين والعنب فذلك ما سأفعله إن شاء الله ، وأما أنها لا يفتحها إلا أبناء الزنا ، فمعى من أبناء الروم الكفاية . وكان أن فتحها ، وأخذ ياطس بطريقها .

يقول ابن الأثير "وأخذ السيف الروم ، وأقبل الناس بالأسرى والسبي من كل وجه ، فأمر المعتصم أن يعزل منهم أهل الشرف ، ونقل من سواهم ، وأمر ببيع المغانم في مواضع ... وأمر بالباقي فأحرق " .

(هـ) بين قصيدة أبي تمام في الفتح ، وبين التاريخ : في هذه الموقعة التي عمل فيها الحقد عمله قال أبو تمام قصيدته البائية :

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لا سود الصفائح في مؤنهن جلاء الشك والريب

ويظهر أنه قالها للمعتصم في رجعته بعد فتح عمورية ، في المصيبة . وتكون بذلك هي القصيدة التي كان ذكر المعتصم موقف أبي تمام فيها ، لما ذكر به ، بعد رجعته من عمورية إلى سر من رأى ، كما مر في حكاية الصولي . ولقد كان أبو تمام فيها كعاداته في شعره ، يصف ما رأى بعينه ، وما سمع بأذنه ، ويجعل من فنه خادما للواقع من غير خروج عليه ، أو تزييف فيه . فانت لا تكاد تبحث عن حادثة من هذه الحوادث التي ذكرتها فيما مضى نقلا عن التاريخ إلا وجدت في القصيدة ، محكية في أجمل أسلوب وأروع عبارة . ولقد رأينا في الاستفتاح إشارته إلى قول المنجمين ، وسخريته مما وجدوا في كتبهم ، وقوله : إنما يحلو الأمر ويذهب الشك ضوء السيف :

أين الرواية بل أين النجوم وما صاغوه من زخرف فيها ومن كذب
تخرصا وأحاديثا ملفقة ليست ينبع إذا عدت ولا غرب
عجائبا زعموا الأيام مجفلة عنن في صفر الأصفار أو رجب
وصيروا الأبرج العليا مرتبة ما كان متقلبا أو غير متقلب
وخوفوا الناس من دهياء مظلمة إذا بدا الكوكب الغربي ذو الذنب
يقضون بالأمر عنها وهي غافلة ما دار في فلك منها وفي قطب
لو بيئت قط أمرا قبل موقعه لم يخف ما حل بالأوثان والصلب

وإن أعرقنا اليوم في الثقافة لا يقدر أن يسخر بالتنجيم أكثر مما سخر منه أبو تمام في شعره هذا ، منذ نيف وعشرة قرون .

وأغرب ما في هذا الرجل هو استغلال الواقع في شعره ، استغلالا يبعث في النفس الدهشة ، ويساعد المحقق التاريخي أثمن مساعدة . فإن هذا "الكوكب الغربي ذا الذنب" الذي يتحدث عنه أبو تمام في شعره قد ظهر قبل فتح عمورية . يقول ابن الأثير في ذكره حوادث سنة ٢٢٢ :
 "وفيها ظهر عن يسار القبلة كوكب ، فبقى يرى نحوا من أربعين ليلة ، وله شبه الذنب . وكان أول ما طلع نحو المغرب ، ثم رُئى بعد ذلك نحو المشرق . وكان طويلا جدا ، فهال الناس وعظم عليهم . ذكره ابن أبي أسامة في تاريخه ، وهو من الثقات الأثبت " .

وفي تاريخ موقعة عمورية في ابن الأثير والطبري اختلاف . فكلهما يقولان إنها وقعت سنة ٢٢٣ ، ثم يعقبان على ذلك بأن هناك من قال إنها كانت سنة ٢٢٤ ، فإذا نحن أخذنا ما يقول أبو تمام عن تخويف المنجمين للمعتصم من الخروج ، لظهور هذا الكوكب ، أو لقرب ظهوره ، وأضفنا إليه أيضا ما يفهم من كلام الطبري وابن الأثير عن بابك : ذلك أنه لما اشتد عليه الحصار سنة ٢٢٢ في البذ ، كتب إلى ملك الروم أن يهاجم المسلمين لما أخبره من شغل جنودهم به ، فإن الخليفة "قد وجه عساكره ومقاتلته إليه ، حتى وجه خياطه ، يعني جعفر بن دينار الخياط ، وطباخه ، يعني إيتاخ ، فإن أردت الخروج إليه فليس في وجهك أحد يمنعك " . "وكان بابك يرجو من ذلك أن يتحرك ملك الروم فيكشف عنه المسلمين شيئا" . وكان أن هاجم توفيل بجيشه زبطرة .

ثم ما يقولانه في مكان آخر عن المعتصم ، من أنه لما فرغ من أمر بابك ركب إلى بلاد الروم ، إذا ذكرنا ذلك ، أمكننا أن ندرك منه كله ، وبفضل بيت أبي تمام ، أن هجوم توفيل على زبطرة ، كان أقرب ما يمكن إلى أخذ بابك . وأن المعتصم أراد السير إلى بلاد الروم فخذله المنجمون لتشاؤمهم بظهور ذلك النجم ذي الذنب ، فلم يعبأ بهم وسار ففتح عمورية في ٢٢٣ ، بعد أن أعد جيوشه . ولو كان تأخر حتى سنة ٢٢٤ لما كانت هناك داعية لذكر أبي تمام هذا الكوكب في شعره ، والهزة من المنجمين ، ما دام الخليفة قد نزل عند رغبتهم فتأخر عن غزاته تجنباً لعاقبة ما تشاءموا منه .

ويقول مشيراً إلى موقعة أنقرة التي سبقت فتح عمورية :

جرى لها الفأل نحسا يوم أنقرة إذ غودرت وحشة الساحات والرحب
 لما رأت أختها بالأمس قد خربت كان الخراب لها أعدى من الحرب

ثم يقول في وصف الحريق مخاطبا المعتصم :

لقد تركت أمير المؤمنين بها للنار يوما ذليل الصخر والخشب
الآيات

وبقول مشيرا إلى حادث الهاشمية التي نادت : "واعتصماه !" لما أسرت :

لبئت صوتا زبطريا هزقت له كاس الكرى ورضاب الخرد العرب

ويقول اليعقوبى في الكلام على هذه الموقعة : إن ملك الروم لما عرف مقصد المعتصم عمورية "أوفد من قبله وفدا إلى المعتصم يقول : إن الذين فعلوا بزبطرة ما فعلوا تعدوا أمرى . وأنا أبنها بمالى ورجالى، وأرد من أخذ من أهلها، وأخلى جملة من فى البلد للروم من الأسارى، وأبعث إليك بالقوم الذين فعلوا بزبطرة على رقاب البطارقة" ولكن المعتصم لم ينس كل ذلك ما أتى من أجله فيقول أبو تمام :

لما رأى الحرب رأى العين توفلس والحرب مشتقة المعنى من الحرب
غدا يصرف بالأموال خزيتها فعزه البحر ذو التيار والعجب
هيات زعزعت الأرض الوقور به عن غزو محتسب لا غزو مكتسب
لم ينفق الذهب المرى بكثرته على الحصى وبه فقر إلى الذهب

ويقول مشيرا الى عدد من كان بعمورية من الرجال، وما كان من قولهم إن مدينتهم لا تفتح قبل نضج التين والعنب :

تسعون ألفا كاساد الشرى أنضجت جلودهم قبل نضج التين والعنب

ولقد عاب بعضهم على أبي تمام ذكره التين والعنب فى الشعر، وقالوا ليس هذا من الألفاظ التى تستعمل فى الشعر، فرد عليهم آخرون بقولهم : إنهم لم يعرفوا أن هذا هو ما وقع، وليس خيالا من خيالات أبي تمام حتى يلام عليه .

وهذه المقارنة بين القصيدة والتاريخ، ترى مبلغ ما كان أبو تمام يعتمد على الواقع فى نظم شعره، وأن فنه إنما كان فى صياغة هذا الواقع صياغة شعرية، فهو فى فنه أشبه بالقاص الذى يصف ما رأى وما سمع .

(و) مدحه بعض القواد : لم يكن المعتصم وحده ممدوح أبي تمام فى عمورية . فلقد كان معه فى هذه المعركة من قواده، أبو سعيد محمد بن يوسف الثغرى صاحب أذربيجان ووقائع بابك .

وقد شارك أبو سعيد في هذه الوقائع ، ويظهر أنه كان في جيش الأفشين كما كان أيام بابك . ولقد قلت من قبل إن الأفشين كان قد وُجّه بجيشه للقاء توفيل ، لما علم المعتصم بخروج ملك الروم بجيشه ، فلقية جيش الأفشين ومن قواده أبو سعيد ، فهزموه وشتته وطارده طويلا . ثم عاد الأفشين بجيشه فلقى المعتصم في أنقره . ثم ذهبوا جميعا ففتحوا عمورية .

يمدح أبو تمام محمد بن يوسف النخري ، فيذكر هزيمة توفيل ملك الروم سنة ٢٢٣ ، ومطاردة جيوش المسلمين له ، وبلاء أبي سعيد في هذه المواقع في قصائد كثيرة ، ولكنه لم يقلها جميعا في هذه المرة . والقصيدة التي يغلب أن يكون قالها هذه المرة هي :

ما عهدنا كذا بكاء المشوق كيف والدمع آية المعشوق

ومنها :

رُميت من أبي سعيد صفاة الرُّوم رُوم جمعاً بالصَّيْلَمِ الخنْفَقِيْقِ^(١)

في كُماة يُكْسَوْنَ نَسَجَ السَّلْوَقِ^(٢) وتعدو بهم كلابُ سَلَوِقِ^(٢)
يتساقون في الوغى كاس موتٍ هي موصولة بكاس الرحيق
وطئت هامة الضواحي فلما أن قضت نحبها من القيذوق^(٣)
ألهبها السياط حتى إذا استف ت بإطلاقها على الباطلوق
شها شزبا فلما استباحث بالبقالار كل سهل ونيق
سار مستقدا إلى البأس يزحى رجما بأسقا إلى الإيسيق

وهو فيها يلعب بالبديع لعبا ، ويروض أوابده ترويضاً ، فيجانب بين الأعلام الأعجمية والألفاظ العربية ، ويكثر من الغريب إكثاراً واضحاً . ولا يعبا أن يقرن فيها بين كلمات ذات حروف رقيقة مهموسة ، وأخرى غليظة ، تملأ الشدق حين ينطق بها . والقصيدة تمثل ذلك المعنى الذي يقولونه عنه من أنه كان ينصب القافية قبل أن يقول شعره ، ثم يأخذ بعد ذلك في تأليف قصيدته . فقد

(١) الصفاة : الصخرة . والصيمل : الأمر الشديد والداهية والسيف . والخنفقيق : السريع جدا .

(٢) سلوق كصبور قرية باليمن تنسب إليها الدروع والكلاب ، أو بلد بطرف لإرمينية ، أو إنما نسبتا إلى سلقية محرّكة :

بلد بالروم . (المحيط) فهو لاء الكاة يلبسون الدروع السلوقية ، ويركون خيلا تبلغ في سرعة عدوها الكلاب السلوقية .

(٣) في الديوان الفيذوق بقاء وفي ياقوت الفيذوق بالقاف ، وينص على أنها موضع ورد في شعر أبي تمام .

أختار أبو تمام قافية هذه القصيدة القافية لتوافقها مع بعض الأعلام التي أراد الحديث عنها كالإسبيق والباطلوق والساروق والقيذوق .

ولكن ألفاظها مع غرابتها وكثرة القاف في قوافيها ، لا تتفر الأذن ، ولا يضيق بها سامعها أوقارها ، وأن أحدنا ليتعقبها في شغف بتعقبها ، وهو فيها يرق ويغلظ ، ويلين ويخشن ، والإنسان يحس ، بين رفته وخشونته جميعا ، شيئا من التلاؤم كثيرا ، أخذا ، أشبه بذلك الحس الذي يجده في سماع موسيقى تختلف أصوات الآلات فيها رقة وخشونة ، ولكن بينها جميعا توافقا وفيها انسجاما . وهو فيها جارى الشعر ، طويل النفس ، فيه أريحية ينطبق عليها ما يقوله في وصف قصيدة له :

فكأنما هي في السماع جنادلُ وكأنما هي في القلوب كواكبُ

فمنها :

وقعةٌ زعزعتْ مدينةَ قُسطنط طينَ حتى آرتجتْ بسوقَ فُروق

فوحقَّ القنا عليه يمينا هي أمضى من الحسام العتيق

أنَّ لو أنَّ الذراعَ شَدَّتْ قُواها عَضُدٌ أو أَعْيَنَ سَهْمٌ بِفُوق

ما رأى قُفلها كما زعموا قُفد لا ولا البحرَ دُونَهَا بعميق

وكأنما أبو تمام فيها يعمد إلى الإكثار من ذكر الأماكن ولو كانت رومية كما كان الجاهليون يكثرُونَ من ذكر الأماكن في شعرهم . وهو ينحت الألفاظ فيقول : مبطرق البطريق . وتجرى فيها جميعا حلاوة نفس ، وروح شعري صحيح . يقول في وصف أبي سعيد :

غُرِضَنكَ الضلوع في ساعة الرِّو ع ولا ضيقٌ غداةَ المَضيق

زاهبُ الصوتِ ساعةَ الأمرِ والنهـ ي إذا قلَّ فيه هدرُ الفَنيق



ولقد رجحت أن تكون هذه القصيدة قيلت هذه المرة نخلوها من إشارة إلى بابك ، إذ قد شغل أبو تمام فيها بالحوادث التي تحوطه ، فتملا دنياه ، وتستأثر بمشاعره ، عن أن يذكر غيرها . أما في غيرها من القصائد فهو يخلط في قصائده بين أعمال أبي سعيد في حرب بابك ، وأعماله في حرب الروم . وعلّة ذلك عندي ، هو مضيتها جميعا ، وأستواء أثرها في نفسه ، بعد أن خلص من ملابسة أقربها لحياته .



يقول اليعقوبى "وفتحت عمورية يوم الثلاثاء لثلاث عشرة ليلة بقيت من رمضان سنة ٢٢٣" ويقول ابن الأثير "وكان نزول المعتصم عليها لست خلون من شهر رمضان وأقام عليها خمسة وخمسين يوما".

ولكن ما يقوله اليعقوبى صحيح . فان أبا تمام قد مدح أبا سعيد الثغرى عند خروجه إلى مكة بعد فتح عمورية بقصيدة مطلعها :

مَالِي بِعَاذِلَةِ الْأَيَّامِ مِنْ قَبْلِ لَمْ يَثْنِ كَيْدَ النُّوَى كَيْدِي وَلَا حِيلِي

ذكر ذلك فى نسخة من ديوان أبى تمام استحضرتها الجامعة حديثا من الاسكوريال . وفى قطعة أخرى قالها أبو تمام فيه لهذه المناسبة يذكر غمه بخروجه يقول :

لَا وَدَّ عَنْكَ ثُمَّ تَدْمَعُ مُقْلَتِي إِنَّ الدَّمْعَ هِيَ الْوَدَاعُ الثَّانِي^(١)

وَأَصُومُ بَعْدَكَ عَنْ سِوَاكَ فَأَغْتَدِي مَتَقَلِّدًا صُومِينَ فِي رَمَضَانَ

فكان خروجه إلى مكة كان فى رمضان ، وذلك بعد عمورية ، وهو ما ينطبق على كلام اليعقوبى . ومن قصيدتى أبى تمام فى خروجه إلى مكة يشعر الانسان أنه كان حزينا لفراقه ، حزنا لم يخفف عنه منه اتصاله بالخليفة المعتصم . ولعل ذلك راجع إلى ما يقوله الصولى عن أبى سعيد هذا ، من أنه كان متصل العطاء وإن لم يكثر ، وإلى أن صلة أبى تمام بالخليفة ، رغم مدائح فيه ، لم تكن من القوة وإيثار الخليفة إياه بحيث تنسيه غيره . بل إنى لأكاد أظن أن اهتمام المعتصم به لم يكن يتناسب مع عدد قصائده فيه حتى هذا الزمن .

١٥ - عودة أبى تمام إلى سامرا

(١) قوله فى ثورة العباس بن المأمون : أنصرف المعتصم عن بلاد الروم راجعا إلى سامرا ، وفى ركبته أبو تمام . ويقول المسعودى : إنه كان يعتزم عبور الخليج ، وفتح القسطنطينية هذه المرة ، لولا أنه سمع أن العباس بن أخيه المأمون يدبر خلعه ، وأن جماعة كبيرة من قواده بايعوه . فعاد وقبض عليه ، وحبسّه عند الأفشين ، وقد مات العباس فى الطريق إلى سمر من رأى ودفن بمنبج . وفى المصيصبة قال أبو تمام فى المعتصم قصيدة أنشدها بين يديه ، يغلب أن تكون هى بأئيته التى فرغت قبلا من الحديث عنها . ولا أشك فى أن أبا تمام زار بلده هذه المرة فى رجعته مع المعتصم .

فلما كان المعتصم بسامرا ، لم يكن قد نسي ما كان من ابن أخيه العباس بن المأمون . يقول ابن الأثير "فسمى العباس يومئذ باللعين ، وأخذ أولاد المأمون ... فحبسهم في داره حتى ماتوا بعد" . ولقد دخل أبو تمام على المعتصم في سامرا بشعر مدحه به ، قدمه إليه القاضي أحمد بن أبي دواد ، ويظهر أنه كان عرفه في هذه الغزاة يقول الصولي : "فذكره ابن أبي دواد للمعتصم ، فقال له : أليس الذي أنشدنا بالمصيصة ، الأجلش الصوت ؟ قال : يا أمير المؤمنين إن معه رواية حسن النشيد . فاذن له ، فأنشده راويته مدحه له . أما المدح الذي لم يسمه فهو قصيدته :

أَجَلُ أَيُّهَا الرِّبُّ الَّذِي خَفَّ آهْلُهُ لَقَدْ أَدْرَكْتُ فِيكَ النُّوَى مَا تَحَاوَلُهُ
وَقَفْتُ وَأَحْشَائِي مَنَازِلُ لِلْأَسَى بِهِ ، وَهُوَ قَفَرٌ قَدْ تَعَفَّتْ مَنَازِلُهُ

ثم يمضي فيها ، فيصف سفرته إلى سامرا ، ثم يشير في خفاء وخوف ورحمة ، تتنازعه جميعا ، إلى حادث أبناء المأمون ، وما أصابهم بسبب خروج العباس أخيهم فيقول :

لَقَدْ خَانَ مِنْ يُهْدِي سُوَيْدَاءَ قَلْبِهِ لَحْدَ سِنَانٍ فِي يَدِ اللَّهِ عَامِلُهُ
وَكَمْ نَاكِثٍ بِالْعَهْدِ قَدْ نَكَشْتُ بِهِ أَمَانِيهِ وَأَسْتَخْذِي لِحَقِّكَ بَاطِلُهُ
فَأَمَكَّتَهُ مِنْ ذَمِّهِ الْعَفْوُ رَافَةً وَمَغْفِرَةً إِذْ أَمَكَّتَكَ مَقَاتِلُهُ
فَخَاطَ لَهُ الْإِقْرَارُ بِالذَّنْبِ رُوحَهُ وَجَثْمَانَهُ إِذْ لَمْ تَحْطُ بِقَنَابِلِهِ
إِذَا مَارِقٌ بِالْغَدْرِ حَاوَلَ غَدْرَهُ فَذَلِكَ حَرِيٌّ أَنْ تَلِيْمَ حَلَالَتِهِ
فَإِنْ بَاشَرَ الْإِصْحَارَ فَالْبَيْضُ وَالْقَنَا قِرَاهُ ، وَأَحْوَاضُ الْمَنَايَا مَنَاهِلُهُ
وَإِنْ بَيْنَ حَيْطَانَا عَلَيْهِ فَإِنَّمَا أَوْلَاكَ عُقَّالَاتُهُ لَا مَعَاقِلُهُ
وَإِلَّا فَأَعْلَمُهُ بِأَنَّكَ سَاخِطٌ وَدَعَهُ فَإِنَّ الْخَوْفَ لَا شَكَّ قَاتِلُهُ

فهو موزع بين رحمة يكنها لما أصاب أبناء المأمون ، وخوف واضح أن يأخذه الخليفة بشفاعته لقوم يخافهم أشد الخوف على عرشه . فهو يلين فيها تارة ، ويشدد تارة ، ولكنه راجع إلى طلب العفو أبدا ، وتركهم للخوف يمتثلهم . وهي أول قصيدة نسمعه يتحدث فيها عن رحمة الخليفة وعفوه ، فيطيل ، ويبين عمن فهم لوظيفة الحاكم :

بِمَعْتَصِمٍ بِاللَّهِ قَدْ عَصِمَتْ بِهِ عُرَى الدِّينِ وَالتَّقَتْ عَلَيْهِ رَسَائِلُهُ
رَعَى اللَّهُ فِيهِ الرِّعِيَةَ رَافَةً تُزَايِلُهُ الدُّنْيَا وَلَيْسَتْ تَزَايِلُهُ
فَأَخْوَا وَقَدْ فَاضَتْ إِلَيْهِ قُلُوبُهُمْ وَرَحْمَتُهُ فِيهِمْ تَفِيضُ وَنَائِلُهُ

وقام فقام العدل في كل بلدة وأضحى الملك قد شقَّ بازله
وجرد سيف الحق حتى كأنه من السِّلِّ مُودٍ جَفْنُهُ وحمائله

وفيها هذا البيت الغريب ، المنبئ عن سخط خفيّ ، قد يكون نتيجة الانفعال لما أصاب
أبناء المأمون :

رَضِينَا عَلَى رَغْمِ اللَّيَالِي بِحُكْمِهِ وَهَلْ دَافِعُ أَمْرٍ أَوْ ذُو الْعَرْشِ قَابِلُهُ

والظاهر أن الخليفة لم يغضب من هذه الشفاعة ، أو أنه لم يدرك ما قصد أبو تمام فيها .
يقول الصولي " فأمر له بدراهم كثيرة ، وصكَّ ماله على إسحق بن إبراهيم المصعبي . قال :
أبو تمام : فدخلت إليه بالصك ، وأنشدته مديحا له ، فأستحسنه ، وأمر لي بدون ما أمر به المعتصم "
أما القصيدة التي مدح بها إسحق فلم يقل الصولي عنها شيئا .

(ب) أتصاله بأبن أبي دواد وابن الزيات : عرف أبو تمام القاضي أبا عبد الله أحمد
ابن أبي دواد ، كما رأينا ، وقدمه هذا إلى المعتصم ، وكان ابن أبي دواد عظيم المنزلة عند الخليفة .
ومن قصة إنقاذه أبا دلف من يد الأفشين يمكن أن تعرف مروءته . وابن أبي دواد من الشخصيات
العظيمة التي هي مفخرة من مفاخر التاريخ العربي . وفي ابن خلكان عنه الكثير ، وكان عربيا ، من
قبيلة إياد . كان يبغض محمد بن عبد الملك الزيات ، وزير المعتصم ، وكان ابن الزيات أكثر بغضا له .
ولقد خدم ابن أبي دواد المأمون قبل أن يخدم المعتصم . أما ابن الزيات فكان أحدث اتصالا
بالخلفاء . فأقول من أستوزره المعتصم سنة ٢٢٠ ، بعد أن نكب وزيره الفضل بن مروان . وكان
في ابن أبي دواد رحمة ؛ وكان ابن الزيات يرى أن الرحمة خور في الطبيعة . فكان العداء بين الاثنين ،
عداء ما بين طبيعتين متنافرتين لا تتفقان .

وكان أبو تمام شاعرا فتعرف بهما جميعا ، ومدحهما جميعا . ويغلب أن يكون تعرفه بأبن الزيات
قدما ، أقدم بكثير من وزارته ، فهو يقول له في قصيدة يمدحه بها :

وَلِيْ هِمَّةٌ تُضَيِّ الْعُصُورَ وَإِنِّهَا كَعَهْدِكَ مِنْ أَيَّامِ مِصْرَ لِحَامِلُ
سَنُونَ قَطَعْنَاهُنَّ عَشْرًا كَأَنَّمَا قَطَعْنَا ، لِقَرَبِ الْعَهْدِ مِنْهَا ، مَرَّاحِلُ

ففي قول أبي تمام لأبن الزيات " كعهْدِكَ مِنْ أَيَّامِ مِصْرَ لِحَامِلُ " ما يدل على أنه عرفه من أيام
مصر . وقد يكون ذلك في مصر نفسها ، أو في العراق بعد رجعة أبي تمام من مصر مباشرة ؛ وقد

عاد أبو تمام من مصر، كما رأينا قبلاً، سنة ٢١٤ . فكأنه قال هذه القصيدة لأبن الزيات سنة ٢٢٤، لما ذكره من مرور عشر سنوات على أيام مصر . وفي القصيدة ما يشتم منه أن أبا تمام كان يجد صعوبة كبيرة في الاتصال بالخليفة، ليقول فيه شعره، برغم أنه كان قد اتصل به قبل الآن مرات . ويظهر أنه كان بلحا قبل أن يقول هذه القصيدة إلى أبن الزيات ليدخله على الخليفة ، فلم يفعل . وهو فيها شديد الضيق بما يرى حوله من قيام الحجاب بينه وبين عطاء الدولة . فهو يقول لأبن الزيات :

أبا جعفر إنَّ الجهالة أمها
أرى الحشو والدهماء أضخوا كأنهم
غدوا وكأنَّ الجهل يجمعهم به
فكن هضبة نأوى إليها وحرّة
فإن الفتى في كل ضربٍ مناسب
فهو يتوسل إليه بالحرفة وقرابة الأدب .

وَلُودٌ، وَأُمُّ الْعِلْمِ جَدَاءُ حَائِلُ
شُعوبٌ تَلَاقَتْ دُونَنا وَقَبَائِلُ
أَبٌ وَذَوُو الْأَدَابِ فِيهِمْ نَوَاقِلُ^(١)
يَعْرِدُ عَنْهَا الْأَعْوَجِيُّ الْمُنَاقِلُ
مُنَاسِبٌ رُوحَانِيَّةٌ مَنِ يُشَاكِلُ



ويمكن أن نضع في هذه الفترة، من شعره الذي قاله في القاضي أحمد بن أبي دواد مقطوعتين، إحداهما مطلعها :

أحمد إن الحاسدين كثير
ومالك إن عدّ الكرام نظير

وثانيتهما :

يا أيها الملك المعروف قُبَّتُهُ
فيها حيّا المزن إلا أنه بشر

ويظهر أن أبا تمام أخذ ينجر تدريجياً إلى التأثر بتلك الحصومة التي كانت قائمة بين أبن أبي دواد، فيعرض في مدح القاضي بالوزير، وفي مدح الوزير بالقاضي، ويسوء ظن كل منهما به لتردده على الآخر، فكان أن ضاقا به جميعاً، وحرماه عطاءهما جميعاً، وبدأ الحزن يدب إليه ، لضيق رزقه ، كما يبدو ذلك في القصائد التي أشرت إليها مما قاله فيهما .

(ج) رد خالد بن يزيد عن إرمينية وقول أبي تمام : في هذه السنة (٢٢٤) يكون خالد ابن يزيد بن مزيد الشيباني، ممدوح أبي تمام في سنة ٢١٦، في سر من رأى، ، مردوداً عن ولاية إرمينية بأمر الخليفة المعتصم، إذ كان قد ولاه إياها سنة ٢٢٣ . يقول اليعقوبي «فلما بلغ خبره إرمينية

(١) النواقل : قبائل تنتقل من قوم إلى قوم . وقد تكون النواقل جمع النافلة ومعناها ولد الولد . والأول أقرب وأرجح .

تحصن كل رئيس فيها ، وأشتد خوفهم منه ، وعملوا على العصيان . فكتب منصور بن عيسى السبيعي ، صاحب بريد إرمينية ، إلى المعتصم بذلك فردّ ^(١١) خالداً .

ويذكر ابن خلكان في كتابه ، في ترجمة ابن أبي دواد ، ما يشبه أن يكون في هذه الحادثة عينها . يقول "إن المعتصم غضب على خالد بن يزيد بن مزيد الشيباني ... وأشخصه من ولايته ، لعجز لحقه في مال طلب منه ، وأسباب غير ذلك بفلس المعتصم لعقوبته ، وكان قد طرح نفسه على القاضي أحمد (ابن أبي دواد) ... " ثم يمضي في تفصيل شفاعته ابن أبي دواد فيه ، حتى يعفو عنه الخليفة ، ويعطيه هو وأصحابه رزق ستة أشهر كانوا قد استحققوها . وما قاله ابن خلكان يتفق مع ما قاله اليعقوبي ، ويذكر عليه أن من أسباب غضب المعتصم على خالد ، ذلك العجز الذي لحقه في مال طلب منه ، وأن المعتصم عفا عنه لشفاعة القاضي فيه . ولم يذكر أنه أعاده إلى الثغر . أما ناقل الديوان فيضع في رأس قصيدة قالها أبو تمام لهذه المناسبة ما يفيد أنه كان قد نفاه إلى مكة ، فشجع ابن أبي دواد فيه ، فقبل المعتصم شفاعته ، وأعفاه من الخروج ، وأستقر على حاله . ويمكن أن يفهم من عبارته الأخيرة "وأستقر على حاله" أن خالداً قد أعيد إلى الثغر ثانية وهذا ما لم يقل به أوسع كتب التواريخ تفصيلاً لتاريخ هذه الناحية من الأرض ، وهو اليعقوبي . وهو إنما يذكر رده إلى إرمينية ثانية في عهد الواثق سنة ٢٣٠ . وهذا هو الذي يمكن أن يفسره شعر أبي تمام . وعندى أن ناقل الديوان ليس بالجهة الذي يعول عليه من الناحية التاريخية ، لا سيما أن اليعقوبي يتبع ولاية إرمينية الذين ولوها بعد سنة ٢٢٣ إلى سنة ٢٣٠ وما بعدها ، فيذكرهم ولا يشير فيهم إلى خالد .

مدحه أبو تمام في هذه المناسبة بقصيدتين إحداهما :

يَا مُؤْضِعَ الشَّدْنِيَةِ الْوَجَاءِ وَمُصَارِعَ الْإِدْلَاجِ وَالْإِمْسَاءِ
أَقْرَى السَّلَامِ مَعْرِفًا وَمُحْصَبًا مِنْ خَالِدِ الْمَعْرُوفِ وَالْهِجَاءِ

وهي تبين عن فن أبي تمام كيف كان يستخرجه من الواقع استخراجاً ، لا في موضوعاته وكفى ، ولكن في بديعه أيضاً ، وفي ألفاظ قصيدته . فنسمعه يقول : معزفاً أى نازلاً بعرفات ، ومحصباً :

أى نازلاً المحصب في منى ، ونسمعه يذكر البطحاء ، ويحانس بين منى ومنى وحرى وحرء ويقول :

وَتَعْرِفْتُ عَرَفَاتُ نَائِلَهُ وَلَمْ يُخَصَّصْ كَدَاءُ مِنْهُ بِالْإِكْدَاءِ
وَلَطَابُ مُرْتَبِعِ بَطِيَّةٍ وَأَكْتَسْتُ بُرْدَيْنِ ، بُرْدَ ثَرَى وَبُرْدَ ثَرَاءِ

لَا يُحَرِّمُ الْحَرَمَانُ خَيْرًا مِنْهُمْ حُرِّمُوا بِهِ نَوْاءُ مِنَ الْأَنْوَاءِ
وهو فيها ذاهب هذا المذهب ، كثير الاستعارات ، حسنها وقبيحها ، ولكن أغلبها يبدو فيه التكلف
والصنعة . وقال أيضا لما فآخره رجل في مجلس وهو معزول عن الثغور :
أَقْرَمَ بِكَرِّي تَبَاهِي أَيُّهَا الْحَفْضُ وَنَجَمَهَا أَيُّهَا الْهَالِكُ الْحَرِضُ



(د) مدح له في أبي سعيد الثغري : وبينما هو كذلك إذ عاد أبو سعيد من غيبته بمكة ،
وذكر شاعره . يقول الصولي ^(١) : فكتب إلى أبي تمام كتابا ، وقرنه ببرله ، فجعل (أبو تمام) جوابه
شعرا في كتاب إليه ، هو :

إِنِّي أَتَنَّى مِنْ لَدُنْكَ صَحِيفَةً	غَلَبَتْ هُمُومَ النَّفْسِ وَهِيَ غَوَالِبُ
وطلبت ودِّي والتنائف بيننا	فنداك مطلوبٌ ومجدك طالب
فَلَتَلْقَيْنَاكَ حَيْثُ كُنْتَ قَصَائِدَ	فِيهَا لِأَهْلِ الْمَكْرَمَاتِ مَآرِبُ
فكأنما هي في السماع جنادل	وكأنما هي في القلوب كواكب

وفي هذه الأبيات من القصيدة ما يكشف عن شيء مما كان يخاطب نفس أبي تمام من هم ، وما كان
يلقاه من عنق في هذه الفترة يقول :

كثرت خطايا الدهر في وقد يرى	بنسداك وهو إلى منها تائب
وتتابع أيامه وشهوره	عصبا يغرن كأنهن مقائب
من نكبة محفوفة بمصيبة	جب السنام لها وجد الغارب
أو لوعة متوجة من فرقة	حق الدموع على فيها واجب
وولدت مذ زمت ركابك للنوى	فكأنني مذ غبت عني غائب

ومن البيت :

فَلَتَلْقَيْنَاكَ حَيْثُ كُنْتَ قَصَائِدُ	فِيهَا لِأَهْلِ الْمَكْرَمَاتِ مَآرِبُ
---	--

يمكن أن نستظهر أنه كان يريد أن يبقى في العراق ، ويرسل قصائده إليه حيث هو . ولكن لم
يلبث أبو تمام أن سار إليه ، وأظن ذلك كان سنة ٢٢٥ ، فمدحه بقصيدته :

حَمَتُهُ فَأَحْتَمَى طَعْمَ الْهَجُودِ غَدَاةَ رَمْتِهِ بِالطَّرْفِ الصَّيُودِ

وهو يذكره فيها بفعاله مع بابك . فنها :

أليس بأرشي كنت المحامي عن الإسلام ، ذا بأس شديد
رآك الخرمي عليه نارا تلهب غير خامدة الوقود
دلقت لهم بأبناء المنايا على العقبان في خلق الأسود

ويمضي فيها خفيفا يصف أحداث بابك حتى ينتهي إلى أخذه ، فيأخذ في الحديث عن حربه

مع الروم :

فأما آل قيصر فاستعيدت منايا جمعهم بيدي معيد
شنت عليهم الغارات حتى لشيب شنها رأس الوليد

١٦ - اضطراب أبي تمام في البلدان

(١) في الشام : وبيننا أبو تمام عند أبي سعيد ، إذ ورد عليه كتاب من أهله بالشام ، فيه نعي عزيز عليه لا نعرف من هو . وقد يكون آبنه ، أو أخاه ، أو زوجته ، فأولئك جميعا قد ماتوا في حياته ، ونعاهم . فاستأذن أبا سعيد في الذهاب إلى أهله :

يا من به يفتخر الفخر ومن به يتهج الشعر
ما طلبي للإذن أن شاقني شمس من الإنس ولا بدر
إلا كتاب أنرس ناطق أنطق منه طيه النشر
فانتشرت حين بدا طيه سرائر يكتمها الجهر
جاء نذير الحزن في بطنه بحادث أظهره الظهر
فأنهل في أسطره أسطر للدمع سطر فوقه سطر
فمن بالإذن على نازح عن أهله ساعته دهر

(ب) في سامراً : آنحدر أبو تمام إلى الشام سنة ٢٢٥ ، ليبكي من مات من أهله ، ولا نعلم كم بقي هناك . غير أننا نجده سنة ٢٢٦ في سر من رأى ، يمدح المعتصم ، ويذكر إحراق الأفشين في قصيدته :

الحق أبلج والسيوف عوار فخذار من أسد العرين حذار
ملك غدا جار الخلافة منكم والله قد أوصى بحسن الجار

وقد تحدّثت عن هذه القصيدة في أماكن أخرى، ولكن لا بد هنا من الإشارة بشيء إلى الأفشين لجلاء بعض ما يعرض من أبيات أبي تمام فيه . فقد كان أبوه من ملوك فرغانة فيما وراء النهر ، وكانوا مجوسا يعبدون النار . وفي ذلك يقول أبو تمام :

صَلَّى لَهَا حَيَا وَكَانَ وَقُودَهَا مَيْتًا وَيَدْخُلُهَا مَعَ الْفَجَّارِ

وأغلب الأمر أنه من الفرس ، وليس من الأتراك كما ظنه بعضهم ، فإن أفشين كلمة فارسية معناها الكريم ، وأسم أبيه كاووس : وهي كلمة فارسية معناها الكريم ، والثابت ، والدائم ، والقاهر ، والفتاح وغيرها . وهي أسم ملك من ملوك الفرس القدماء . أما أنهم من أشروسنه فهمى من الأقاليم التي يلتقي فيها نفوذ الفرس بالترك ، وكانت من الأماكن التي تطأها أقدام المغيرين من كلتا الأمتين ، إذا أغارت أحدهما على الأخرى ، فلا غرابة أن يكون فيها حاكم فارسي . أما الأفشين نفسه فكان مسلما ، وظل على هذا عند الناس جميعا حتى آتهم في دينه سنة ٢٢٥ ، وفي أمانته للدولة ، وبأنه حمل مازيار حاكم طبرستان على خلع المعتصم والثورة به . وقد أخذ مازيار هذا ، ويقال إنه أقتر بذلك على الأفشين ، ثم عاد فأنكره . ويهتمونه أيضا بتحريض خال ولده منكجور الفرغاني ، وكان بأذربيجان على الخلع ، ففعل "وقتل جماعة من أعوان السلطان . فقال المعتصم للأفشين : أحضر منكجور . فوجه الأفشين إليه بأبي الساج المعروف بديوداد في جيش عظيم . ثم بلغ المعتصم أن منكجور إنما خلع بأمر الأفشين ، وأنه إنما وجه إليه بأبي الساج مددا . فوجه محمد بن حماد على البريد ، ووجه بغا التركي فخارب منكجور ، فلما صدقه القتال ضرع منكجور إلى طلب الأمان ، وقدم به إلى سر من رأى وقد حبس الأفشين ، وكان حبسه في سنة ٢٢٦ " . أما ابن الأثير فيجعل حبس الأفشين سنة ٢٢٥ ، ويقول "إنه جمع بينه وبين مازيار في السجن لما أتى به إلى سر من رأى ، في هذه السنة . وكان الأفشين قد حبس قبل ذلك بيوم ، فأقتر مازيار أن الأفشين كان يكاتبه ، ويحسن له الخلاف والمعصية " . ولكن اليعقوبي يقول : "إنه لم يقتر بشيء" .

ويقول ابن الأثير : "وضرب مازيار أربعمائة وخمسين سوطا ، وطلب ماء للشرب فسقى ، فمات" . وقد حاكت الأفشين هيئة مكونة من محمد بن عبد الملك الزيات ، وآبن أبي دواد ، وإسحق ابن إبراهيم المعصبي ، وشهدت عليه جماعة أخرى . وتفصيل هذه المحاكمة مذكور في آبن الأثير . وانتهى الأمر برده إلى حبسه . وكانت وجدت عنده أصنام من أصنام أهل أشروسنة بلده ، وكتاب مذهب من كتب المجوس ، وآتهم بأنه لم يختن .

وكتب التاريخ مملوءة بالمتناقضات عن حادث الأفشين ، تهمته وبراءته ، بحيث يُظَلُّ الشك كثيرا من تاريخه . وإن الكتاب الواحد ليتضارب مع نفسه ، فينقل ما يفيد البراءة في مكان ، وما يفيد التهمة في آخر . ولقد لاحظ آبن الأثير ذلك على نفسه ، فعزاه الى كثرة الناقلين . وعلى كل حال ، فقد مات الأفشين سنة ٢٢٦ في سجنه ، فأخذ وصلب على باب العامة ثم أحرق . فقال أبو تمام في ذلك قصيدته :

الحقُّ أبلجُ والسيوفُ عوارِ فخذارٍ من أسدِ العرينِ حذارِ
ملكٌ غدا جارَ الخلافةِ منكم والله قد أوصى بحفظِ الجارِ
يا ربَّ فتنةِ أمةٍ قد بزَّها جبَّارُها في طاعةِ الجبارِ
جالتْ بِحَيْدَرٍ جَوْلَةُ المِقْدَارِ فأحلَّهُ الطغيانُ دارَ بوارِ

ومنها :

صادى أمير المؤمنين بزبرج في طيه حمة الشجاع الضارى
مكرًا بنى ركنيه إلا أنه وطد الأساس على شفير هارِ

ويقول في وصف احتراقه :

ما زال سر الكفر بين ضلوعه حتى أصطلى سر الزناد الوارى
ناراً يساور جسمه من حرها لهبٌ كما عصفت شق إزارِ
طارَتْ لها شعل يهدم لفحها أركانُه هذما بغير غبارِ
فصَّلتْ منه كلَّ مجمع مفصلِ وفعلتْ فاقرةً بكل فقارِ
لله من نارٍ رأيتُ وقودها ضاق الفضاءُ به على النظارِ
مشبوبة رفعت لأعظم مشرك ما كان يرفع ضوءها للسرائِ
صلَّى لها حياً وكان وقودها ميتاً ويدخلها مع الفجارِ

ويقول منها في ذكر صلب بابك وما زيار ، وكان جسمهما لا يزالان مصلوبين :

ولقد شفى الأحشاء من برحائها أن صار بابك جارَ مازيارِ
ثانيه في كيد السماء ولم يكن لآثنين ثانٍ إذ هما في الغارِ

ثم يقول مشيراً إلى ياطس ، خال ملك الروم ، الذى أسره المعتصم فى عمورية ، وكان مات سنة ٢٢٤ :
 وكأنما أبتدرا ليكيما يطويا عن ياطس خبراً من الأخبار
 ثم يختمها بأبيات يوصى فيها الخليفة بأبنه الوائق ، ويحثه فيها على جعله ولى عهده :
 فأشدُّ بهارون الخلافة إنه سكن لوخشتها ودار قرار
 الأبيات

(ج) فى كور الفرات مع مالك بن طوق : لم يقيم أبو تمام فى سر من رأى طويلاً ، فرحل إلى كور الفرات فى الجزيرة ، يمدح مالك بن طوق ، ويذكر خلافاً كان بينه وبين قومه من التغلبيين . يذكر أبو تمام ذلك الخلاف فى قصائد له طوال ، مليئة بالشعر والتجربة والقصص . وهو يتنقل معه فى رحلاته لإخضاع الثائرين من أسامة ، وتطول إقامة مالك بأقاليم من ريف العراق ، لاسيلاً لأبي تمام الحضري ، المولع بحياة المدن إلى احتمالها ، فيصرخ به أن يعجل الرحيل عن هذه القرى الصغيرة :

يامالك ابن المالكين أرى الذى	كما تؤمل من إياك رآنا
لولا أعتادك كنت فى مندوحة	عن برقيد وأرض باعينا
والكأخية لم تكن لى موطننا	ومقابر الذات من قيرانا

ومنها :

أرض خلعت اللهو خلعى خاتى فيها وطلقت السرور ثلاثا

حتى إذا أخضعهم ، أخذ أبو تمام فى الشفاعة لهم عنده ، فيقول من قصيدة :

ورأيت قومك ، والإساءة منهم ،	جرى بظفر الزمان وناب
هم صبروا تلك البروق صواعقا	فيهم ، وذلك العفو سوط عذاب
فأقل أسامة جرمها وأصفح لها	عنه ، وهب ما كان للوهاب

ويقول من قصيدة له فى مالك يصف بيوت أحبائه :

كانت لنا صنما نحنو عليه ولم نسجد كما سجد الأفشين للصنم

مما يدل على أنه اتصل به بعد حادث الأفشين .

ويظهر أن اختلاف أسامة ومالك هذا ، قد طال وزاد ، حتى اضطرت الخليفة إلى عزل مالك عن الجزيرة كما يقول جامع الديوان ، فقال أبو تمام يمدحه :

أَرْضُ مُصَرَّدَةٍ وَأُخْرَى تُنَجِّمُ تِلْكَ الَّتِي رُزِقَتْ وَأُخْرَى تُحْرِمُ
وَإِذَا تَأَمَّلْتَ الْبِلَادَ رَأَيْتَهَا تُثْرِي كَمَا تُثْرِي الرِّجَالُ وَتُعِدِمُ

ومنها :

تِلْكَ الْجَزِيرَةُ مُذْ تَحْمَلُ مَالِكُ أَصْحَتْ وَبَابُ الْغَيْثِ عَنْهَا مَبْهَمُ

ومنها :

مَهْلًا بَنَى غُثْمٌ بِنِ تَغْلِبَ إِنْكُمْ هَدَفُ الْأَسْنَةِ وَالْقَنَاءُ يَحْطِمُ

ومنها :

فَسَتَذْكُرُونَ غَدًا صَنِيعَةَ مَالِكٍ إِنْ حَلَّ خَطْبُ أَوْ تَدَوَّفِعَ مَغْرَمُ

مَالِي رَأَيْتُ ثَرَاكُمُ يَبْسَا لَهُ مَالِي أَرَى أَطْوَادَكُمْ تَهْتَدِمُ
مَا هَذِهِ الْقُرْبَى الَّتِي لَا تَتَّقِي مَا هَذِهِ الْقُرْبَى الَّتِي لَا تَرَحِمُ
حَسَدُ الْعَشِيرَةِ لِلْعَشِيرَةِ قُرْحَةٌ تَلِدَتْ وَسَائِلَهَا وَجُرْحٌ أَقْدَمُ
تَلَكُمُ قَرِيئُ لَمْ تَكُنْ أَرَاؤَهَا تَهْفُو وَلَا أَحْلَامُهُمْ تَتَقَسَّمُ
حَتَّى إِذَا بَعَثَ النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ فِيهِمْ غَدَتِ شَحْنَاؤُهُمْ تُتَضَرَّمُ

ومنها البيت المشهور :

فَقَسَا لِيَتَذَرَّجُوا وَمَنْ يَكُ حَازِمًا فَلْيَقْسُ أَحْيَانًا عَلَى مَنْ يَرَحِمُ

(د) فِي سَاعِرًا : وَيُظْهَرُ أَنَّ أَبَا تَمَامٍ وَرَدَ عَلَيْهِ وَهُوَ هُنَاكَ نَعَى الْمُعْتَصِمَ ، فَأَنَحَدَرَ إِلَى سِرٍّ مِنْ رَأْيِ لِيَهْنَى الْخَلِيفَةُ الْجَدِيدَ بِالْخِلَافَةِ ، وَلِيُعْزِيهِ فِي وَفَاةِ أَبِيهِ . وَلَقَدْ كَانَتْ لَهُ يَدٌ سَابِقَةٌ عِنْدَهُ ، وَذَلِكَ مِنْذُ كَانَ يَتَوَسَّطُ لَهُ عِنْدَ أَبِيهِ لِيُؤَلِّقَ الْأَمْرَ مِنْ بَعْدِهِ ، كَمَا سَبَقَ حَدِيثِي عَنْ ذَلِكَ .

مَاتَ الْمُعْتَصِمُ فِي يَوْمِ الْخَمِيسِ لِأَحَدَى عَشْرَةِ لَيْلَةٍ بَقِيَتْ مِنْ شَهْرِ رَبِيعِ الْأَوَّلِ سَنَةِ ٢٢٧ ، وَوُلِيَ أَبْنَاهُ الْوَائِقُ يَوْمَ مَاتَ أَبُوهُ . فَقَالَ أَبُو تَمَامٍ قَصِيدَتَهُ :

مَا لِلدَّمْعِ تَرُومُ كُلِّ مَرَامٍ وَالْخَفْنُ ثَاكِلُ هَجْعَةٍ وَمَنَامٍ
يَا تُرْبَةَ الْمَعْصُومِ تُرْبُكَ مُودَعٌ مَاءَ الْحَيَاةِ وَقَاتِلُ الْإِعْدَامِ

ومنها يجمع بين التهنية والتعزية :

مَا دَامَ هَارُونُ الْخَلِيفَةُ فَالْهَدَى فِي غِبْطَةٍ مُوصُولَةٍ بِدَوَامٍ
إِنَّا رَحَلْنَا وَائْقِينَ بَوَائِقِ بِاللَّهِ ، شَمْسٌ صُحَّى وَبَدْرٌ تَمَامٌ

لله أي حياة أنبعث لنا يوم الخميس وبعد أي حمام
تلك الرزية لا رزية مثلها والقسم ليس كسائر الأقسام

(هـ) في دمشق مع أبي المغيث : في هذه النسبة اندلعت نار الثورة في دمشق، وكان على

ولايتها أبو المغيث موسى بن إبراهيم الرافقي، ممدوح أبي تمام الذي سبق حديثي عنه .

يقول صاحب النجوم الزاهرة في حوادث سنة ٢٢٧ : "وفيها بعث المعتصم على دمشق الأمير أبا المغيث موسى بن إبراهيم الرافقي ، فخرجت عليه طائفة من قيس ، لكونه أخذ منهم خمسة عشر رجلا فصلبهم . فجهز إليهم أبو المغيث جيشا ، فهزموه وزحفوا على دمشق ، فتحصن بها أبو المغيث ، ووقع حصار شديد ، ومات المعتصم والأمر على ذلك . فاستمر في الحصار إلى أن كتب الواثق إلى رجاء الحضاري (قائد من قواده كان يخضع ثورة رجل آخر في فلسطين اسمه المبرقع) أن يتوجه إلى دمشق مددا لأبي المغيث . فقدم دمشق وحارب القيسية حتى هزمهم ، وقتل منهم ألفا وخمسمائة وقتل من الأجناد ثلاثمائة " .

سمع أبو تمام بهذه الثورة ، وكان في العراق كما رأينا مع مالك بن طوق أولا ، ثم في سرمن رأى ثانيا يرثي الخليفة . فلما فرغ من ذلك ، أخذ يفكر في الذهاب إلى بلده حيث كان يأمل أن يجد عيشا أكثر استقرارا ، وأكثر ليونا من عيش الرحلة الدائمة ، التي قضى فيها أيامه منذ نشأ . وكان ذلك النشاط الهائل الذي غلب على أيامه قد أثر في ميوله وآماله ، فهو اليوم يطمع في حياة هادئة . وقد هداه حسه إلى أن يكون ذلك في وظيفة أو عمل من أعمال الدولة يقوم به فينال رزقا منتظما يستطيع أن يعتمد عليه ، في غير احتياج إلى مدح فلان أو ذم فلان . ويظهر أنه برغم إصرافه كان قد أثرى شيئا . فان ابن نباته في كتاب سرح العيون ، يقص علينا قصة مقدمه إلى الشام في مرة ، يغلب أن تكون هي هذه المرة ، أو مرة أخرى أتاها بعدها ، يقول "ثم ترفت حال أبي تمام ، وتمول بالمال الجزيل حتى عاد إلى بلده ، فضرِبَ خياما وأظهر نعمة وأثانا . فخرجت امرأة من بعض أحياء العرب ومعها أختها يستقيان ، فتأملت زمانا ، ثم التفتت إلى صاحبتهما وقالت : أتدريين الرجل ؟ قالت : لا والله . قالت : بلى والله أنا أعرفه . قالت : ومن هو ؟ قالت : إنه والله أقيرع جاسم . فلما سمع ما قالت النسوة رحل من وقته وساعته وعاد إلى الموصل فما زال بها إلى أن مات رحمة الله تعالى عليه " .

شدَّ أبو تمام رحاله إلى بلده ، ويظهر من القصة أنه نزل جاسما بعد هدوء الثورة في دمشق .

وقد عاد هذه المرة إلى الشام وهو أذيع ما يكون اسما ، وأعظم ما كان في يوم جاها ، مدح ثلاثة خلفاء ،

وأتصل بأعظم رجال الدولة ، فلا خوف عليه أن يقف وجها لوجه أمام الرجل الذي آستثار حقه من قبل ، حتى تهدده بالقتل ، وكان يفعل لو أستطاع أن يصل إليه . وإنه اليوم أولى بأن يخشاه من أن يخيفه . أرسل إليه أبو تمام من بلده جاسم ، وكان موسى في دمشق ، هذه القصيدة :

أَقْشِيبَ رَبِّعُهُمْ أَرَاكَ دَرِيسَا	وَقِرَى ضِيُوفِكَ لَوْعَةً وَرَسِيسَا
فَلَيْنَ حُبِسْتَ عَلَى الْبَلَى لَقَدْ آغْتَدَى	دَمْعِي عَلَيْكَ إِلَى الْمَمَاتِ حَبِيسَا
حَتَّى كَأَنَّ أُمِّمَ كَانُوا سَكَنًا	بِكَ وَالْعَالِيقَ الْآلَى وَجَدِيسَا
وَأَرَى رُبُوعَكَ مُوَحِّشَاتٍ بَعْدَمَا	قَدْ كُنْتَ مَأْلُوفَ الْمَحَلِّ أُنَيْسَا
وَبَلَاقِعًا حَتَّى كَأَنَّ قَطِينَهَا	حَلَفُوا يَمِينَا أَخْلَقْتَكَ غَمُوسَا
رُودٌ أَصَابَتْهَا النَّوَى فِي خُرْدٍ	كَانَتْ بُدُورَ دُجْنَةٍ وَشُمُوسَا
فَكَأَنَّمَا أَهْدَى شَقَائِقَهُ إِلَى	وَجَنَاتِهِنَّ صُحَّى أَبَوْ قَابُوسَا
قَدْ أُوتِيتُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ نَعْمَةً ،	وَدَدًا ، وَحَسَنًا فِي الصَّبَا مَغْمُوسَا
لَوْلَا حَدَاتُهَا وَأَنَّى لَا أَرَى	عَرْشًا لَهَا لَظَنَنْتُهَا بَلْقِيسَا

مثل من أمثلة الشعر في طوره الأخير عند أبي تمام ، حيث يمثل فنه ناضجاً . فيه الفكرة ، وفيه أثر الثقافة الواسعة ، والانتفاع بهذه الثقافة أنتفاعاً سائفاً في كل شيء : في الإبانة عن الفكرة ، وفي استخراج تشايبه . وترى في قصيدته ذلك الذوق المذهب في اختيار الألفاظ ، وانتقاء الصور ، وبالجملة ففي هذه الأبيات مثل لغاية ما وصل إليه فن أبي تمام في الغزل . ذلك الفن الذي لا يأتي به عفواً ، وإنما يأتي به متعمداً له ، قاصداً إليه ، مهذباً ، مثقفاً في غير جفاء ولا جفاف ماء . ومنها بيت يكشف عن سخرية معللة من أبي تمام بالتنجيم ، يضاف إلى أبياته التي قالها من قصيدته في فتح عمورية :

ما في النجوم سوى تَعَلَّةٍ باطلٍ قَدِمْتُ وَأَسَسْتُ إِفْكُهَا تَأْسِيسَا

ثم يأخذ في ذكر الثورة التي كانت بدمشق فيقول :

فَتَنَ جَلُوتَ ظَلَامِهَا مِنْ بَعْدِ مَا	مَدُّوا عُيُونَنَا نَحْوَهَا وَرُؤُوسَا
حَرْبٌ يَكُونُ الْجَيْشُ بَعْضُ صَبُوحِهَا	وَيَكُونُ فَضْلُ غَبُوقِهَا الْكُرْدُوسَا
غُرْمُ أَمْرِي مِنْ رُوحِهِ فِيهَا إِذَا	ذُو السَّلَامِ أَغْرِمَ مَطْعَمًا وَلَبُوسَا
كَمْ بَيْنَ قَوْمٍ إِنَّمَا تَفَقَاتِهِمْ	مَالٌ وَقَوْمٌ يَنْفَقُونَ نَفُوسَا

سار ابن إبراهيم موسى سيرة
فأقر واسطة الشام وأنشأت
كانت مدينة عسقلان عروسها
من بعد ما صارت هنيئة صرمة
فكانهم بالعجل ضلوا حقبة
وكان موسى إذ أتاهم موسى
سكن الزمان لها وكان شموسا
كفاه جودا لم يزل مرموسا
فغدت بسيرته دمشق عروسا
والبدرة النجلاء صارت كيسا^(١)
وكان موسى إذ أتاهم موسى

ومنها يطلب الوظيفة :

أعطى الرياسة من يدك فلم تزل
من قبل أن تدعى الرئيس رئيسا^(٢)

ثم يلقي عليه درسا طيبا في معاملة الرعية يستطيع الإنسان أن يرى فيه فرق ما بين منزلة أبي تمام الآن، ومنزلته أيام كان يمدحه أول مرة :

أسقى الرعية من بشاشتك التي
إن الطلاقة والندى خير لهم
لو أن أسباب العفاف بلا تقي
من عفّة جمست عليك جموسا
لو أنها ماء لكان مسوسا
نفعت لقد نفعت إذن إبليسا

ولثاني مرة ، نجد أبا تمام يثور على الظلم ثورته الهادئة . ولقد رأينا الأولى في قصيدته للعتصم عند رجعته من عمورية لما قبض على أبناء المأمون ، وسجنهم بسبب خلع أخيه العباس له .

وقد رأينا من قبل ، كيف أن أبا المغيث صلب خمسة عشر رجلا من قيس . فأبو تمام يؤنبه في شيء من الإدارة، أملا أن ينال منه العمل الذي يبغيه . وفي آخرها يقول له البيت الذي يرى أنه أرسل إليه بالقصيدة إرسالا :

إنّا بعثنا الشعر نحوك مفردا
فإذا أذنت لنا بعثنا العيسا

ولكن أبا المغيث لم يكن نسي ما كان من أبي تمام منذ نيف وعشرين سنة ، ويظهر أنه صرح بذلك فقال : "أعطيه ما يطلب وقد هجاني ؟" . وبلغ ذلك أبا تمام فرحل إليه بقصيدة أخرى ينكر فيها أنه هجاه . يقول منها :

(١) الهنيئة : اسم للساعة من الإبل ؛ أو لما فوقها ودونها أولئائتين . والبصرة : القطعة من الإبل ما بين العشرين إلى الثلاثين ، أو ما بين العشرة إلى الأربعين . وغير ذلك . والبدة : كيس فيه سبعة آلاف دينار .

(٢) لهذا البيت وجه آخر، فقد يؤول على أنه : أعطى رياستك للناس ، حقها من نعمتك ومن عدلك . وهذا على كل حال لا يؤثر في تاريخ القصيدة لعلاقتها التاريخية بالثورة التي كانت في دمشق سنة ٢٢٧ . كما أن النص يمكن أن يفهم على الوجه الذي ذكرت أولا ، بقويه ما كان من طلب أبي تمام الوظيفة في آخر أيامه .

أتاني مع الركب ظن ظننته
لقد نكب الغدر الوفاء بساحتي
وهتكت بالقول إلحنا حرمة العلا
نسيت إذن كم من يد لك شاكت
ومن زمن ألبستني كأنه
وأنت أحكت الذي بين فكرتي
وأصلت شعري فأعتلى رونق الضحى
فكيف وما أخلت بعدك بالجحا
أسريل هجر القول من لو هجوته
كريم متى أمدحه أمدحه والورى
ولو لم يزغني عنك للحلم وازع
أبي ذاك أتى لست أعرف دائما
ولمى رأيت الوشم في خلق الفتى
أرد يدي عن عرض حر ومنطقي

للفت له رأسى حياء من المجيد
إذن، وسرحت الدم في مسرح الحمد
وأسلكت حر الشعر في مسلك العبد
يد القرب أعدت مستهما على البعد
إذا ذكرت أيامه زمن الورد
وبين الليالى من ذمايم ومن عهد
ولولاك لم يظهر زمانا من الغميد
وأنت فلم تخيل بمكرمة بعدي
إذن لهجاني عنه معروفه عندي
معى ، ومتى ما ملته ملته وحدي
لأعديتني بالحلم إن العلى تعدي
على سودد حتى يدوم على العهد
هو الوشم لا ما كان فى الشعر والجلد
وأملؤها من لبدة الأسد الورد

وكأنه لاحظ أنه أطال الاعتذار ، فى كثير من الكذب ، فيختم القصيدة بشئ من اعتراف النادم الذى يعمل فى نفسه نجس :

فإن يك جرم عز أو تك هفوة
على خطيأ منى فعذرى على عمدي

ولقد ينكر على أبي تمام هذا الكذب فى الاعتذار ، إلا أن الإنسان يجد مخففا فى هذا البيت الأخير ، كما يجد مخففا آخر فى حياة أبي تمام أواخر أيامه ، فهى تكاد تخلو من الهجاء إلا قليلا جدا . ويظهر أن نفس أبي تمام لم تكن تستسيغه ، أو تقبل عليه إلا قسرا . ففى هذا الاعتذار إلى أبي المغيث عن هجائه إياه فى شبابه ، معنى من نفور أبي تمام مما كان ركبه ، ولذلك كان شديد القسوة على نفسه فى الاعتذار . وكأنى به كان يظن أن الزمان قد آتبع هذا الهجاء إلى غير رجعة ، ولكن التاريخ كان أوعى منه قلبا . ومنها يذكر رحيله إليه :

سرين بنا رهوا ووخدا وإنما
قواصد بالسير الحثيث إلى أبي الـ

بييت ويمسى النجم فى ذمة الوخذ
مغيث فما تنفك ترقل أو تحدى

إليك نغرنا ما بنت في ظهورها ظهور الثرى الربيعي من فدين نهد
سرت تحمل العتي إلى العتب والرضا إلى السخط والعذر المبين إلى الحقد

ولكن هذا الحقد الذي كان يعرفه أبو تمام ، لم يذهب هذا الاعتذار ، فلم ينل تلك الرياسة التي كان ينبغي ، ولم يهنا له المقام بوطنه كما كان يرجو ، فشده رحاله ثانية إلى العراق ، عسى أن يجد عند ذوى الشأن فيها ما لم يجده عن أبي المغيث .

(و) في العراق :

تأثره بالمنافسة بين ابن أبي دواد وابن الزيات :

عاد أبو تمام إلى العراق ، وأغلب ما كان ذلك آخر سنة ٢٢٧ ، أو أول سنة ٢٢٨ ، ف قضى فيها فترة اتصل فيها بكل مشاهير ذلك الزمن ، مشتبكا بهم اشتباكا لا يمكن الإنسان معه أن يميز في يقين بين دقائقه وكبائره ، ما تقدم منها وما تأخر . ولكنه في جميعها كانت تعمل في رأسه فكرة العمل المستقر ، في ولاية من ولايات الدولة ، لينال أجرا ثابتا ، وليفيد ثروة كان يرى كل رجال الدولة يفيدونها من عملهم .

فتراه يمدح إسحاق بن إبراهيم بن مضعب ، وقد تحدثت عن مدائحه فيه سابقا ، أيام إخضاعه المحمرة بالجلال سنة ٢١٨ . يمدحه هذه المرة ، وهو على شرطة الواثق ، كما كان على شرطة المعتصم من قبل ، بقصيدة مطلعها :

قل للامير الذي قد نال ما طلبا ورد من سالف المعروف ما ذهب
فيقول له منها :

ونادب رفّع قدر كنت أمه لديك ، لافضة أبني ولا ذهب
أدعوك دعوة مظلوم وسيلته إن لم تكن بي رحما فأرحم الأدبا

ولكن هذه الدعوة لا تجد استجابة من إسحاق ، فيتجه أبو تمام إلى ابن الزيات ، وهما صاحبان قديمان بقصيدة مطلعها :

لهمان علينا أن نقول وتفعلا ونذكر بعض الفضل منك فتفضلا

ومنها يذكر ابن الزيات :

هزرت أمير المؤمنين ! محمدا فكان ردينيا وأبيض منصلا

وهو فيها شديد الضيق، يهتد بالرحيل إلى أهله في الشام، ويذكر أنه ما كاد يراهم حتى فارقهم:

سأقطع أمطاء المطايا برحلة
إلى الزحيم الدنيا التي قد أجفها
قبيل وأهل لم ألاق مشوقهم
كانهم كانوا خلفية وقفتي
ومنها :
إلى الوطن الغربي هجرا وموصلا
عقوق، عسى أسبابها أن تبلا
لوشك النوى إلا فوفا كالا ولا
معارف لي، أو منزلي كان منزلا

وأصرف وجهي عن بلاد غدا بها
وجد بها قوم سوى فصادفوا
كلاب أغارت في فريسة ضيغم
وإن صريح الحزم والرأى لأمرى
لساني معقولا وقلبي مقفلا
بها الصنع أعشى والزمان مغفلا
طروقا، وهام أطمعت صيد أجلا
إذا بلغت الشمس أن يتحولا

ثم ينقلب إلى غايته التي يلح في طلبها، والتي من أجلها غضب غضبته هذه، فيقول :

فمرني بأمر أخوذني فإنني
رأيت العدى أثروا وأصبحت مرملا

ويظهر أن ابن الزيات، كان يرى أن أبا تمام الشاعر خير له أن يبقى شاعرا، فكان يساعده

بوسائل أخرى كأن يقدمه إلى الخليفة .

يقول الصولي^(١) : "وجدت بخط أحمد بن إسماعيل بن الحصيب، أن محمد بن عبد الملك أوصل

إلى الواثق قصيدة لأبي تمام يمدحه بها، أولها :

وأي المنازل إنها لشجون
وعلى العجومة إنها لتئين

فقرئت عليه فلما جاء إلى قوله :

جاءتك من نظم اللسان قلادة

حذيت حذاء الحضرمية أرهفت

إنسية وحشية كثرت بها

أما المعاني فهي أبكار إذا

أخذاكها صنع الضمير يده

ويسىء بالإحسان ظنا لا كمن

هو بآبئه وبشعره مفتون

فقال : أدفع اليه مائتي دينار . فقال محمد : إنه قوى الأمل ، واسع الشكر . قال : فأضعفها له .
وقد رويناه من غير هذه الجهة أنه أمر له بمائة ألف درهم .

وكان أبو تمام وثيق الصلة بأبن الزيات ، صديقه أكثر منه شاعره . وكان ابن أبي دؤاد لا يحب
أبن الزيات ، ويظهر أن هذه العداوة بين ابن أبي دؤاد وصديقه أبن الزيات ، كانت تطلق في القاضي
لسانه أحيانا حتى غضب . وإن كان الصولي يرجع الحصومة بينه وبين ابن أبي دؤاد إلى نخر أبي تمام
بنسبه إلى اليمن ، حتى فضلهم على مضر ، وإياد التي منها ابن أبي دؤاد عدنانية . إلا أني ألمح هذا
السبب الذي أنسب إليه غضب ابن أبي دؤاد على أبي تمام ، في تعريض بالقاضي خفي في شعره ،
حين كان يمدح أبن الزيات أو يعتذر إليه . ويقول الصولي إنه أمر بحجبه عنه ، فراح أبو تمام
يعتذر اليه بشعر كثير . فقال قصيدته :

سَقَى عَهْدَ الْحِمَى سَيْلُ الْعِهَادِ وَرَوْضَ جَاضِرٍ مِنْهُ وَبَادِ

ومنها يعتذر إليه :

وما سافرتُ في الآفاق إلَّا ومِن جَدَّوَك راحلتِي وزادِي
مُقيمُ الظَّنِّ عندَكَ والأمانِي وإن قَلِقتُ رِكابِي في البلادِ
مَعادُ البعثِ معروفٌ ولكن نَدَى كَفِّكَ في الدنيا مَعادِي
أَتَانِي عابِرُ الْأَنْبَاءِ تَسْرِي عَقَارُهُ بِدَاهِيَةِ نَادِ^(١)
نَثًّا خَبَرٌ كَانَ الْقَلْبُ أَمْسِي يُحَرِّيه على شَوْكِ الْقَتَادِ
كَأَنَّ الشَّمْسَ جَلَّهَا كَسُوفٌ أَوْ آسْتَرَتْ بِرَجْلِ مِنْ جَرَادِ
بِأَنِّي نَلْتُ مِنْ مُضَرٍّ وَخَبَّتْ إِلَيْكَ شَكِيَّتِي خَبَبَ الْجَوَادِ
وَمَا رُبَّ قَطِيعَةٍ لِي بِرَبْعٍ وَلَا نَادِي الْأَذَى مِنِّي بِنَادِ
وَأَيْنَ يَجُورُ عَنْ قَصْدٍ لِسَانِي وَقَلْبِي رَائِحٌ بِرِضَاكَ غَادِ
وَمَّا كَانَتْ الْحِكْمَاءُ قَالَتْ : لِسَانُ الْمَرْءِ مِنْ خَدَمِ الْفَوَادِ

ثم يمضي بعدها في الاعتذار طويلا ، مستندا إلى أن ذلك ليس يأتي إلا من لئيم ، وهو أولى
بأن يحتجب أمام نفسه أن يوصف باللؤم . ثم يأخذ بعد ذلك في نصحه بالتثبت من هذه الوشائيات ،
ضاربا الأمثال بما حدث في التاريخ من بلايا ومصائب بسبب الوشاية :

(١) النَّادِ : الداهية ، كأنه يقول : داهية دهياء .

تَبَّتْ . إِنَّ قَوْلَا كَانَ زورا إلى النعمان قبلك عن زياد
وأرث بين حَيِّ بنى جُلَاحٍ سَنَا حرب وبين بنى مُصَادٍ^(١)
وهكذا يمضي في قصيدة هي من أجمل قصائده؛ ولكن ابن أبي دؤاد لم يزل غضبه . فعمل قصيدة
أخرى يعتذر إليه فيها ، ويستشفع بخالد بن يزيد بن مزيد الشيباني ، وهي :

أرأيت أيَّ سِوَالِفٍ وخُدُودٍ عَنَّتْ لَنَا بَيْنَ النَّوَى فَرُودٍ

وهي جارية مجرى الأولى في شاعريتها وخصبها . ومنها يذكر شفاعته خالد :

فَأَسْمَعُ مَقَالَةَ زَائِرٍ لَمْ تَشْتَبِهِ أَرَأُوهُ عِنْدَ اشْتِبَاهِ الْيَسِيدِ
يَسْتَامُ بَعْضَ الْقَوْلِ مِنْكَ بِفَعْلِهِ كَلَّا ، وَعَفَوَ رِضَاكَ بِالْمُجْهُودِ
أَسْرَى طَرِيدَا لِلْحِيَاءِ مِنَ التِّي زَعَمُوا ، وَلَيْسَ لِرَهْبَةِ بَطْرِيدِ
كَنتَ الرِّبِيعَ أَمَامَهُ ، وَوَرَاءَهُ قُرُ الْقِبَائِلِ خَالِدُ بْنُ يَزِيدِ

وهذه القصيدة لم تلق من القبول عند ابن أبي دؤاد أكثر مما لقيت سابقتها ؛ فكتب إليه
أبو تمام مقطوعة أخرى :

أَلْأَحْمَدُ إِنَّ الْحَاسِدِينَ حُشُودُ وَإِنْ مَصَابِ الْمُزْنَ حَيْثُ تَرِيدُ
ولقي خالد أخيرا في شفاعته النجاح الذي لم تجده قصائد أبي تمام ، فرضى ابن أبي دؤاد عن
أبي تمام فأخذ يمدحه بعد ذلك بقصائد كثيرة منها :

سَعِدْتُ غَرَبَةَ النَّوَى بِسُعَادٍ فِيهِ طَوْعُ الْإِثْمَامِ وَالْإِنْجَادِ

يقول فيها يذكر هذه الوشاية :

بَعْدَ مَا أَصْلَبَتِ الْوُشَاةُ سِوْفَا قَطَعْتُ فِي وَهْيٍ غَيْرُ حِدَادِ
مِنْ أَحَادِيثٍ حِينَ دُوخَتْهَا بِالْأَيِّ كَانَتْ ضَعِيفَةَ الْأَسْنَادِ
فَنَفَى عَنْكَ زَخْرَفَ الْقَوْلِ سَمْعٌ لَمْ يَكُنْ فُرْصَةً لَغَيْرِ السَّدَادِ
ضَرَبَ الْحِلْمُ وَالْوَقَارُ عَلَيْهِ دُونَ عُورِ الْكَلَامِ بِالْأَسْدَادِ

ومما قاله أيضا بعد هذه الخصومة قصيدة مطلعها :

أَهْلُوكَ أَمْسُوا شَاخِصًا وَمَقْوُضًا وَمَنْمًا يَصِفُ النَّوَى وَمَغْرُضًا^(٢)

(١) جلاح ومصاد : حيان من طلب اليمن ، فرقت أقوال الناس بينهما فتحاربا طويلا .

(٢) غرض الناقة : شدّها بالفرصة .

ومنها البيت :

لو كان أبغض قلبه فيما مضى أحد لَكُنْتُ إذَنْ لِقَلْبِي مُبِغِضًا

وهو يذكر بقول المتنبي :

حببتك قلبي قبل حبك من نأى وقد كان غدارا فكُنْ أنت وافيًا

ومنها بيت يرى كيف كان أبو تمام يستخرج شعره وتشايبه من صميم الحياة :

عِنْدِي مِنَ الْأَيَّامِ مَا لَوْ أَنَّهُ أَخْضَى بِشَارِبٍ مَرَقِيدٍ مَا غَمَضَا

وبيت آخر يهتك الحجب عن لون من ألوان الرياء النفس، التي لازمت الإنسان زمنا في فهم معنى الصبر والتجلد :

مَا عَوْضَ الصَّبْرَ أَمْرٌ إِلَّا رَأَى مَا فَاتَهُ دُونَ الَّذِي قَدْ عُوِّضَا

وأبيات آخرتين عن سبب هم أبي تمام بغضب ابن أبي دؤاد وهي :

لَمَّا أَنْتَضَيْتُكَ لِلْخُطُوبِ كُفَيْتُهَا وَالسِّيفَ لَا يَكْفِيكَ حَتَّى يُنْضَى
مَا زِلْتُ أَرْقُبُ تَحْتَ أَفْيَاءِ الْمَنَى يَوْمًا بِوَجْهِ مِثْلِ وَجْهِكَ أَبْيَضَا
كَمْ مُحْضِرٍ لَكَ مُرْتَضَى لَمْ تَذَرْ مَحْمُودُهُ عِنْدَ الْإِمَامِ الْمُرْتَضَى
لَوْلَاكَ عَزَّ لِقَاؤُهُ فِيمَا بَقَى أَضْعَافُ مَا قَدْ عَزَّنِي فِيمَا مَضَى

”وبقي“ في البيت، بفتح القاف آتباعا للغة طيء .



يمكن بعد هذا أن نضع قصائد أبي تمام في ابن أبي دؤاد حول زمن الحصومة هذه، فهي تصلح لأن تكون قيلت قبل أن تشب الحصومة بينه وبين أبي تمام، أو بعدها . وأهم الباقي اثنتان : إحداهما أشبه بأن تكون قيلت بعد الحصومة إذ يقول فيها :

إِنْ خَيْرًا مِمَّا رَأَيْتُ مِنَ الصَّفَدِ حَجَّ عَنْ النَّائِبَاتِ وَالْإِغْمَاضِ
غُرْبَةً تَقْتَدِي بِغُرْبَةِ قَيْسٍ بـ زِيَّانٍ زَهِيرٍ وَالْحَارِثِ بْنِ مُضَاضٍ

وثانيتها :

أَلَمْ يَأْنِ أَنْ تُرَوِّى الظَّمَاءُ الْحَوَائِمَ وَأَنْ يَنْظِمَ الشَّمْلَ الْمَبْدَدَ نَازِمٌ

وفيها ذكر لرحلته إلى المدوح، وأغلب أن تكون قيلت قبل الحصومة، حين رجع أبو تمام من الشام لآخر مرة .



ويظهر أن الشحنة دبت بينه وبين خالد بن يزيد بن مزيد الشيباني في ذلك الحين . فقال قصيدة يمدح فيها ابن الزيات — ولم يكن قد أقطع عن صحبته ، بسبب حادث ابن أبي دؤاد — ويعرض بخالد بن يزيد الشيباني . ومطلعها :

خَلَّى سَبِيلَ تَهَائِي وَنَجُودِي مِمَّا يَغْرُكَ ، طَارِفِي وَتَلِيدِي

وفيها ما يدل على أنها قيلت في ابن الزيات أيام الواصل ، قوله :

وَنَوَالُ ذِي الشَّرَفَيْنِ عِنْدَ خَلِيفَةٍ بَاقٍ وَمَاضٍ ، قَبْلَ ذَلِكَ ، حَمِيدٍ
وَقِيلَتْ تِلْكَ عَلَى الْوَفَاءِ فَأَصْبَحَتْ هَذِي تُشِيرُ إِلَيْكَ بِالْإِفْلِيدِ
فَنَصَحْتُ لِلْمَلِكِينَ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَصَحَ الْإِمَامَ قَرَابَةَ التَّوْحِيدِ

وإبن الزيات إنما خدم المعتصم ، ثم الواصل من بعده . ومنها يشير إلى خالد :

مَا ضَرَّهَا إِذْ كُنْتَ بَنَاءً بِهَا أَلَّا تَكُونَ لَخَالِدِ بْنِ يَزِيدِ
وَمُكَاشِحَ يَلُوى بَنَانَهُ كَفِّهِ بَغْيَا ، فَقُلْتُ لَهَا : الْقَضَاءُ تُشِيدِي
أَحْسِدْ عَلَى نِيلِ الْمَكَارِمِ وَالْعُلَى إِنِّ لَمْ تَكُنْ فِي حَالَةِ الْمَحْسُودِ

اتصاله بالحسن بن وهب : وفي هذه الفترة يتعرف أبو تمام بالحسن بن وهب ويتصادقان . والحسن من كتاب الدولة ذوى الشأن ، فيقول فيه شعرا ، ويتقرب إليه . ويقول لنا ابن خلكان : إنه جعله على بريد الموصل ، وليس واليا عليها ، وإنه تتبع ذلك وحققه ، ويقول إنه أقام بها أقل من سنتين ثم مات بها .

هل عمل أبو تمام على بريد الموصل : ولا أستطيع أن أمر بهذا التحقيق الذى يقول عنه ابن خلكان ، دون أن أقف عنده وقفة ما .

فأبو تمام من غير شك لم يميت قبل سنة ٢٣٠ ، لأنه يرثى خالد بن يزيد بن مزيد ، الذى مات في هذه السنة ، كما فى اليعقوبى ، فى إرمينية ، وكان الواصل قد ردّه عليها . وروايات موت أبى تمام قبل سنة ٢٣٠ ، أو فيها لا تجد سنداً فى أقدم الكتب بين أيدينا : أخبار الصولى والأغانى .

ويروى الصولى لموت أبى تمام روايتين : إحداهما تنتهى إلى من يدعى محمد بن موسى وتقول : إن الحسن بن وهب ، وكان يكتب لمحمد بن عبد الملك الزيات ، عُني بأبى تمام ، فولاه بريد الموصل ، فأقام بها سنة ومات فى جمادى الأولى سنة إحدى وثلاثين ومائتين ، ودفن بالموصل .

والثانية تنتهى إلى مخلص بن بكار الموصل ، وهو عدو من أعداء أبي تمام ، الذى يهجوّه كما مضى فى حديثى عنه قبلا . وقد هجاه أيضا لما مات بالموصل . ويقول إنه مات فى المحرم سنة اثنتين وثلاثين ومائة .

وثالثة وهى تؤيد الأولى تماما عن تمام بن أبي تمام : أن أباه مات سنة ٢٣١ . وإذا قد آتفتت رواية تمام مع رواية محمد بن موسى ، فأولى بنا أن نقدمها . فلو صحّ أن أبا تمام قد ظل سنة ، أو سنة وبعض سنة ، على ولاية بريد الموصل ، فإن ذلك يجعل أول ولايته عليها فى منتصف سنة ٢٣٠ . إن كان وليه سنة ، وفى أواخر سنة ٢٢٩ إن كان وليه أكثر من سنة .

فإذا وجدنا ابن الأثير يقول فى حوادث سنة ٢٢٩ : " وفى هذه السنة حبس الواثق الكتاب ، وألزمهم أموالا عظيمة ، وأخذ من أحمد بن إسرائيل ثمانين ألف دينار بعد أن ضربه ، ومن سليمان ابن وهب ، كاتب إيتاخ ، أربع مائة ألف دينار ، ومن الحسن بن وهب ، أربعة عشر ألف دينار ... " أضطررنا إلى ترجيح أن الحسن بن وهب لم يكن فى يده بعد سنة ٢٢٩ من السلطان ما يستطيع به أن يوظف أبا تمام ، فى عمل من أعمال الدولة . وأنه إن كان فعل ذلك ، فلا بد أن يكون قبل حبسه . وذلك ما يرجح رواية ابن خلكان فى أن أبا تمام بقى على بريد الموصل أكثر من سنة .

فإذا صحّ أن أبا تمام كان على بريد الموصل منذ سنة ٢٢٩ حتى موته ، فإن وجوده بهذا العمل يرغمه على البقاء طول هذه المدة دون تنقل ليمدح هذا أو ذاك ، لأن عمل صاحب البريد فى تلك الأيام كان معقدا ، وهو أقرب ما يكون إلى عمل مراقب على الوالى من قبيل الخليفة . فتركه عمله زمنا طويلا أو قصيرا ، معناه أنقطاع الصلة بين عاصمة الدولة وقطره الذى هو فيه ، إلا إذا أناب عنه غيره ، وهذا عسر لما كان يحيط هذا العمل من أسرار ، قد تكون سياسة الدولة فى حاجة إلى عدم كشفها . فقد كان الوالى أحيانا يخلع الخليفة ، أو يسقط اسمه من الخطبة ، كما فعل طاهر ابن الحسين فى أيام المأمون ، فيكتب صاحب البريد بذلك إلى الخليفة . وكما حدث أيضا فى ردّ خالد بن يزيد بن مزيد عن إرمينية سنة ٢٢٣ ، إذ كتب صاحب بريدها إلى المعتصم يخبره عن سوء استقبال أهلها له ، وخوفهم منه . فلم يكن عمل صاحب البريد العمل السهل الساذج الأمين ، الذى يستطيع صاحبه أن ينام عنه ملء جفونه .

ومع ذلك فإننا نجد تلك القصة التى ذكرتها قبلا نقلا عن كتاب سرح العيون عن رحيل أبي تمام إلى الشام فى ثروة وغنى ، وكيف ضحكت منه المرأة ، وكيف عاد إلى الموصل بعد ذلك فبقى بها

حتى مات . هذه وما ساذكره بعد من تنقل أبي تمام لمدح بعض ممدوحيه يجعل القول بولايته يريد الموصل محوطا بشيء من الشك ويدفع الى تلقيه بشيء من الحذر .

كما أننا نجد أبا تمام عند خالد بن يزيد بن مزيد ، في إرمينية ، بعد أن رده الوائق إليها سنة ٢٣٠ ، يمدحه بقصيدة هي مثل من أمثلة نضج أبي تمام الشعرى في أواخر أيامه ، وهي :

ما لكِثيبِ الحمى إلى عقده ما بال جرعائه إلى جرده

يجد الإنسان فيها تلك الأبيات التي لا يستطيع إزاءها إلا أن يخنى الرأس إجلالا :
يا فرحة الثغر بالخليفة من يزيد المرتضى ومن أسده

ممتليء الصدر والجوانح من رحمة مملوئهن من حسده

ياخذ من راحة لشغل ويسبق لبس الزمان من ثأده

فهو لو أسطاع عند أسعده لحز عضوا من يومه لغده

إذ منهم من يعد ساعته الطاق عياراً له على أبده

ألوى ، كثير الأسى على سؤدد العيش قليل الأسى على رغده

قريحة العقل من معاقله والصبر في النائبات من عُدده

وهو يشير فيها إلى شفاعته له عند ابن أبي دؤاد :

تالله أنسى دفاعه الزور من عوراء ذى نيرب ومن فنّده

فهى قصيدة يذكّر فيها أبو تمام ردّ خالد الى الثغر في قوله : ” يا فرحة الثغر ... البيت . وقد قالها بعد خصومة ابن أبي دؤاد ، ولم يردّ خالد الى الثغر إلا سنة ٢٣٠ كما يذكّر اليعقوبى .

أما ما ثبت أنه كان في إرمينية . في تلك الأيام ، نخب حكاة الصولى : أن رجلا رآه في مجلس خالد بن يزيد بإرمينية ، فوجده حسن الفكاهة أعجبه جدا . فقال له خالد أما سمعت شعره فينا ؟
ما لكِثيبِ الحمى إلى عقده ما بال جرعائه إلى جرده^(١)

ويغلب أن يكون أبو تمام قصد هذه الميزة أيضا إلى أذربيجان لمدح صاحبه القديم ، الذى لم يتخل عنه يوما ، وهو أبو سعيد محمد بن يوسف الثغرى فيقول فيه قصيدته :

حَتَّامَ دَمْعِكَ مَسْفُوحٌ عَلَى الدَّمَنِ
مَا زَالَ قَلْبُكَ يَقْنَى الْحُزْنَ مَجْتَهِدًا
بَأْنَوًا، وَشَوْقُكَ لَمْ يُظْعَنُ وَلَمْ يَنْ
حَتَّى لَقَدْ أَعْدَمَ الشَّكْلَى مِنَ الْحُزَنِ
فهو فيها يذكر الرحلة إليه :

إِلَيْكَ حَارَبْتُ بَوْمَ اللَّيْلِ مُنْصِرِفًا
قَدْ سَهَّلَ الْحُزْنَ مِنْهَا مَا تَسْنَمُهُ
تَسْرَى بِرَكِبٍ تُوشَّى ثَوْبَ لِيْلِهِمْ
ثم يقول فيها مشيرًا إلى الخليفة :

إِنَّ الْخَلِيفَةَ هَارُونَ الَّذِي وَصَلَتْ
أَلْفَاكَ أَسْمَعَ مِنْ نَالَتِهِ دَعْوَتُهُ
بِهِ الْخِلَافَةُ حَبْلُ الدِّينِ وَالسُّنَنِ
قَدَمًا، وَكُنْتُ إِلَيْهِ مَصْنَعِي الْأُذُنِ

وفي هذه السنة يمرض خالد بن يزيد بن مزيد، في إرمينية، ثم يموت، فيقول أبو تمام في رثائه،
نِعَاءً إِلَى كُلِّ نِعَاءٍ
ومنها يصفه في مرضه وكأنما شهدته :

يَقُولُ النَّطَاسِيُّ إِذْ غُيِّبَتْ
نُبُوُّ الْمُقِيلِ بِهِ وَالْمَبِيتِ
عَرِبَ الدَّاءِ حِيلَتُهُ وَالدَّوَاءِ
أَقْعَصَهُ، وَأَخْتَلَفَ الْهَوَاءِ

ومنها يخاطب ابنه محمداً، وكان الواصل ولده إرمينية بعد أبيه، كما في اليعقوبي :
أَبَا جَعْفَرٍ لِيُعْرِكَ الزَّمَانُ
فَمَا مُزْنُكَ الْمُرْتَجَى بِالْجَهَامِ
وَلَا رَجَعْتَ فِيكَ تِلْكَ الظُّنُونُ
وَقَدْ نَكِسَ الثَّغْرُ فَأَبْعَثَ لَهُ
فَقَدْ مَاتَ جَدُّكَ جَدُّ الْمُلُوكِ
وَلَمْ تُرْضَ قَبْضَتُهُ لِلْحَسَامِ
فَمَا زَالَ يَقْرَعُ تِلْكَ الْعُلَى
وَيَصْعَدُ حَتَّى لَظَنَ الْجَهْوُ
عَزَاءً وَيَكْسُكَ ثَوْبَ الْبَقَاءِ
وَلَا رِيحُنَا مِنْكَ بِالْجَرِيَاءِ
حَيَارَى وَلَا أَنْسَدَ شَعْبُ الرِّجَاءِ
صَدُورَ الْقَنَا فِي آبَتِغَاءِ الشِّفَاءِ
وَنَجْمُ أُبَيْكَ حَدِيثُ الضِّيَاءِ
وَلَا حَمْلَ عَاتِقِهِ لِلَّوَاءِ
مَعَ النِّجْمِ مَرْتَدِيًا بِالْعَمَاءِ
لُ أُنْ لَهُ مَتَرًا فِي السَّمَاءِ

ثم يتحدث عن سياسته الحرب حديث الخبير المجرب :

وقد جاءنا أن تلك الحروب إذا حُذيتْ فالتوت بالحذاء
وعاودها جربٌ لم يَزَلْ يُعاود إشعافها بالهنا
متحت بسجل لها كالسجل ودلّو إذا أفرغت كالدلّاء
ومثل قوَى حبل تلك الذرا ع كانت لزا لتلك الرشاء
فلا تُحْزِر أيامه الصالحات وما قد بنى من جليل البناء
وقد علم الله أن لن تُحِبَّ شيئاً كحبك حسن الثناء

وفيها شيء من روح الأبوّة والعطف، خليق بأبي تمام في سنيه الأخيرة. وكأن ذلك الهدوء الذي يشيع فيها، أشعة الشمس الغاربة صفراء باهتة، ولكنها عميقة المعنى، يتركز في كل شعاع منها معنى النهار، من صبحه الى منتهاه .

رثى أبو تمام خالدا بغير هذه، ثم آنحدر الى الشام على الأغلب، فأخذ أهله ليقم في الموصل في هدوء كان يأمله منذ زمان طويل . نزل الموصل هاربا من ذكريات أيامه الأولى في الشام، متعبا قد أثر في نفسه طول هذا الصراع مع الدنيا، ينبغي أن يستقبل الحياة من جديد بوجه جديد، يختلف عن عبوسها الذي لازمه منذ ولد . ولكن هؤلاء العظماء النفوس، لم تُقسّم لهم الراحة في الدنيا نصيبا، فسلط عليه قدره شاعرا ناشئا، يريد أن يشتهر على حساب اسم أبي تمام الضخم، فأخذ يهجوّه ويضحك منه، والشيخ لا يجيبه أحقارا وترفعاً، كما كان يقول للناس، وهربا من جلبة الهجاء، وضجيج الحياة كما أشعر أنا . هذا الشاعر هو مخلص بن بكار الموصلية .

١٧ - موت الشاعر

وفي جمادى الأولى سنة ٢٣١ أسلم هذا الرجل روحه، فبكاه أناس كثيرون . ولكنا لم نشهد في بكائهم إياه دمعة تقرب من دموعه على من بكاهم غزارة وحرارة . مات كما يموت العظماء جميعا لا تذرف الناس عليهم الدمعة المنبعثة من قلب حزين مكسوم، ولكن الدمعة التي تعبر عن حس بخسارة شيء عظيم، كان يملا عليهم حياتهم . تلك الدمعة الذاهلة لانهيار الطود الشاخ، لا الدمعة الآلة الصادرة عن قلب جريح . لم يرث أحد منهم أباً تمام، ولكنهم رثوا شعر أبي تمام؛ لأن شعر أبي تمام كان في نفوسهم أخلد من شخصه . فضؤل الانسان الفاني إلى جانب العقل الخالد .

رثاه ابن الزيات، وقد يكون بيناه أكثر ما قيل فيه جزعا عليه :
 نبأ أتى من أعظم الأنبياء لما ألمَّ مقلقل الأحشاء
 قالوا: حبيبٌ قد ثوى فأجبتهم نأشدتكم لا تجعلوه الطائي

وقيل بل هما لأبي الزبرقان : عبد الله بن الزبرقان الكاتب ، مولى بنى أمية . ورثاه الحسن
 ابن وهب بقوله :

جُفِعَ القريضُ بنخاتم الشعراءِ وغدير روضتها : حبيب الطائي
 ماتا معا فتجاورا في حفرة وكذلك كانا قبل في الأحياء

وقيل : بل هذان البيتان لديك الجن رثاه بهما . ورثاه الحسن بن وهب أيضا بقوله من
 قصيدة له :

سَقَى بالموصل القبرَ الغريبا سحائبٌ ينتحبن له نحيبا
 إذا أَطْلَنَ أَطْلَنَ فيه شَعِيبَ المِزَنِ يتبعها شعيبا
 ولَطْمَنَ البروقُ به خدودا وشَقَقْنَ الرعودُ به جُيُوبا
 فَإِنَّ ترابَ ذاك القبرِ يحوى حبيباً كان يُدعى لي حبيباً

ورثاه الأولان يرثي فيهما الشعر، وأبياته الأخيرة يطلب فيها تقليد مذهب أبي تمام في استعاراته
 واستعماله لغة طيء في « لَطْمَنَ البروق » و « شَقَقْنَ الرعود » ويورى في حبيب وحبيب . ورثاه
 غير هؤلاء وشعرهم كهذا .

ودفن بالموصل . يقول البحترى « وبني عليه أبو نهشل بن حميد الطوسي قبة . يقول ابن خلكان ،
 إنه رآها بالموصل خارج باب الميدان ، على حافة الخندق ، والعامية تقول هذا قبر تمام الشاعر .
 وقد قال شاعر متأخر من قصيدة له :

سقى الله دُوحَ الغُوطَينِ ولا آرتوت من الموصل الجَدباءِ إلَّا قبورها

فلما سئل : لم حرم الموصل السقيا، وخصَّ قبورها بها؟ قال لأجل أبي تمام .

الباب الرابع

القدماء والمحدثون

١ - تعريف

”كل قديم من الشعراء فهو محدث في زمانه بالإضافة إلى من كان قبله من الشعراء . وكان أبو عمرو بن العلاء (المتوفى سنة ١٥٤هـ) يقول : لقد أحسن هذا المولّد حتى لقد هممت أن آمر صبياننا بروايته؛ يعنى بذلك شعر جرير والفرزدق ... وكان لا يعدّ الشعر إلا ما كان للتقدمين^(١)“ .

وقد قسموا الشعراء إلى : جاهلي، ومخضرم، وإسلامي، ومولّد. وقسموهم أقساما غير ذلك .

ولكن التسمية التي آستقرت أخيرا ، هي قسمتهم إلى : قدماء ، وإلى محدثين . وأصبح هذا التقسيم تتناوله الأجيال بعضها من بعض ، بمدلوله العلمي وليس بمدلوله اللغوي .

وتراهم يطلقون القدماء على شعراء العربية ابتداءً من الجاهليين منهم ، حتى ابن هرمة الذي كانوا يعدّونه آخر من يستشهد بشعره . ويقولون عنه ، وعن ابن ميادة ، ورؤبة ، والحكم الخضرى : إنهم ساقية الشعراء^(٢) .

أما المحدثون فمن بشار إلى من يليه . ولا يعدّ ابن المعتز فيمن يأتي بهم في كتابه البديع من المحدثين أحدا قبل بشار . ويسمونه أبا المحدثين ، وتختلف آراؤهم فيه .

٢ - القدماء

كان شعر الجاهليين تصويرا صحيحا لحياة البادية التي يحبونها ، وتعبيرا صادقا عما يحسون .

(١) نهج القصيدة : كانوا يفتتحون القصيدة بالنسيب ، فيذكرون ”الرحيل والانتقال ، وتوقع البين والإشفاق منه ، وصفة الطلول والخيول ، والتشوق بحنين الإبل ، ولعل البروق ، ومرّ النسيم ، وذكر المياه التي يلتقون عليها ، والرياض التي يحلون بها ، من خزامى ، وأقحوان ، وبهار ،

وَحَنُوءَ ، وَظْيَانَ ، وَعَرَارَ ، وما أشبهها من زهر البرية ، الذى تعرفه العرب ، وتنبته الصحارى والجبال ؛ وما يلوح لهم من النيران فى الناحية التى بها أحبابهم . ولا يعدُّون النساء إذا يغزلوا أو نسبوا^(١) .

وهذا النمط من النسيب قد ظل ملازما شعر البادية إلى زمن متأخر ، حتى ليصور لنا به ابن رشيقي غزل البادية فى أيامه .

فاذا فرغ الشاعر من غزله قصد إلى الغاية التى كان يريد بها بالقصيدة ، من نخر ، أو مدح أو هجاء . وكان من عادتهم فى المدح " أن يذكر الشاعر ما قطع من المفاوز ، وما أنضى من الركائب ، وما تجشم من هول الليل وسهره ، وهول النهار وهيجره ، وقلة الماء وغثوره ، ثم يخرج إلى مدح المقصود ... وكانت دواهم الإبل ، لكثرتها وعدم غيرها ، ولصبرها على التعب ، وقلة الماء والعلف ؛ فلهذا أيضا خصوها بالذكور دون غيرها . ولم يكن أحدهم يرضى بالكذب ، فيصف ما ليس عنده كما يفعل المحدثون^(٢) " .

" أما المراثى فكان من عادة القدماء أن يضربوا الأمثال فيها بالملوك الأعززة ، والأئم السالفة ، والوعول المتنعة فى قلل الجبال ، والأسود الخادرة فى الغياض ، وجر الوحش المتصرف بين القفار ، والنسور والعقبان والحيات ، لبأسها وطول أعمارها . وذلك فى أشعارهم كثير لا يكاد يخلو منه شعر^(٣) " .

(ب) صنّاع الشعر : ولقد كانوا ينقسمون ، كما أنقسم المحدثون من بعدهم ، إلى جماعة يطلبون المعنى ، وجماعة أخرى تجوّد اللفظ ، وترصد له الوقت الطويل . ويمكن أن تسمى هذه الطائفة الأخيرة : طائفة صنّاع الشعر .

فكان أمرؤ القيس من أصحاب المعانى . يقول ابن رشيقي ... " وكان أمرؤ القيس مقلا ، كثير المعانى والتصرف ، لا يصح له إلا نيف وعشرون شعرا ، بين طويل وقطعة ، ولا يكاد يفلت شاعر من حبائله^(٤) " .

وكان زهير ينظر فى شعره ، فينفى الردى ويبقى الجيد ، وتسمى قصائده بالحوليات وقد تبع فى ذلك أستاذين : هما أوس بن حجر ، وطفيل الغنوى^(٥) . وتبع زهير فى ذلك تلميذه الخطيئة . وكان

(٣) العمدة ج ٢ ص ١٢٠

(٢) العمدة : ج ١ ص ١٥١

(١) العمدة : ج ١ ص ١٥٠

(٥) العمدة ج ١ ص ١٣٢

(٤) العمدة ج ١ ص ٦٧

يقول "خير الشعر الحولى المحكك" ويلاحظ ابن رشيق أنه كان يتبع في ذلك زهيرا وأوساً^(١). فهذه المدرسة الأخيرة يمكن أن يطلق عليها : مدرسة الصنعة .

ولكن هذه الصنعة لم تكن كصناعة المحدثين "فالعرب لا تنظر في أعطاف شعرها ، بأن تجنس أو تطابق أو تقابل ، فترك لفظه للفظه ، أو معنى لمعنى ، كما يفعل المحدثون"^(٢) وإنما كانت تطلب "شرف المعنى وصحته ، وجزالة اللفظ واستقامته ، وتسلم قصب السبق لمن ، وصف فأصاب ، وشبه فقارب ، وبدء فأغزر ، ولمن كثرت سوائر أمثاله ، وشوارد أبياته ... ولا تحفل بالابداع والاستعارة ، إذا حصل لها عمود الشعر ، ونظام القريض . وقد كان يقع ذلك في خلال قصائدها ، ويتفق لها في البيت بعد البيت ، على غير تعمد وقصد"^(٣) .

وسار الناس على ذلك ، وهذا الذى صوّرتة من الشعر ، إنما هو شعر البداية منهم ؛ أما شعر من كان يسكن أطراف الجزيرة ، ويخالط أهل الحضر ، فكان يتأثر بمزاجهم ، فيصف الخمر والنساء ، وما يرى من ألوان الحضارة ، وصفا لا يسلم ، مع لينه ، من بدابة .

٣ - الانتقال

(١) عصر الفتح الأول والخلافة الشرعية : حتى إذا جاء الاسلام وقلب الأوضاع الجاهلية ، والمثل الاجتماعية ومس أصول كل شئ في حياة العرب ، وأثر في عقولهم وطباعهم ، أخذ الشعر يستجيب لذلك بعض الاستجابة . ولما اتسعت الفتوحات ، وأنبسط نفوذ العرب على أُمم سبقتهم إلى حضارات عريقة وترف ، وأساليب من العيش والحكم ، لم يكن للعرب سابق عهد بها ، اهتزت لذلك النفس العربية ، والشعر أبداً نجى النفس ومرآتها ، فظهر أثر ذلك فيه . ولكن هذا العصر ، عصر استقرار النفوذ العربى في عهد الخلفاء الأول ، كان عهد كفاح من نوع ذلك الكفاح العملى ، الذى يهون الى جانبه القول ؛ كان عصر اختزان النفس للأحداث ، يليه عصر القول والفيض .

(ب) تحوّل الخلافة الى ملك وأثر ذلك في الشعر : فما كاد الخليفة الثالث يقتل ، ويدب الخلاف وتثور الفتن ، حتى أخذ الناس ينظرون في أعماق نفوسهم ، وأخذت تلك الآمال الجسام التى قامت على وحدة الأمة العربية تتضعضع ، وأطلقت العصبية من عقالها ، فغلت نفوس

الناس بألوان مختلفة من الإحساسات، وضروب شتى من العواطف . ثم حلت بين هذا كله الملكية محل الخلافة، وترزلت تلك الهيبة الدينية التي كانت تحوط نظام الحكم — وذلك إن كان قد بدأ أيام عثمان ، فلم يظهر ظهوراً واضحاً إلا بعد قيام ملك معاوية . وقام هذا الملك على تلك الدعائم التي يقوم عليها أبداً كل ملك ؛ وأحس كثير من العرب بالخبية، فعادوا إلى بواديههم كما يلجأ الزاهد إلى صومعته . ويستطيع الإنسان أن يدرك مقدار اليأس الذي استولى على أولئك، بعد أن رأوا ذلك المثل الأعلى الذي كانوا في سبيل إقامته بأنفسهم وأموالهم ودمائهم، يهوى كما يهوى الطود الشاخص، بين صليل السيوف، ووهج الحقد، وتكالب الطمع . عاد قوم إلى باديتهم، وحبس آخرون في حواضرهم، وقد خلى بينهم وبين ذلك السبيل من الحزبية، الذي لا يمس الدولة في شيء، وإنما يريحها منهم، وقدمت أيديهم مالا . فشغلوا بين الفراغ والحدة، والطموح والعجز، بألوان من اللهو، وصنوف من القول ترضى هذه العواطف جميعاً . فازدهر لذلك الشعر السياسي والغزل^(١) .



(ج) التجديد والخصومة فيه : خطأ بذلك الشعر العربي على أيدي العرب أنفسهم خطوة واسعة، مطاوعا الحياة التي تحوطه، شأن كل كائن صالح للحياة . ولكن بداوة العرب لم تكن قد فارقتهم، ولم يكن الزمن قد أتاح لهم من نفسه ما يكفي لاستقرار الحضارة، ورسوخ مظاهرها في النفس بل إن ما منيت به أمة كهذه الأمة العظيمة، كان يدعو في حالة الحرج النفسي، إلى شيء من تقديس الماضي، وذكره بالحنين إليه، وتمجيد مثله . فلزم ذلك صياغة القصيدة العربية، حتى لقد بقيت صورتها، وبنيتها، وقايتها كما كانت في الجاهلية . فكانت، على ما هي عليه، صورة صادقة للنفس العربية في ذلك العهد، بما فيها من اضطراب بين الحنين إلى الماضي، واندفاع إلى تصوير ما يعتلج فيها، مما أثارت به الحياة الجديدة بما فيها من خير وشر . ففيها من أثر المحافظة : الصيغة والنمط، ومن أثر الحضارة النوع الجديد، والمادة الحادثة شيئاً .

وإننا لنسمع في حكم نقاد العصر الأموي ما يصور ذلك تماماً . "سئل أبو عمرو بن العلاء عن الأخطل فقال : لو أدرك يوماً واحداً من الجاهلية ما فضلت عليه أحداً"^(٢) . وأبو عمرو قد شهد عهداً من حكم الأمويين، شهد الجحاح ومن بعده، ومات في أيام المنصور العباسي سنة ١٥٤ هـ . فهذا الرجل، مع أنه كان متأخراً، إلا أنه كان شديد الحنين إلى الجاهلية .

(١) انظر في هذا تخاب حديث الأربعاء للدكتور طه حسين . (٢) المثل السائر : ص ٨٩ طبع بولاق .

فكان فيما بينه وبين نفسه برضى شعر الأخطل ، وهو أيضا فيما بينه وبين نفسه يفضل شعر الجاهليين ، ويود لو كان الأخطل منهم . وقد يظن أن حاجته إلى الشاهد كانت هي الأخرى دافعا إلى هذا التقدير الغريب ، ولكن شعر الأخطل مما يستشهد به .

ولكن الحياة لم تلبث أن استقرت ، وضاعت حدة الصدمة الأولى ، فأخذ الناس يرون في الشعر الحديد متنفسا وتصويرا لما يجري في قلوبهم . فأخذ تقدير الشعر الحديث يحل من نفوس الناس محلا لائقا به . وإنا لنجد عيسى بن عمر الثقفي النحوي ذلك الناقد العميق (توفى سنة ١٤٩ ، وشهد الدولة الأموية) يفضل الأخطل على الأعشى^(١) . وهناك قصة أخرى ترى كيف أخذ الناس يستسيغون الشعر الإسلامي ؛ ذكرت في مقدمة الجمهرة عن مجلس من مجالس عبد الملك بن مروان ، حضره أعرابي ، فقال كلاما طويلا في لهجات العرب ، يدل على علم بها ، ثم سأله عبد الملك عن أمدح بيت قالته العرب ، وعن أغزل بيت ألخ الخ . فكانت هذه الأبيات جميعا لحرير . والقصة بادية الصنع ، صنعها عالم أغلب ما يكون في أوائل العصر العباسي ، ولكنها تعطينا فكرة عن تقدير المسلمين يومئذ للشعر الإسلامي ، وعن نزول تلك المثل الجاهلية عن مستواها القديم في تلك الأيام . والحق أن الناس كانوا يحبون الشعر الحديد ، لأنه يصور لهم نفوسهم تصويرا صحيحا . وهم في هذا يستجيبون لمطالب نفسية صحيحة .

وعلى ذلك فالتيار النفسى الذى كان يوجه الشعر العربى يومئذ ، كان مستقيم الجرى ، طبيعى الأسترسال ، مستمر التقدم على الأيام ، يكمل ما كان منه قبل الإسلام تكملة ، الحلقات لسلسلة التقدم الطبيعية فى الحياة . أما ظاهرة غلبة التقاليد الشعرية الجاهلية ، التى أطال عنها الحديث نيكولصن ، فليست إلا طبقة سطحية تعملو ذلك التيار النفسى العميق . فما كان لأمة فى أى عصر من عصور حياتها أن تعيش من غير شعر يصور ذات نفسها .

وقد نشأت هذه المعارضة السطحية للشعر الحديد بعاملين : أولهما الحنين إلى الماضى ، كما قدمت . وثانيهما أن ذلك العصر كان عصر الجمع والتدوين لآثار السلف ، فشغل العلماء خاصة بذلك ، شغلا كاد ينسيهم أنفسهم . وكان لإقبال الناس على قراءة القديم ، والنظر فيه ، وأستيضاح معانيه وخصائصه ، لإقامة حياتهم على ماضيهم ، شأن الخلق فى ذلك جميعا فى كل عصر وفى كل بيئة ، رد فعل عند المشتغلين به ، مظهره ذلك التعصب للقديم عند فئة ، والتعصب للحديث عند أخرى ،

وأستفحال الحصومة بينهما، أستفحالا غلبت فيه نوازع العناد، وحماية الذات والعمل، غلبة كادت تظهر لنا ذلك العصر عصر جمود في الشعر العربي، وما كان كذلك.

فالناس جميعا كانوا يحبون الشعر الحديث، والعلماء منهم كذلك وإن تعصبوا للقديم. ويبين ذلك رأى أبى عمرو بن العلاء السابق. وإنا لنجد صدى ذلك فيما بعد في العصر العباسي، في قصة ابن الأعرابي وشعر أبى تمام، وفي قصة أبى رياش القيسي وشعر البحرى وغيرهما^(١).

فالتعصب للقديم في العصر الأموي لم يكن إلا عند العلماء حين تستغرقهم الفكرة العلمية، فاذا خلوا إلى أنفسهم فهم محدثون، يحسون بالشعر الجديد جمالا لا يجدونه في الشعر الجاهلي.

٤ - المحدثون

(١) شعب جديد ونفوس جديدة: اتسعت رقعة الفتح الاسلامي اتساعا هائلا، وكان العرب هم السادة الفاتحين، وكانوا حاملي لواء الدين الجديد، فكان للنصر وللدين في أول الأمر هيبة دفعت إلى استقرار الأمر بادئ بدء في أيديهم. ولم يمض قليل حتى أخذت العصبية والفرقة تدب ديبها بينهم، فأخذت تضعف من هيبتهم وسلطانهم. وكانت دهشة الفتح قد هدأت في النفوس، فأخذت الشعوب المفتوحة تتطلع إلى استعادة السلطان، وتنهت فيها المطامع، وكان اعتماد العرب في إدارة شئون هذه الأقطار الفسيحة، على أهلها من الأعاجم أصحاب الخبرة بها. فمكن لهم ذلك شيئا، وكان الدين الذي حمّله العرب إلى الناس ينطوى على هدم سيادة العناصر، فاتخذ الموالى

(١) الوساطة ص ٥٠ و ٥١. يقول الجرجاني في الحديث عن تعصب للقدماء على المحدثين ص ٥١ من الوساطة: "ولقد يتفق لأحد هؤلاء غلبة الانصاف على قلبه، في الوقت بعد الوقت، فيخلع رداء العصبية، ويصنى ويميز، فيرجع. حدثني جماعة من أصحاب أبى رياش القيسي، ولا نعرف في زماننا راوية تقدمه، وكان معروفا بالتعامل على هؤلاء، والغض من أبى تمام والبحرى خاصة، حتى إن نسخ هذين الديوانين قلت بالبصرة في وقته لقلّة الرغبة فيها: أنه أنشد ذات يوم قول البحرى:

نظرت إلى ظران فقلت ليلى	هناك وأين ليلى من ظران
ودون مزارها إيجاف شهر	وسبع للطا يا أوثمان
ولما عرفت أعراف سلمى	لهن وقنت قنن القيان
تصوبت البلاد بنا إليكم	وغنى بالإياب الحاديان

فقال: أحسن والله. من هذا البدوى المطبوع؟ فقيل: إنها للوليد بن عبيد. فقال: أعد. فأعيدت. فرجع عن رأيه فيه، وحض الناس على رواية شعره.

وأما قصة أبى تمام مع ابن الأعرابي فقد أنشده منشداً أبيات أبى تمام في الروض، من غير ذكر اسم صاحبها. فأخذته أخذاً. فلما قيل له: إنها لأبى تمام. قال: خرّ خرّ.

سلاحاً قوياً يهدمون به التسلط السياسى لأصحاب الدين. وكانت هناك الفتن بين العرب، واستعانتهم بالموالى مما جعل لهؤلاء قوّة وشأناً.

وكان هناك شيء آخر يجب أن لا ننساه... ذلك هو ما طرأ على الأمة الإسلامية من التغير من ناحية الدم. فقد امتزجت طبائع بطائع، وأمم بأمم، وتكوّن من هذا مزاج جديد لطائفة ضخمة من الناس، هم المولّدون الذين كانوا يكوّنون أغلبية الأمة الإسلامية^(١). وهؤلاء بما فطروا عليه، وخلقوا منه، في حاجة إلى شعريلائم تكوّنهم النفسى الغريب عن التكوين العربى الخالص وهذا الشعر لغته هى العربية، لغة الحديث والكتابة والدين. فكان لهذا كله، أثره في تجدد الشعر العربى، واتساع آفاقه اتساعاً جديداً. أو بالأحرى اتجاؤه اتجاهاً جديداً، يغيّر ذلك الاتجاه الذى كان يتجهه في عهد تسلط العرب وقيام ملكهم، أى إلى ما يقرب من آخر عهد الأمويين. وليس لنا هنا أن نفترض ماذا كان يمكن أن يتجه فيه الشعر العربى لو أن السلطان والغلبة قد استقرّا لهم، بعد أن ثبت قبولهم للتطور، وقبول لغتهم لفنين جديدين واسعين، لا يزالان صورتين خالدين من صور النفس الانسانية: الغزل الخالص والسياسة. ولكن إذا كان لنا أن نقيس الأمور بمقدماتها وطلائعها، فإن الشعر العربى قد خسر كثيراً.



(ب) الشعر الأعجمى والصنعة: ابتداء الشعر الأعجمى، وأولى بنا أن نسميه كذلك، بنظم الموالى شعراً فيه روح جديد، في العصر الأموى. ولم تنفر منه العرب، ولكن لم تثبت الشعورية أن عملت عملها. فاذا بهذه الغارة تنقلب إلى غارة إيجابية شعارها الهجوم، وثلب العرب في شعرهم ومواهبهم. بدأ ذلك بشار بن برد. وبشار ككل الرجال الأفاذا الذين يفتتحون عصراً جديداً، والذين تهيئهم الطبيعة بمميزات لولاها لما استطاعوا أن ينهضوا بالحمل في أوله.

كان بشار فارسى الأب، أبوه من فرس طخارستان، من سبى المهلب بن أبى صفرة، وهبه لأمراة من بنى عقيل، فتروّجته ونُسب إليها، وولدت منه بشاراً. وكان عابثاً، لا يهاب شيئاً، سائر الشعر، خصب النفس. وكان شعوبياً يميل إلى الفرّس ميلاً غريزياً واضحاً. ولا بدّ من التنويه بأن بشاراً قد عاش في عصر ترجمة ما ترجم أول الدولة العباسية من آثار الفرّس واليونان. فقد مات سنة ١٦٧ هـ في ولاية المهدي. ولست بهذا أحاول أن أرجع شعر بشار إلى أصول من هذه، ولكننى أذكرها على سبيل الاستئناس وإلقاء النور على ثقافته قدر المستطاع.

(١) راجع ما كتب الأستاذ أحمد أمين عن هذا في كتابه بخر الإسلام، وضخى الإسلام.

كان هذا الرجل طارئا على العربية، يكتب بها معبرا عن حال غير حال أهلها، فصوّر نفسه فيها. وكان جريئا في ذلك، ففتح فيها فتحا جديدا. "وقالوا: أول من فتح البديع من المحدثين بشار، وأبن هرمة، وأبن ميادة ساقية العرب، وآخر من يستشهد بشعره. ثم تبعهما كلثوم بن عمرو العتابي، ومنصور التّبري، ومسلم بن الوليد، وأبو نواس. وأتبع هؤلاء حبيب الطائي، والوليد البحترى، وعبد الله بن المعتز^(١)".

وقد شبهوا بشارا بأمريء القيس، لتقدمه على المولدين وأخذهم عنه. ومن كلامهم: بشار أبو المحدثين^(٢). وأمريء القيس معروف بأنه صاحب معان، فكأنهم يريدون أن يقولوا إن بشارا كان صاحب معان، وهذا معروف أيضا. ويقول ابن رشيق "بشار كان يصنع الخمسات، والمزدوجات عبثا بالشعر"^(٣). فتجديد بشار للشعر كان في نواح ثلاث:

(١) لفظه. (٢) معانيه. (٣) صياغته (وإن كانوا يروون أن أمريء القيس كان ينظم الخمسات^(٤)). فالرجل في هذا متحضر من كل ما كان يقيد سابقه، وكان يعبر عن حياة جديدة، فيها ترف في الملبس، وترف في كل شيء. فلم يكن بد من أن يظهر هذا الترف في لفظه، ومعانيه، وصياغة شعره.

وإن ما يستوقف النظر هنا، هو مشاركة ابن هرمة العربي لهذا الفارسي، في فتح البديع في شعر المحدثين. ولكن، كما قلت: إن هذا العصر كان عصر الترجمة، والاضطراب بين الثقافات الأجنبية. والعرب كانوا على استعداد، فيما يظهر، لأن يخطوا حيث تقودهم الحياة.

تسلم أبو نواس ومسلم الشعر من بشار، ولهما من جدّة النفس وسعة الأفق ما ليس له، فبنى كل منهما من حيث انتهى سابقه من ناحية. أخذ أبو نواس ناحية المعنى، وإن لم يبعد بعدا تاما عن الصنعة. يقول ابن رشيق: "إن أبا نواس كان يتفقد شعره، ويعيد فيه نظره، فينفى الدنى ويبقى الجيد"^(٥). كما يذكره ابن المعتز في أصحاب البديع وذلك باد في ديوانه.

أما مسلم فقد أخذ جانب البديع، يطلب الاستعارة ويتحرى الجناس والطباق والمقابلة، تحرى الطالب لها، حتى آثمهم بأنه أول من أفسد الشعر. "كان يبطن كثيرا في صنعته ويحيدها، وهو زهير المولدين"^(٦). ولكنه لم يخرج عن نمط القصيدة العربية.

(١) العمدة: ج ١ ص ٨٥ (٢) العمدة: ج ١ ص ٨٥ (٣) العمدة: ج ١ ص ١٢٠
(٤) العمدة: ج ١ ص ١٢٠ (٥) العمدة: ج ١ ص ١٣٤ (٦) العمدة: ج ١ ص ٨٥



أما أبو نواس فكان حاقدا على العرب ، شعوبيا ، فأتخذ وسيلة للسخرة منهم نهج القصيدة العربية ، يضحك منها ، ويسخر بها ، ويدعو إلى ترك ذلك النهج من الغزل الذي كانت تستفتح به عادة ، وهو البكاء على الأطلال ، وحبس الركب عليها . قال :

ودار ندأى عطلوها وأدجلوا بها أثر منهم جديد ودارس^(١)
مساحب من جر الزقاق على الثرى وأضغاث ريجان جنى ويا بس
حبست بها صحبي بجددت عهدهم وإني على أمثال تلك لحابس
وقال :

دع الأطلال تسفيها الجنوب وتبكي عهد جدتها الخطوب^(٢)
وخلل لراكب الوجناء أرضا ثحث بها النجيسة والنجيب
ولا تأخذ عن الأعراب لها ولا عيشا فعيشهم جديب
ذير الألبان يشربها أناس رقيق العيش عندهم غريب^(٣)
انح

وهي أبيات من أقذع الهجاء . ولا أظنها موجهة إلى القصيدة العربية ، قدر ما هي موجهة إلى العرب أنفسهم . فقد كان مضى قبل أبي نواس عهد تغير نمط القصيدة العربية فيه شيئا عند العرب أنفسهم ، حين تحضروا وتركوا البداوة . فلم يثر من أجل تغير النمط أحد . وعندى أن خصومة أبي نواس ، أقامت حول القصيدة العربية ضجة صورتها في غير صورتها . حتى لقد قررت في ذهن الناس أنها إنما تقوم على هذا الذي ينعاه أبو نواس عليها ، وليست تقوم على غيره ، مع أن نمط القصيدة العربية كان قد تجدد منذ عهد طويل قبل العباسيين ، مسيرة للحياة . ليس معنى هذا أن أبا نواس قد تجرد تماما من القديم ، فإن لحته القديم . وما كانت الثورة في يوم على القديم سببا في نبذه كله . فلو تجرد الحاضر من كل قديم ما وجد الحاضر نفسه . وإنما الأمر أنتزاع بعض الأساليب التي لا تتلاءم مع الزمن ، ولا تجارى الحياة . فأبو نواس كان يمدح كما يمدح القدماء ، ويضحك كما يضحك القدماء ، ولكنه لم يرض الرحلة ، ومخاطبة الأطلال وبكاءها ، لأنه ليس في بغداد التي كان يعيش فيها ما يتصل بالأطلال . فلم يكن بد من نزع الأدعاء ، والبعد عن تكلف الكذب .

(ج) نهاية الصراع بين شعر العرب وشعر الأعاجم : وكما انتهى النضال الأجماعى والسياسى بين العرب والأعاجم بأن ذاب العرب في هذه الأمة الجديدة التي خلقوها ، كذلك ذاب

الشعر العربي في شعر هذه الأمم الجديدة . ولا غرابة في ذلك ، فقد كان القارئون لهذا الشعر قوما ، هم والشعراء يتشابهون في الدم والمزاج والميل . ولم يبق يتعصب للقديم إلا جماعة العلماء ، الذين كانوا يطلبون الشاهد ثم أصبحت الحاجة . كما يقول ابن رشيق .

وحتى هؤلاء قد خدعوا بجملات خصومهم ، فاتجهت أنظارهم ، إلى الشعر الجاهلي أو ما يقرب منه منهاجا ، ونسوا ما سواه ، فكانت حملات خصومهم عليهم أشد لذة وإيلا ما . فحملة أبي نواس لم تكن من ناحيتها الفنية موجهة إلى المثل الأعلى للقصيدة الإسلامية ، بقدر ما كانت موجهة إلى المثل الأعلى للقصيدة الجاهلية .

التجديد في المادة والصورة : جد على يد المحدثين في الشعر العربي فن ليته ما كان . ذلك هو فن الغزل بالمدح وهو يمثل ناحية من النواحي الخلقية لهؤلاء الذين كانوا ينطقون بلسان ذلك العصر ، كما يصور ناحية من نفس الجمهور الذي كان يقبل شعرهم . وجد على يد أبي العتاهية فن الشعر المقول في الزهد .

كذلك تناول التجديد مادة الشعر في ذلك العصر ، فكان يأخذ صوره من الحياة وما فيها . يقول الجرجاني في وساطته ^(١) " فلما ضرب الإسلام بجرانه ، وآتست ممالك العرب ، وكثرت الحواضر ، ونزعت البوادي إلى القرى ، وفشا التأدب والتظرف ، آتخذ الناس من الكلام ألينه وأسهله ... وتجاوزوا الحد في طلب التسهيل ، حتى تسمّحوا ببعض اللحن ، وحتى خالطهم الركاكة والعجمة ، وأعانهم على ذلك لين الحضارة ، وسهولة طباع الأخلاق . فانتقلت العادة ، وتغير الرسم ، وانتسخت هذه السنة ، وأخذوا بشعرهم هذا المثل ، وترققوا ما أمكن ، وكسوا معانيهم ألطف ما سنع من الألفاظ " .

فاستحال الغزل عما ذكرنا عند القدماء إلى " ذكر الصدود والهجران ، والواشين والرقباء ، ومنعة الحرس والأبواب ، وفي ذكر الشراب والتداعي ، والورود والنسرين والنيلوفر ، وما شا كل ذلك من النواوير البلدية ، والرياحين البستانية ، وفي تشبيه التفاح ، والتحية به ، ودس الكتب وما شا كل ذلك " ^(٢) .

وهكذا في كل فن تدخلت الحياة الغالبة ، فخذت مادة الشعر وإن لم تجد صورته العامة . أما اللفظ فقد صنى ونقى وجدّد أحيانا . فاستعمل في الشعر اللفظ المولد ، واللفظ الفارسي ، واللفظ اليوناني . ووجد الإفراط ، وحسن التخلص ، وما يشبههما من الفنون البديعية .

البديع العربي يتأثر ببلاغات الأمم الطارئة على العربية : أخذ البديع العربي يظهر في مظهر جديد، منذ بدء عصر الترجمة، ولا سيما في عهد المنصور . وليس لنا أن نذهب في تقدير البرهان المادى، قولاً أو أثراً، إلى حد إهمال البديهيّات التى تقضى بها الطبيعة، فى كل عصر وفى كل أمة . فلم يقل أحد عندنا اليوم إن كتاباً من كتب البلاغة الإفرنجية قد ترجم . ومع ذلك فإن كثيراً منا قد قرأ كثيراً من بلاغتهم وبلاغة من سبقهم، وتأثر بها فى كتاباته ، ولا أشك فى أن هذا كان يحدث بالأمس كما يحدث اليوم، فى كل أمة، وفى كل زمان . فإذا أعوزنا الدليل المادى على وجود بلاغة يونانية ، وبلاغة هندية ، وبلاغة فارسية، وغيرها فى العصر العباسى الأول، فليس معنى هذا إنكار العادى جداً من نواميس الحياة، وعدم الأخذ بمنطق الواقع . فكيف بنا وأمامنا إشارات تاريخية (سأتحدث عنها فى باب آت) إن تكن وجيزة فإن وراءها ما وراءها .

إن أعسر ما يمكن تأريخه فى كل عصر، وفى كل أمة، هو أولية الأشياء . ولذلك كان تأريخ الترجمة فى أيام المنصور العباسى غامضاً . وعندى أن ما هو موجود من قبيل ذلك ليس إلا تأريخ الترجمة الرسمية، غير كامل ولا مستوفى . فإذا كان العصر العباسى الأول، عصر اكتمال النحو، ووضع علم العروض تاماً، وعصر الخوض فى البديع وطلبه طلباً معتمداً مقصوداً، على قواعد وأصول؛ وإذا كان هذا العصر عصر التجدد المادى، والنفسى، والعقلى، والدينى، وإذا كان هذا العصر عصر التجديد الأدبى فى نمط القصيدة، والثورة على التقاليد الشعرية العربية الخالصة؛ وإذا كان هذا العصر وقبله شيئاً عصر اتصال المعتزلة بالفلسفة اليونانية، ووجود بعض مبادئها فى مذاهمهم، مع أنه ليس عندنا اليوم دليل مادى على ترجمة شىء منها فى أيامهم؛ إذا كان هذا كله، مضافاً إليه الأمتزاج الدموى والعقلى بين العرب والفرس واليونان والسرّيان والهنود، فى تلك المملكة الإسلامية المنبسطة الأرجاء، فإنه من العبث إنكار تأثر البديع العربى إذ ذاك بهذه البلاغات الغربية . وجهد ضائع انتظار النص القائل : إن بشاراً قد آقتبس من البديع اليونانى، أو الفارسى كيت وكيت، أو أن أبا نواس قد قرأ كذا وكذا من كتب أرسطو، أو أن استاذة لقنه كذا وكذا من بلاغة الفرس .

أما أى هذه البلاغات الأجنبية قد ترك الأثر الأكبر فى بلاغة شعر العرب، فذلك ما سأتحدث

عنه فى فصل يأتى .



انتصار الحديد : وأما كيف استقبل الناس هذا الشعر الجديد، فقد بينت أنه كان يصور نفوسهم إذ ذاك ومشاعرهم ، فأحبوه وتهافتوا عليه . وليس أدل على هذا من امتلاء كتب الأدب التي تؤرخ هذا العصر بمظاهر الإعجاب بهؤلاء الشعراء .

هذا عن الناس جميعا ، أما عن العلماء ، فإنهم قد تأخروا شيئا في النظر الى الحديث نظرة تسوى بينه وبين القديم . ويقول نيكولسن " إن ابن قتيبة ، الذي مات آخر القرن التاسع الميلادي ، كان أول ناقد من النقاد أصحاب الشأن أعلن أن القدماء والمحدثين ، إنما يجب أن يحكم عليهم بمواهبهم ، لا بأعصارهم . في مقدمة كتابه الشعر والشعراء " ثم ينقل العبارة وهي معروفة .

أما كراتشكوفسكي ناشر " بديع ابن المعتز " فيرى في مقدمة كتبها لهذا الكتاب أنه في عصر ابن المعتز، كان العلماء والنقاد قد استقروا على النظر الى القديم والحديث نظرة التسوية . ويستدل على ذلك بما يراه في كتاب البديع من اختيار غالب ما فيه لمحدثين .

ولكن هناك أيضا ما سبق هذا، ويدل على تسوية العلماء بين المحدثين والقدماء .

يقول ابن الأثير في كتابه المثل السائر^(١) بعد أن يذكر أبيات أبي نواس :

ودار ندامي عطّلوها وأدجلوها بها أثرُ منهم جديداً ودارسُهم

"ومما انتهى إلى من أخبار ابن المزرع ، قال سمعت الجاحظ يقول : لا أعرف شعرا يفضل هذه الأبيات التي لأبي نواس ، ولقد أنشدتها أبا شعيب القلال فقال : والله يا أبا عثمان ! إن هذا هو الشعر، ولو نقر لطن . فقلت له : ويحك ما تفارق عمل الجرار " .

وهناك أيضا ما يفيد هذا وإن تأخر عنه . وذلك فيما ذكره ابن الأثير أيضا ، عن كتاب اسمه " الروضة " للبرد . يقول عنه : " وهو كتاب جمعه ، وأختار فيه أشعار شعراء . بدأ فيه بأبي نواس ، ثم بمن كان في زمانه ، وأنسحب على ذيله " . وللبرد في ذلك عبارة صريحة في كتابه الكامل يقول : " وقال بعض المحدثين (قال الأخفش : هو حبيب الطائي) وليس بناقصه حظه من الصواب أنه محدث " .^(٣)

(١) ص ٣٢٨ طبع بولاق .

(٢) المثل السائر : ص ١٨٩ طبع بولاق .

(٣) كتاب الكامل :

ص ٧١٤ طبع أوربا .

١٩٤٠-٤



أتى بعد هؤلاء طبقة أخرى هي طبقة أبي تمام ومعاصريه . وكانت التقاليد الشعرية الجديدة ، والفنون التي خلقها هؤلاء قد أخذت تستقر وتستقرأزاً صحيحاً . وكانت الفلسفة قد أخذت تتوطد دعائمها ، وتقوى أركانها ، وطفّر العقل الإسلامي طفرة واسعة . فبدأ الشعر يستحيل مع هذه جميعاً ، إلى لون من ألوان التعبير عنها . فطلبت المعاني والفكرة ، وغدا الشعر فناً يصنع صناعة ، وأنقسم الناس فيه قسمين ، تبعاً لمؤثرات وجدت إذ ذاك ستحدث عنها . وهذان القسمان هما : أصحاب اللفظ ، وأصحاب المعنى . وهذان النوعان قد وجدا في الطبقة السابقة من المحدثين ، كما وجدا في الإسلاميين ، والجاهليين . ولكنه في المرة كان نتاج كل ما مضى ، وأبن ذلك التقدّم الرائع الذي وصل إليه العقل الإسلامي ، والحس الإسلامي في ذلك العصر .

(د) بين أصحاب اللفظ وأصحاب المعنى :

أصحاب المعنى والسرقات الشعرية : كان لمذهب عد السرقات الشعرية ، وتحري المعنى الجديد المبدع ، أثر هائل في توجيه الشعر العربي ، والتأثير في صياغته ، وفي معانيه ، وفي فنونه . فقد كان الخلق للعاني عسراً لكثرة ما قال الشعراء^(١) ، وكان الشاعر لا يستطيع أن يخلق قصيدة كاملة بديعة ، لا يمس فيها معنى لشاعر سبقه . فكان الخلق ، بطبيعة الحال ، يقف عند البيت والبيتين ، ولا تمكن الإطالة في المعنى الواحد حتى تستغرق القصيدة ، وإلا عدّ ذلك إسهاباً لا تقبله النفس السامية قبولاً رضياً . فأضطر ذلك الشاعر إلى تضمين البيت الواحد معنى مخلوقاً أو بديعاً يودعه البيت ، ثم يذهب بعده إلى أعمال الفكر ، وكد الذهن ، والنظر في جوانب نفسه ليجث عن غيره . فإذا عثر عليه أودعه بيتاً أو بيتين ، فإذا تمّ له ذلك أخذ في غيره ، وهكذا مع شيء من مراعاة الانتقال ، التي هي لازمة طبيعية تلزم الفكر الإنساني . فإذا تمت له القصيدة ، وآستوت له المعاني التي شاء أن يهديها للناس أخرجها إليهم . فإذا بها قصيدة مجزأة بادية التفاوت ، والاختلاف ، غير مستوية ، على حدّ تعبيرهم ، لم يقصد فيها إلى معنى كلي تحقّقه ، وإنما هي مركبة من معان جزئية ، يتقارب أحدها من سابقه ، أو يبعد عنه .

ولقد جنى ذلك العدّ للسرقات ، وإحصاء المعاني ، على الشعر قدر ما أفاد تاريخ تطوّر المعنى الواحد في الشعر كله ، فأنحصرت مواهب الشعراء إذ ذاك ، في التنقيب عن معنى جديد لم يسمع

(١) راجع الوساطة : ص ٥٢ لتعرف ما كان يلقى الشاعر المحدث .

به الناس ، ولو كان تافها . وألتوت أساليب التعبير إلتواء ، الغاية منه إخفاء المعنى القديم ، أو زيادة شيء فيه ، أو نقله من شيء إلى شيء ، حتى يفيد ذلك أن الشاعر تصرف فيه . وقد صرف هذا الإغراق في الجزئي الشاعر عن الكلّيات . فلم تتغير فنون الشعر ، وإن كان الفن الواحد قد تجمع له الكثير من المعاني ، الرائع منها والسفاسف . وكان الشاعر يحس ذلك من نفسه ، ويلقى في ذلك العنت . وكان نتاج هذا العمل المر شعرا كله تكلف ، وكله تعمل لا تقبله النفس كله ، فإن قبلت بعضه ، فليس ذلك كله عن طريق القلب كما يجب في الشعر ، وإنما هو عن طريق العقل .

التحسين اللفظي ودواعيه : وأحس الشعراء ذلك فأرادوا لأنفسهم عوضا عن رونق الشعر ومائنته ، فوجدوه في شيء آخر ، فحبه لهم أسلافهم من قبل ، آنسياقا مع الطبيعة مرة ، (١) والسابقة مرة أخرى ، وتأثرا بما نقل لهم عن بلاغات الأمم التي سبقت إلى الحضارة ، وتبها لها (٢) في شعرها ونثرها أساليب منظمة . فقد كان كتابا الخطابة والشعر لأريسطو معروفين ، وكان الكثيرون في حواضر الدولة الإسلامية الكبرى يعرفون اليونانية والفارسية والسريانية . وكانت اليونانية لغة الحديث في بعض البيوت ولغة الثقافة في ذلك العصر . (٣) وكان شعر هوميروس يتناشد في بعضها ، فيصغى له الناس ويفهمون أنه شعر كبير شعراء اليونان . وقد نجد الجوارى في قصور الخلفاء يؤدبن أولادهن بأداب الروم ، وقراءة كتبهم ، ويعلمونهم اللغة اليونانية كذلك كانت الفارسية لغة العنصر الغالب على الدولة العباسية حينئذ ، وكانت السريانية اللغة التي نقل عنها العرب كثيرا من كتب اليونان . هذه اللغات كانت ذات أساليب منتظمة ، ودراسات في البلاغة والخطابة والشعر . ومن هذه ما يختص باللفظ ، والرخص الشعرية ، وتجميل العبارة . فاستعاض الشعراء يومئذ عما فاتهم من مائنة الشعر بشيء من موسيقى اللفظ . فطلبوا البديع وغلوا في طلبه ، وتعلموه وعرفوه ، حتى نسمع أبا تمام يحدث البحترى عن الاستطراد في الشعر ويضرب له المثل في شعر من شعره ؛ وهو ضرب من البديع يحدثنا عنه البلاغيون والنقاد المتأخرون بإسهاب . كما نسمع العلماء ، كالخليل بن أحمد والأصمعي ، قبل أن يكتب ابن المعتز كتابه (البديع) ، يتحدثان في المطابقة (٤) من أنواع البديع .

(٢) طبقات الأطباء : ج ١ ص ١٨٥

(١) طبقات الأطباء : ج ١ ص ١٨٥

(٤) العمدة : ج ٢ ص ٧ و ٨ ، وكذلك إنجاز القرآن للباقلاني :

(٣) العمدة : ج ٢ ص ٣٢ ، ٣٣

ص ٤١ ، وفي ص ٤٣ يتكلم الخليل عن التجنيس .

طابع الشعر الجديد : وبذلك أستحال الشعر، في يد هذه الطائفة، إلى صناعة من الصناعات يطالب فيها المعنى طلبا مكدودا، فإذا جاء الشاعر إلى دور صياغة المعنى، وضعه في قالب من الألفاظ مراعى فيه التنسيق والزينة. فيقابل بين هذه اللفظة وتلك، وبين هذا المعنى وقسيمه، ويلاحظ الرنين، والجرس، واللين، والجفاء. وقد يعسر هذا كله فيجور المعنى على اللفظ فيخشن ويستوحش، أو يجور اللفظ على المعنى فينقص ويغمض، ويشتبه الشعر بالفلسفة، ويبعد الخيال في البحث عن الصورة، ويخرج الشعر يومئذ من الدائرة التي وضعت له إلى دائرة النثر الفني، ويمس الفلسفة مساسا عميقا، وإن لم يخلُ من فيض نفسي، أو خطرة تمس القلب وتهز المشاعر، فيرضى ذلك أذهان بعض الناس، الذين تقدمت ثقافتهم إلى حد أصبحت تتطلب فيه من كل شيء ما يرضى عقولها وقلوبها جميعا. ولست أريد هنا أن أحدثك عن مبلغ ثقافة الناس في عصر أبي تمام وقبيله وبعده. وإنما أحيلك على فصل ممتع كتبه «أستاذنا أحمد أمين» في ذلك، في كتاب ضحى الإسلام وأكتفى بأن أقول لك، إن الجاحظ كان يجلس إلى أبي شعيب القلال (بائع القل) فينشد الجاحظ شعرا لأبي نواس ينقده القلال بقوله: "إن هذا هو الشعر ولو نُقِرَ لطن" وأن أبا العتاهية كان يصنع الجرار، وأن كثيرا من العلماء كانوا يرتقون من صنائع أو تجارة. هذا العصر المثقف، العميق، المتجه شيئا إلى العملية، والمتفلسف، كان يستسيغ هذا الشعر المصنوع، لما باعدت بينه الثقافة الرفيعة وبين فطرته. فقبل شعر أبي تمام ورضيه، وأحبه. وهؤلاء كانوا يسمون أنفسهم: "أصحاب المعاني".

أصحاب اللفظ وهم أصحاب العلم بالشعر : وهناك فئة أخرى، كانت لا تزال سليمة الفطرة، على شيء غير قليل من سلامة الحس الشعري، يفرقون بين الشعر والنثر، يعرفون لكل دائرة حدودا ورسوما لا يعدونها. وهؤلاء كانوا يجعلون الفصل في الشعر للذوق المكتسب بممارسة الشعر العربي، ويسميهم الآمدي: «أهل العلم بالشعر»، ويسمى طريقته: «طريقة العرب».

طريقة العرب : يقول الآمدي: «وليس الشعر عند أهل العلم به إلا حسن التأني، وقرب المأخذ، واختيار الكلام، ووضع الألفاظ في مواضعها، وأن يورد المعنى باللفظ المعتاد فيه، المستعمل في مثله، وأن تكون الاستعارات والتمثيلات لا ثقة بما استعيرت له، وغير منافرة لمعناه، فإن الكلام

لا يكتسى البهاء والرونق، إلا إذا كان بهذا الوصف . وتلك طريقة البحترى ... فإن أتفق مع هذا معنى لطيف ، أو حكمة غريبة ، أو أدب حسن ، فذلك زائد في بهاء الكلام ، وإن لم يتفق ، فقد قام الكلام بنفسه ، وأستغنى عما سواه . قالوا : وإذا كانت طريقة الشاعر غير هذه الطريقة ، وكانت عبارته مقصرة عنها ، ولسانه غير مدرك لما يعتمد من دقيق المعاني ، من فلسفة اليونان ، أو حكمة الهند ، أو أدب الفرس ، ويكون أكثر ما يورده منها بالفاظ متعسفة ، ونسج مضطرب ، وإن أتفق في تضاعيف ذلك شيء من صحيح الوصف وسليمه ، قلنا له : قد جئت بحكمة وفلسفة ، ومعان لطيفة حسنة . فإن شئت دعوناك حكما ، أو سميناك فيلسوفا ، ولكنا لا نسميك شاعرا ، ولا ندعوك بليغا ، لأن طريقك ليست على طريقة العرب ولا على مذاهبهم ... وينبغي أن تعلم أن سوء التأليف ، وردى اللفظ يذهب بطلاوة المعنى الدقيق ويفسده ويعميه ، حتى يحتاج مستمعه الى تأمل . وهذا مذهب أبى تمام في معظم شعره .

وحسن التأليف ، وبراعة اللفظ ، يزيد المعنى المكشوف بهاء وحسنا ورونقا ، حتى كأنه قد أحدث فيه غرابة لم تكن ، وزيادة لم تعهد . وذلك مذهب البحترى . ولذلك قال الناس : " في شعره ديباجة " . ولم يقولوا في شعر أبى تمام . هذه الطائفة كانت تسمى : " أصحاب اللفظ " .

والفهم الصحيح لما تقوله هذه الطائفة من الناس ، يدفع بالإنسان الى الإصاخة له . فهذه الفئة ليست كما يفهم لأول وهلة من أسمها . وهم لم ينكروا المعانى قط ، بل إن المعنى اللطيف ، والحكمة الغريبة عندهم زائدة في بهاء الكلام . وهم صنّاع شعر ، يراعون صحة التأليف ، وسلامة السبك ، وحلاوة اللفظ ، ويطلبون الديباجة ، وهم في الحق أقرب ما يكون الى أن يكونوا متأثرين بما يقوله أريسطو عن الاستعارة ووجوب قربها ، وعن استعمال اللفظ فيما يدل عليه . وهم لا يمتنعون تماما عن تقبّل الحكمة في الشعر . ولكنهم يأبون أن يستحيل الشعر فلسفة . ويقولون : إن للفلسفة آلة أخرى فلتصطنع لها آلتها . وهم ينكرون إنكارا عنيفا ذلك التجوّز في استعمال الألفاظ ، استعمالا يخرجها عن أصول ما وضعت له ، ويأبون التكلف والتعمل ، ويقولون : إن للشعر غاية يريد تحقيقها ، فليحققها عن طريقها القويم ولا تتلّو بنا السبيل . وهم لا يعبتون بعد هذا بالسرقات الشعرية ، لأنهم يقولون : إن المعانى تتوارد عليها الناس جميعا ، وليس هناك ما يمنعنى أن أردد حسّا أحسسته لأن غيرى سبقنى إليه . وهم يقولون باستواء الشعر وعدم اختلافه ، فيتم لهم بذلك إدراك وجوب توفير الانسجام للقصيدة على أنها وحدة متماسكة .

فهم قوم لا يقيدون النفس في الشعر بأكثر مما يقيدوها به هذا الفن على أصوله ، وهم يريدون للشاعر ألا أن يقول ما يحس ، ويذهب في ذلك في غير مراعاة لما قال غيره ، على شرط أربعة أشياء :
(١) جودة الآلة . (٢) إصابة الغرض المقصود . (٣) صحة التأليف . (٤) الانتهاء إلى نهاية الصنعة من غير نقص منها ولا زيادة عليها .^(١)

المرزوقي وعمود الشعر :

ولعل المرزوقي أكثر وضوحا حين يتحدث عن هذا . وهم يسمون هذه الطريقة : عمود الشعر ، فيقول :

”إنهم كانوا يحاولون شرف المعنى وصحته ، وجرالة اللفظ وأستقامته ، والإصابة في الوصف — ومن اجتماع هذه الأسباب الثلاثة ، كثرت سوائر الأمثال وشوارد الأبيات — والمقاربة في التشبيه ، وألتحام أجزاء النظم والتأماها على تخير من لذيد الوزن ، ومناسبة المستعار للمستعار له ، ومشكلة اللفظ للمعنى ، وشدة اقتضائهما للقافية حتى لا منافرة بينهما . فهذه سبعة أبواب هي عمود الشعر . ولكل منها معيار :

(١) فعيار المعنى : أن يُعرض على العقل الصحيح ، والفهم الثاقب ، فإذا آنعطف عليه جنبنا القبول والأصطفاء مستأنسا بقراءته خرج وافيا ، وإلا أنتقص بمقدار وحشته :

(٢) وعيار اللفظ : الطبع ، والرواية ، والأستعمال . فما سلم مما يهجنه عند العرض عليها فهو المختار المستقيم . وهذا في مفرداته وجماعته مراعى ، لأن اللفظة لا تستكره بانفرادها ، فإذا ضاهاها ما لا يوافقها ، عادت الجملة هجيئة .

(٣) وعيار الإصابة في الوصف : الذكاء ، وحسن التمييز . فما وجداه مصادقا في العلو ، ممازجا في اللصوق ، يتعسر الخروج عنه ، والتبرؤ منه ، فذاك سيما الإصابة فيه ...

٤ — وعيار المقاربة في التشبيه : الفطنة وحسن التقدير . فأصدقه ما لا ينتقض عند العكس ، وأحسنه ما أوقع بين شيئين : أشتركا في الصفات أكثر من أنفرادهما ، ليتبين وجه التشبيه ولا كلفة ، إلا أن يكون المطلوب من التشبيه أشهر صفات المشبه به ، وأملكها له . لأنه حينئذ يدل على نفسه ، ويحميه من الغموض والالتباس . وقد قيل : أحسن الشعر ثلاثة :

(١) مثل سائر . (٢) وتشبيه نابه . (٣) وأستعارة قريبة .

(١) الموازنة للأمدى . (٢) مقدمة الحماسة : شرح المرزوقي النسخة الفوتوغرافية بمكتبة الجامعة المصرية .

٥ — وعيار ألتمام النظم وألتمامه، على تخيير من لذيذ الوزن : الطبع واللسان . فما لم يتعثر الطبع بأبيته وعنوده ، ولم يتحبس اللسان في فصوله ووصله ، بل استمرا فيه ، وأستسهله بلا ملال ولا كلال ، فذلك يوشك أن تكون القصيدة منه كالبيت ، والبيت كالكلمة ، تسالماً لأجزائه وتقاربا :
 وشعر كبعر الكبش فرق بينه لسان دعى في القريض دخيل

ولمّا قلت : على تخيير من لذيذ الوزن ؛ لأن لذيذه يطرب السمع لإيقاعه ، ويمارجه بصفائه ، كما يطرب الفهم ، لصواب تركيبه وأعتدال نظومه

٦ — وعيار الاستعارة : الذهن ، والفطنة . وملاك الأمر تقريب التشبيه في الأصل ، حتى يتناسب المشبه والمشبه به ، ثم يكتفى فيه بالأسم المستعار ، لأنه المنقول ، كما كان له في الوضع ، إلى المستعار له .

٧ — وعيار مشاكلة اللفظ للمعنى ، وشدة اقتضائهما للقافية : طول الدربة ، ودوام المدارس . فإذا حكما بحسن آلتباس بعضهما ببعض ، لاجفاء في خلاهما ، ولا نبوء ، ولا زيادة فيه ، ولا قصور ، وكان اللفظ مقسوما على رتب المعاني ، قد جعل الأخص للأخص ، والأخص للأخص ، فهو البرىء من العيب .

وأما القافية فيجب أن تكون كالموعود المنتظر ، يسوقه المعنى بحقه ، واللفظ بقسطه ، وإلا كانت قلقلة في مقرها ، مجتلبة لمستغن عنها .
 فهذه الخصال عمود الشعر عند العرب .

فمن لزمها بحقها ، وبني شعره عليها ، فهو عندهم المفاخر المعظم ، والمحسن المقدم ، ومن لم يجمعها كلها فبقدر سئمتها منها يكون نصيبه من التقدم

آنتصار أصحاب المعنى : ثم يقول : ” وهذا جماع مأخوذ به ، ومتبع نهجه حتى الآن “ .
 ولكن هذا إن صدق بالقياس الى النقاد ، فليس يصدق بالقياس الى الشعراء فقد كانوا من أصحاب المعاني .

وهؤلاء اللفظيون : ” هم القائلون : أحسن الشعر أصدق . وهم ينكرون الإحالة ، والمعول عندهم على المصادقة والتحقيق ، لا على المبالغة والتمثيل “ .^(١) وعندى أن هؤلاء على صواب ، وأن المذهب الآخر

قد قُيِّضَ له أنصار أقوياء ، وجمهور ضخم يتقبله ؛ فقام على رعايته أشباه أبي تمام والمنتبي ، وكان لشعر الأول جدّة وفتنة ، ولشعر الثاني روعة وقوّة . فسار المذهب ، وساد .

ويخيل إلى أن مذهب اللفظيين — وأولى بنا أن نسميهم الشعراء — لو ترك حراً فانتصر ، لتغير مجرى الشعر العربي ، ولخرج الشعراء من مأزق خوف التهمة بالسرقه ، وسجن خلق المعاني الجزئية ، إلى تأمل عام في غرض الشعر وغايته ، وإلى نظر في المشاعر الانسانية ، على أساس وصف الواقع ، وصفاء النفس ، واعتدال المزاج ؛ ولاتجده التجديد والابتكار من المعنى الجزئى إلى المعانى الكلية ، وآتسع الأفق للنظر في آبتكار فنون جديدة في الشعر .

ولست أنسى هنا أن أشير إلى قيد آخر كان يقيد الفريقين معا ، وناء تحت ثقله الشعر العربي ، وحاول التخلص منه أحيانا إلا إنها جميعا كانت إرهابات تنتهى بالفشل : هو قيد البيت " الذى ينفرد بإفادته فى تراكيبه ، حتى كأنه كلام وحده ، مستقل عما قبله وما بعده ، وإذا أفرد كان تاما " كما يقول ابن خلدون . هذا القيد كان هو الآخر حائلا هاما دون تطور الشعر العربى ، إذا أضيفت إليه وحدة القافية .

كان أبو تمام ، شاعرا ، من الفئة الثائرة على عمود الشعر : فئة طلاب المعانى . وأرجو ألا ينسى مع هذه التسمية أنهم كانوا يطلبون اللفظ أيضا ، ولكنى بينت كيف كانوا يطلبونه . وكان أبو تمام ذكيا ، يتخطف ذهنه من الأحداث معانى ، وكان ينصب لها نفسه نصبا لا ملال معه .

" حكى عنه بعض أصحابه قال : استأذنت عليه وكان لا يستتر عني ، فأذن لى . فدخلت عليه فى بيت مصهرج ، قد غسل بالماء ، يتقلب يمينا وشمالا . فقلت : لقد بلغ بك الحر مبلغا شديدا . قال : لا ، ولكن غيره . ومكث كذلك ساعة ، ثم قام كأنما أطلق من عقال . فقال : الآن أردت . ثم آسئد وكتب شيئا لا أعرفه ، ثم قال : أتدرى ما كنت فيه منذ الآن ؟ قلت : كلا . قال قول أبى نواس :

* كالدهر فيه شراسة وليان *

أردت معناه فشمس على ، حتى أمكن الله منه فصنعت :

شِرستَ بل لَنت بل قانيت ذاكِ بِذا فأنت لا شك فيك السهل والجبل

ولعمري لو سكت هذا الحاكى لثم هذا البيت بما كان فى داخل البيت ، لأن الكلفة فيه ظاهرة ، والتعمل بين^(١) .

”وكان أبو تمام ينصب القافية للبيت ، ليعلق الأعجاز بالصدور . وذلك هو التصدير في الشعر ، ولا يأتي به كثير إلا شاعر متصنع ، كحبيب ونظرائه^(١)“ .

وهذا يرى مبلغ ما كان يكابد أبو تمام في صناعة الشعر ، وكيف أنه كان يريد إرادة . كما يقول هو في الحكاية السابقة « أردت » . وكان الشعر في يده كالسوار في يد الصائغ ، وكيفه كيف يشاء ، فيرفع هذه اللفظة ليحل محلها أخرى ، ويأتي بالكلمة مضمومة الأول لتشبه اللفظة التي تقابلها في الشطر الآخر .

يقول التبريزي في شرحه ديوان أبي تمام في تفسير البيت :

مرقت ثوب عكوبها يركوبها فالنار تنبع من حصي المعزاء

العكوب يروى بضم العين وفتحها ... والأشبه بمذهب الطائي ضم العين في عكوب ، ليكون مشا كلا لضم الراء في ركوب .

وينقل التبريزي عن أبي العلاء في شرحه^(٢) .

متبهم في غرسه أنصاره عند التزل كأنهم أنصار

بعد أن يفسر متبهم بالباء المعجمة بواحدة . يقول : ” ولو رويت متبهم في غرسه “ . لكان ذلك مشابها لصناعة الطائي ، ويقويه قوله في آخر البيت وأنصاره ، ويعني بمتبهم : الذي يظهر دين النبي ... “ . ويقول أيضا في شرح البيت :

جاء نذير الحزن في بطنه بحادثٍ أظهره الظهر^(٣)

” أحسن ما يتأول في هذا البيت على مذهب الطائي ، أن يكون غنى بالظهر ظهر نفسه ... أي أني لما أتاني الخبر أنخني ظهري ، فأظهر ما عندي من الحزن “ . ويقول في شرح :

بكل فتى ضرب يعرض للقنا محيا محلى حليه الطعن والضرب

أشبه بصناعة الطائي أن يكون فتى منونا ... “ . وهكذا من مراعاة اللفظ ما لا حد له .

وينقل الآمدي عن محدث له عن أبي تمام بلهجة المصادق الراضي :

” وقلت : إن أبا تمام معروف المذهب فيما يعرضه من الشعر ، مألوف المسلك لما ينظمه ،

نازع في الإبداع ، إلى كل غاية ، حامل في الاستعارة كل مشقة ، متوصل إلى الظفر بمطلوبه أين أعسفه وبماذا عثر ، متغلغل إلى تويعير اللفظ ، وتغميض المعنى ، أني تأتي له وقدر ... “ .

ويقول ابن المعتز في مقدمة كتابه البديع :

” قد قدمنا في كتابنا هذا بعض ما وجدناه في القرآن، و... من الكلام الذي سماه المحدثون البديع، ليعلم أن بشارا ومسلما وأبا نواس، ومن تقيّلهم وسلك سبيلهم، لم يسبقوا إلى هذا الفن، ولكنه كثر في أشعارهم فعرف في زمانهم... ثم أن حبيب بن أوس الطائي من بعدهم، شغف به حتى غاب عليه، وتفرع فيه، وأكثر منه، فأحسن في بعض ذلك، وأساء في بعض. وتلك عقبي الإفراط، وثمرة الإسراف“.

وفي الحديث عن الإفراط أو المبالغة يقول ابن رشيق : ” وزعم بعض المتعقبين أن الذي كثر هذا الباب أبو تمام، وتبعه الناس بعد“.

ويقول الجرجاني عن الاستعارة^(٢): ” وقد كانت الشعراء تجرى على نهج منها، قريب من الاقتصاد، حتى آسرتل فيه أبو تمام ومال إلى الرخصة، فأخرجه إلى التعدي، وتبعه أكثر المحدثين“.

وهذه الإشارات في كتب النقد إلى مذهب أبي تمام كثيرة، وتتلخص جميعا فيما يأتي :

- (١) طلب المعنى البعيد، واللطف الجديد المبتدع، وتحرى ذلك تحريا مكودا متواصلا.
- (٢) محاولة إخفاء المعنى المنقول عن الغير بكثير من التغميض، والتعقيد، والالتواء في التعبير، واستخدام الأساليب الجديدة في ذلك.

(٣) ونشأ عن هذا كثرة الاستعارات، والإفراط في استعمالها، مع خفاء العلاقة وبعدها أحيانا. وأصبح اللفظ في كثير أشبه بالمنقول إلى معنى جديد، لا على قواعد الاستعارة القريضة المعروفة. كما أضطره ذلك إلى الإفراط والمبالغة، حتى ليتهمه دعبل بأن ثلث شعره محال.

- (٤) كان من وراء هذا كله، مع تكلف إدماج الفكرة في الشعر، نقص ماء الشعر في كثير منه، وتبدى الكلفة، ولم تكن هناك وسيلة إلى تخفيف هذا، إلا التجميل الصناعي. فتحرى أبو تمام أنواع البديع، والمحسنات اللفظية من كل وجه، وبكل سبيل. وكان من نتائج اقتران طلب المعنى بطلب اللفظ، على الوجه الذي أسلفته، جور يلحق بأحدهما. فتكون الثمرة الغموض أو الغريب. وأضطر إلى أن ينحت ألفاظا من كلمات أعجمية ليؤدى معنى أراد. فيقول :

يَسْتَعِيْثُ البَطْرِيقَ جَهْلًا وَهَلْ يَطْلُبُ الْاَمْبَطْرِيقَ البَطْرِيقُ

ورخص لنفسه أحيانا مخالفة قواعد النحو الشائعة فقال :

تغايّر الشعر فيه إذ سهرت له حتى ظننت قوافيه ستقتل

ولم يقل قوافيه بفتح الياء . ونقل اللفظ عن معناه ، فقال :

رقيق حواشي الحلم لو أن حلمه بكفّيك ما ماريت في أنه برّد

يقول الآمدى ... "فإن البرّد لا يوصف بالرقّة، وإنما يوصف بالمتانة والصفاقة، وأكثر ما يكون ألوانا مختلفة" .

الشعر عند أبي تمام وأصحابه

فالشعر عند أبي تمام قد استحال إلى مادة لينة سهلة، يصورها تصوير الصانع كيف يشاء صناعة يتحرى فيها الغرض، يريد أن يحققه . ولكن هذا التحقيق قد تعترضه قيود اللغة فيحطمها، ورسوم البلاغة فيخرج عنها، وذوق الناس فلا يعبا به، فهر نائر وهو مجدد، وهو في هذه الثورة لا يعبا بشيء . يحطم القيود، ويعدو الحواجز، ويأبى على الشعر إلا أن يكون فكرة قبل أن يكون شعورا . لا يريد غداء الفطرة، وإنما يريد أولاد غداء العقل، وهو يتلمس فيه أيضا أن يرضى الشعور، ولكننا ذلك يأتي تاليا .

موازنة : ولا يفوتني هناك أن أنبه إلى أن الفرق بين أبي تمام مع أنصاره أصحاب المعاني، وبين أصحاب اللفظ، إنما كان في هذه الثورة على المواضعات، والرسوم المقررة . فكلاهما يقبلان المعاني الجديدة، ولكننا ينفرد اللفظيون بطلب الاعتدال، والاستجابة للطبع، وعدم الخروج بالشعر إلى ميدان الكتابة . وقد بينت ما كان يمكن أن يترتب على هذا من تطور في فنون الشعر .

والغريب أنهما يتبادلان لونين من الحرية، ولونين من الاستعباد؛ فأصحاب المعاني ناثرون على كل ما يقيد الفكر، ولكنهم واقعون تحت نير ما يقيد الطبع . وأصحاب الألفاظ ناثرون على كل ما يقيد الطبع، ولكنهم واقعون تحت نير ما يقيد الفكر .



وسنرى فيما بعد أن هؤلاء اللفظيين، وكلهم من العلماء، كانوا تلاميذ أرسطو، التابعين لهديه وإرشاده . من هؤلاء ابن الأعرابي، ودعبل (وكان عالما إلى شعره، كتب كتابا في الشعر والشعراء، ينقل عنه ابن رشيق كثيرا) والآمدى، والجرجاني، والمرزوقي، وابن رشيق . وأظنني قد أطلعتك على طرف من آرائهم يكفى للدلالة على ما كانوا يرون . وجميعهم عدا دعبل كانوا علماء، لم يقولوا الشعر، إلا النادر منه .

أما أنصار مذهب المعاني : فمنهم أبو تمام ، والمتنبي ، شاعران . وإبراهيم بن علي الحصري القيرواني الأنصاري . يقول عنه ياقوت " كان ... يحب المجانسة ، والمطابقة ، ويرغب في الاستعارة تشبها بأبي تمام في أشعاره ، وتبعاً لآثاره " . ومن العلماء رجل ذو مزاج شعري ، هو ضياء الدين ابن الأثير صاحب المثل السائر . وأولئك هم شعراء ، مارسوا الشعر وجربوه . والمثل العامى يقول : ليس من يده في النار كمن يده في الماء . وللشعر مآزق يضطر إليها الشعر اضطراباً ، لا يحسبها من نرج عنه . وهؤلاء أيضاً تلاميذ أرسطو . ولكنهم غلوا فيما نصح بالاعتدال فيه ، وزالوا عما رسمه من السنن .

وبعد ، فقد قيص لمذهب المعاني عبقريتان ، قامت به أول أمره ، وذادت عنه بقوى جبارة غير عادية ، فاستمد من نفسيهما القويتين سنداً . ذان هما أبو تمام والمتنبي . وظل أصحاب القانون وأنصاره يصلتونه على رؤوس الخارجين ، يشتهرون بهم في الأسواق ، ويهتفون بهم في الآفاق ، والشعراء يحملون مشاعلهم ، لا يحجب أحدهم الا بتلك الكلمة الفخورة :
 "وللفصحاء المدلين في أشعارهم ما لم يسمع من غيرهم"^(١)
 والناس تتغنى بهذا وتتناقل ذاك ، وتيار الحياة جارٍ إلى غير وقفة ، وفي غير كلال .

٥ - أثر أرسطو

قلت : إن الطائفتين من تلاميذ أرسطو . وتركتك عند هذه القضية بغير دليل أو تفصيل . والحق أنى ممن يتهيبون التهجيم على التاريخ ، وقد كنت آخر من يلج هذا الباب لولا فيض اقتناع ، وفضل حس بما أقول . إن آثار السلف مقدسة ، ولكن إحقاق الحق أقدم . ولا شك في أن قبول قوم ما عند آخرين دليل على حياتهم ، ومروتهم ، وصلاحتهم البقاء والكفاح . ولست أشك في أن بث فكرة التعاون بين الناس خير وأنفع للإنسانية والتقدم ، من خلق الهوات بين الأمم وأبعاد الشقة بين الجماعات . فاذا آمنت معي بهذا ، فاني لا أتهجم بك على قدس من الأقداس ، ولكني إنما أفتح لك باب معبد ، لآله دينه الحب والوئام والتعاون ، وأفض عنك قيوداً قوامها الأنانية ، والخلاف ، والفتنة .

(١) الترجمة قبل حنين : يقول القفطى ^(١) : "إن ابن المقفع هو أول من أعنى في الملة الإسلامية بترجمة الكتب المنطقية ، لأبى جعفر المنصور . وهو فارسي النساب ، ألفاظه حكيمة ، ومقاصده من الخلل سليمة . ترجم كتب أرسطو طاليس المنطقية الثلاثة وهى : كتاب قاطيغورياس (المقولات) ، وكتاب بارى أرميناس (العبارة أو القضايا التصديقية) ، وكتاب أنا لوطيقا (القياس وصور انتاجه) . ترجم ذلك بعبارة سهلة ، وترجم مع ذلك الكتاب الهندي المعروف بكتاب كليله ودمنه ؛ وله تأليف حسنة ، منها رسالته في الأدب والسياسة ، ورسالته المعروفة باليتيمة : في طاعة السلطان " . فهو يجعل اليتيمة من تأليفه وإن كان الباقلاني يزعم أن ابن المقفع نسخ الجزء الخاص منها بالحكم ، من كتاب بزرجمهر في الحكمة ^(٢) .

ولا شك أن هذه الجملة المنصبة على ألفاظ ابن المقفع في الترجمة ، وأستحسان عبارته فيها ، وما يقع دائماً من أن المترجم الثانى يستفيد من ترجمة الأول ، وعلى الأخص إذا كان حسن العبارة سهلاً ، لا شك فى أن هذا يدفع إلى الظن بأن كثيراً من ألفاظ ابن المقفع قد نقل فى ترجمة إسحق ابن حنين ؛ لاسيما الألفاظ ذات الصيغ الجديدة للدلولات الطارئة على اللغة ، من المعانى المنطقية . أشباه « المصدق » و « الماهية » وغيرها . هذا الخلق للألفاظ عملية جديدة تثير فى الذهن ذكرى لنظير لها فى كتاب خطابة أرسطو ؛ يسميها سانت هيلير « الكلمات المركبة » ^(٣) . ويقول سانتلانا فى مذكراته ^(٤) :

"حكى يحيى بن عديّ أيضاً قال : أتمست من إبراهيم بن عبد الله ، الناقد النصرانيّ ، نص سوفسطيكا ، ونص الخطابة ، ونص الشعر ، بنقل حنين ، بنمسين ديناراً فلم يبعها ، وأحرقوها وقت وفاته " .

فكان الخطابة والشعر كانا مترجمين قبل موت حنين . وقد مات حنين سنة ٢٦٠ ، على قول ^(٥) سنة ٢٦٤ على آخر . أى قبل أن يملى ابن المعتز كتابه البديع سنة ٢٧٤ كما يقول هو ^(٦) .

(ب) أثر أرسطو فى البيان والتبيين : وإن فى إغضاء الجاحظ مع علمه ، عن الإشارة إلى أية عبارة لأرسطو غير عبارته : " الإنسان حى ناطق " وذلك فى كتابه البيان والتبيين ، مع أن

(١) طبقات الحكماء : ص ١٤٨ (٢) إعجاز القرآن : ص ١٨ . (٣) خطابة أرسطو — ترجمة سانت هيلير (ك ٣ - ف ٣) . (٤) ص ٢٥٥ النسخة الفوتوغرافية بمكتبة الجامعة . (٥) طبقات ابن أبى أصيبعة : ج ١ ص ١٩٠ (٦) البديع : ص ٢٥٨

هناك ترجمة ابن المقفع لثلاثة من كتبه ، ما يشبه سكوت ابن المعتز عن ذكر أرسطو في كتابه ، مع أن الخطابة والشعر كانا مترجمين قبل أن يملئ ابن المعتز كتابه .

وغير قريب أن يقنع الانسان نفسه أن الجاحظ لم يطلع على كتب أرسطو الثلاثة التي ترجمها ابن المقفع . كما أنه من المحتمل جدا أن يكون قد سمع شيئا من خطابة أرسطو وشعره ، مترجمين ، أو في لغتهما ، أو لغة أخرى . ويلمح " أثر الغارة الهيلينية على البيان العربي المحافظ " (١) ، الذي تستخرج رسومه وحدوده من كتاب " البيان والتبيين " . وكلام الجاحظ في البيان والتبيين عن البلاغة " كلام فلسفي محض ، لو قورن بمعاني أرسطو ، وخاصة في كتاب الخطابة ، لرد جله إليها " (٢) .

وهناك عبارة غامضة في الفهرست : أن كتاب الخطابة لأرسطو " يصاب بنقل قديم " . ويبدو أن عبارة " نقل قديم " (٣) يطلقها ابن النديم على النقل أيام البرامكة . ويكون الكتاب قد نقل إلى العربية في القرن الثاني الهجري .

كل هذه تثير في النفس أن الكتابين كانا معروفين للجاحظ ، ولابن المعتز . فلماذا سكتا عن الإشارة إليهما ؟ ولماذا أمسك الجاحظ ، عن نقل أى نص من كتب أرسطو ، غير هذا النص السابق ؟ وهناك أشياء أخرى تدل على اتصال المحدثين بهذين الكتابين .

(ج) أثر أرسطو في البديع لابن المعتز : يقول أرسطو في كتابه الشعر : " وإذا أصطنع الإنسان الاستعارات ، والصيغ المنحوتة ، والصور الأخرى المغيرة ، دون مراعاة للاعتدال ، وقع في نفس ما بيناه سابقا من أضحاك القارئ من نفسه . ولكن لتقدير فعل تلك الصيغ الشعرية حين يستخدمها الإنسان في اعتدال ، يكفي أن يدخلها في بيت واحد . وأما عن العبارات الغريبة ، والاستعارات والصيغ الأخرى ، فسترى صحة ملاحظتنا حين تستبدل بها الكلمات الدالة على الحقيقة " (٤) . ويقول ابن المعتز في مقدمة كتابه عن البديع .

" قد قدمنا في أبواب كتابنا هذا بعض ما وجدناه في القرآن ، واللغة ، وأحاديث رسول الله ... وكلام الصحابة ، والأعراب ، وغيرهم ، وأشعار المتقدمين ، من الكلام الذي سماه المحدثون : البديع ، ليُعلم أن بشارا ، ومسلما ، وأبا نواس ، ومن تقيهم وسلك سبيلهم ، لم يسبقوا إلى

(١) مقدمة نقد النثر لقدماء . كتبها طه حسين . (٢) البلاغة العربية وأثر الفلسفة فيها : ص ٢٢ محاضرة مطبوعة للأستاذ أمين الخولي . (٣) فهرست ابن النديم . طبع أوروبا ص ٢٤٤ (٤) اعتمدت في النقل على ترجمتي سانت هيلير الفرنسية ، وبوتشر الانكليزية . النص من الشعر : الفصل ٢٢ الفقرة ٨ في الفرنسية ، و ٦ في الانكليزية .

هذا الفن ، ولكنه كثرت في أشعارهم ، فعرف في زمانهم ، حتى سمي بهذا الاسم فأعرب عنه ودل عليه . ثم إن حبيب بن أوس الطائي من بعدهم ، شغف به حتى غلب عليه ، وتفرغ فيه ، وأكثر منه ... وإنما كان يقول الشاعر من هذا الفن البيت والبيتين في القصيدة ، وربما قرئت لأحدهم قصائد من غير أن يوجد فيها بيت بديع . وكان يستحسن ذلك منهم إذا أتى نادرا ، ويزداد حظوة بين الكلام المرسل .

ألا ترى معي أن عبارة أرسطو كأنما ترجمت ترجمة صحيحة ، وأن الحكمين المستفادين من النصين واحد ؟ وإنما اختلفتا في التطبيق على الأديين العربي واليوناني .

تلك العبارة بعد ما سبق من إشارات تاريخية ، تكفي للدلالة على أن كتابي أرسطو ، كانا معروفين في أيام أبي تمام ، وأن ابن المعتز ، والجاحظ من قبله ، حين كتبنا كتابيهما لا حظا ما قال أرسطو . ولكن نقل بيان من لغة إلى لغة أخرى ، تخالفها في الطبيعة والتكوين ، لم يكن من السهولة بحيث يطبق كله ، فكانت محاولات بدائية لم تكتمل في هذين الكتابين ، وقاربت التمام في كتب النقد التي تلتها . وأقول : كتب النقد ولا أقول كتب البلاغة .



كما أن نهج ابن المعتز في تأليف كتابه يقارب نهج أرسطو في تأليف كتابيه . فأبن المعتز يبدأ بالكلام على الفن من الفنون البديعية ، فيعرفه إن أتيح له ذلك ، ثم يأتي بالأمثلة الكثيرة له ، ثم يذكر أمثلة لما يعاب منه . وأرسطو يفعل ذلك إلا أن الفرق بينهما فرق ما بين المبتدئ وبين البالغ غايته . فأرسطو يعلل ، وابن المعتز لا يعلل . وأرسطو شامل النظرة ، دقيق المقصد . أما ابن المعتز فقريب النظر متعثر في جديده أحيانا .

ويظهر أن ما كان متداولاً في تلك الأيام هو قطعة من كتاب أرسطو ، وليس الكتاب كله ، أو أن معظم الكتاب لم يكن مفهوما لديهم إذ ذاك ، وما فهم منه كان الجزء الخاص باللفظ وليس بالعبارة . وإنما رجعت إلى كتاب ابن المعتز أتحدث عنه هذا الحديث مع تأخره عن زمن أبي تمام ، لأنه هو أول أثر مكتوب في البديع واقع تحت أيدينا ، ولأنه إذا تبين بدلالة الآثار المادية أن علماء اللغة كانوا يستفيدون في عصور من عصورها بكتاب أرسطو ويسكتون عن ذكره ، فإن ذلك يجوز أن يكون سابقوهم قد فعلوا ذلك . ويقوى هذا إذا اقترن بما نقلت من النصوص التي تشير إلى ترجمة الكتاب .

يضاف إلى هذا أن اللغة اليونانية كانت يتحدث بها في البيوت، وكانت لغة من لغات الثقافة في هذا العصر، كما أشرت سابقا، وأن المسلمين كانوا على اتصال بأرسطو من أيام ابن المقفع، فليس ما يمنعهم من النظر في جميع ما كتب. وأنا لنجد الخليل بن أحمد، واضع علم العروض، وأستاذ سيبويه، وأستاذ حنين بن إسحق أكبر النقلة إلى العربية، يتحدث عن التجنيس من أنواع البديع ويضرب المثل له كما يتحدث عن المطابقة بمعناها البلاغي، ويتحدث كذلك عنه الأصمعي. وأبو تمام يتحدث البحتري عن الاستطراد في شعره. وقد أشرت إلى ذلك قبلا.

(د) أثر أرسطو في أصحاب اللفظ وأصحاب المعنى : كل ذلك إن لم يخلق اليقين فهو يقوى الشبهة. فإذا رجعت إلى طائفتي اللفظ والمعنى، وجدت الأولى تقول بإبعاد الألفاظ الغريبة، وبوجوب أن تكون العلاقة قريبة بين المستعار والمستعار له. هذان سببان من التي يجعلها أرسطو من أسباب برودة الأسلوب. (٢) كذلك الغموض يمتقونه، وقد مقته قبلهم أرسطو. (٣) فهؤلاء تلاميذ أرسطو في كتاب الخطابة.

فاذا أنتقلت إلى أصحاب المعنى وجدتهم ياجأون إلى ما يطلق عليه أرسطو "الرخص الشعرية" في كتاب "الشعر".

(١) فالشاعر أن يصوغ كلمات جديدة، بأن يخلقها خلقا.

(٢) وله أن يبدل حرفا متحركا فيها بآخر أطول منه.

(٣) وله أن يرخم الكلمة ويختزلها، وأن يتصرف في الصور الصرفية. (٤)

كل أولئك نراه عند أنصار المعنى. وإنا لنسمع المتنبي — ولا عبرة بتأخره فهو صورة من صور العصر، وتلميذ أبي تمام، وسترى أنه يريد أن يرجع هذه الرخص إلى الجاهلية — يقول: "وللفصحاء المدلين في أشعارهم ما لم يسمع من غيرهم. كقول امرئ القيس: ديمة هطلاء، وذى الرمة: أدمانة. يعني أدماء، ... الخ" وأن أحد خصومه ليصرح به: "قد خلط هذا الرجل في احتجاجه، وجمع بين أمور مختلفة، ودلنا على بعده عن تحصيل المعاني، وذهابه عن مقاييس النحو، وأجرى كلامه إلى غاية توجب قلب اللغة، ونقض مباني العربية، لأنه جعل الشعراء بزعمه أمراء الكلام، وأباح لهم التصرف على غير ضرورة. وهذه القضية إن سبقت على أطراد قياسها، زال نظام

(١) بديع ابن المعتز: ص ٢٥ (٢) خطابة: ك ٣ ف ٣ (٣) الخطابة: الموضع عينه.

(٤) الشعر: ص ٨١ ف ٢١ وما بعدها.

الأعراب ، وجاز للشاعر أن يقول ما شاء ، وأن يتناول ما أراد عن قرب ؛ فيثقل كل مخفف ، ويخفف كل مثقل ، ويحذف ، ويزيد ، ويغير الجموع ، ويتحكم في التصريف ، ويتعدى ذلك إلى حركات الإعراب ، ويتجاوزها إلى ترتيب الحروف . فإذا كان هذا ممتنعا محظورا ، ومتعدرا محجورا ، فلا بد من حد يقف عنده الشاعر ، وينتهي إليه الفرق بين النظم والنثر^(١) .

وأصحاب المعنى في ذلك هم تلاميذ أرسطو حين يقول : ” وعلى ذلك فليس لأحد حق ، أن ينتقد الشاعر لأصطناعه هذه الصيغ ، أو أن يضحك منه كما فعل إقليدس الشيخ ، حين أعلن أنه من السهل أن يصبح الإنسان شاعرا إذا أبيع له تطويل المقاطع حين يشاء^(٢) “ .



ولا تأخذ على آستشهادي بأقوال المتنبي وخصمه ، وهما في زمن يتأخر بما يزيد عن قرن عن عصر أبي تمام . فإنك تستطيع أن ترى بوضوح في الكلام على أصحاب المعاني وأصحاب الألفاظ ، وأضطراب هذه المعاني بينهم ، وكلامهم عن عمود الشعر ، مما أوضحته قبلا ، ما يجعلك تقتنع معي بأن هذا كان كلاما يتردد في ذلك العصر كله ، وأن المتنبي إنما كان تلميذ أبي تمام وعصره في هذا المعنى . ولا أشك في أن تناول كل جزء من هذه الأجزاء على أفراد لا يقنع الإنسان ، ولا يرضى العقل ؛ ولكنها جميعا إذا تظاهرت وارتبطت ببعضها ببعض ، أنتجت ما يمكن أن يدعوه الناظر المتأمل مؤامرة من أبناء هذا العصر مقصودة ، على كتمان آثار البلاغة اليونانية في البلاغة العربية . وربما نشأ ذلك عن المعنى الديني الذي يحوط اللغة العربية منذ نزل بها القرآن . لذلك تخرجوا في التصريح بالنقل عن البلاغة اليونانية ، التي هي لغة أدب وثني ، ولم يتخرجوا في التصريح بالنقل عن الفلسفة اليونانية والطب اليوناني .

(هـ) أثر أرسطو في أبي تمام : بعد هذا كله يمكن أن أستظهر في شيء غير قليل من الارتياح النفسي ، أن أبا تمام حين كان يطلب البديع ، وأنه حين كان يريد إرادة ، إنما كان يطلبه تبعا لأصول وقواعد موضوعة . وأنه كان في ذلك متأثرا بيونانية آتته عن طريق الثقافة في عصره ، وعن طريق العلم المنتشر بين أهل جيله . وأبو تمام كان علما ، وكان مطلعا . يعترف له بذلك خصومه قبل أصدقائه ، ويكفيني أن أحيلك على ما يقولونه عن حفظه ، وعلى المحاورة بين صاحب أبي تمام وصاحب البحتری في الموازنة . فلا غرابة أن يطلع على ما كان يجري في عصره .

أبو تمام إذن تلميذ أرسطو حين يحمل اللفظ وحين يطلب البديع .

وأرجو أن لا ينسى مع هذا، أن أبا تمام كان يطلب المعاني قبل الألفاظ ، وأن الزينة اللفظية عنده لم تكن إلا وسيلة يستعيض بجمال موسيقاها عما قد يفوته من قوة الطبع وسهولة الفكرة . ولا يختلط علينا الأمر ، كما اختلط على ابن رشيق حين عارض ابن الرومي في قوله عن أبي تمام : ” إن الطائي كان يطلب المعنى ولا يبالي باللفظ ، حتى لو تم له المعنى بلفظة نبطية لآتى بها “^(١).

” قال بعض من نظريين أبي تمام وأبي الطيب : إنما حبيب كالقاضي العدل ، يضع اللفظة موضعها ، ويعطى المعنى حقه ، بعد طول النظر والبحث عن البينة ؛ أو كالفقيه الورع . يتحزى في كلامه ، ويتخرج خوفا على دينه . وأبو الطيب كالمملك الجبار ، يأخذ ما حوله قهرا وعنوة ، يهجم على ما يريده ، لا يبالي ما لقي ، ولا حيث وقع “^(٢).

وهذا الحكم يبين كيف كان أبو تمام يتحزى اللفظ بعد تحزى المعنى . وهو لا يبغض قول ابن الرومي ، فإن المعنى كثيرا ما كان يضطره إلى إغراب في اللفظ ، تثقل به النفس . وذلك واضح في ديوانه . وكثيرا ما نقل اللفظ عن معناه المعروف به . فنقل البرد من الثوب الصفيق إلى الثوب الرقيق . وتبعه البحترى في ذلك ونقل الوشاح ، عن معناه المعروف إلى الحزام . في قوله :
 من الهيف لو أن الخلاخيل صوّرت لها وشحّا جالت عليها الخلاخيل^(٣)

وأشبه ذلك مما اعتبره النقاد الأقدمون خطأ من أبي تمام ؛ ولعمري إنه ترخيص أبي تمام لنفسه مالا يرخص لغيره ، تحت حكم المعنى القاهر . وما كان على علمه الذي يصفونه لنا ، بالذى يخطئ في فهم معنى الوشاح ، والبرد ، والوشائع .

(١) العمدة : ج ١ ص ٨٦ . (طبع هندية بالقاهرة) . (٢) العمدة : ج ٢ ص ٨٧ .

(٣) راجع اعتراض الآمدى على ذلك في الموازنة .

الباب الخامس عشر

صدر فيه أبي تمام بعصره

١ - العصر

(أ) كان بدء العصر العباسي حدا فاصلا بين لونين من ألوان التاريخ في الدولة الإسلامية . ففي عهد الخلفاء الراشدين كان التفاعل بين عناصر هذه الأمة ، المتضاربة خُلُقًا ، وطبعًا ، وميولا . واستمر هذا التفاعل قويا في عهد الأمويين . وكانت تهيئ لهذا التفاعل قوة الفاتح ، وسورة الدين . وكان الأمتزاج سريعا ، وجذته أخاذه ، لا تكاد تدع للجاعات اختيارا في مقاومته ، وتنهبها إلى أجناسها وعصبياتها . وكان يغلب على هذه الأمم جميعا سلطان دين سمح ، أخذ بالنفوس ، وعدل محبوب يقوم به الخلفاء أول الأمر .

(ب) حتى إذا استيقظت العصبية القديمة بين العرب ، في عهد عثمان ، الخليفة الثالث ، واستحال الحكم إلى وظيفة تطلب للغم ، ويعمل في الدفع إلى الاستئثار بها إرث الماضي ، مما هو قبل الإسلام ، وسقط الخليفة تحت سيوف النافرين ، أهتزت تلك المعاني العظيمة الدينية التي قام عليها نظام الحكم . ثم أنهارت كما ينهار الصرح الشاخ ، وزلزل الإسلام وأهله ؛ زلزلة كادت تؤدي بدولته لولا يد الأمويين القوية ، التي أتاحت لهذه الدولة البقاء ، على أساس من الحزم والقوة والبأس ، أكثر من بقائها على أصول من الإيمان والحب .

فلم يهين الإسلام في الصدور ، ولكن وهنت فكرة قيام الدولة عليه ، واستمر الناس بأثر من الدفعة الأولى ، متجهين في رعاية وحدة الأمة على مدد من التراث الديني القديم ، ومن الاتجاه النفساني الذي خلقته تعاليم معلمهم الأول من النبي ، والخلفاء ، والصحابة . يحفظه عليهم ماضيه لهم من مثل في الإيمان بما عملوا له . فاستمر الأمتزاج والتفاعل قويين ، وأتصل ذلك في غير عبء بصرخات الخارجين على الجماعة بين لحظة وأخرى . إلا أن تسلط الأمويين ، القائم على معنى الملكية الدنيوى ، وذلك الخلف الذي كان يدب بينهم وبين آل بيت النبي ، وما كان ينتهي إليه هذا الخلف من جرائم تملأ التاريخ ، كان يلقي النور على استبداد تؤخذ به الناس أخذا .

كما أن عصبيتهم التي تعدت العرب إلى غيرهم من الأجناس ، التي تعيش تحت إمرتهم ، أخذت تهدئ من حدة التفاعل ، وتتهيأ لتمييزات جديدة بين هذه الأجناس المختلفة . فإذا بالوحدة الدينية التي كانت تربط الأجناس تأخذ في الانحلال شيئا ، لتحل محلها قوة أخرى هي قوة حفظ النوع وحماية الكيان . فإذا بالفصائل ، والعشائر ، والأمم تضع المعنى الديني جانبا وتجعل نصب عينها المعنى العنصري .

(ج) ويكون من هذا كله سقوط الدولة الأموية ، اتسمح بسقوطها لمعركة مقنعة أولا ، تدور بين الفرس والعرب باسم بيت النبي . حتى إذا تغلب العباسيون وجد الفرس في ظل عرشهم ملجأ يعملون فيه على هدم السلطان العربي . وكان الخلفاء يحسون منهم ذلك ، فينكحون بهم حفظا لعروشهم ، فأبو مسلم الخراساني ، والبرامكة ، والفضل بن سهل ، والأفشين لم يكونوا جميعا إلا طلائع هذه الحركات الخفية ، التي كانت تعمل في نفوس العناصر في ذلك الزمن .

ولقد بلغت هذه المعركة أشدها في عهد المأمون ، إذ كانت قد بدأت تصرّح عن وجهها في محاولة الفرس نصر المأمون على الأمين ، وحفظه في خراسان لتكون الخلافة تحت سلطانهم . وشعر العرب يومئذ شعورا مرقعا بما فقدوه بسقوط الأمويين ، وتحطيمهم بيد الفرس ، فكان ردّهم على ذلك تلك الثورات العارمة في معظم الأقطار الإسلامية ، التي اضطرت المأمون إلى استخلاف على ابن موسى الرضا على ولاية عهده ، وحمايته على قتل الفضل بن سهل ، والنزوح عن خراسان إلى بغداد . فسكنت الثورات العربية شيئا ، ولكن أخذت تستيقظ ثورات أخرى أعجمية ، كشورة بابك الخرمي سنة ٢٠١ . وأخذ الصراع يدور ثانية خفيا بين العرب والفرس . وليس شيء أشدّ حقدا من كل منها على الآخر .

ولكن سلطان العرب أخذ يضؤل ، وإن كُلفوا حماية أطراف الدولة ، والقيام على إنحساد الثورات . وأتضح هذا الخذلان بقتل المتوكل .

ومن هنا أخذت المعركة تسفر ، ولحق المتنبي آخر وجوهها ، فأنزل حقه ونقمته ، في عجلة وقسوة ، على قومه ، لما كان يرى من أنهم يستطيعون الخلاص من أعدائهم ، ولكنهم لا يعملون للخلاص . فيقول المتنبي :

وإنما الناس بالملوك وما لا أدب عندهم ولا حسب
تُفْلِحُ عُربٌ ملوكها عجم ولا عهد لهم ولا ذم

في كل أرض وطئتها أمم
تُرعى بعبد كأنها غنم
يستخشن الخزّ حين يلبسه
وكان يُبرى بظفره القلم

ولحق أبو العلاء قومه ، وقد تمت الهزيمة ، ولم يبق إلا الحطام والأشلاء ، فبكاهم بكاء اليأس ،
وأتجه إلى فلسفة هزيمة عشيرته أمام الحياة . وكانت حياته لحياتهم في أيامه صورة ومثلا .

أما أبو تمام فقد لحق الصراع إبان اضطرامه ، والنفوس تغلي ، والعرب يحسون يومئذ حاجتهم
إلى الاستعانة بما يستعين به أعداؤهم من مادة ، وسلاح ، وعلم ، وفن . فكان مغنى المعركة ، يتنقل
بين ميادينها ، مضطربا بين اليأس والأمل ، عاملا على التحصيل ما استطاع .

(د) وليس شيء حافزا في صراع ، شرا من حماية الذات وحفظ النوع ، ولقد كان وجود هذا
العصر كله رهنا بهذا الحافز ، ونتاج ذلك الصراع . فإن الحياة لا تحلو في يوم حلاوتها يوم تهدد ؛
وأثر هذا الشعور أبدا ، تهالك على الحياة وغلو في حسنها ، وإغراق في الإحاطة بها ، وذهاب في كل
حس إلى أبعد غاياته ، في غير آثران وفي أثره .

وهذا ما يرى واضحا في كل شيء في ذلك العصر . تراه في الحقد على الخصم ، كما تراه في الحب ،
وتراه في طلب العلم ، وتراه في الحرب . تراه في إغراق في المدح اليوم ، وفي إغراق في ذم ممدوح
الأمس . وتراه في تلك القسوة العنيفة في معاملة الأعداء . وتراه في الصلب على الأخشاب ، والتمثيل
بالميت . وتراه في إحراق المدن وذبح أهلها ، وخفة هذه كلها على النفس ، والتلذذ الغريب بمآها ،
وعدم تحرك أي شعور من رحمة .

كانت الدنيا يومئذ تعج بالحياة ، وتقدر فيها النفس الحلو والمتر قدرا مضاعفا ، ولكن ليس فيها
شعور من رحمة ، ولا معنى إنسانى إلا في نفوس أولئك الذين باعدوا بين أنفسهم وبين العراك ،
وقليل ما هم .

كان هذا العصر داميا . ويكفى أن تقرأ كتابا من كتب التاريخ لترى المعارك لا تكاد تقف ،
وكان هذا العصر عالما ، ونظرة في كتاب كتاريخ بغداد تلقى في الروع أن هذه الأمة عن بكرة أبيها
كانت تطلب العلم ، وتهالك في طلبه . وكان هذا العصر غارقا إلى الأذقان في تحقيق اللذة ، جسمية
وعقلية ، يطلبها في غير هوادة ، ويكب عليها في آستسلام ونهم حتى فلسفت اللذة الجسدية ،
وتعبد بها جماعة كالخرمية .

ولا تكاد تلوح بادرة من حس في نفس أحدهم حتى يندفع وراءها ، في غير تنبه إلى مساوها حتى ليتضارب مع نفسه .

أما حطام هذه المعركة ، ومن خرجوا منها بخدلات وخيبة ، فمنهم الزاهدون واليأسون ، كأبي العتاهية .

(هـ) عصر مصطبغ بالدم وشعر مثله : وأبو تمام ثمرة هذا العصر بخيره وشهره . فشعر أبي تمام مصطبغ بالدم كما كان عصره مصطبغا بالدم ، ولا يكاد يثير شاعريته شيء كما تثيرها الحروب والدماء . وأجمل شعره وأعرقه في الشاعرية ، هو ذلك الذي يصف فيه خرابا . أو تحريقا . وهو حين يغرق في ذلك لا يكاد يمس قلبه معنى إنساني .

(١) وإن في شعره في وصف عمورية لمثلا واضحا :

لِلنَّارِ يَوْمًا ذَيْلَ الصَّخْرِ وَالْحَشَبِ	لَقَدْ تَرَكْتَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِهَا
يَشُلُّهُ وَسْطُهَا صَبْحٌ مِنَ اللَّهَبِ	غَادَرَتْ فِيهَا بِهِيمَ اللَّيْلِ وَهُوَ ضَحَى
عَنْ لَوْنِهَا أَوْ كَأَنَّ الشَّمْسَ لَمْ تَغِبْ	حَتَّى كَأَنَّ جَلَايِبَ الدُّجَى رَغِبَتْ
وِظْلَمَةً مِنْ دَخَانٍ فِي ضَحَى شَيْبِ	ضَوْءٍ مِنَ النَّارِ وَالظُّلُمَاءُ عَاكِفَةٌ
وَالشَّمْسُ وَاجِبَةٌ مِنْ ذَا وَلَمْ تَجِبْ	فَالشَّمْسُ طَالِعَةٌ مِنْ ذَا وَقَدْ أَفْلَتْ

ولا أظن شاعرا يهيم له في وصف هذا الحريق أكثر مما هي لأبي تمام . ولو وقف عند هذا لقلنا شاعر يصف فلا عليه . ولكنه لا يقف عند الوصف ، بل هو يهلل لهذه النار ، ويهتف لهذا الخراب ، بروح حاقد ، الإنسان معه أبعد ما يكون عن إنسانيته :

غِيلَانُ أَهْبَى رَبِّي مِنْ رَبْعِهَا الْخَرْبِ	مَا رُبِعُ مَيَّةَ مَعْمُورًا يُطِيفُ بِهِ
أَشْهَى إِلَى نَاطِرِي مِنْ خَدَّهَا التَّرِبِ	وَلَا الْخُدُودُ وَإِنْ أَدْمِينَ مِنْ نَجْلِ
عَنْ كُلِّ حَسَنِ بَدَا أَوْ مَنْظَرٍ عَجِبِ	سَمَاجَةٌ غَنِيَتْ مِنَ الْعَيُونِ بِهَا
جَاءَتْ بِشَاشَتِهِ مِنْ سُوءٍ مُنْقَلَبِ	وَحُسْنُ مُنْقَلَبٍ تَبَدُّو عَوَاقِبُهُ

وأبو تمام في هذا الحس النفسى بجمال هذا المنظر الوحشي ، مخلص يعبر عنه تعبيرا يهزك ، بل هو يرضيك أيضا ، وتأخذك منه روعة الصورة . ولأبيات القصيدة جميعها ، ذلك الجمال الذي يحمل النفس على إعجاب بالشر ، وقبول لذلك الحقد الشرير الذي يملؤها ، واستساغة لمظهر من مظاهر الوحشية تأباه بقية من الخير في الإنسان ، حين يخلص إلى نفسه ، وينفك عنه إसार ذلك الجمال

الشعري للقصيدة شيئا . فإذا أردت لهذا علته عند أبي تمام ، وجدتها في حماية الذات . وهي التي تستشفها وتندرج إليها من وراء قوله :

وحسنٌ مُنْقَلَبٌ تبدو عواقبُهُ جاءت بشأسته من سوءٍ مُنْقَلَبٍ

وهي أكثر وضوحا في قوله :

إِنَّ الْجَسَامِينَ مِنْ بَيْضٍ وَمِنْ سُمْرٍ دَلُّوا الْحَيَاتِينَ مِنْ مَاءٍ وَمِنْ عُسْبٍ



(٢) الإنسان مولع بالحياة يتعشقها ويعبدها، ويتحسس مظاهرها حيث هي، ودلالاتها حيث تكون . فيراها جمالا، ويراه خيرا . فهو يرى الورد الوادعة بين أشواكها الرادعة ، فيحس جمالا وشوقا، وهو يطلبها حيث هي ، رجلا كان أو طفلا، وما جذبه إليها إلا تلك الألوان التي تمثل الحياة بقوتها، وبرزها في صفحة الوجود . وهو يحب تلك الطراوة منها، لأنها تشعره بحاجتها إلى حمايته، وتظهره بمظهر القادر القاهر الحامي .

وهو يرى الأجمة المشتبكة، والطود الراسخ، والبحر يهدر، فتروقه، ويحس وهو في الروع جمالا لاحد له . ذلك لا شيء إلا لأنه رأى صورة من صورة الحياة والقوة، تضعف إلى جانبها سطوته، ويتبين إزاءها خورّه ، فهو يرتاع لضعفه ، ويقدّسها لجبروتها ، ويحب منها هذه الحياة العارمة ، والقوة الصارمة، لأنه يحب الحياة، وهو مفطور على هذا الحب .

وهو شفق حين يرى قويا يتهدد حياته ، ويلحقه الرعب ، ويدفعه حبه حياته إلى شيء من نسيان إجلال قوة غيره . فإذا أتيحت له الغلبة كان جبارا لا يعرف الرحمة . ذلك لأن وجوده كان في كفة القدر، وهو أبعد من أن يتعشق ذلك المعنى العام للحياة، دفاعا عن حياته الخاصة . فهو فرح طروب، وهو فاس حاقد ، يبلغ حد الوحشية في إشباع شهوته وإرواء غلّه . وهذا الشعور الآخذ بنفسه، يتحكم عنده في تصوير الجمال، وفي إخراج مثله العليا، وفي تكييف مفهوم الخير .

وهذا هو العامل العظيم الذي كان يعمل في حياة أبي تمام بوصفه فردا من أمة بينت قبل ما بين أجناسها . وهو أيضا العامل القريب الذي كان يعمل في نفسه، يوم كانت هذه الأمة تدفع عن أطرافها عدوا قويا يريد أن يلتهمها . فقد حضر أبو تمام هذه الموقعة . كما يقول صاحب الفخري مع المعتصم .



(٣) قصة الأفيشين تحرك الدموع ، وتلين الصخر . ولا أعرف كيف لم تحرك شاعرية أبي تمام إلا بما حركتها به ، من ذلك الحقد الذي يعافه الطبع السليم . وإن في مجموع الصورة النفسية التي يتركها لنا التاريخ عن الأفيشين ، روحا طيبا ، ودماثة خلق ، إلى جانبها شيء من الطمع كان سبب نكال صاحبه . والقصة كلها تحرك شعورا من الرحمة ، جديرا بأن نتلقفه نفس شاعر فتشمر به ثمرة تبقى على الأيام خالدة : فيها تصوير للضعف الإنساني ، الذي لا ينقمة الإنسان على صاحبه ، لأنه مقرون ببعض الوقار ، مصحوب بقدس من العظمة والنصر ، ولأن إجماع صاحبه يلابسه كثير من الشك ، ويخفف من أثره ريبة ماثلة .

ولكم كان أولى بأبي تمام أن يصور لنا هذا جميعا في قصائده فيه ، وأن يخرج لنا منه بإنسان ، إلا يكن جديرا بالحمد ، فليس قبيحا بالحقد المرير . ولكم كان خيرا له لو خلط فيه الدمعة بالنقمة ، فتخرج قصيدته متلائمة مع الصورة التاريخية .

وإن الأفيشين لأخف عندي جرما من ما كبت شكسبير ، مع ما أسبغ شاكسبير على بطله من ظلال الرحمة ، وتخفيف الحرم . فعذر هذا عند شكسبير ، الضعف الإنساني ، وعذر الأفيشين عند التاريخ ما بينت فوق الضعف من أسباب البطولة ، وأخلاق تكبرها النفس . وما أشبه القصتين : ولكن أبا تمام كان أبن ذلك العصر الدامي ، المندرج فيه ، المأخوذ بما لا يؤخذ به البعيد عنه . والمقارنة بين ما كتب أبو تمام في هذا ، وبين ما كتبه ابن الأثير المؤرخ ، تعود بالخسار على الشاعر . قال أبو تمام ، وقد كان مدح الأفيشين قبل ذلك :

جالتُ نَحِيذَرَجَوْلَةُ المِقْدَارِ	فأحاله الطغيان دارَ بَوَارِ
كم نعمة لله كانت عنده	فكانها في غربة وإسار
كسيتُ سبائبَ لؤمه فتضاءلت	كتضاؤل الحسناء في الأطمار
موتورة طلب الإله بشارها	وكفى ربّ الشار طالب نار
صادي أمير المؤمنين يزبرج	في طيه حمة الشجاع الضاري
مكرا بني ركنيه ، إلا أنه	وطد الأساس على شفير هار
حتى إذا ما الله شق غباره	عن مستكن الكفر والإصرار
ونحا لهذا الدين شفرته أنثني	والحق منه فاني الأظفار

ثم يمضى فيها الى أن يصل إلى وصف صلبه وإحراق جسده، فتتفجر شاعريته :

ما زال سر الكفر بين ضلوعه / حتى أصطلى سر الزناد الوارى
نارا يساور جسمه من حرها / لهب كما عصفت شق إزار
طار لها شعل يهدم لفحها / أركانها هدمًا بغير غبار
فصلان منه كل مجمع مفصل / وفعلت فاقرة بكل فقار
لله من نار رأيت ضياءها / ضاق الفضاء به على النظار
مشوبة رفعت لأعظم مشرك / ما كان يرفع ضوؤها للشارى
صلى لها حيا وكان وقودها / ميتا ويدخلها مع الفجار
وكذلك أهل النار فى الدنيا هم / يوم القيامة جل أهل النار
يا مشهدا صدرت بفرحته إلى / أمصارها القصى بنو الأمصار
رمقوا أعالي جذعه فكأنما / وجدوا الهلال عشيّة الإفطار
وآستنشقوا منه قتارا نشره / من عنبر ذفير ومسك دارى
وتحدثوا عن هلكته كحديث من / بالبدو عن متابع الأمطار
وتباشروا كتبأشر الحرمين فى / حخم السنين بأرخص الأسعار
كانت شماته شامت عارا فقد / صارت به تنضو ثياب العار

ما أروع هذا الشعر وما أجمله ! إنه ليدفع الإنسان الى حبه على الرغم من قسوته وما فيه من عار . وتنبه ذهن أبى تمام ذلك التنبه ، البادى فى بيته الأخير ، الى ذلك العار الناشئ عن شماته بميت ينبئ عن قدرة ، وعن حب للتملص من ثقل قد يلزمه له التاريخ . وظنى أنه كان يفضل التخلص منه ، لو لم يكن يدفعه إليه ذلك الشعور الباهظ ، الذى كان يحس به كل فرد يومئذ من هذه الأمة ، من جراء تلك المعركة الناشبة بين الأجناس .



أما فن أبى الأثير المؤرخ ، فى هذه المأساة ، فخير من فن الشاعر . قال أبى الأثير عن الأفشين وهو سجين : " وكان (الأفشين) قد أنفذ إلى المعتصم يطلب إليه من يشق به ، وأنفذ إليه (المعتصم) حمدون بن إسماعيل . فأخذ (الأفشين) يعتذر عما قيل فيه ، وقال : قل لأمر المؤمنين : إنما مثلى ومثلك كرجل ربى عجلا حتى أسمنه وكبر ، وكان له أصحاب يشتهون أن يأكلوا من لحمه ، فعرضوا بذبحه فلم يحبهم . فانفقوا جميعا على أن قالوا : لم تربى هذا الأسد ، فإنه إذا كبر رجع إلى جنسه ؟

فقال لهم : إنما هو عجل . فقالوا : هذا أسد ، فسل من شئت . وتقدموا إلى جميع من يعرفونه ، وقالوا لهم : إن سألكم عن العجل فقولوا له : إنه أسد . وكلما سأل إنسانا ، قال : هو سبع ... فأمر بالعجل فذبح ... وإني أنا ذلك العجل . كيف أقدر أن أكون أسدا . الله الله في أمري . قال حمدون : فقممت عنه ، وبين يديه طبق فيه فاكهة ، قد أرسل به المعتصم مع ابنه الواثق ، وهو على حاله ، فلم ألبث إلا قليلا حتى قيل إنه يموت ، أوقد مات . فحمل إلى دار إيتاخ فمات بها ، وأخرجوه وصلبوه على باب العامة ، ليراه الناس . ثم ألقى وأحرق بالنار .

يذكر هذا ابن الأثير بعد ذكر الشكوك التي حامت حول تهمة ، ويعقب عليه بأشياء تدفع شيئا من تهمة الأفسشين . والقصة ، كما نقلها ابن الأثير ، يجري فيها روح إنساني مليء بالرحمة ، وتنطبع بطابع فني يجعل قصيدة أبي تمام إزاءها ألعوبة من الألعاب الفظة ، حين يقصد إلى الحكم على فنه فيها . وتأمل تلك الإشارة إلى طبق الفاكهة يحضره الواثق إليه بأمر المعتصم ، وذكر الموت بعدها مباشرة ثم الصلب والإحراق . يقابل ذلك عند أبي تمام قوله في قصيدته :

يَا قَائِضًا يَدَ آلِ كَاوُسَ عَادِلًا	أَتَبِعُ يَمِينًا مِنْهُمْ بَيْسَارِ
أَلْحِقْ جَبِينًا دَامِيًا رَمَلَتْهُ	بَتَقًا وَصَدْرًا خَائِنًا بِصَدَارِ
وَأَعْلَمْ بِأَنَّكَ إِنَّمَا تُلْقِيهِمْ	فِي بَعْضِ مَا حَفَرُوا مِنَ الْآبَارِ
لَوْلَمْ يَكِدْ لِلْسَامِرِيِّ قَبِيلُهُ	مَا خَارَ عَجْلُهُمْ بِغَيْرِ خَوَارِ
وَتَمُودُ لَوْلَمْ يُذْهِبُوا فِي رَبِّهِمْ	لَمْ تَرُمْ نَاقَتَهُ بِسَهْمِ قُدَارِ

هذه الحرارة في طلب التنكيل بأعداء الخلافة قد تؤخذ على أنها تصوير لشعور الخليفة من أعدائه . وهو ما لا يقتره على الأقل ظاهر الأمر من التاريخ ، كما رأينا في إرسال الواثق بطبق الفاكهة إلى الأفسشين في سجنه .

في تصوير ابن الأثير للأحداث غاية ما يطمح إليه شاعر كأبي تمام . ولكن أبا تمام لم ير إلا الجريمة ، ولم يصور إلا النار تلتهم جسد هذا البطل الذي أراح الخلافة من شر ظل مصلتنا عليها اثنين وعشرين عاما .

ذلك الروح الوحشي الذي أملى على أبي تمام شعره ، هو ابن ذلك الصراع الرهيب الذي كان مشبوبا بين الأجناس يومئذ في الدولة الإسلامية . وهو الذي كان يكون أخلاق الناس ، ولا سيما الشعراء الذين يقولون بانفعالات تفوق آنفعالات غيرهم من الناس .

٢ - شعر يقارب المادية

(١) اقتران مظاهر الجمال الحسى بمظاهر القبح النفسى : وهذا الذى باعد بين فن أبى تمام وبين المثالية، قرب بينه وبين الجسدية. فإن هذا العصر، كما قلت، كان عصر إغراق فى كل شىء، وحس مضاعف بالحياة. فهو إن عدم هذا الجمال النفسى، والأنسجام الخلقى، لم يعدم جمالا من نوع آخر، يأتى من قبيل الرؤية، والسمع، والشم، والحواس جميعا. إن أجمل ما صور به مصور عصرنا من العصور قول مستشرق فى وصف حياة الناس فى هذا العصر: "كانت الحياة قصيرة ولكنها حلوة".

فشعور الناس إذ ذاك بمعزة الحياة وغلوها، كان دافعا على التهاك عليها، وانتهاج لذائذها وجمالها. وإنك لترى أثر هذا فى شعر أبى تمام فى ذلك التصوير المنتشى لمظهر من مظاهر الرهبة قد لا تستسيغه العين، ولا يرضاه الحس، مقتربنا بمظهر من مظاهر الجمال التى تمس القلب مسا، وتحمل إليك مع الجفوة القاسية أريجية صافية، تخفف من وقعها فى النفس. وإنك لتستطيع أن تجد هذا واضحا فى هذه الأبيات من قصيدته البائية التى ذكرت منها شيئا. يقول :

ماربُع مِئَةٍ مَعْمُورًا يُطِيفُ بِهِ
عَيَّانُ أَبِي رُبَى مِنْ رَبْعِهَا الْخَرِيبُ

ولا الحدود وإن أديمين من نجيل
أشهى إلى ناظرى من خدها التريب

ويقول :

لَبَّيْتُ صَوْتًا زَبَطْرِيًّا هَرَقَتْ لَهُ
كَأْسَ الْكُرَى وَرُضَابَ الْخُرْدِ الْعُرْبُ

عداك حر الثغور المستضامة عن
عن برد الثغور وعن سلسا لها الحصب

ويقول :

والحربُ قائِمةٌ فى مَازِقِ لَحِبٍ
تَجشُّو الرِّجَالُ بِهِ صُغْرًا عَلَى الرِّكَبِ

كم نيل تحت سناها من سنا قمر
وتحت عارضها من عارض شنب

كم كان فى قطع أسباب الرقاب بها
إلى المخذرة العذراء من سبب

كم أحرزت قُضْبُ الهِنْدَى مُضِلَّةً
تَهْتَرُ مِنْ قُضْبٍ تَهْتَرُ فى كُشْبٍ

بيض إذا نُضِيتْ مِنْ حُجْبِهَا رَجَعَتْ
أحرق بالبيض أبدانا من الحجب

فانظر كيف قرن كل صورة من صور الخراب والحرب والدمار ، بصورة من صور الجمال ؟ وهو فيها جميعا يستعين بوصف المرأة وجمالها . فيذكر في الأول بحب مينة وغيلان ، ويفجر بقصتهما ذلك النبع من الشجن الذي لا ينتهي ما دام الإنسان إنسانا ، ويشير إلى الثغر الشيب ، والمخدرة العذراء ، والقضب المهترئة في الكُثْب ، يستعين بها جميعا على تحقيق الجمال لهذا الوصف الرهيب للنار المندلعة ، والحرب الوارية . وفي هذه الأبيات جميعا فوق ما بينت من اقتران القبح النفسي بالجمال الحسي ، من البديع ، والجناس ، والطباق ، ومراعاة اللفظ ، محاولة أخرى من محاولات تحقيق الجمال بأساليب لفظية ، أقرب إلى تحقيق الجمال الجسدي منها إلى تحقيق جمال الروح . ترضى الأذن والعين ، وأثرها في القلب ليس مباشرا ، ولكنه أثر من أهتزاز الحواس .

ذاك معنى من معاني إلهام الحياة ، ومحاولة التعبير عنها بقدر الاستطاعة ، في حدود ضيقة من وحدة البيت ، ووحدة القافية ، وأختراع المعاني .

وهناك معنى آخر يتصل بهذا ، ويؤلف ناحية هامة من نواحي فن أبي تمام . وذلك هو حس جمال الطبيعة .

(ب) حس أبي تمام بجمال الطبيعة : يقول أبو تمام في وصف الربيع :

رَقَّتْ حَوَاشِي الدَّهْرِ فَهِيَ تَمَرُّمُ	وَعَدَا الثَّرَى فِي حَلِيهِ يَتَكَسَّرُ
نَزَلْتُ مَقْدَمَةَ الْمَصِيفِ حَمِيدَةً	وَيَدُ الشِّتَاءِ جَدِيدَةً لَا تَكْفُرُ
لَوْلَا الَّذِي غَرَسَ الشِّتَاءُ بِكَفِّهِ	قَاسِيَ الْمَصِيفِ هَشَأْمًا لَا تُثْمِرُ
مَطَرٌ يَذُوبُ الصَّحْوُ مِنْهُ وَبَعْدَهُ	صَحْوٌ يَكَادُ مِنَ الْغَضَارَةِ يَقْطُرُ
غَيْثَانِ : فَلَا نَوَاءُ غَيْثٍ ظَاهِرٍ	لَكَ وَجْهُهُ وَالصَّحْوُ غَيْثٌ مُضْمَرُ
وَنَدَى إِذَا آدَهْنَتْ بِهِ لِمَسِّ الثَّرَى	خَلَّتِ السَّحَابُ أَتَاهُ وَهُوَ مُغْدِرُ

أَوَّلًا تَرَى الْأَشْيَاءَ إِنْ هِيَ غَيَّرَتْ	سَمَّجَتْ وَحُسْنُ الْأَرْضِ حِينَ تَغَيَّرَ
يَا صَاحِبِي تَقْصِّصْ لِي نَظْرِيكُمَا	تَرِيًّا وَجْهَ الرِّوْضِ كَيْفَ تَصُورُ
تَرِيًّا نَهَارًا مُشْمَسًا قَدْ زَانَهُ	زَهْرُ الرُّبَا فَكَأَنَّمَا هُوَ مَقْمَرُ
دُنْيَا مَعَاشٍ لِلْوَرَى حَتَّى إِذَا	حَلَّ الرَّبِيعُ فَأَنَّمَا هِيَ مَنَظَرُ
أَضْحَتْ تَصَوُّغُ بَطُونِهَا لظُهُورِهَا	نُورًا تَكَادُ لَهُ الْقُلُوبُ تُنَوِّرُ

مِنْ كُلِّ زَاهِرَةٍ تَرَقُّقُ بِالْأَنْدَى فَكَأَنَّهَا عَيْنٌ إِلَيْكَ تُحَدَّرُ
 حَتَّى غَدَتْ وَهْدَاتُهَا وَنِجَادُهَا فَنَتَيْنِ فِي حُلَلِ الرَّبِيعِ تَبَخَّرُ
 مُصْفَرَّةٌ مَحْمَرَةٌ فَكَأَنَّهَا عَصَبُ تَيْمَنْ تَارَةً وَمُضْضَرُ
 مِنْ فَاقِعِ غَضِّ النَّبَاتِ كَأَنَّهُ دُرٌّ تُشَقِّقُ قَبْلُ ثُمَّ تُزَعْفَرُ
 أَوْ سَاطِعٍ فِي حُمْرَةٍ فَكَأَنَّهَا يَدْنُو إِلَيْهِ مِنَ الْهَوَاءِ مُعْضَفَرُ
 صَبَغُ الَّذِي لَوْلَا بَدَائِعُ لَطْفِهِ مَا عَادَ أَصْفَرُ بَعْدَ إِذْ هُوَ أَخْضَرُ

هذا الحسن الرائع بجمال الطبيعة، المستقر في أعماق نفسه، وتلك الريشة القديرة البارعة في التصوير، وذلك الإدراك للألوان والأضواء؛ كل أولئك كَوْنَتْ صُورَةً للربيع لم تحظ العربية بمثلها قبل أبي تمام أو بعده على ما أعرف. أبو تمام يوم قال هذا، كان متأثراً بذلك الحسن المضاعف للحياة وتقديرها. وكان إليه، متأثراً بفطرة تميزه عن غيره من الشعراء في توجيهه هذا الاتجاه نحو الطبيعة. وهنا يستطيع الإنسان أن يلمس فن أبي تمام السامي، البعيد عن التأثير بتلك المؤثرات النفسية الخاصة، التي تحدد عنده معنى الخير والشر، وتكيف الخلق.

وأبو تمام شديد الحسن بجمال الطبيعة؛ حساً يخالطه حتى لا يكاد يتركه في قصيدة. فهو لا يكاد يلمح فرصة يمكن أن يزج فيها بالطبيعة حتى يفعل. فإذا وصف جواداً قال:

يَدٌ يَسْتَدِلُّ الدَّهْرُ مِنْ نَفْحَاتِهَا وَيَخْضَرُ مِنْ مَعْرِفِهَا الْأَفْقُ الْوَرْدُ
 وإذا أراد أن يصف رخاءه قال:

حَتَّى إِذَا رَوَّضِي تَغْنَّى بِهِ ذُبَابُهُ فِي مُوْنِقِي زَاهِرِ
 وإذا تحدَّث عن جمال وقع العطايا قال:
 وَأَحْسَنُ مِنْ نَوْرِ تَفْتَحُهُ الصَّبَا بَيَاضُ الْعَطَايَا فِي سَوَادِ الْمَطَالِبِ
 وإذا دعا لدار حبيبته قال:

لَا مَرَّ يَوْمٌ وَاحِدٌ إِلَّا وَفِي أَحْشَاءِهِ لِمَحَلَّتِكَ غَمَامُ
 حَتَّى تُعَمِّمَ صُلْعُ هَامَاتِ الرَّبَا مِنْ نَوْرِهِ وَتَازَرُ الْأَهْضَامُ
 وهكذا يمازج جمال الطبيعة نفسه فلا يكاد يخلص منها.

وحسن أبي تمام بالطبيعة لا يقف عند الوصف، ولكننا يتعداه إلى أثر جمالها في النفس فيقول:

* نَوْرٌ تَكَادُ لَهُ الْقُلُوبُ تَنُورُ *

وشعره فيها ليس ذلك الشعر القائم على الاندفاع ، وإرسال النفس على سجيته ، وإنما هو وصف المتأمل ، الذي يسلط عقله على حسه ليتبينه ، وينظر فيه . فيقول بعد فكرة :

لولا الذي غرس الشتاء بكفه قاسى المصيف هسأما لا تُشمر

ويقول :

غيثان : فالأنواء غيث ظاهر لك وجهه والصحو غيث مضمّر

ويقول :

أولا ترى الأشياء إن هي غيّرت سمجت وحسن الأرض حين تغير

٣ - أثر العنصرية وثقافة العصر

وأثر آخر من آثار العصر ، هو إصرار أبي تمام على استفتاح كثير من قصائده ببكاء ديار الحبيبة ، ومخاطبة الطلول ، برغم أنه زعيم المحدثين في الشعر العربي . وكأنما كان يتحدى بذلك مذهب أبي نواس ، تحديا دافعه العصبية للعرب على العجم .

وكذلك وصف الرحلة إلى ممدوحه ، وذكر الصحراء والآل والظلام ، وإغراقه في ذلك أحيانا إغراقا يقارب بين شعره والشعر الجاهلي .

وأما تلك الصلة بين فنه وعصره ، العالم ، المثقف ، المتفلسف ، فتمثل في طلبه المعنى الغريب طلبا مبالغا فيه ، واختياره اللفظ ، وإشارته الى بعض المذاهب الفلسفية ، كالجهمية ، والجعفرية ، واستخدام بعض ألفاظ الفلسفة ، كالجوهر والعرض ، وضربه الأمثال بأحداث في التاريخ ، والرجوع إلى القرآن في كثير من شعره ، والتأثر بالبديع اليوناني ، وفي محاولاته في أغلب شعره إرضاء العقل مع القلب .

٤ - أبو تمام مؤرخ عصره ومصوره

(١) ولم يقع حدث هام في تاريخ الأمة الإسلامية في حياة أبي تمام ، إلا سجله ، وتغنى به في شعره : فإذا هوجمت ثغور المسلمين قال ، وإذا غزا المأمون الروم قال في ذلك شعرا ، وإذا أنقسم الناس على أنفسهم قال ، وإذا خرج خارج في الدولة قال ، وإذا فتح المعتصم عمورية قال ، وإذا مات من العرب عظيم قال ، وإذا أخذ عدو من أعداء الدولة قال ، وهكذا حتى إن معظم شعره يتصل بالتاريخ اتصالا وثيقا ، ويبدى لنا صفحة منه في صورة ناصعة ليست في أسلوبها تشبه أسلوب المؤرخين ، ولكنها تمتاز بالبسط وطول النفس ، وتبين الانفعالات النفسية التي كانت

تعمل في نفوس قومه يومئذ، بل إن شعره يتناول أحيانا تفاصيل لا يسها التاريخ كما في وصف الخلاف الناشب بين أحياء من تغلب، يفصله في قصائده في مالك بن طوق.

نخدم أبو تمام من هذه الناحية التاريخ، حتى ليكمل شعره كتب التاريخ، مع أن التاريخ لم يعن بأبي تمام العناية اللائقة بسيد شعراء العربية.

والحق إن حياة أبي تمام قد أمتزجت بالتاريخ العام، واختلطت به طوعا وكرها، حتى كونت منه جزءا. وكما كيف التاريخ بموجاته تلك المبادئ الأولى النفسية والخلقية التي آنشعب منها فن أبي تمام وقوانينه الخلقية، كذلك كَوْن ناحية موضوعية هامة في شعره ذلك إن أبا تمام يلخص في حياة الأمة العربية عهدا لا يلخصه غيره. فهو ظاهرة من ظواهر حياتها، أشبه شيء بالعضو من الجسم، إذا انفصل عنه نقص شيئا.

(ب) وما زالت الأمم تعالج صدورها بالألم والأمل، حتى تنجب شاعرا من صميمها يعبر عن بنات نفسها. وإن في شعر أبي تمام صورة لنفسية العرب يومئذ، بما فيها من اضطراب لم يصل بها إلى حد القلق المحطم اليأس. هو صورة حية لهم بما فيهم يومئذ من طموح، وعمل للاستفادة مما ورثوا عن الأمم التي غلبوها، هو صورة للذكاء العربي بعد أن مد يده إلى آثار السلف، هو صورة ماثلة لذلك الاستشراف الذي كانت تستشرفه العرب إلى قوة كادت تغلت من أيديهم. فهو ذاهب هنا، وهو ذاهب هناك، يجد العربي القوى، ويتغنى بتلك البطولة التي تأنس إليها النفس العربية، وتمثل فيها صورة ماضيهم المحبوب، العزيز عليهم بمثله وأساطيره، في عهد يكاد ينفلت فيه زمام الأمر من أيديهم. هو صورة للعرب إذ ذاك، وهم لا تزال فيهم بقية من إيمان بفضل قوة قد ترجع إليهم النفوذ والسلطان.

(ج) أبو تمام حلقة في تاريخ الأمة العربية لو أسقطتها لأحسست الثغرة الهائلة في تاريخها بين حلفتين. إننا نستطيع أن نستغنى عن أبي نواس، فننفي شعره من العربية، فلا نكاد نشعر إلا أننا فقدنا عرضا من الأعراض، ولونا من ألوان العهد. ولكننا لا نشعر أننا فقدنا جوهرها.

أبو تمام خطوة يجب أن تسبق المتنبي وتلحق مسلمانا، والمتنبي خطوة يجب أن تسبق أبا العلاء، وأبو العلاء نهاية اليأس والبؤس المفلسف، والجهد المحطوم لشعب تعب، وحارب وانتصر، حتى إذا خيل إليه أن أوان جنى الثمار قد حل، لم يجد بين يديه شيئا.

لذلك أصغى العرب إلى أبي تمام، وأنصتوا لأغنيته، ووجدوا فيه صورة نفوسهم يومئذ فغلب على أيامه، وكسف ما يزيد على خمسمائة شاعرا كما يقول ابن رشيق. أما البحترى فكان أشبه بالظلل للصورة، يكملها، ويعبر عن وجودها، ولكنه لا يغني عنها. إن الأمم تتنفس في بعض الأفراد يقول الصولي في كتابه أخبار أبي تمام: "حدثني أحمد بن يزيد المهلبى قال: سألت أبي عن أبي تمام، وقد سمعني أبي وأنا ألاحى إنسانا في أبي تمام، فقال لى: ما كان أحد من الشعراء يقدر أن يأخذ درهما واحدا في أيام أبي تمام. فلما مات أبو تمام أقسم الشعراء ما كان يأخذه".

(١) أخبار أبي تمام للصولي (ورقة ٤٨).

البَابُ السَّادِسُ

الخصائص الفنية لشعر أبي تمام

تحدثت في تاريخ حياة أبي تمام عن حياة شعره، لما كنت أرى بينهما من تلازم واشتباك ، لا يمكن معه فهم أحدهما إلا مقتربا بالآخر . وجهدت خلال ذلك أن أنبه إلى الخصائص الفنية لهذا الشعر ، وإلى أدواره التي مرت فيها . ولكن الكلام هناك مفرق ، تصرف تفاصيله النظر إلى الجزئيات ، أكثر مما تصرفه إلى الكليات . ولذلك أرى لزاما هنا أن أستجمع تلك النظرات المتفرقة ، وأن أتجه في الحديث على هذه الخصائص ، إلى ما يجري عند أصول تلك التفاصيل التي تحدثت عنها .

١ - طابع عام لفن أبي تمام

(أ) تزاوج حسه وعقله جميعا ومظهر ذلك : فن أبي تمام فن يجري فيه الفكر والشعور جنبا إلى جنب ، لا يفترقان ، ويمكن أن يلخص في كلمات قصار : تلك هي أنه مظهر حسه للجمال وهو حس نقاذ إلى سمات الجمال ، في كل ما كان يتصل بأبي تمام في وجوده ، مما تقع عليه الحواس ، ومما يدركه القلب والعقل جميعا .

أبو تمام شاعر يرى الأشياء والأحداث بأرق الحواس وأعرقها في الشاعرية ، فإذا فرغ عنده عمل الحاسة بدأ عمل العقل ، فيأخذ في تحليل مشاعره ، والضرب في أنحائها ، حتى إذا وجد المعاني التي يبغيها ، فنظمها ، ورتبها ، أنقلب إلى إبرازها في ألفاظ يرصها في تودة ، وينمقها في أطمئنان ، فيلائم بين أجراسها وألوانها ، ويقابل بين الفكرتين ، ويراعى اللفظ وقسيمه . وهو يسير فيها بفكرة واضحة ، يكمل البيت ما سبق إليه أخوه ، فما يكاد يفرغ من القصيدة حتى يكون قد أخرج للناس موضوعا واحدا متماسكا ، تجرى فيه فكرة واحدة .

نَسْرِيسِيرِيهِ شَعْرِيَهْدَبَه فِكْرِيَجُول مَجَالِ الرُّوحِ فِي الْجَسَدِ

فالقصيدية بفضل الفكرة الجارية فيها ذات وحدة وتماسك ، يدفعان به إلى أن يشبهها بالصخرة في تماسكها ، وتلازم معانيها ، فيقول في غير غفلة عن الإشارة إلى ناحية الجمال في فنه :

وَكأنَّمَا نَظَمُ الْقَوَافِي لَوَلُوْ أُنْبِئُهُ فِي جَنَدِلٍ مَنْضُودٍ

فتسمعه يقول لسليمان بن وهب ، يشفع في سليمان بن رزين ، ابن أخى دِعبل الشاعر :

ذُو الْوُدِّ مِنِّي وَذُو الْقُرْبَى بِمَنْزِلَةٍ
 لَا تُخْلِقُنْ خُلُقِي فِيهِمْ وَقَدْ سَطَعَتْ
 فِي دَهْرِي الْأَوَّلِ الْمَذْمُومِ أَعْرِفُهُمْ
 لَا قِيَّ إِذْ نَغَرْتُهُمْ أَكْدَى تَرَى وَجَرْتُ
 عِصَابَةً جَاوَرَتْ آدَابُهُمْ أَدْبَى
 أَرْوَاحُنَا فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ وَغَدَتْ
 وَرُبَّ نَائِي الْمَغَانِي رَوْحُهُ أَبَدَا
 أَفِي أَجْلِ لِي فَارِدٍ لَا قَسِيمَ لَهُ
 تُرَدُّ عَنْ بَحْرِكَ الْمُرُودِ رَاجِعَةً
 مَسْلُطٌ حَيْثُ لَا سُلْطَانَ لِي ، وَيَدِي
 كَالنَّارِ ، بَارِدَةٌ فِي عُوْدِهَا ، وَلَهَا
 مَا أُنْسَ لَا أُنْسَ قَوْلَا قَالَهُ رَجُلٌ
 نِيلَ الثَّرْيَا أَوْ الشَّعْرَى فَيَلِسَ فَتِي

فتسمع حديثا جاريا ، يكمل بعضه بعضا ، ويتسلسل تسلسلا منطقيا لا اضطراب فيه ، ولا نبوءة لبعضه عن بعض .

وتسمعه يذكر الحب ، فيقسم أيامه تقسيم الفيلسوف ، ويسرد وجوهه سرد المتأمل ، في أسلوب شعري أخاذ ، فيقول عن محبوب :

وَلَقَدْ أَرَاكَ ، فَهَلْ أَرَاكَ بِغَبْطَةٍ
 أَعْوَامٌ وَصِيلٌ كَانَ يُنْسَى طَوْلُهَا
 ثُمَّ أَنْبَرْتُ أَيَّامَ هَجْرٍ أَرْدَقْتُ
 ثُمَّ أَنْقَضْتُ تِلْكَ السَّنُونَ وَأَهْلُهَا
 أَتَحَدَرْتُ عَبْرَاتُ عَيْنِكَ أَنْ دَعَتْ
 لَا تَشْجِيَنَّ لَهَا فَإِنَّ بَكَاءَهَا
 هَرَبَ الْحَمَامِ فَإِنْ كَسَرَتْ عِيَاةً

وَالْعَيْشُ غَضٌّ وَالزَّمَانُ غَلَامٌ
 ذَكَرْتُ النَّوَى فَكَأَنَّهَا أَيَّامٌ
 نَجَوَى أَسَى فَكَأَنَّهَا أَعْوَامٌ
 فَكَأَنَّهَا وَكَأَنَّهُمْ أَحْلَامٌ
 وَرَقَاءُ حِينَ تَضَعُغُ الْإِظْلَامُ
 ضَحِكَ وَإِنْ بَكَاءُكَ آسْتَفْرَامُ
 مِنْ حَائِنٍ فَلَا نَهْنُ حِمَامُ

فتحدث عن أمه في رؤيته في المستقبل ، حديثاً أظهر فيه خبيثة نفسه ، حتى إذا فرغ منه ، تحدث عن الماضي ، فقسّمه ؛ وأسهب في تصويره ، تصويراً يمس القلوب بشعره ، وأكتمال التعليل ؛ فإذا انتهى من تقسيمه المعلن ، عاد إلى حاضره ، يلوم نفسه على البكاء ، لأن حمامة بكت فذكرته بماضيه ، ثم لا يترك هذا البكاء للحناء حتى يعلق عليه ، تعليق المتأمل في كل مظاهر وجوده ووجود ما حوله :

لا تشجين لها فإن بكاءها صنيحك وإن بكاءك أستغرام
هنّ الحمام فإن كسرت عيافةً من حائنين فإنهن حمام

وهو في هذا التقسيم ، والتبويب ، والتعليل ، والتصوير ، شاعر حق ، يهز شعره النفس . لأنه يختار أرق ما في مظاهر ما يتحدث عنه فيصوره ، وهو لا ينسى مع الفكرة وسلامة الذوق في انتقاء الصورة ، تلك الحلي اللفظية ، والاستعارات الرائقة ، والبديع . فأعوام الوصل تعكها ذكرى النوى أيام قصار وأيام الهجر لما تحوى من أسى أعوام طوال وإن أثر هذا البديع المعجز ليبدو في بيته :

هنّ الحمام فإن كسرت عيافةً من حائنين فإنهن حمام

وأبعد ما فيه منالا هو التنبيه عليه في البيت ، دون أبتذال أو ثقل أو خروج عن معنى الشعر . هذا هو الطابع العام لشعر أبي تمام : حس دقيق رقيق ، ومعنى عميق متغلغل إلى ما وراء الظواهر . فأبو تمام ليس ممن يمد إليه الإنسان يده ، فيجده بسهولة ، ويعثر عليه وهو مغمض العينين ، متى أدرك معاني مفرداته ، ولكنه الشاعر الذي يرغم قارئه على أن يفتح عينيه ، ويوقظ كل عقله ، ليقع منه على ما ينبغي ، أو على بعض ما ينبغي ؛ فإذا هو وجده ، وجد أكثر مما كان يرجو ، وآهتت مشاعره لفكرته ، كما تهتز لشعوره .

وإن شاعرية أبي تمام ليست من تلك الشاعرية الخفيفة ، التي تمض لك من إثارة حس منقطع عما يليه ، يأخذك بجباله الواضح في العين ، أو النابت في القلب وحسب ، ولكنها أيضاً في ذلك الإلحاح على إبداء خفايا النفس ، ونشر ما يمكن أن يمر بها في تجاربها . هي وليدة القلب والعقل معا ، وهي بذت الرياضة والتحكم اللذين يظهران للإنسان صناعة الشعر ، وهي قريبة إلى القلب ، حتى إنها لتلتبس بالطبع . ليست بالتى تتفجر تفجراً ، ويسيل بها اللسان سيلاً ، ولكنها لا تعدم أن تنال من القلب ما يناله وليد الطبع ، ومن العقل ما يرضى به هوى الفكر . وإن لمح أبي تمام لما عسى أن تصوغ به النفس مظاهر الحياة البريئة ، في ذلك البيت الفذ عن الحمامة :

لَا تَشْجِينَ لَهَا فَإِنَّ بَكَاءَهَا ضَحِكٌ وَإِنْ بَكَاءُكَ أَسْتِغْرَامٌ

لما يستطيع الإنسان أن يذكره له في غير قليل من الحب والإعجاب .

كما أن ذلك التلاحق في الأبيات ، والتماسك بين المعاني ، مظهر من مظاهر تطور الشعر

عند أبي تمام ، حتى إن الإنسان ليجد فيها شيئاً يشبه القصة ، ولكنها قصة نفس .

(ب) التسلسل الفكري ووحدة القصيدة : هذا التسلسل الفكري في القصيدة ،

لم يقف أثره عند هذا الحد المعنوي ، في ربط أجزاء القصيدة بعضها ببعض ، بل تعداه إلى أثر

لفظي خرج بوحدة الشعر العربي التقليدية ، وهي البيت ، إلى وحدة أوسع ، هي القصيدة ، فترى

أبا تمام يأتي بالمبتدأ مثلاً في بيت ، وبالخبر بعده بأبيات كثيرة ، لأن التلاحق المنطقي للمعاني

في القصيدة يقتضي ذلك . فيقول :

وَأَنْتِ وَقَدْ مَجَّتْ خِرَاسَانُ دَاءِهَا وَقَدْ نَغَلَتْ أَطْرَافُهَا نَغْلَ الْجُلْدِ

وَأَوْبَاشُهَا خُزِرَتْ إِلَى الْعَرَبِ الْأُولَى لِكَيْمَا يَكُونَ الْحَرَمُ مِنْ خَوْلِ الْعَبْدِ

ثم يمضي في تفصيل هذه الحال في خمسة أبيات أخرى ، حتى إذا فرغ جاء خبر المبتدأ :

ضَمَمْتَ إِلَى حَقْطَانٍ عَدْنَانَ كُلَّهَا وَلَمْ يَجِدُوا إِذْ ذَاكَ مِنْ ذَاكَ مِنْ بُدٍّ

(ج) كثرة المعاني المخترعة عند أبي تمام :

كما أن هذا التفكير الدائم ، والنظر في الأشياء والأحداث والعواطف ، جعل شعر أبي تمام

مسرّحاً لمعانٍ لم توجد في شعر غيره .

ولقد تتبع القدماء — ولهم ما كان لهم من إحاطة بالشعر ، ووقوف عنده بما لا يتنبأ لنا الآن —

معاني الشعراء : ما اخترعوا منها ، وما نقلوا عن غيرهم ، فكان أوفرهم حظاً منها أبو تمام . فيقول

أَبْنُ الْأَثِيرِ : ” وقد قيل : إن أبا تمام أكثر الشعراء المتأخرين ابتداءاً للمعاني . وقد عدت معانيه

المبتدعة ، فوجدت ما يزيد على عشرين معنى ، وأهل هذه الصناعة يكبرون ذلك “ . ثم يقول

” فأما ماورد لأبي تمام .

(١) فمن ذلك قوله :

يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ النَّائِي بِرُؤْيَيْتِهِ وَجُودُهُ لِمُرَاعِي جُودِهِ كَثَبٌ

لَيْسَ الْحِجَابُ بِمَقْصِدٍ عَنْكَ لِي أَمْلَأُ إِنَّ السَّمَاءَ تُرَبِّحِي حِينَ تَحْتَجِجُ

(١) المثل السائر ص ١٩٢ .

(٢) وكذلك قوله :

ولكن دارة القمر استتمت
فدلتنا على مطر قريب

(٣) وكذلك قوله في الهجاء :

وأنت تدير قطب رحي علياً
ترى ظفراً بكل صراع قرن
ولم ير للرحا العلياء قطباً
إذا ما كنت أسفل منه جنباً

(٤) وكذلك قوله :

وإذا أراد الله نشر فضيلة
لولا اشتعال النار فيما جاورت
طويت أتاح لها لسان حسود
ما كان يعرف طيب عرف العود

(٥) وكذلك قوله :

لا تنكروا ضربي له من دونه
فإنه قد ضرب الأقل لنوره
مثلاً شروداً في الندى والباس
مثلاً من المشكاة والنبراس

(٦) وكذلك قوله :

لا تنكرى عطل الكريم من الغنى
فالسيل حرب للكان العالي
(٧) وكذلك قوله في الشيب :شعلة في المفارق استودعني
تستثير الهموم ما آكتن منها
في صميم الفؤاد ثكلاً صمياً
صعداً وهي تستثير الهموما

فالبيت الثاني من المعاني المخترعة، وقد تفقه فيه ، بفعله مسألة من مسائل الدور ، وهذا من اغراب أبي تمام المعروف . وهذا القدر كاف من جملة معاني فانا لم نستقصها هنا .

وفي مكان آخر يذكرك له من المعاني المبتدعة قوله في وصف مصليين :

بگروا وأسروا في بطون ضوامي
لا يبرحون ومن رآهم خالهم
قيدت لهم من مربيط النجار
أبدا على سفر من الأسفار

ثم يقول : وهذا المعنى مما يعثر عليه عند الحوادث المتجددة . والخاطر في مثل هذا المقام ينساق إلى المعنى المخترع عن غير كبير كلفة ، لشاهد الحال الحاضرة . وكذلك قال في هذه القصيدة في صفة من أحرق بالنار :

ما زال سر الكُفْرِ نين ضلوعه حتى أصطلى سر الزناد الواري
 ناراً يُساور جسمه من حرها لهبٌ كما عصفرت شق إزار
 طارت لها شعل يهدم لفحها أركانه هدماً بغير غبار
 فصلن منه كل مجمع مفصل وفعلن فاقرة بكل فقار
 مشبوبة رفعت لأعظم مشرك ما كان يرفع ضوؤها للشاري
 صلي لها حيا وكان وقودها ميتا ويدخلها مع الفجار

هذا ما عدده له ابن الأثير، على أنه بعض المعاني التي أبدعها، ولم يسبقه أحد إليها، وقد كانوا يعملون في حدود لا تعمل فيها نحن الآن، فكانوا يجتهدون في حصر المعاني، وما قيل من الشعر في كل معنى، وبذلك يعرفون ما وقع عليه الشاعر من جديد معنى. وليس لنا اليوم هذه القدرة على إحصاء المعاني المبتدعة، إذ لم تتوفر لنا آلتها من حفظ ورواية.

(د) مظهر من مظاهر التجديد : كما أن هذه السنة، في تقدير المعاني يجدها، قد أنتسخت عندنا، فنحن الآن أكثر تقديراً لما يجلو لنا شيئاً من خفايا نفوسنا، ويصور لنا بعض ما نحسه، وأبو تمام في هذا جديد، نجد في شعره صدى لما في نفوسنا في عصرنا هذا، البعيد عن عصره، والغريق في المادية، فنحن نصيح إليه حين يقول :

رقيق حواشي الحلم لو أن حلمه يكفئك ما ماريت في أنه برد

مع أن أهل عصره لم يقبلوا منه هذا الوصف للحلم. فيقول الآمدي عنه : "والخطأ في هذا ظاهر، لأنني ما علمت أحداً من شعراء الجاهلية والإسلام وصف الحلم بالرقّة، وإنما يوصف الحلم بالعظم، والرجحان، والثقل، والرزانة، ونحو ذلك". كما أنه يعترض على البيت اعتراضاً آخر فيقول : "وأيضاً، فإن البرد لا يوصف بالرقّة، وإنما يوصف بالمتانة، والصفاقة، وأكثر ما يكون ألواناً مختلفة".

ذلك أن من قبل أبي تمام أدركوا الناحية المادية في الحلم، ومظهر الحلم الهادي الرزين الثابت. أما أبو تمام ففيه هذا الحس الشعري، الذي يدرك الجمال النفسي في الحلم. ذلك اللون السامي من ألوان النفس، الذي يقع في القلب ولا يقع تحت العين، فوصفه بعد أن أدركه، ووصفا خالف فيه طريقتهم. أما استعمال كلمة "البرد" في غير معناها الأصلي، فيمكن أن يتجاوز فيه باتّحال لين الحضارة مخففاً لنقل اللفظ إلى غير مدلوله الأول، جرياً مع الحياة بعد أنتقالها من طور البداوة إلى طور الحضارة. ولقد أشرت إلى نقل اللفظ عن دلالة، في الكلام على "القدماء والمحدثين".

فيكون لأبي تمام في هذا البيت الواحد ثورتان لم يرضهما عصره : الأولى على تصوير المعنى ،
والثانية على استخدام اللفظ . وهذا الاستعمال للفظ " البرد " قد تبعه فيه تلميذه البحتري ، غير عابئ
بنقد الناقلين ، لأنه كان قريب حس بالحياة منه . فقال :

وليل كسين من رقة الصيف فخليل أنهن برود

✱ ✱

(هـ) إحساسه بجمال الطبيعة ، وميله إلى وصفها : ومن منا لا يطرب لوصفه الربيع ،
ولا يهتز عطفاه حين يسمع قوله :

غنى فشاك طائر غريد	لما ترنم والغصون تميذ
ساق على ساق دعا قريّة	فدعت تقاسمه الهوى وتصيد
إلفان في ظل الغصون تألفا	والتف بينهما هوى معقود
يتطعمان برقيق هذا هذه	مجعا ، وذلك برقيق تلك معيد
يا طائران تمتعا هنيئا	وعما الصباح فإنني مجهود
أبكي وقد تلت البروق مضبّة	من كل أقطار السماء رعود
وأهتر ريعان الشباب فأشرقت	لتهلل الشجر القرى والبيد
ومضت طواويس العراق فأشرقت	أذئاب مشرقية وهن حفود
يرفّلن أمثال العذارى طوفا	حول الدوار وقد تدانى العيد

فذلك هو الشعر الذي يصور حسنا لمثل هذا الجمال ، تصويرا لا تستطيع اليوم أقلام شعرائنا
الواهنة أن تمس ناحية منه ، مع ماضى على قوله من أحد عشر قرنا ، كان يمكن أن تقيم بيننا وبينه حجابا
أبديا ، من الجمود والاستحالة .

وكما يشجى الإنسان اشتراكه مع أبي تمام في حسه ، يشجيه فنه المجرد البعيد شيئا عن الحس
الخاص ، فإذا وصف أبو تمام الشيب بقوله :

شعلة في المفارق أستودعني	في صميم الفؤاد ثكلا صميا
تستثير الهموم ما أكتن منها	صعدا وهى تستثير الهموما
غرة بهمة إلا إنما كند	ت أغرا أيام كنت بهيما
دقة في الحياة تدعى جللا	مثل ما سمي اللديغ سليما

لم يستطع الإنسان إلا أن يعجب بهذا الفن ، وأن يستشعر هزة رقيقة "لشاعرية الفكرة"
إن صح هذا التعبير

(و) ميل أبي تمام إلى تناول الناحية النفسية : كما أن في فن أبي تمام دائماً ميلاً إلى الناحية النفسية ، وتقديراً لتلك الحياة القوية ، التي تجري وراء الصور والأجسام الماثلة من الخلائق . وهو لا يعبأ في كثير من الأحيان بالجسم وضخامته ، قدر ما يعبأ بالروح ، وبمنابع القوى الغالبة المستترة في الإنسان ، والمسيطرة على قدره . ويحس الإنسان في نظراته هذه عمقا ، ليس يشبه تلك النظرات المتخطفة من فوق السطوح فيقول :

إذا دُجاها أحاطت بي أحطت بها قلبا متى أسير في ظلماته يقيد
ويقول :

وارى الفؤاد فلو كانت بعزمته تذكي المصابيح لم تحب المصابيح
كانه في اجتماع الروح فيه ، له من كل جراحة في جسمه روح
ويقول :

تجد صلا تخال بكل عضو له من شدة الحركات قلبا
ويقول في وصف ملك الروم في هربه :
مضى مديرا شطر الدبور ونفسه على نفسه من سوء ظن بها ألْب
ويقول ، وما أروع هذا الأدب النفسى :

إني لأستحيي بقيني أن أرى لشكى في شيء عليه دليل



وفنه على العموم هادئ ، ليس بالصاخب ولا العنيف ، لا يشبه دق الطبول ، ولا دوى الرعود . ولكنما هو أشبه بالابتسامة العميقة الحلوة ، أو النغمة العذبة الفاتنة ، وهدهود فنه هذا تجده في كل حالاته : في غضبه ، وفي رضاه ، وفي فرحه ، وفي حزنه ، وفي يأسه ، وفي أمله ، فيه حلاوة النفس ، تدرك واضحة في مثل قوله :

وإذ علم مجلسه مَورِد زلأل لتلك العقول الظماء
تحول السكينة دون الأذى به ، والمروءة دون المراء

وفي مثل قوله :

مَنْ لِي بِإِنْسَانٍ إِذَا أَغْضَبْتُهُ
وَإِذَا طَرِبْتُ إِلَى الْمَدَامِ شَرِبْتُ مِنْ
وَتَرَاهُ يُصْنِي لِلْحَدِيثِ بِسَمْعِهِ
وَجَهَلْتُ كَانَ الْحَلْمُ رَدَّ جَوَابِهِ
أَخْلَاقِهِ وَسَكَرْتُ مِنْ آدَابِهِ
وَبَقْلِيهِ وَلَعَلَّهُ أَدْرَى بِهِ

وفي مثل قوله :

مَمْتَلِءِ الصَّدْرِ وَالْجَوَانِحِ مِنْ
يَأْخُذُ مِنْ رَاحَةٍ لِيُشْغِلَ وَيَسُدَّ
فَهُوَ لَوْ أَسْطَاعَ عِنْدَ أَسْعَدِهِ
إِذْ مِنْهُمْ مَنْ يُعَدُّ سَاعَتَهُ الْـطَّ
أَلْوَى كَثِيرِ الْأَسَى عَلَى سُودِّهِ الْـ
قَرِيحَةِ الْعَقْلِ مِنْ مَعَاقِلِهِ
رَحْمَةً مَمْلُوءَةً مِنْ حَسَدِهِ
تَبْقَى لَيْبَسُ الزَّمَانِ مِنْ ثَاذِهِ
لَحْزَ عَضْوَا مِنْ يَوْمِهِ لَغَدِهِ
لَقَّ عِيَارًا لَهُ عَلَى أَبْدِهِ
عَيْشٍ قَلِيلُ الْأَنْسَى عَلَى رَغَدِهِ
وَالصَّبْرِ فِي النَّائِبَاتِ مِنْ عَدَدِهِ

وبمثل هذه الأبيات كان أبو تمام يسمى حكيما . وهذه ونظائرها عند أبي تمام أثر من آثار التجربة ، وبلاء الأيام ، والثقافة الواسعة .

(ز) اعتماد فن أبي تمام على الواقع والحقيقة : وفن أبي تمام في مادته يعتمد على الحقيقة ، يتناولها فيكسوها بفننه كسوة تجعلها في حال أشبه بالمتخيلة المبتكرة . ولا داعي للاطالة هنا في ذلك ، فقد تحدثت عن هذه الناحية أحاديث كثيرة ، في تاريخ حياة شعر أبي تمام وحياته . ولكنني أشير إلى مثلين صغيرين ، يريان كيف كان أبو تمام يعتمد على الحقيقة في أدق معاني قصائده وأصغرها ^(١) يقول في وصف فتح عمورية للمعتصم :

رَمَى بِكَ اللَّهُ بُرْجِيَهَا فَهَدَّمَهَا
وَلَوْ رَمَى بِكَ غَيْرُ اللَّهِ لَمْ تُصِيبْ
مِنْ بَعْدِ مَا أَشْبَوَهَا وَاثْقِينَ بِهَا
وَاللَّهُ فَتَاحُ بَابِ الْمَعْقِلِ الْأَشْبِ

(١) من ذلك أيضا ما ذكره المسعودي في مروج الذهب : ج ٧ ، ص ١٣٨ ، ١٣٩ طبعة باريس . يقول عن المازيار النادر بطبرستان بعد أن أخذ : ” وصلب إلى جنب بابك ... ومالت خشبة مازيار إلى خشبة بابك ، فتدانت أجسامهما . وقد كان صلب في ذلك الموضع ياطس ، بطريق عمورية ، وقد آنحنى نحوهما لميل خشبته . ففي ذلك يقول أبو تمام من كلمة له :

ولقد شفا الأحشاء من برحائها
ثانيه في كبد السماء ولم يكن
فكأنما آنحنيا لكيا يطويا
أنت صار بابك جار مازيار
لاثنين ثان ، إذ هما في الفار
عن ياطس خسبرا من الأخبار

وقال ذو أمرهم : لا مَرْتَعٌ صدد
للسَّارحين ، وليس الوردُ من كَثِبِ
أمانياً سلبتهم نُجَح هاجسها
ظبي السيف وأطراف القنا السلبِ
إن الحمامين من بيض ومن سُمِرِ
دلّوا الحياتين من ماءٍ ومن عُشِبِ

ومن استقراء وقائع التاريخ نجد أن هذا هو ما كان حقا . فقد كان حاكم المدينة يقول لجنده :
” لا تخافوا فإن مدينتنا ممتعة عالية ، لا ينالها العدو ، وليس بالقرب منا ما ترعاه خيولهم ، ولا ماء
يشربون منه “ . وفي ابن الأثير : أن المسلمين قد لقوا ضيقا بقلّة الماء والمرعى . ولذلك يرد عليه
أبو تمام بقوله :

إن الحمامين من بيض ومن سُمِرِ
دلّوا الحياتين من ماءٍ ومن عُشِبِ

ولقد ذكرت قبلا ، في حياة أبي تمام ، كيف أخذ بابك بنو سُنْباط ، من بطارقة إرمينية . فإذا
تحدث أبو تمام عن أخذه لم ينس ذكرهم فيقول :

تَقَنَّصَهُ بَنُو سُنْباطَ أَخْذا
بأشراك الموائق والعُهُودِ
ولولا أن رِيحَكَ ذَرَبَتْهُمْ
لأحجمت الكلابُ عَنِ الأسودِ

وهو لا ينسى شيئا في سبيل الانتفاع بالحقيقة ، حتى ذكر الأيام التي حدثت فيها الأحداث ، فتكثر
في شعره كثرة ملحوظة . فيقول في رثاء عمير بن الوليد ، وقد مات يوم الثلاثاء كما في الكندي .

فيا يومَ الثلاثاءِ أَصْطَبَحْنا
غداً مِنْكَ هائلةَ الوردِ
ويا يومَ الثلاثاءِ اعْتَمَدْنا
يفقدُ فيكَ لِلسَّنَدِ العميدِ

ويقول في خالد بن يزيد :

نعم لِوَأُ الخميسِ أَبَتْ بهِ
يومَ خميسِ عَالِي الضُّحَى أَفِيدَه

ويقول فيه أيضا :

جَذَبْتُ نَدَاهُ غُدْوَةَ السَّبْتِ جَذْبَةً
نَحَرَ صَرِيحا بين أَيْدِي القَصَائِدِ

ويقول :

فالبَدُّ أَغْبَرُ دَارِسِ الأَطْلَالِ
لَيْدِ الردى أكلُ مِنَ الآ كَالِ
أَلَوْتُ بهِ يومَ الخميسِ كَتَائِبُ
أرسلناه مُثْلا مِنَ الأمثالِ

هذه هي السمات العامة ، التي تطبع شعر أبي تمام ، ولا تخلو قصيدة من قصائده من آثارها .

(ح) نهج القصيدة : أبو تمام محافظ في أغلب قصائده إذا نحن نظرنا إلى نهجها .

فهو يبدأ أكثر مدائحہ بخاطبة الأطلال ، والتحسر لمراها ، ثم ينتقل من ذلك إلى غزل يختلف طولاً وقصراً ، يصف فيه حبيبته وصفاً جسانياً أو معنوياً ، ثم يخرج من هذا إلى وصف الرحلة ، إن كان قد رحل إلى ممدوحه ، فإن لم يكن رحل إليه ، لم يعرج عليها . ثم يخرج من هذا إلى ممدوحه ، يأخذ في مدحه ، ثم يأخذ في طلب عطائه ، طلباً سافراً أو متوارياً ، وكثيراً ما يختم قصيدته بوصف شعره والفخر به . هذا هو النمط الغالب على قصائده ، وهو لا يختلف فيه إلا قليلاً عن نمط القصيدة العربية التقليدية . وقد يجيد عن هذا شيئاً ، فيبدأ بوصف الخمر أو الطبيعة ، وقد يجمع بين هذين النمطين في قصيدة واحدة ، وفي أبيات متقاربة .

(ط) أبو تمام شاعر البطولة الإسلامية : ولكنه ، أحياناً ، في المواقف التي تأخذ بالنفس ، وتبلغ فيها العاطفة أقصى جشائها ، فلا يكون العقل حراً في ترسم الطريق المتواضع عليها ، يندفع في الابتداء بما يحش بنفسه ، فيهمج على غرضه هجومًا لا هوادة فيه ، لا يمهده ، قويا منصبا كالسيل الجارف ، يحمل الحصب والصخر جميعاً ، فالإنسان منه بين شاق عسير ، وحلو غزير ، وهو بين ما يرضيه منه ، ويسخطه عليه . فنراه في قصيدته في فتح عمورية ، وقد مضى ما أحاط بهذه الموقعة من أحداث تأخذ بجماح النفس ، يبدأ قصيدته هاجماً على غرضه هجومًا :
السيف أصدق أنباء من الكتب
في حده الحد بين الحد واللعب

ثم يمضي في ذلك حتى ينتهي ، فلا غزل ولا أطلال . وهو كذلك في قصيدته التي قالها في وصف إحراق الأفشين :

الحقُّ أبلغُ والسيوف عوار
فخذارٍ من أسدِ العربِ حذارِ

ولكنه في أغلب قصائده ، كما قلت ، محافظ على نهج القصيدة التقليدية ، إلا أن هذا القالب القديم يحوى مادة جديدة ، تبين عن خفايا نفس عميقة ، وعقل قوى مبين . والغزل الذي يتدب به أبو تمام ، ووصف الديار ، فن يحبه ويقدره ، حتى يضرب به المثل في شعره ، فيقول :

طاب فيه المديح والتذحتي
فاق وصف الديار والتشبيها

ولقد ذكرت من قبل مثلاً من غزله ، وبينت كيف يتناسك ، وكيف يسود فيه نظر وتأمل في العاطفة . وقد يلجأ في هذا الغزل إلى الأساطير ، والأقاصيص القديمة ، يستعين بها على توضيح الصورة التي يقصد إليها ، على نحو استفادة الآداب الغربية الحديثة من الأساطير اليونانية القديمة ، فيقول :

يَبْضُ يَدْرَنْ عِيُونَهُنَّ إِلَى الصَّبَا فَكَأَنَّهُنَّ بِهَا يُدْرَنْ كَوْسَا
وَكَأَنَّمَا أَهْدَى شَقَائِقَهُ إِلَى وَجَنَاتِهِنَّ ضَحَّى أَبُو قَابُوسَا
لَوْلَا حَدَاتُهَا وَأَنَّى لَا أَرَى عَرْشَهَا لَهَا لِحْسِبَتَهَا بَلْقَيْسَا

وهذا الاقتران بين الضحى وورد الحدود ، وما هناك من علاقة بين ضوءه وسطوع حمرة الشقائق ، وما في تلك المقابلة بين بياضه وصفاء نوره ، مع حمرة الشقائق ، وبين حمرة الخد يحيط بها بياض بشرة بيضاء صافية ، مثل من الأمثلة ، يرى أى جهد كان أبو تمام يبذله في تكوين الصورة ، وإلى أى مدى كان يوفق ، كما أن في إهداء النعمان شقائقه إلى أولئك الفتيات ، معنى جديدا يدخله أبو تمام على الاجتماع الاسلامي ، ولعله آقتبس من أدب غير الأدب العربي ، وبخاصة إذا نحن لاحظنا أن النعمان هو حامى هذه الزهرات ، وهو ما يمكن أن يشبه بمعنى تلك الآلهة اليونانية ، التي يمثل وراء كل منها معنى يقرب من هذه المعاني . وفيها أيضا ما يرى مقدار استفادة أبي تمام في غزله من التاريخ ، والقرآن ، وحالة الجماعة في عصره .

من هذه السبيل الجديدة وأشباهاها ، وبهذا الخيال الخصب كان أبو تمام يملأ هذه القوالب القديمة .

(ى) القصص : فإذا هو فرغ من هذه المهدات ، أنتقل إلى القول في ممدوحه ؛ وفي هذا المدح لون آخر جديد من ألوان الفن . وهو القصص . ولا أقصد بهذا أن أبا تمام هو واضع فن القصص الشعري ، ولكننا أقصد أنه انتفع به في المدح ، انتفاعا واسع النطاق ، بعيد المدى ، حتى إن صورة ممدوحه لتستحيل في يده إلى صورة بطل من أبطال تلك الملاحم القديمة ، التي حُرِمَها الأدب العربي . وبذلك يخرج المدح من حيزه الخاص الذي تضيق به النفس إلى حيزٍ أوسع وأهم . كذلك هو في مرثيته وفي هجائه ؛ وهو في سبيل ذلك يعتمد على التاريخ ، فيأخذ منه حاجته ؛ متمثلا بالماضي ، أو مقتبسا مادة لشعره من الحاضر الملايس لحياة ممدوحه ؛ فإذا هو أراد مدح المعتصم بعد أخذ بابك قال ، قصيدته :

آلَتْ أُمُورُ الشَّرِكِ شَرَّ مَا لِي وَأَقْرَبُ بَعْدَ تَخْطِطِ وَصِيَالِ

فتسمع فيها قصة بابك ، من مبدئها إلى منتهاها ، في غير جور على التاريخ . والفارئ لا يزال يتبعه فيها ، حتى ينتهي منها في غير كلال ولا سأم ، مع طولها ، لحلاوة القصة .

وكذلك إذا مدح أبا سعيد محمد بن يوسف ، لم يقف عند وسيلة غيره في مدح ممدوحهم . وإنما هو يصف الجيوش وحر بها مع الروم ، ومع بابك .

وإذا رثى محمد بن حميد الطائي ، وجدته يرثى بطلا من أولئك الأبطال ، الذين تقبل النفس على قراءة تاريخهم ، لتسمو ببطولاتهم إلى لون من ألوان الحس الرفيع ، يخلد به الشعر ، ولا تحس فيه مذلة المدح وخصوصيته . وينصح لتغلب أن تطيع مالك بن طوق ، فيقول من قصيدته :

سَلَّمَ عَلَى الرَّبْعِ مِنْ سَلَمَى بَذَى سَلَمٌ عَلَيْهِ وَسَمٌ مِنَ الْأَيَّامِ وَالْقَدَمِ



لا تجعلوا البغي ظهرا ، إنه جمل	من القطيعة يرعى وادى النقيم
نظرت في السير اللأى خلت فاذا	أيامه أكلت باكورة الأمم
أفنى جديسا وطشما كلها وسطا	بالأنجم الزهر من عاد ومن إرم
أردى كليبيا وهما ما وهاج به	يوم الذنائب والتحلاق للميم

ثم يسير على هذا النمط . وهذا النوع من القصص ، قد غلب على شعر أبي تمام في آخر أطوار شعره ، من سنة ٢٢٠ حتى مات . وهو لا ينعدم في شعره قبل ذلك ، ولكنه أقل وضوحا ، وقد أفاد قصائده خصبا وطولا ، وجعل قراءتها لذيدة ممتعة .

كما أن انتحاء أبي تمام هذا المنحى ، قد أفاد القصة الشعرية في الأدب العربي فائدة عظيمة . فوهب لها أوزانا مكتملة ناضجة ، وأسلوبا رصينا ، لا يشبهان في شيء أوزان الأقصيص العربية ، التي نظمت بعد أبي تمام ، ولا أسلوبها ، كالإصاح والباغم . كما أهدى إليها وحدة القافية ، ولمحات عميقة إلى صور النفس وأحاسيسها ، التي تختلف باختلاف ما يطرأ على الشاعر من أفعالات .

ففن القصص الشعري العربي قد طفر على يدي أبي تمام طفرة لم تقصد لذاتها ، ولكنها مع ذلك شيء واقع لا نستطيع إنكاره .

٢ - الصورة

(١) المقصود بالصورة : هذا ما أمكنني أن أستخلصه من نظرة أبي تمام خاصة إلى قصيدته في جملتها . أما فيما يختص بجزئيات هذا الكل فأقول ما يسترعى الخاطر فيها هو الصورة . فإن أبا تمام يطلبها ، ويغرق في طلبها إغراقا ، لا اعتدال فيه ولا قصد . وأقصد بالصورة كل محاولة

من محاولاته إبراز معنى، أو كائن، أو حدث، سواء كان ذلك عن طريق الاستعارة، أو التشبيه، أو الحديث المطال، أو غير ذلك من وسائل الإبانة عن أمر من الأمور، على وجه من وجوه القول.

(ب) الصورة في أطوار شعره الأولى جاهلية : والصورة عند أبي تمام في أوائل شعره، تميل إلى الأسلوب الجاهلي، فإذا وصف حبيبته في أول قصائده قال :

مَهْفَهفَةِ الْأَعْلَى رَدَاجِ الْحَقِّبِ	وَحُوطِيَّةٍ شَمْسِيَّةٍ رَشَّيَّةٍ
وَتَشَعْبُهُ بِالْبَثِّ مِنْ كُلِّ مَشْعَبِ	تُصَدِّعُ شَمْلَ الْقَلْبِ مِنْ كُلِّ وَجْهَةٍ
وَمُقْتَبِلِ صَافٍ مِنَ الثَّغْرِ أَشَدِّبِ	بِمِخْتَلِلِ سَاجٍ مِنَ الطَّرْفِ أَحْوَرِ
لَمَّا قَالَ : مُرَّابِي عَلَى أُمِّ جُنْدَبِ	لَوْ أَنَّ أَمْرَأَ الْقَيْسِ بَنَ حُجْرٍ بَدَتْ لَهُ

(ج) الصورة فيما يلي ذلك : وفي قصيدته التي قالها في آل بيت الرسول :

أُظْيِيَّةٌ حَيْثُ آسَتْنِ الْكُثْبَ الْعَفْرُ رَوَيْدِكَ لَا يَفْتَالُكَ اللَّوْمُ وَالزُّجْرُ

وقد قالها، كما نخبرنا فيها، قبل أن يبلغ السابعة عشرة، نراه يعيد إلى التشبيه الطويل، وفن أقرب إلى الجاهلي، مع شيء من التهذيب استدعاه عصره، فيقول :

كَأَمْ الْحَوَارِ آسْتَوْدَعْتُهُ نَحْمِيلَةً	تَرَادَّ فِيهَا النَّهْتُ وَأَزْدُوجُ الزَّهْرُ
فَغَيَّبَهُ عَنْهَا قَرِيٌّ بُوْهْدَةً	أَحَلَّ بِهِ أَعْبَاءَ أَحْمَالِهِ الْقَطْرُ
بَغْنَتْ جَنُونًا وَآسْتَعَاظَتْ مِنَ الرَّبِّي	فَنَوْنًا وَمَا تُغْنِي الْمَذَلَّةُ وَالذِّكْرُ
كُلِّي وَكَلاَّ ثُمَّ آسْتَحَالَتُهُ فَاصْلا	مِنَ الرُّوضِ تَرَاهُ حُقُوفُ نَقَا عَفْرُ
رَغَا إِذْ رَأَاهَا فَاسْتَجَابَتْ مُشِيحَةً	عَلَيْهِ وَمِنْهَا الرُّكْلُ وَالزَّيْنُ وَالطَّحْرُ
نَحْرُ صَرِيحًا وَآسْتَمَرَّتْ بِقَسْوَةٍ	تَرُودُ وَتَقْرُو الْأَمَكِنَاتِ الَّتِي تَقْرُو

وهو أطول تشبيه في شعر أبي تمام كله. وهو مليء بالشاعرية، وإن تكن عناصره مستخلصة من حياة بادية. كما أن فيها صورة أخرى تهز المشاعر يقول :

فَكَمْ لَيْلَةٍ قَضَيْتُهَا مَمْلِئًا	إِلَى أَنْ زَقْتُ أَطْيَارَ سُحْرَتِهِ الزُّقْرُ
كَانَ نَجْمُ اللَّيْلِ فِي أَخْرِيَاتِهِ	عَيُونَ لَهُ نَادَى بِتَغْمِيضِهَا الْفَجْرُ
كَأَنَّ سَوَادَ اللَّيْلِ ثُمَّ أَخْضَرَارَهُ	طَيَالِسَةٌ سَوْدٌ لَهَا كُفْفٌ خَضَرُ

وهي صورة مليئة بالحياة، تجد فيها المشبه والمشبه به في حركة، وليس في سكون، مما ينشأ عنه تركب وجه الشبه؛ فهو لا يشبه النجوم بالعيون فحسب، ولكن يشبه النجوم إذ تخبو في أواخر الليل بما سطع عليها من ضوء الفجر، بالعيون تغمضها يد.

وهذه الصورة تأخذ في التهذب والاكتمال على الأيام. فنسمعه يقول من قصيدته في الأفسين في وصف الجيش:

وقد ظَلَّتْ عِقبَانُ أعلامِهِ ضَحَى
بِعِقبَانِ طَيْرٍ فِي الدماءِ نواهِلِ
أقامت مع الرايات حتى كأنها
من الجيش إلا أنها لم تقايلِ

حتى إذا كانت أواخر أيامه سمعناه يقول لخالد بن يزيد بن مزيد:

نَعِمَ لَوَاءُ النَجْمِيسِ أَبَتْ بِهِ
يَوْمَ نَحْمِيسِ عَالِي الضُّحَى أَفْدَهُ
خَلَّتْ عُقَابًا بِيضَاءَ فِي حُجْرَا
تِ الْمَلِكِ طَارَتْ مِنْهُ وَفِي سُدْدِهِ
فشاغِبِ الحَوِّ وَهُوَ مَسْكُنُهُ
وَقَاتِلِ الرِّيحِ وَهِيَ مِنْ مَدَدِهِ
وَمَرَّ تَهْفُو ذَوَابِتَاهُ عَلَى
أَسْمَرِ مَتْنٍ يَوْمَ الرِّغَى جَسَدِهِ

د - منابع الصورة عند أبي تمام: والصورة عند أبي تمام مستخلصة من حياته، وحسه، وملاحظته. و تراها أحيانا بنت الملاحظة الدقيقة، والعلم بطبائع الأشياء، كقوله في هجاء ابن المعتل لما هجاه:

أَقْدَمْتَ وَبِكَ مِنْ هَجْوِي عَلَى خَطِيرٍ
كَالْعَيْرِ يُقَدِّمُ مِنْ خَوْفٍ عَلَى الْأَسَدِ

ويقولون إن من طبيعة العير أن يقدم على الأسد حقا إذا هاجمه، من خوفه منه. ويقول في وصف ممدوحه:

هُوَ السَّيْلُ إِنْ وَاجَهْتَهُ انْقَدَتْ طَوْعَهُ
وَتَقْتَادُهُ مِنْ جَانِبِيهِ فَيَتْبَعُ

وكقوله عن نفسه:

مَسْلَطٌ حَيْثُ لَا سُلْطَانَ لِي وَيَدِي
كَالنَّارِ بَارِدَةٌ فِي عُوْدِهَا وَلَهَا
مَغْلُولَةُ النَّفْعِ وَالسُّلْطَانُ سَاطِئَانِي
إِنْ فَارَقْتَهُ أَشْتَعَالُ لَيْسَ بِالْوَانِي

وكقوله:

عِنْدِي مِنَ الْأَيَّامِ مَا لَوْ أَنَّهُ
أَضْحَى بِشَارِبِ مُرْقِدٍ مَا غَمَضَا

وكقوله في تصوير الربيع :

غيثان فالأنواء غيث ظاهر
لك وجهه والصحو غيث مضمّر

وما أجمل هذا البيت ، وأصدق في الدلالة على ثقافة أبي تمام العميقة ، وحسن فهمه لطبائع الأشياء !

هـ - جزئية الصورة : ولكن غلو أبي تمام في طلب الاستعارة ، والمجاز ، والتشبيه ، وهذه

الوسائل المنمقة ، من وسائل الأداء ، قد أوقعه في كثير من الأضطراب ، في كثير من الصور . فجعلها مكونة من أجزاء مختلفة ، لا تناسق بينها ولا آلتام . كما في قوله في عياش بن ليعة الحضرمي في مصر . وهي من أوائل شعره :

سرى رداء الهوى في حين جدته واهأ له منه مسرّوا وملبوسا
لو تشهدني أقاسي الدمع منهمرا والليل مرنتج الأبواب مطموسا
أستنبت القلب من لوعاته شجرا من الهموم فأجنتها الوسوايسا

وهي أبيات ثلاثة متصلة المعنى ، تدور حول هواه . فهو كما يقول قد طرح رداء الهوى الحديد ، وهو حزين ملثاع ، يقامى الدموع في الليل الأسود المظلم ، مهموما تخلق همومه الوسوس ، ويتقى لوراته حبيبته حتى ترحم هذه الدموع .

وهي معان متصلة ، تصف حالة في نفسه ، ذات أصل واحد ؛ قد أصطنع في تصويرها صورا عديدة . ويكفي الوصل بين هذه الصور ، ليتحقق ذلك الاضطراب الغريب في تصوير هذه الحال .

ذلك أنه رجل يلبس ثوبا جديدا من الحب ، يخلعه عنه ؛ ولكنه لا يزال يتعذب . هذا الرجل ذو الثوب الخلع ، ذو قلب كأنه الأرض الخصب ، ترويه أمطار من اللوعات ، فتبت فيها أشجار من الهموم ، ثم لا تزال بها هذه الأمطار تليح عليها حتى تنتج ثمارا من الوسوس .

ويكون مجموع الصورة رجل يلبس ثوبا وتبت في قلبه أشجار تنتج أثمارا وهو يبكي . فاذا أضفنا صورة أخرى معترضة ، وجدناه يبكي في سجن من الليل مغلق الأبواب ، أسود .

ولا شك في أن استخلاص الحكم على التشبيه والاستعارة وما شاكلها ، على هذه السبيل قسوة ، لا على أبي تمام وحده ، ولكن على كل شاعر . إلا أن أبا تمام كان يغلو في هذه الطريق . وكان بها يحيل المعنى المقصود إلى أجزاء يتضح كل منها ، ولكن يعسر على العقل ، في التعثر بين هذه الأجزاء الواضحة ، وفي الانتقال من أحدها إلى الآخر ، أن يتضح له المعنى العام .

فهذه التشبيهات التي تتعدد ولا تناسب، تزيد الحس بالجزئيات، وتضعف الحس بالكل، ضعفا لا يخففه إلا إعمال الذهن، والجمع في فراغ بال وتؤده بين أشتات الأجزاء. وفي ذلك ما فيه من إضاعة الوقت. وأغلب الحال أن يتغاضى القارئ، في غير آتياه، عن إدراك الكل بعد إدراك الأجزاء، وبذلك تضيع فائدة، وينعدم قسط ضخم من الجمال.

ومن آثار الغلو في طلب الاستعارة في شعر أبي تمام، ذلك الزلل فيما يستكره أحيانا، وهذه عاقبة الكلفة. ففي كثير من استعاراته وتشبيهاته، صور لا تهش لها النفس، وتكاد تذهب مثلا في شناعتها، كقوله في ممدوحه :

ما زال يَهْدِي بالمكارم والعُلَا حتى ظننا أنه محمومٌ
وكقوله أيضا :

إِنَاءٌ مَجِيدٌ مَلَأَ بُورِكَ فِي صرِيحِهِ لِلْعَلَا وفي زَبَدِهِ
وكقوله :

فَلَوَيْتَ بِالْمَعْرُوفِ أَعْنَاقَ الْوَرَى وَحَطَمْتَ بِالْإِنْجَازِ ظَهَرَ الْمَوْعِدِ
يقول الآمدي ^(١) "حطم بالإنجاز ظهر الموعد. استعارة قبيحة جدا، والمعنى غاية في الرداءة. فإن الإنسان يصحح الموعد بالإنجاز، وليس يحطم ظهره. وهو القائل :

إِذَا وَعَدَ أَنْهَلَتْ يَدَاهُ فَأَهْدَتَا لَكَ النِّجْحَ مَحْمُولَا عَلَى كَاهِلِ الْوَعْدِ

وكاهل الوعد إذا حمل بالنجح، فأحر به أن يكون صحيحا... لا أن يكون محطوما" ولست متحمسا كثيرا لعبارة الآمدي عن عدم موافقة الاستعارة للمعنى، على الوجه الذي ارتآه، فإن التخريج العقلي كفيل بقبول هذا الوجه، الذي لم يقبله الآمدي، ولكنني أتفق معه على قبح هذه الاستعارة.

ولو صح أن أبا تمام قد أراد في استعمال كلمة الوشاح معناها الأصلي في البيت :

مِنْ أَهْيَفٍ لَوْ أَنَّ الْخِلَاحَ خِيلَ صِيرَتْ لَهَا وَشُحًا جَالَتْ عَلَيْهَا الْخِلَاحُ

لكانت استعارة من أقبح الاستعارات. يقول الجرجاني ^(٢) : "أراد وصفها بدقة الخصر، فوصفها بغاية القصر والضئولة. لأن الوشاح يؤخذ من العاتق، ويوشح أحد طرفيه الصدر والبطن، والآخر الظهر، حتى ينتهيا إلى الكشح، يلتقيا على الورك. وكيف حال من يحول الخللخال من عاتقها إلى

كشعها ؟ وهل تكون من البشر ، فضلا عن أن تنسب إلى الحسن ؟ " ويقول الأمدى " لقد جعلها جُمَلا " .

ولو صح ما أراه من أنه نقل لفظ الوشاح إلى معنى الحزام ، فإن هذا يخفف شيئا من قبح الصورة ، ولكنه لا ينقذها منه تماما . إذ أن هذا الكشع الذى يبلغ من نحولته أن يدور حوله الخلخال كشع قبيح أيضا .



هذه هي الصورة في شعر أبي تمام فيها لمحات من أجمل ما ترتاح إليه النفس ، وأخرى قبيحة . ولكنها كانت جميعا صورا لمعان قد تكون واضحة الحدود في نفسه ، وقد تكون أثرا من آثار اضطراب حاله أو عقله ، لما كان يشغله في حياته المضطربة المعلقة فوق فوهة بركان . فلقد كان فن أبي تمام في تفاصيله وأجزائه ، وفي مجموعه ، أثرا من آثارها ، وصورة من انفعالاته بها .

ولكنها ، الحسن منها والقبيح ، يجرى عند جذورها ذلك المعنى الهادئ ، المطمئن ، الذى يمس أصول فن أبي تمام ، والذى هو نتاج تكوينه النفسى ، وفطرته التى فطر عليها ، وإن الإنسان ليرى وصفه للجيش .

وقد ظَلَمْتَ عِقبانُ أعلامِهِ ضُحَى
يَعِقبانِ طيرٍ في الدماءِ نواهيلِ
أقامت مع الراياتِ حتى كأنها
من الجيشِ إلا أنها لم تقايلِ

ثم يرى قول أبي الطيب في هذا المعنى :

سَحَابٌ مِنَ الْعِقبانِ يَرْحِفُ تَحْتَهَا
سَحَابٌ إِذَا اسْتَسْقَتْ سَقَتَهَا صَوَارِمَهُ

فيدرك فرق ما بين النفسين . فالصورة عند المتنبي تقوم على الخيال ، قيامها عند أبي تمام على الخيال أيضا . ولكنه الخيال الذى يقوم عند أبي تمام على ناحية الجمال فى الحياة ، وعند أبي الطيب على ناحية القوة والرهبة فيها .

هذه النفس تتدفع عراما ، زخارا ، جارفا ، وتلك تنساب عذبة ، هادئة .

الصورة عند أبي تمام تتألق ضياءً وألواناً ، فالضحى بنوره ، والرايات بألوانها ، والدماء وحمرتها ، والعِقبان وقد نهلت من الدماء ، بأجنحتها المنشورة ، وهذاتها فوق الرؤوس لا تقاتل .

والصورة عند المتنبي سحاب من فوقه سحاب ، ظلمات بعضها فوق بعض . هذا إلى ما عسى أن يثير ذكر الصوارم ، تهتف بها الطير تستسقيها ، وذلك الانعكاس فى الأوضاع بأن يسقى الأسفل الأعلى .

هذا فرق ما بين النفسين الشاعريتين . نفس تعبد الحياة في هَوَج بالغ ، وسرف في الانفعال بظواهرها . ونفس تحب الحياة في آتزان ، وتقبلها كما هي في غير اضطراب العاجز إلى قبولها .

وفن يلجأ إلى الآبتسامة تعلو الشفتين ، والبريق يلمح في العينين ، ونظرة الألم الهادئة التي تصيب من قلب الإنسان أكبر ما يعطيه إنسان من نفسه لغيره .

وفن آخر يلجأ إلى الصراخ والعيويل ، ونحش الوجه ، وأستدرار دمع الغير ، بوسائل العنف . ولكن في أعماقه أثرا من ألم حقيق يمس النفس ، وفضلا من رجولة وقوة يدعو إلى لون من ألوان الإعجاب ، ربما كان يجري فوق سطوح الحياة ، قبل أن يجري عند أعماقها .

وكلاهما نوعان من أنواع الأحياء القوية ، كل في ناحيتها . وصورتان مكبرتان لجوانب في النفس ، لا يستطيع أحدهما التغاضي عنها ، لأنها فيه . ولكن قد يقوى جانب فيتميز ويغلب ، ويضعف جانب ، فيهن ويتوارى ، وليس ينعدم . فهو أيضا في حاجة إلى إطفاء وارتواء .

ولقد عمدت من قبل في أما كن متفرقة إلى مقارنة بين أبي تمام وبين المتنبي ، وكنت أحب أن أفرد لذلك بابا ، لولا أني وجدت ذلك عسرا إذا أردت إخراجها على وجه واف . إذ أن ذلك يستدعي وحده كتابا كاملا ، فإن كل شيء في شعر المتنبي يمكن أن يرد إلى أصله في شعر أبي تمام . بل إن بعض أساليب أبي تمام في الحياة ، كان يحاكيه فيها تلميذه المتنبي . فلم يكن إزاء هذا إلا الاكتفاء بتلك اللحظات العاجلة ، في الموازنة بين الشاعرين كلما سنحت فرصة .

٣ - اللفظ

لفظ أبي تمام مثل فنه ، نتاج عدة عوامل ، منها الموهوب ومنها المكسوب . ولقد تكلمت على المكسوب في بابين - أحدهما "ثقافته" ، وثانيهما : "القدماء والمحدثون" . أما الموهوب فأظن أني لم أمر بناحية من نواحي دراستي لأبي ، إلا أشرت إلى لون من ألوان نفس أبي تمام ويكأنه .

(١) اللفظ عنده مظهر مركب نفسه : ولقد اضافرت هذه العوامل على إنتاج فن مركب معقد ، حتى يستطيع أن يرضى كل مطالب هذه الحياة المعقدة ، في ذلك العصر الحافل . وكما كانت القصيدة في مجموعها ، والصورة في تفاصيلها ، أثرا من آثار هذا التكوين ، كان اللفظ كذلك . فهو عند أبي تمام المادة الأولى في بناء قصيدته . وهو ممن يعتنون به ، وينصبون الوقت لترتيبه واختياره ، والنظر في محاسنه وبديعه ، والتأنق فيه . لأنه تصوير لحياة أنيقة مترفة . وهو عنده إلى

ذلك مظهر من مظاهر تركبه النفسى . فهو أحيانا ينتقيه رقيقا حلوا يسيل عذوبة ، لا جفاء فيه وإن كان غريبا ، وإن الإنسان ليسمع فى مثل هذه القصيدة من قصائده ما يشبه الموسيقى الرقيقة الرنين ، الصافية الأنغام ، رغم غرابة كثير من ألفاظها :

صَرَفُ النَّوَى لَيْسَ بِالمَكِثِ يَنْبُثُ مَا لَيْسَ بِالنَّبِثِ^(١)
هَبَّتْ لِأَحْبَابِنَا رِيَّاحٌ غَيْرُ سَوَاهٍ وَلَا دُثُوثِ^(٢)
بَدُورُ لَيْلِ التَّمَامِ حَسَنًا عَيْنُ حَقُوفٍ ظَبَاءُ مِثِ^(٣)
بَيْنَ الْأَسَاوِيرِ وَالْخَلَائِجِ يَلِ الدَّمَالِجِ وَالرُّعُوثِ^(٤)
مِنْ كُلِّ رَعْبُوبَةٍ تَرْدَى بِشَوْبٍ فَيَنَانِهَا الْأَثِيثِ^(٥)

وإن الإنسان ليجس ما يشبه هذا فى قصيدته :

وَتَشَايَاكَ إِنِّهَا إِغْرِيبُضُ وَلَا لِي تَوْؤُمٌ وَبَرْقٌ وَمِيزُ^(٦)
وَأَفَاحٍ مَنْوَرٌ فِي بَطَاحِ هَزْهَ فِي الصَّبَاحِ رَوْضُ أَرِيضِ^(٧)
وَارْتِكَاضُ الْكُرَى بَعِيثُكَ فِي النُّو مِ فَنُونَا وَمَا لِعَيْنِي غَمُوضُ

ومنها فى وصف الصحراء :

وَيَسَاطُ كَأَنَّمَا الْآلُ فِيهِ وَعَلَيْهِ سَحَقُ الْمَلَاءِ الرِّحِيضِ^(٨)
يَصْبَحُ الدَّاعِرَى ذُو المِيعَةِ الْمِرُ جَمُ فِيهِ كَأَنَّهُ مَأْبُوضِ^(٩)
قَدْ فَضَضْنَا مِنْ يَدِهِ خَاتَمَ الْخَو فِي وَمَا كُلُّ خَاتَمٍ مَفْضُوضِ

(ب) توحي الصنعة فى اختيار اللفظ : هذا برغم قافيتها الضادية ، وكلماتها الغريبة . فللألفاظ عند أبى تمام موسيقى خاصة يطلبها ، ويحاول بها تحقيقها . وكما تختلط فى الموسيقى الأصوات

- (١) الصرف : البلية ، المكث : الرزين ، ينبث : ينبس . (٢) الدث : الضعيف من المطر أو الريح .
(٣) العين بالكسر : بقر الوحش . والحقف بالكسر : المعوج من الرمل جمعه حقوف . والميناء : الأرض المسهلة . وجمعه : ميث .
(٤) الدملج : المعضد يشبه السوار يلبس فى العضد . والرعة : القرط .
(٥) جارية رعبوبة : حسنة حلوة ناعمة . الفينان الطويل من الشعر . والاثيث : الغزير .
(٦) الإغريض : طلع أبيض طرى . تؤم : تؤم . وميض : لامع . (٧) أفاح : جمع أخوان ، وهو البابونج . أرض أريضة : زكية ، معجبة للعين ، خليفة للخير . (٨) الآل : السراب والسحق : الثوب البالى .
الملاء : جمع ملادة : وهى الريلة . والرحيض : المغسول . (٩) الداعرى : وصف للجمال . وميعة الشباب : أوله . والمرجم ، كمنبر : ما يرمي الأرض بحوافره من الدواب : وصف بالسرعة والقوة جميعا . والمأبوض : المشدود رسف يده إلى عنقه فهو مقيد . والبيد : الصحارى . والمفضوض : المفكوك . فض خاتم الكتاب : فكه .

الريقة بالأصوات المثلثة ليتكون من المجموع موسيقى ترضى السمع والقلب معا ، بتناسبها وتغايرها ،
فكذلك فن أبي تمام في اختيار ألفاظه . فلقد كان يطلب أحيانا اللفظ الغريب ويفخر به فيقول :

فكأنما هي في السماع جنادلٌ وكأنما هي في القلوب كواكبُ

ويقول : وكان لصيْد الوحش منها حلاوةٌ على قلبه ليست لصيْد الأوابدُ

ولم يقف اختيار أبي تمام للفظ عند حلاوته في السمع ، ولكنه كان يختاره أيضا ليجانس بينه وبين
آخر ، أو ليطابق ، أو ليورثي . وليس بدیع أبي تمام بالسهل البسيط ، أو القليل النادر ، وإنما
هو منبث في كل تضاعيف أبياته ، لا يكاد يخلو منه شعره إلا في التزر اليسير جدا .

وكان التوفيق بين أداء المعاني ، وبين الإبداع في اللفظ ، وأختراع الاستعارات وتعددتها ،
مطلبا عسيرا ، ومربكا وعرا ، فكثيرا ما كان جمال اللفظ يذهب في سبيل المعنى ، أو ينقص
المعنى في سبيل اللفظ . وكثيرا ما تستوعر الجملة واللفظ لأضطراب الصورة ، أو لمحاولة تنسيقها .
فيأتيها الغريب ، ويأتيها الغموض .

(ج) التكرار : ويغلب التكرار في لفظ أبي تمام غلبة واضحة ، تجعله ظاهرة من الظواهر
التي تستدعي التعليل . وهو في غالبه صورة من صور بدیع أبي تمام ، ولقد كان القدماء يسمونه
”رد الأعجاز على الصدور“^(١) . وسأتي هنا بأمثلة قليلة ، إذ الديوان ممتلئ بها . يقول أبو تمام :

أدارَ البؤسَ حسنكِ التَّصَابِي إلى فصرِ جناتِ النعيمِ

لئن أصبحتَ ميدانَ السوافي لقد أصبحتَ ميدانَ الهمومِ

ويقول : فالجوُّ جوِّي إذ أقمْتُ بغبطة

ويقول : أظنُّ الدمعَ في خدي سيبقى

وليلَ بت أكلؤه كَأني

ويقول : لم يُعطِ نازلةَ الهوى حقَّ الهوى

دَنَفَ أطافَ به الهوى فتجلدا

وهكذا يكثر التكرار في شعره ، ولكنه ليس من قبيل الهذيان باللفظ الواحد ، إطالة للقول ، ولا ستر
لحيلة العجز ، حين يفتقر القائل إلى الفكرة .

(د) اختيار الصفات : وكثيرا ما يوفق أبو تمام في اختيار الصفات ، حتى لتقع بعد موصوفها موقع الجديدة . كقوله : بُصِرَت بِالرَّاحَةِ الْكُبْرَى . وكقوله : ”زُعِزَّتِ الْأَرْضُ الْوَقُورُ“ . وكقوله : حَتَّى تَقْضَتْ الرُّومَ مِنْكَ بَوَقْعَةً شَنْعَاءَ لَيْسَ لِنَقْضِهَا إِبْرَامُ

(هـ) اللفظ وسيلة الى السخرية : وقد يميل عليه اختيار اللفظ شيء السخرية ، أو الدعابة . كقوله :

فَضَرَبْتُ الشِّتَاءَ فِي أَخْذَعِيهِ ضَرْبَةً غَادَرَتْهُ عُودًا رَكُوبًا
ولقد عابوا عليه أخْذَعِيهِ هذه ، حتى قال الآمدي عنه : إنه يستحق من أجلها أن يصفع في أَخْذَعِيهِ . وتغاضى عن تصوير هذا اللفظ لحالة في نفس أبي تمام . وكقوله أيضا :

فَلَوْ ذَهَبَتْ سِنَاتُ الدَّهْرِ عَنْهُ وَأُلْقِيَ عَنْ مَنَاكِهِ الدَّيَّارُ
لَعَدَلَّ قِسْمَةَ الْأَيَّامِ فِينَا وَلَكِنْ دَهَرْنَا هَذَا حِمَارُ

أو دلالة اللفظ بجرسه على المعنى الذى يقصده . هذا إلى فائدته الأولى . كقوله في وصف السحاب :

مَزَجَ الْمُنْكَبِينَ صَهْصَاقُ يُطْرِقُ أَزْلُ الزَّمَانِ مِنْ صَخِيهِ

واديوان أبي تمام من أغزر الدواوين ، وأكثرها عدد لفظ . فإن سعة مادته اللغوية تدعو إلى الدهشة ، وإن الإنسان ليسأل نفسه عن مقدار ما كان هذا الشاعر يلم به من مفردات اللغة ، إذا كانت هذه المجموعة الضخمة هي مقدار ما كان يجري منها على لسانه ، ويستعمله في شعره .

(و) تركيب الجملة في شعر أبي تمام : جملة أبي تمام نتاج نفسه المركبة ، فهي تشبهها تركيبا وتنوعا . ويبدو بين أجزائها اشتباك وتعلق ، وقد يزيد هذا التماسك حتى يصبح معاطلة كما في قوله :

يَا يَوْمَ شَرِّدَ يَوْمَ لَهْوِي لَهْوُهُ بِصَبَابِي وَأَذَلَّ عِزَّ تَجَلْدِي

والجملة عنده كأكثر ما تكون عند شاعر تعدد عناصره ، وتنوع مناج ، حتى إن الباحث لا يكاد يعدم ، على كل وجهة من وجهات النحو ، مثلاً في شعره . ونقرأ في آبن النديم أن طيفور قد عمل كتاباً سماه : ”سركات النحويين من أبي تمام“ وهو دليل على الاشتباك الواضح الذى كان النحاة يجدونه بين شعر أبي تمام والنحو . وقد تكون الجملة واضحة المعنى : رغم تعدد عناصرها كقوله :

إِنْ جَدَّ رَدُّ الْخَطُوبِ تَدْمِي وَإِنْ يَلْعَبُ بِخَدِّ الْعَطَاءِ فِي لَعْبِهِ

وقد تغمض شيئاً كقوله :

إذا اليوم أمسى وهو غضبان لم يكن طويل مبالاة به حين يغضب

وقد يزداد غموضها ، لتعدد أجزائها ، واضطرار الشعر إياه إلى التفريق بينها . كقوله :

أهيس أليس لجاء إلى هم تفرق الأسد في آذيها الليسا

أى أن همه تفرق في موجاتها الأسد الليس . ففصل بين الصفة والموصوف فصلاً يوقع الفهم في شيء من الاضطراب . وهو كثير استعمال الإضافات كقوله :

له لواء ندى ما هنر عامله	إلا أراك لواء البخل منكوسا
مقابل في ذرى الأفلاك منصبه	عيصاً فعيصاً وقدموساً فقدموساً ^(١)
الواردين حياض الموت متأفة	ثباً ثباً وكراديسا كراديسا ^(٢)
والمائعين حياض المجد إن دهمت	منع الضراغم أجاما وعريساً ^(٣)

وهو لا يعبأ أن يتبع المضاف أو المضاف إليه بوصف ، فيزيد بذلك مقدار الكد الذهني الذي يلزم قارئه ، حتى يفهم قصده ، كقوله :

الشرق غرب حين تفهم قصده ومخالف اليمن القصي شام

ومن أهم ما يلاحظ عليه الإسراف في استعمال الصفات لما هو ركن في الجملة ، ولما هو فضلة . وهذه الصفات قد تكون مفردة ، وقد تكون جملة . وقد تنصب صفات متعددة على موصوف واحد كما في قوله :

أنا في ذمة الكريم سليما	ن السليم الهوى الشريف الهمام
نظت همي منه بهمة قريم	ثقلت وطاتي على الأيام
بحسام اللسان والرأي أمضى ،	حين ينضى ، من الجراز الحسام ^(٤)

والصفات عنده لا تقف عند حد الجملة البسيطة ، بل تتركب وتتعدد تعقد الأصل ، فتسمع مثل قوله :

في معرك أما الحمام ففيطر في هبوتيه والكجة صيام

والضرب يقعد كل قرم كتيبة شريس الضريبة والحتوف قيام

(١) هناك رواية أخرى : مقابل في ذرى الأذواء . والأذواء هم ملوك اليمن القدماء . والعيص : الأصل . والقدموس : الملك المعظم .
(٢) متأفة : مفعمة مملئة . ثباً ثباً : أى جماعات . (٣) الآجام : جمع أجمة . وهى المئنف من الشجر . والعريس : عرين الأسد . (٤) الجراز كغراب : الحسام القاطع .

فأما وما بعدها صفة "لمعرك" . ويقعد وما بعدها خبر "للضرب" . وقرم ، المفعول به ،
الفضلة في الجملة : مضاف إلى "كل" ، وهي بدورها مضافة إلى "كتيبة" ، وقرم ، موصوف
"بشرس" المضافة إلى "الضربية" ويلى أولئك جميعا الجملة الحالية . هذا الى ما في البيت من بديع .
يأتى بعد ذلك الفصل بين أجزاء الجملة المتلازمة ، فصلا لا اختيار فيه ؛ ذلك أنه يكثر استعمال
المتعلقات ، كما قدمت ، يجزء من الجملة واحد ، فيضطر إلى الفصل بين متعلق ومتعلقه ، بغيره . كقوله :

ووالله لا تقضى العيون الذى له عليها ، ولو صارت مع الدمع أدمعاً

ومنها :

ففى كلما أرتاد الشجاع من الردى مفراً غداة المأزق ، أرتاد مضرعاً
إذا ساء يوم فى الكريهة منظرا تصلاً ، علماً أن سيحسُن مسمعا

وفى البيت الأخير إقدام أبى تمام على ما يقل استعماله فى الكلام عادة ، فهو يستعمل التمييز مرتين
فى البيت الأخير ، ويستعمل المفعول لأجله : وهو "علماً" ، ثم ياحقه بمفعول به مصدر منسبك
من أن المخففة وما بعدها .

كل ذلك اشتجار بين المعانى فى ذهن أبى تمام ، يتقاضاه أن يبرزها جميعا فى عبارات تشود
تحت ثقلها . وتفريقها فى أبيات لا يتلاءم مع تكوين أبى تمام النفسى ، لا يتفق مع خلقه ،
وليس التفريق بينها ، بعد ذلك ، بالذى يعطى الصورة الصحيحة لذلك الاشتباك الفطرى فى نفسه ،
وما كان اللسان ليصور عند شاعر نفسه على غير صورتها .

وقد تمت لأبى تمام السيطرة على هذه الجملة فى الطور الأخير من أطوار شعره ، قهزبت
ولانت ، ولكنها لم تفارق تركيبها ، الذى هو مظهر تركيب نفسه الثابت الوطيد .

٤ - حكمة أبى تمام

قد يكون غريباً شيئاً عن الخصائص الفنية لشعر أبى تمام أن أتحدث فيها عن حكمته . ولكن
الحكمة عند أبى تمام ليست من نوع الفلسفة التى يمكن أن يبعدها الإنسان عن فن أبى تمام .

(١) فإن هذه الحكمة - وأكاد أتحرى تجنب تسميتها الفلسفة - ليست إلا تصرفات عقلية
فى المعانى التى يطرقها أبو تمام ، وتأتيه عن طريق تجاربه فى الحياة ، ونظراته إليها ، وتأملاته
فى تصاريحها . يأخذها فيصوغها شعراً ، ويكسوها من فنه ما يجعلها قريبة التناول ، رضية المأخذ ،
حسنة الوقع فى النفس .

(ب) وأوضح مظاهرها في شعره، تلك الأبيات الجارية مجرى الأمثال . ويمكنني أن أنقل منها هنا شيئاً، فالجمع بين اشتاتها يعطى عنها فكرة أوضح . فمن هذه قوله :

مالي أرى جلباً فعمماً ولست أرى سُوقاً، ومالي أرى سوقاً ولا جلباً !
أرض بها عُشْبٌ جَرَفٌ وليس بها ماءً، وأخرى بها ماء ولا عُشْبُ !
والحظُّ يُعطاه غير طالِبِه ويحرِّز الدرَّ غير مجتَلِبِه
وكقوله : وأى فتى ينقاد للحلم أمره
وكقوله : (يريد قلبه)

وكقوله : وأقلُّ الأشياءِ محصولَ نَفْعِ
وكقوله : ذاك الذي قَرِحَتْ بطونُ جُفُونِه
وكقوله : وإني رأيتُ الوشمَ من خُلُقِ الفتى
وكقوله : فقساً ليزدجروا ومن يك حازماً
وكقوله : وقد تألف العَيْنُ الدُّجى وهو قَيْدُهَا
وكقوله : ليس الصديقُ بمن يعيرك ظاهراً
وقوله : وليست فرحةُ الأوبابِ إلَّا
وقوله : فتى النكباتِ من يأوى إذا ما
وقوله : ومما كانتِ الحكماءُ قالت :
وقوله : فقلتُ الحزمَ إن حاولتَ يوماً
وقوله : وإذا أراد الله نشر فضيلةٍ
لولا اشتعال النارِ فيما جاورتِ
وقوله : ينال الفتى من عيشه وهو جاهلٌ
ولو كانتِ الأقسامُ تُجْرى على الجحَا
وكقوله : * رَبِّ حَزْمٍ فِي بَغْضَةِ المومِيقِ *
وقوله : * وترك الشكرِ أثْقَلَ للرقابِ *

* رَبِّ حَزْمٍ فِي بَغْضَةِ المومِيقِ *

* وترك الشكرِ أثْقَلَ للرقابِ *

وقوله :

* وكم من مُصِيبٍ قصده غيرُ قاصِدٍ *

وقوله :

* وسم الليالى فوق سم الاساود *

وقوله :

والماء زُرُقُ جِمامِهِ لِلأَوَّلِ

لى حَرَمَةٌ وَاثَتْ عَلَى سِجَالِكُم

وقوله :

يلوى بحظ الطائر الواقع

والطائرُ الطائرُ فى شأنِهِ

وقوله :

ما الحب إلا للحيب الأول

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى

وقد تطول هذه النظرات شيئاً كقولهِ :

رأى الحكماء الصبرَ ضربةً لازم

وهل من حكيم ضيَّع الصبرَ بعد ما

خلافاً ، ولا من عاملٍ غيرِ عالم

ولم يحمدا من عالمٍ غيرِ عاملٍ

وأفطع عجزٍ عندهم عجزُ حازم

رأوا طرقاتِ العجزِ عوجاً فظيعةً

وكأبياته التى سبق ذكرها فى خالد بن يزيد بن مزيد التى أولها :

رحمة مملوئهن من حسده

ممتلي الصدر والجوانح من

الأبيات

(ج) هذه هى حكمة أبى تمام . وهى شعر صحيح ، لقربه من القلب ، ولتعبيره عن مشاعر

تعتلج بنفوس الناس جميعاً ، وهم فى حاجة إلى الإبانة عنها فى مثل هذه الأبيات القصصار ، لتكون

أوجز وأليق للجريان بين الناس . وهى تتلاءم مع الروح العام لشعر أبى تمام ، الذى لا يخلو من فكرة

فى أى ناحية من نواحيه .

هـ - نظرة أبى تمام إلى فنهِ

(١) تلك هى الخصائص الفنية لشعر أبى تمام التى أستطعت أن أقع عليها . ولقد وجدته

يعرفها فى نفسه جميعاً ، فيشير إليها فى شعره ، لا يكاد يغفل عن إحداها ، إشارة المفكر ، شأنه فى كل

شعره ، حتى إن ما قاله فيها جدير بأن يكون نظرات ناقد فنّان ، لا يلقى القول جزافاً . فيقول فى وصف

فكرته ، الجارية أبداً فى شعره :

فكرٌ يحولُ مجالَ الروحِ فى البدنِ

شُرَّيسيرٌ به شعرٌ يهذبهُ

ويقول في وصف بديع شعره، ومحسناته، وأستعاراته، ووقع القصيدة في القلب كما يقع النور:

إذا ما شعر قوم كان ليلاً تبلّجتا كما أنشَقَّ النهارُ
وإن كانت قصائدُهم جُذوباً تلونتا كما أزدوجُ النهارُ

ويقول في وصف سيرة شعره، وجدة معانيه:

تلك القوافي قد أتيتك نزعاً تتجشّم التهجير والتغليسا
من كل شاردة تُغادر بعدها حظّ الرجال من القريض خسيسا
تلهو بعاجل حُسْنِها وتُعَدّها علّقاً لأعجاز الزمان نفيسا
وجديدة المعنى إذا معني التي تشقّ بها الأسماع كان لييسا

ويقول في وصف لفظه وبديعه:

مفصّلةً باللؤلؤ المتقّ لها من الشعر، إلا أنه اللؤلؤ الرطبُ

ويقول في وصف الغريب من ألفاظه، والوحشي، والبيت يبين أنه كان يقصده:

كانت لصيد الوحش منها حلاوة على قلبه ليست لصيد الأوابد

ويقول موضعاً ما كان يتبعه أحياناً في المدح من كذب أو صدق:

ومتى مدحت سواك كنت متى يضق عني له صدقُ المقالة أ كذب

ويقول في جِدّة قصائده، وقبولها للحياة على الأيام، وكيف كان يسهر في شعره الليل الطويل:

خذها أبنّة الفكر المهدّب في الدجى والليل أسودُ حالِكُ الجلباب
بِكراً نُورَتْ في الحياة وتتنّى في السليم وهي كثيرة الأسلاب
ويزيدها مرُّ الليالي جِدّةً وتقدمُ الأيام حسنَ شباب

ويقول رداً على دعوة من أدعى ذهاب القدماء بالشعر، وكان الجاحظ يتمثل بهما:

لا زلت من شكري في حُلّةٍ لا يسها ذو سلبٍ فاخر
يقول من تفرع أسماعه: كم ترك الأول للآخر

ويقول في ابتكاره لشعره:

منزّهة عن السرِق المورى مكرّمة عن المعنى المُعاد

ويقول في المزج فيها بين الغريب والأنيس :

إنسية وحشية كثُرَتْ بها حركاتُ أهلِ الأرضِ وهي سُكُونُ

✱ ✱

فكأنما هي في السماع جنادلٌ وكأنما هي في القلوب كواكبُ

ويقول في تعدد فنونه في القصيدة الواحدة :

الحمد والهزل في توشيع لحمتها والنبلُ والسُّخفُ والأشجانُ والطربُ

✱ ✱

(ب) وهي نظرات ناقد أكثر منها نظرات شاعر . ولقد جاءت كتب نقد الشعر ، بعد أبي تمام ،

فلم يمتص أحدها دون أن يتحدث عن هذه النواحي في نقد الشعر ، حديثاً قد يطول عن هذا وقد يقصر ، ولكنه لا يخرج عن حدوده ، ولا يبلغ جماله .

فإذا عقيبت على هذا بأن أبا تمام كان أوائل من وضع قواعد النقد الأدبي العربي وأصوله ،

لم أكن فيه مسرفاً ولا غالياً .

ولقد تحدث بعد هذا أبو الطيب في وصف شعره ، فكان في حديثه مقلداً لأبي تمام ، تقليده

أياه في كل ما كتبه . ولكن ليس له حلاوة قوله ، ولا تهذيب نظراته . وهو في قوله فأنحراً أكثر منه ناقداً .

٦ - منزلة أبي تمام في الأدب العربي

فرغت من الحديث عن فن أبي تمام . وهو فن مركب ، ليس بالبسيط ، ولا الساذج .

جميل عذب ، قد يعتريه في حالاته بعض الضعف الذي لا يسلم منه إنسان . ولسنا الآن ممن يتعصبون له ، أو يتعصبون عليه . فلا داعي لأن نجرده من أخطائه ، ولا داعي لأن ننسى في سبيل هذه الأخطاء حسناته .

ولست أعرف في العربية كلها شاعراً كأبي تمام : من حيث فيض شعره ، وخصبه النفسي ،

وغزارته . ولا أعرف شاعراً خرج بالشعر العربي من دائرته الضيقة ، وأجراه مجرى القصص ،

وتتبع فيه المعنى ، وراعى فيه اللفظ ، ووفق في أن يكسوفه بهذا الحس الشعري الرائع ، توفيق

أبي تمام .

ولقد تحدثت من قبل عن منزلة أبي تمام الشاعر من الأمة العربية ، وكيف يكون حلقة في تاريخها النفسى ، وصورة من تاريخها الاجتماعى ، لا يمكن أن يؤديها غيره ، ولا يمكن أن يغنى عنها التاريخ النفسى لهذه الأمة . ويمكننى هنا أن أقول إن الشعر العربى كففى لم يكتمل فى يد شاعر اكتماله فى يد أبى تمام .

ففيه نجد الفكرة ، والجمال اللفظى ، وجمال الصورة ، وحلاوة النفس ، والشاعرية الفياضة ، التى لم تنهيا لشاعر قبله ولا بعده .

ولقد بلغت الفكرة الشعرية فى يد أبى تمام أوجها . فلما بلغت المتنبي التبست عنده بالفلسفة ، ولم يكن حسه بالجمال يعدل حس أبى تمام به ، وكان أكثر شغلا بمظاهر القوة فى الوجود .

فأخذ معنى الشعر عنده ينحدر شيئا ، وتلك العاطفة الرقيقة العذبة — برغم قسوتها حيناً — تستحيل عنده إلى عاطفة ، خشنة شيئا ، صاخبة ، هى لون من ألوان صراع نفس معذبة مع الحياة الجبارة فى ذلك العصر الغريب .

فأبو تمام عندى شاعر العربية الأكبر ، لا أعدل به شاعرا آخر من شعرائها .

شاعر اللغة العربية - سوري ١١٩٠



كَمَل طبع كتاب "أبي تمام الطائي" بمطبعة دار الكتب المصرية
فى يوم الثلاثاء ٢٧ رمضان سنة ١٣٦٤ (٤ سبتمبر سنة ١٩٤٥) م

محمد نديم

ملاحظ المطبعة بدار الكتب

المصرية

— ليس له قيمة في —
تدريجاً دقيقاً القول لما نلاحظ في كثير من النسخة وكتبه بمشاورته
(مطبعة دار الكتب المصرية ١٧ / ١٩٤٤ / ٨٧٠)

كانت تحت كل حذاء كان يمشي كان يمشي قواعده التي يمشي بها المشاة في كل وقت

DATE DUE



JAFET LIB.

10 AUG 1988

البهيبي، نجيب محمد
أبو تمام الطائي: حياته وحياته شعره
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01034330

